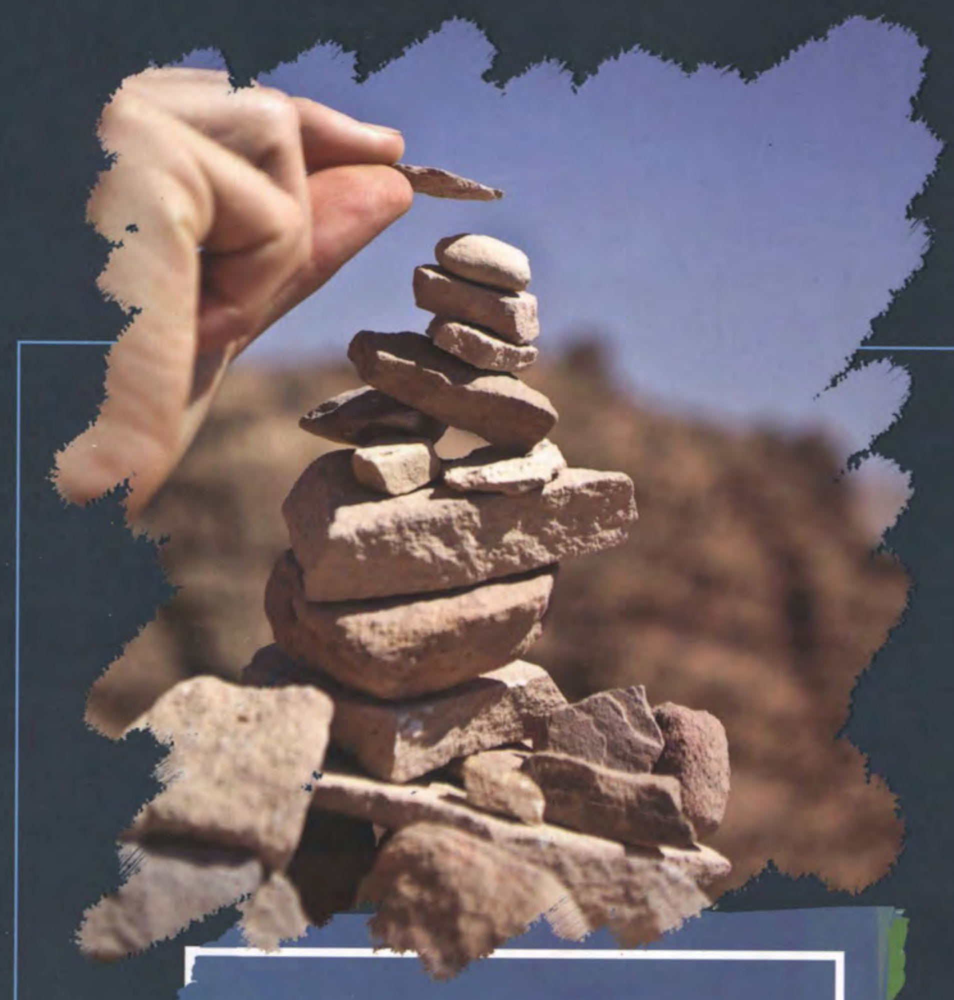


لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد

نورمان ل. جايسلر
فرانك تورك

لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد

I Don't Have Enough Faith to Be an Atheist

تأليف : نورمان ل. جايسلر ، فرانك تورك

ترجمة : ماريان كتكوت

تحرير : عصام خليل

الغلاف : سامر ناثان

الناشر : دار الإخوة للنشر

يُطلب من : مكتبة الإخوة ٣ش أنجه هانم - شبرا - مصر ت: ٢٥٧٩١٢٤٨

بريد الكتروني: BrethrenPub@gmail.com

www.brethrenbookshop.com/

وفروعها: مصرالجديدة : ٦٥ش نخلة المطيعي – تريومف ت: ٢٢٩٠٤٠٠٣

الإسكندرية : ٦ش الفسطاط - كليوباترا ت: ٥٤٦٥٣٦٦

المنيا : ٦ش الجيش ت: ٣٦٤٤٠٦

أسيوط : ٢١ش عبد الخالق ثروت ت: ٢٤٢٠٢٨

ومن المكتبات المسيحية الكبرى

طبع بمطبعة الإخوة بجزيرة بدران

Printed in Egypt

معلومات الفهرسة أثناء النشر

جايسلر، نورمان ل.

لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد/ نورمان ل. جايسلر، فرانك تورك

.- ط١.- القاهرة: دار الإخوة للنشر، ٢٠١٧

٤٨٠ ص؛ ٢٤ سم.

تدمك: ٨- ٣٠٠ - ٣٢١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١- الإيمان (المسيحية)

٢. الكتاب المقدس ٢٧٣,٤٢

أ. تورك، فرانك (مؤلف مشارك)

ب. العنوان

رقم الإيداع: ٢٠١٧/٢٤٧٣ التاريخ: ٢٠١٧/١/١٠

ISBN 978-977-321-300-8

This book was first published in the United States by Crossway Books, a division of Good News Publishers 1300 Crescent Street Wheaton, Illinois 60187 with the title **I Don't Have Enough Faith to Be an Atheist**, *copyright © 2004 Norman L. Geisler and Frank Turek. Translated by permission.*

"واضح، متكامل، شديد الإقناع والجاذبية. هذا المرجع الرائع يساعد كلاً من المسيحيين ومَن لا يزالون في رحلة البحث في فهم الأساس العقلاني للمسيحية. لو كان متاحًا عندما كنت ملحدًا، لوَفَّر الكثير من الوقت في مسيرتي الروحية نحو الله".

لي ستروبل *Lee Strobel*

مؤلف كتاب "القضية المسيح" *The Case for Christ* وكتاب "القضية الإيمان" *The Case for Faith*

"هذا الكتاب الشيق السلس يَسوق الحجج والأدلة المؤيِّدة للمسيحية ببراعة فائقة بدءًا بمسألة الحق وانتهاءً بوحي الكتاب المقدس. والخلاصة: المسيحي يقف على تلال من الأدلة الراسخة، بينما المتشكك لا يتشبث إلا بإيمانه الأعمى المتصلب. فإن ظللتَ متشككًا بعد قراءة كتاب "لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد"، فإني أشك أنك تعيش حالة من الإنكار".

جوش ماكدول *Josh McDowell*

متحدث ومؤلف كتاب "برهان جديد يتطلب قرارًا" *Evidence That Demands a Verdict*

"جَمَعَ "جايسلر" و"تورك" مجموعة ضخمة من الأسئلة الشائكة، وكدأبهما دائمًا، أجابا عنها بمهارة وبصيرة ثاقبة. إن هذا العمل يمثل إضافة قيِّمة للكتابات المعاصرة في الدفاعيات المسيحية".

رافي ك. زكراياس *Ravi K. Zacharias*

رئيس هيئة "خدمات رافي زكراياس الدولية" *Ravi Zacharias International Ministries*

"حقًا إن الإلحاد يتطلب كميات من الإيمان الأعمى، في حين أن طريق المنطق والعقل يقود مباشرةً إلى إنجيل يسوع المسيح. وهو ما يُبَيِّن أسبابَه كلٌّ من "نورمان جايسلر" و"فرانك تورك" على نحو شديد الإقناع".

فيليب إي. چونسون *Phillip E. Johnson*

مؤلف كتاب "محاكمة داروين" *Darwin on Trial*، وكتاب "العقل في الميزان" *Reason in the Balance*، وكتاب "وتد الحق" *The Wedge of Truth*

"كتاب "لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد" سيحثك ويشجّعك على مجاوبة كل من يسألك عن سبب الرجاء الذي فيك، ويُمَكِّنك أن تفعل ذلك بوداعة وخوف".

هانك هانجراف *Hank Hanegraaff*

رئيس معهد البحث المسيحي *The Christian Research Institute*، ومقدّم البرنامج الإذاعي "الكتاب المقدس يجيب أسئلة الإنسان" *Bible Answer Man*

مقدمة الطبعة العربية

ما يعتقده الإنسان عن الله يشكِّل كل حياته ويحدِّد نظرته لكل ما في العالم. فمنه يدرك من أين أتى وإلى أين يمضي، ومنه يكتسب معنى الحياة وهدفها وأسلوبها والمبادئ التي تحكمها. لذا لزم لكل عاقل أن يجيب على أسئلة من قبيل: هل الله موجود؟ كيف أعرفه وأصل إليه؟ ما الذي يرضيه؟ كيف يتعامل مع الإنسان؟ ...

ولزمن طويل، في ثقافتنا الشرق أوسطية، لم تكن الأغلبية تحتاج لأن تسأل السؤال الأول وما يشبهه. فقد كان وجود الله من المسلَّمات التي يبدأ التفكير بعدها في باقي الأسئلة. بل إن البعض كانت مسلَّماتهم تكفيهم عن البحث في موضوع "الله" بجملته. لكن الأحوال تبدَّلت لعوامل كثيرة في السنوات الأخيرة. وظهرت الحاجة المُلِحة للبحث في هذا الموضوع بأكثر تدقيق وإخلاص وأمانة، وبدءًا من السؤال الأول.

وكتابنا هذا **"لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد"** هو أحد الكتب الجادة المتميزة الشاملة السلسة في هذا المضمار. إنه كتاب "مستعد للمجاوبة" بلغة بطرس الأولى ٣: ١٥؛ وسيساعد القارئ أن يكون هو أيضا كذلك.

فكاتبا الكتاب، وهما من المختصين ولهما العديد من الكتب في هذا المجال، ينتهجان أسلوبًا علميًا منطقيًا في معالجة الأمر. بداية من إثبات أن هناك "حق" ينبغي البحث عنه، وما عكسه هو الضلال. ثم يصحبانا بسلاسة ووضوح ليستعرضا، الحجة تلو الأخرى، لإثبات "الحق" الخاص بوجود الله خالق الكون وحافظه. ويستعرض الكتاب النظريات البديلة لوجود خالق ويفنِّدها ببراعة، وبلغة يفهمها المختص وفي الوقت نفسه لا تستعصي على غير المختص. إنه يتحدى الذين نادوا بأزلية الكون، ثم يتحدّى التطوريين، بالعلم الموثَّق

وبالمنطق السليم. ويثبت أن الإيمان بالله، في صفِّه ما يكفي من أدلة لا تترك مكانًا للشك فيه، بينما الثغرات التي على الإلحاديين والتطوريين أن يواجهونها يعوزها الكثير من الإيمان الأعمى الذي لا يستند على دليل لقبولها. إنه يتركهم وقد علموا أنهم يحتاجون إيمانًا أكثر ليصدقوا ما يعتقدون فيه.

ثم يغوص الكاتبان صوب نظرة المسيحية عن الله، وقلب إيمانها. ليصل إلى من هو المسيح، كلمة الله المتجسد، وحُجّية الكتاب المقدس، كلمة الله المكتوبة. ويخلص إلى لزوم قبول الكلمة المتجسد مُخَلِّصًا، والخضوع للكلمة المكتوبة، الكلمة الحية.

وفي نهاية الكتاب مجموعة ملاحق موضوعية هامة. وللمهتمين بالاستزادة والراغبين في بحث أكثر تعمقًا، يوجد توثيق للمراجع التي استند إليها الكاتبان، وفهرس للموضوعات والأعلام الواردة بالكتاب، وأخيرًا فهرس بالشواهد الكتابية.

وقد أضفنا في الطبعة العربية العديد من الحواشي أسفل الصفحات لتوضيح بعض المعاني لاصطلاحات متخصصة أو غير شائعة في ثقافتنا لنضمن وصول المعنى كاملاً لكل من يقرأ هذا الكتاب.

ونحن نشكر الرب كثيرًا على توفيقه لنا لنقدِّم هذا الكتاب المتميِّز للقارئ باللغة العربية. كما نشكر كل من شارك بشكل أو آخر لإخراجه بالصورة التي بين يديك.

نتركك الآن مع هذا الكتاب الذي نثق أنه سيضيف إليك الكثير، وسيغيرِّ من نظرتك لأمور هامة.

الناشر

المحتويات

تقديم

بصفتي شخصًا أتى للمسيح بعد سنوات من الشك، فإني عاشق بوجه خاص للدفاعيات المسيحية، ومولع بها. والأدلة وفيرة على صدق الكتاب المقدس، وعلى سلطة الكتاب المقدس باعتباره كلمة الله الموحى بها، وعلى أن الكتاب المقدس يصوِّر ما يتناوله من أحداث تاريخية تصويرًا دقيقًا، بما في ذلك حياة يسوع المسيح على الأرض. ومن المؤكَّد أننا نملك البرهان القوي والمقنع على صحة المسيحية، وأن الله الثالوث الذي يعلن نفسه في صفحات الوحي هو إله الكون الواحد الوحيد، وأن المسيح مات عن خطايانا لكي يمنحنا الحياة.

والبرهان، بالطبع، ليس بديلاً للإيمان اللازم لخلاصنا ولشركتنا مع الله. وفي الوقت نفسه دراسة الدفاعيات لا تُقلل من قدر إيماننا، بل تُزيده قوةً، وتزوده بالمعرفة، وتدعمه، وتعيد له حيويته. ولو لم تكن كذلك، لَما قال الكتاب المقدس «مستعدين دائمًا لمجاوبة* كل من يسألكم عن سبب الرجاء الذي فيكم» (١بط٣: ١٥).

"**لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد**" هو أفضل كتاب رأيته لإعداد المؤمنين لتقديم أسباب منطقية لإيمانهم، وللمتشككين المنفتحين على الحق. وهو يُعَدّ أداة كرازية لا غنى عنها، ولا سيما في التعامل مع غير المؤمنين الذين يواجهون حواجز "فكرية" تعيقهم عن الإيمان. وكما نعلم، عادةً ما تمثِّل العوائق الفكرية مجرد ذريعة لغير المؤمنين، ولكنك عندما تُنْزَع مادة هذه الذريعة يجدون أنفسهم عرايا في مواجهة عوائقهم، أو شياطينهم، الحقيقية.

ولكني أؤمن بوجود سبب آخر مهم وراء الوصية الكتابية بأن نكون "مستعدين" للمجاوبة. فهي ليست لمساعدتنا في توصيل الإنجيل بفاعلية فحسب. ولكن الاستعداد

* الكلمة في اليونانية هي *apologia* وتعني وفقًا لقاموس *Thayer's Greek-English Lexicon of the New Testament*: دفاع شفهي، أو حجة منطقية. (المترجمة)

يزودنا أيضًا بالأدوات اللازمة لمقاومة الشكوك المُلِحَّة التي نواجهها في لحظات الضعف. فهو يقوّي إيماننا لأنه يحشد الأدلة على صحة المسيحية.

ومَنْ يَشكّ أننا بحاجة لمزيد من التسلح بالأدلة، سواء لمساعدتنا على الكرازة بشكل أفضل، أم لتقوية إيماننا؟ ألا يكفي الصراع مع تجارب الجسد حتى نواجه أيضًا مؤثرات سلبية خارجية بصفة يومية؟ وفي العصر الحديث تزداد هذه المؤثرات خبثًا وخطورةً، كما حذرنا الكتاب المقدس.

ففي الماضي كان على غير المؤمنين أن يقرروا ما إذا كانت المسيحية هي الديانة الوحيدة الصحيحة، أو ما إذا كانت هناك أي ديانة صحيحة من الأصل، أو ما إذا كان الله موجودًا. ولكنهم بوجه عام لم يضطروا أن يواجهوا مسألة ما إذا كان هناك شيء اسمه الحق أم لا.

ولكن ثقافة ما بعد الحداثة *postmodern* الحالية استهزأت بفكرة الحق أيمّا استهزاء. فهي تُعَلِّم بأن الحق والأخلاق أمور نسبية، حتى إنه ليس هناك ما يُطلق عليه الحق المطلق. ومن وجهة نظر النخبة المثقَّفة التي تسيطر على جامعاتنا وعلى التيار الإعلامي السائد، تُعتبر هذه الأفكار مستنيرة وتقدمية، رغم أننا جميعًا نفهم حدسيًا أن الحق المطلق موجود، بل إننا جميعًا ندير حياتنا طبقًا لذلك الإدراك.

وإن التقيت بأحد هؤلاء العباقرة الذين يملؤهم اليقين بأن الحق منتَج اجتماعي يحدِّده أصحاب السلطة حتى يظلوا في السلطة، اسأله إن كان يود اختبار نظريته بالقفز من أعلى مبنى في المنطقة. ويمكنك أيضًا أن تختبره في قانون عدم التناقض *Law of Noncontradiction*. اسأله إن كان يعتقد أن شيئين متناقضين يمكن أن يكونا صحيحين في آنٍ. وإن كان له من الخداع الفكري ما يمكِّنه أن يقول "نعم"، اسأله عن مدى يقينه بعدم وجود الحق المطلق: هل يقينه مطلق؟

نعم، الحقُّ من ضحايا ثقافتنا الرائجة. وعندما يمضي الحق، تتزعزع سلطة الإنجيل لأن الإنجيل يخبرنا بكل شيء عن "الحق". واليوم يمكننا أن نرى أدلة على ذلك في كل مكان. فالأفكار الحديثة من "قبول الاختلاف *tolerance*" و"التعددية *pluralism*" تمثِّل نتيجة مباشرة لهجوم الثقافة على الحق.

والعلمانيون الليبراليون يصرون على أن قبول الاختلاف هو الفضيلة العليا. إلا أنهم لا يخبرونك بما يقصدون بمفهوم "قبول الاختلاف". ففي نظرهم، قبول الاختلاف لا يقتصر فقط

على معاملة مَن يعتنقون أفكارًا مختلفة باحترام ورقي. ولكنه يعني تأكيد أفكارهم بوصفها أفكارًا منطقية مقبولة، وهو ما لا يمكن للمسيحي فعله إلا إذا رفض معتقداته. فإن قَبِلتَ مثلاً مَنْعَ الكتاب المقدس لسلوك المثلية الجنسية باعتباره خطية، لا يمكنك أن تؤكد في الوقت نفسه أن ذلك السلوك ليس خطية.

ولكن العلماني في عصر ما بعد الحداثة ليس مضطرًا لمواجهة هذه الأسئلة؛ لأنه يرفض فكرة الحق المطلق وقانون عدم التناقض. ولكن كل ما يستطيع أن يفعله أن يستمر في طريقه منتشيًا وهو يضفي مسحة أخلاقية أمام الجميع على مفهوم قبول الاختلاف، دون أن يضطر إطلاقًا أن يشرح التناقضات الأصيلة الكامنة في آرائه.

إلا أن الغش الذي يمارسه باعة قبول الاختلاف ينكشف عندما ترى أنهم لا يعيشون ما يعظون به، على الأقل مع أولئك المسيحيين المزعجين المعاندين. فهم يرفضون مطلقًا أن "يقبلوا" الفرضية المسيحية القائلة بأن يسوع المسيح هو الطريق، والحق، والحياة. وذلك لأن اعترافهم بها يفند حتمًا مفهومهم عن قبول الاختلاف الذي يقضي بأن كل الأفكار على نفس المستوى من الامتياز. ولكنهم عندما يتعاملون مع المسيحيين يختلقون استثناء لإصرارهم على قبول الاختلاف على نحو شامل، بقدرتهم اللامتناهية على الخروج من المواقف الصعبة.

فهم يرون أن مزاعم المسيحية بأن الحق ينحصر فيها تتجاوز حدود المقبول، فهي مزاعم في غاية السوء حتى إنها تُجَرِّد المسيحيين من حقهم في نيل قبول الآخرين لهم. فمثلاً أحد المسؤولين العلمانيين في إحدى الجامعات اتخذ إجراءً تأديبيًا ضد أستاذة محافِظة لأنها عرَّضت طلابها لنصوصٍ ذات وجهة نظر مسيحية، وكان منها مقال عن الكيفية التي يجب أن يتعامل بها المدرسون مع المثلية الجنسية. وقال المسؤول: "لا يمكننا أن نقبل أو نحتمل ما لا يمكن احتماله". ويمكننا الآن أن نرى كيف يسهل على هذه النوعيات أن تَنْسَلّ من المواقف التي تجد نفسها فيها بلا دفاعات. فكل ما يفعلونه أنهم يحركون عارضتي المرمى. والغريب أنهم يقولون إن الحق أمر يحدِّده أصحاب السلطة!

ولكن اعتقاد المسيحي بأن ديانته هي الديانة الوحيدة الحَقّة لا تمنعه من قبول الآخر أو احترام حقه في أن يؤمن ويعبد كيفما يشاء. إلا أن ثقافتنا الحديثة تخلط خلطًا خطيرًا بين هذه المفاهيم المتمايزة، وتستغل ثقة المسيحيين في منظومتهم العقائدية لتُصَوِّرهم على أنهم

لا يقبلون الآخرين ذوي المنظومات العقائدية المختلفة. ويا له من خلط معيب عارٍ من الصحة. وإحقاقـًا للحق، ليست المسيحية هي الديانة الوحيدة التي تزعم أنها تعرف الحق حصريًا. بل إن كل الديانات الرئيسية تحوي نفس المزاعم. فالكثير من الأفكار المحورية في الديانات الرئيسية لا يمكن أن تتعايش مع غيرها من الأفكار، وهو ما يُظهر كذب مبدأ التعددية الذي يحظى بشعبية واسعة زاعمًا أن جوهر كل الأديان واحد.

وغالبًا ما نسمع أو نقرأ أن جميع البشر أينما كانوا يعبدون الإله نفسه بلغات وثقافات مختلفة. وواضح أن هذه الفكرة، مع كامل احترامي لها، فكرة عبثية. فالإسلام مثلاً يُعَلـِّم أن المسيح مجرد نبي، وأنه ليس الله. وكما أشار سي. إس. لويس *C. S. Lewis* إنه لو لم يكن المسيح هو الله، فلا يمكن أن يكون نبيًا فريدًا أو معلمًا أخلاقيًا عظيمًا، لأنه ادَّعى أنه الله. فإن لم يكن فعلاً كذلك، إذَن إما أنه كاذب أو مجنون، ولا يمكن أن يكون معلمًا أخلاقيًا عظيمًا أو نبيًا.

ومن الأمثلة الأخرى الواضحة التي يستحيل مطلقـًا أن تتوافق مع المسيحية هي مزاعم الديانات الشرقية بأن الله في كل شيء، وأنه ليس هناك أي فاصل بين الخالق والخليقة. والأمثلة لا تنتهي، ولكن الفكرة التي أودّ إيضاحها إنه رغم اشتراك الديانات المختلفة في بعض القيم، فالكثير من معتقداتها الجوهرية يستحيل التوفيق بينها. إلا أنه يبدو أن التظاهر بأن كل الديانات واحدة في جوهرها يدغدغ مشاعر الناس، ولكنه مفهوم خاطئ خطًا بيّنـًا.

إلا أن الكياسة الاجتماعية* *political correctness* في ثقافتنا هي التي غالبًا ما تنتصر. بل إن حتى الكثير من كنائسنا تلوثت بهذه الأفكار المنحرفة المتعلقة بقبول الاختلاف والتعددية. وبذلك تهاونت في لاهوتها، وحطَّت من قَدرِ سلطة الكتاب المقدس لصالح أفكار المجتمع "التطورية" بخصوص الأخلاق. وبذلك أصبحت نسخة واحدة من المسيحية تقبل الاختلاف وتحب الجميع وهي تلك التي تعظ بأن كل الأديان واحد. أما المسيحية التقليدية المؤسَّسة على الكتاب المقدس فهي إقصائية، لا تقبل الاختلاف، ولا تحب، ولا تكترث بالآخرين.

ولكن أين هو الحب إن كنا نتواطأ على تدمير الحق نفسه، وبتر الإنجيل؟ وأين الاكتراث بالآخرين إن كنا نبعدهم عن طريق الحياة؟ وبصفتك مسيحيًا، كيف يمكنك أن تفسّر القرار الذي اتخذه المسيح طوعًا بإخضاع نفسه لصور الاتضاع والمهانة في هيئته البشرية، وما

* وفقـًا لقاموس أكسفورد هي الإفراط في تجنب التعبيرات والأفعال التي تـُرى على أنها تـُقصي، أو تهمش، أو تهين الآخر، وبصفة خاصة الأقليات أو الفئات المحرومة أو المهمشة اجتماعيًا. (المترجمة)

عاناه من انفصال عن الله، وقبولَه جسديًا لغضبِ الله الحقيقي كاملاً على كل خطايا الجنس البشري في الماضي والحاضر والمستقبل، واختبارَه لعذاب الصليب وموتِه الذي لا يوصف؛ إن كانت كل الطرق الأخرى التي تسعى نحو الله تماثل بعضها بعضًا؟ يا لها من إهانة لا تُقاس لعمل المسيح الكامل على الصليب! ويا له من عصيان مُتعَمَّد لوصية المسيح بنشر الإنجيل في أطراف الأرض! لأنه إن كانت كل الديانات متماثلة، نجعل المسيح كاذبًا ونجعل مأموريته العظمى هزلاً فارغًا لأننا أزلنا كل حافز للكرازة.

وهو ما لا يعني أن ينتهج المسيحي نهجًا مهينًا تحقيريًا في الكرازة. بل من المؤكد أنه يجب علينا أن نحترم مبدأ أن جميع البشر سواسية في نظرِ الله ومن حقّهم التمتع بنفس القدر من الحماية القانونية، والمعاملة التي تتسم بالعدل واللطف والاحترام. ولكن ليس هناك أمر أخلاقي يلزمنا بتبني الفكرة القائلة بأن كل المنظومات العقائدية متساوية في الصحة. بل هناك أمر أخلاقي بألا نتبنى هذه الفكرة.

والنص الكتابي الذي استشهدنا به أعلاه على ضرورة الاستعداد لتقديم أسباب منطقية لإيماننا يتبعه مباشرة تحذير بأننا يجب أن نفعل ذلك «بِوَدَاعَةٍ وَخَوْفٍ*، وَلَكُمْ ضَمِيرٌ صَالِحٌ، لِكَيْ يَكُونَ الَّذِينَ يَشْتِمُونَ سِيرَتَكُمُ الصَّالِحَةَ فِي الْمَسِيحِ يُخْزَوْنَ فِي مَا يَفْتَرُونَ عَلَيْكُمْ كَفَاعِلِي شَرٍّ» (١بط٣: ١٥، ١٦).

ويجب أن ننتبه كذلك للجملة التالية: «لأَنَّ تَأَلُّمَكُمْ إِنْ شَاءَتْ مَشِيئَةُ اللهِ وَأَنْتُمْ صَانِعُونَ خَيْرًا، أَفْضَلُ مِنْهُ وَأَنْتُمْ صَانِعُونَ شَرًّا. فَإِنَّ الْمَسِيحَ أَيْضًا تَأَلَّمَ مَرَّةً وَاحِدَةً مِنْ أَجْلِ الْخَطَايَا، الْبَارُّ مِنْ أَجْلِ الأَثَمَةِ، لِكَيْ يُقَرِّبَنَا إِلَى اللهِ» (ع ١٧، ١٨). لذا، علينا أن نكرز بالحق، حتى وإن كان يُنَفِّر الناس منا، حتى وإن كان يتسبب في اتهامنا برفض الاختلاف أو عدم الاكتراث بالآخرين، حتى وإن كان يَجُرّ علينا المعاناة والاضطهاد. نعم، يجب علينا أن نكرز بوداعة وخوف، ولكن أهم شيء أن نكرز. فلا يجب أن نسمح لشرطة "قبول الاختلاف" بتكميم أفواهنا.

كثيرًا ما أتعامل مع أشخاص إما لا يؤمنون بالمسيحية أو يؤمنون بها ولكنهم يواجهون صعوبة بالغة في قبول أجزاء من الكتاب المقدس أو عناصر في التعليم المسيحي. ولكني لست خبيرًا في اللاهوت. فماذا أقول لهؤلاء الأشخاص إذَن؟ بصرف النظر عن مطالبتهم بتلك

* تأتي في بعض الترجمات الإنجليزية (مثل *AMP*، *ESV*، *NIV*) *gentleness and respect* أي "لطف واحترام". (المترجمة)

المهمة المخيفة من قراءة الكتاب المقدس من أوله لآخره، كيف أساعدهم على اكتشاف الحقائق التي اكتشفتها في مرحلة متأخرة؟

هناك العديد من الكتب الرائعة التي يمكن أن تفيدهم في هذا المجال، ولكن لكل منها عيوبه. فهي إما أكاديمية صرف، أو ناقصة، أو شديدة الصعوبة. ولجمع كل المادة اللازمة، عادة ما أقترح أكثر من كتاب، مما يقلِّل كثيرًا من احتمال قراءة أي منها.

ومن وقت ليس ببعيد، سألني صديق عن كتب في الدفاعيات يشارك بها شقيقه غير المؤمن. وقد عرفت أنه قد لا تكون عندنا إلا فرصة واحدة في المستقبل القريب لإقناعه بالقراءة، لذا كان عليَّ أن أقترح الكتاب الأمثل. والحقيقة أني أرجأت القرار لأني لم أتمكن من الاختيار بين ثلاثة أو أربعة من كتبي المفضلة، لأني أرى أنه ليس فيها واحد كافيًا في ذاته.

وإذ كنت على وشك أن أستسلم وأقترح عدة كتب بدلاً من كتاب واحد، تلقيت رسالة من "فرانك تورِك" *Frank Turek* يطلب فيها أن أكتب تعليقًا نقديًا على كتاب "لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد". وبعد أن قرأت بضعة الفصول الأولى، رأيت أن إرسال الكتاب لي كان من أعمال العناية الإلهية.

وأخيرًا عثرت على كتاب واحد يغطي الموضوع بالكامل بمنتهى السلاسة. وبعد أن قرأته أخبرت "فرانك" بأن هذا هو الكتاب الذي طالما انتظرته كأداة إنجيلية كتابية تشرح الأفكار وتكشف الحق على نحو يتجاوز قدراتي وخبراتي بامتياز. وفور طباعة هذا الكتاب سيتوافر لديَّ مرجع واحد يمكنني اقتراحه على الملحدين، أو المتشككين، أو المسيحيين الذين يحتاجون أدلة تقوي إيمانهم. بل إني أعرف بالفعل عشرة أشخاص سأعطيهم هذا الكتاب. إنه حقًا عطية مفيدة من الله تستحق أن نشكره عليها.

أما "فرانك تورِك" الذي عرَفْتُه رجلاً متميزًا، وأكاديميًا مسيحيًا، فقد اشترك في تأليف هذا الكتاب مع أحد عمالقة الدفاعيات المسيحية، الدكتور "نورمان جايسلر" *Norman Geisler*. وإني أمتلك عددًا من أعمال الدكتور "جايسلر" الأخرى، ومنها كتاب "الدفاعيات المسيحية" *Christian Apologetics*، وكتاب "عندما يسأل النقاد" *When Critics Ask*، وكتاب "عندما يسأل المتشككون" *When Skeptics Ask*. وقد بدَأَتْ معرفتي بالدكتور "جايسلر" عن طريق صديقي وجاري سابقًا الدكتور "ستيف جونسون" *Steve Johnson*، خريج "كلية لاهوت دالاس" *Dallas Theological Seminary*، وأحد مرشديَّ الروحيين. فقد أعارني "ستيف" (لا أذكر إن

كنت قد أرجعته له!) شريط فيديو يشرح فيه الدكتور "جايسلر" حقائق المسيحية بأسلوب شيق وجذاب للغاية. وعندئذٍ فكَّرت أن أشتري عددًا من كتبه المذهلة في الدفاعيات وأقرأها.

وإني أنصح بكل كتب الدكتور "جايسلر" وبأي كتاب له. ولكن كتاب "لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد" هو العمل الذي جمع فيه الدكتور كافة جوانب الموضوع لمن لا يرغب أن يخوض في عدد من الكتب. ولا بد أن أقول إن العنوان جذبني بشكل خاص، لأني شخصيًا أؤمن منذ فترة طويلة أن الإلحاد يتطلب قدرًا أكبر من الإيمان. فلا شك أن مقدار الإيمان الذي تحتاجه لكي تؤمن أن البشر تطوروا من التفاعل العشوائي بين الجزيئات (التي أتت للوجود على نحو ما من تلقاء نفسها) يفوق ما تحتاجه من إيمان لتعتقد في وجود خالق.

وقد أعجِبْتُ بهذا الكتاب أيضًا لأنه قبل أن يتناول قضية حق المسيحية، يتناول قضية الحق نفسه، ويُثْبِت وجود حق مطلق بوجه عام. فهو يهدم حماقات النسبية الأخلاقية وما بعد الحداثة، ثم يتقدم بشكل نظامي نحو حقائق المسيحية التي لا يمكن إنكارها. إنه كتاب كان لا بد أن يُكتَب، والأهم أنه لا بد أن يُنشَر. لذلك سأتوقف الآن عن الإعجاب لكي أطلق الكتاب إلى المطبعة. فكم من نفوس جائعة تتلهف على الحقائق المُفَصَّلة بمنتهى البراعة في هذا العمل.

"ديـفيد ليمبوه" *David Limbaugh*

تمهيد

ما مقدار الإيمان الذي تحتاجه لتصدِّق هذا الكتاب؟

يرى المتشككون دينيًا أنه لا يمكن الثقة في أن كتابًا مثل هذا يقدم معلومات موضوعية؛ لأن هذه النوعية من الكتب يؤلـِّفها أشخاص متدينون لهم دوافعهم. وفي الواقع، هذه هي نظرة المتشككين للكتاب المقدس، فهم يرونه كتابًا متحيزًا مكتوب بأيدي أناس متحيزين. وقد يكون تقييمهم هذا صحيحًا بخصوص بعض الكتب التي تتناول الدين، ولكنه لا ينطبق على كل الكتب. لأنه لو صَحَّ، لا يمكنك الوثوق في أي شيء تقرؤه عن الدين، بما في ذلك ما يكتبه الملحدون أو المتشككون لأن لكل كاتب وجهة نظره في الدين.

فماذا يعني هذا لك أيها القارئ؟ هل يجب ألا تـُصَدِّق ما يكتبه الملحد عن المسيحية لمجرد أنه ملحد؟ ليس بالضرورة، لأنه ربما يقول الحقيقة. وهل يجب ألا تـُصَدِّق ما يكتبه المسيحي عن الإلحاد لمجرد أنه مسيحي؟ ليس بالضرورة، لأنه ربما يقول الحقيقة أيضًا.

ولكن ماذا عن دوافع المؤلـِّف؟ هل الدوافع تـُفسد الموضوعية إفسادًا تامًا؟ إن كان كذلك، فكل الكتب تفتقر للموضوعية، بما في ذلك كتب الملحدين والمتشككين. لماذا؟ لأن كل الكتب تـُكتَب لغرض، كل المؤلـِّفين لديهم دافع، وكل (أو على الأقل معظم) المؤلـِّفين يؤمنون بما يكتبون! إلا أن هذا لا يعني أن ما يكتبونه خطأ أو مجرد من الموضوعية. فرغم أن المؤلـِّفين ليسوا حياديين بشأن موضوعاتهم (بل مدفوعين باهتماماتهم الشخصية)، فهم قادرون على تقديم موضوعاتهم بموضوعية.

فمثلاً، مؤكد أن الذين نجوا من الهولوكوست وكتبوا خبراتهم لم يكونوا متفرجين محايدين. ولكنهم كانوا يؤمنون من كل قلوبهم أن النازيين مخطئون، وكان دافعهم وراء تسجيل خبراتهم هو أن يطبعوا الهولوكوست في ذاكرة العالم، على أمل ألا يفكر العالم أبدًا في تكراره. فهل تَسَبَّب ولعُهم بالموضوع أو دافعهم في ليٍّ الحقائق؟ ليس بالضرورة. بل الواقع أن ولعَهم ربما أنتج أثرًا عكسيًا. فبينما يدفع الولع بعض الناس للمبالغة، قد يدفع الآخرين لمزيد من الحرص والدقة بحيث لا يَضُرّون بمصداقية الرسالة التي يرجون توصيلها.

وكما سترى، نحن نعتقد أن كَتَبَة الكتاب المقدس سلكوا هذا الدرب من الحرص والدقة. وهو أيضًا الدرب الذي نحاول أن نسلكه في هذا الكتاب. (وبعد أن تنتهي من القراءة، نتمنى أن تخبرنا إن كنت ترى أننا انتهجنا ذلك الدرب بالفعل).

والآن إن كنت من المتشككين، نرجو أن تضع في اعتبارك أنه يجب أن تُصَدِّق ما نقول أو لا تُصَدِّقه بناءً على ما نقدم من أدلة، لا بناءً على ما نؤمن به من معتقدات دينية. كلانا مسيحي، ولكننا لم نكن مسيحيِّين طيلة حياتنا. إلا أننا آمنا بسبب الأدلة. لذلك، **كوننا** مسيحيِّين ليس هو القضية، بل المهم **لماذا** نحن مسيحيِّين. وهذا هو ما يركز عليه هذا الكتاب.

"نورمان جايسلر" *Norman Geisler*

و"فرانك تورك" *Frank Ture*

يناير/كانون الثاني ٢٠٠٤

كلمة شكر

كان لبعض الأشخاص الرائعين من الإيمان ما مكّنهم مِنْ إدراك القيمة الحقيقية لهذا الكتاب والمثابرة حتى انتهينا من كتابته. وعلى رأس هذه القائمة زوجتانا، "باربرا جايسلر" *Barbara Geisler*، و"ستفاني تورك" *Stephanie Turek*. فلولا محبتهما ودعمهما لَـمَا خرج هذا الكتاب للنور.

وقد رَاجَعَ عدد من الأكاديميين والأصدقاء أجزاء من النص وقدموا الكثير من الاقتراحات المفيدة. ومنهم "وين فرير" *Wayne Frair* الذي ضَحَّى بعدة ساعات لإبداء الرأي في الفصلين اللذين يتناولان التطور. وقد فعل الشيء نفسه "فرِد هيرن" *Fred Heeren* في الفصل الذي يتناول الانفجار الكبير. أما "ج. بودچيشفسكي" *J. Budziszewski* فقد قَدَّم أفكارًا قيِّمة بخصوص فصل القانون الأخلاقي (وليس من يفهم ذلك الموضوع أفضل منه). وساهم "باري لِڤنثال" *Barry Leventhal* بذكرياته الشخصية وخبرته في الفصل الذي يتناول خبرة تحوله للإيمان والنبوات المسيانية. وقد ساهم أيضًا باقتراحات مهمة "بيل دمبسكي" *Bill Dembski*، "مارك پوستاڤر" *Mark Pustaver*، "ستفاني تورك"، "راندي" *Randy* و"لوسي هوف" *Luci Hough*. والمسؤولية الكاملة والنهائية لمحتويات هذا الكتاب تقع بالطبع على عاتقنا.

ونود أن نشكر "وِس يودر" *Wes Yoder* من "مكتب المتحدث السفير" *Ambassador Speaker Bureau* على تشجيعه وتعريفنا على "مارڤن پـادچت" *Marvin Padgett* من دار نشر "كروسواي" *Crossway Books* الذي كان عنده الإيمان الكافي لقبول هذا المشروع والإبقاء على عنوانه الغريب. ونشكر كذلك "بيل دكارد" *Bill Deckard* من "كروسواي" على مهارته في تحرير الكتاب.

وأخيرًا نتوجه بالشكر إلى "ديـڤـيد ليمبوه" *David Limbaugh* الذي لم يكتب التقديم فحسب، ولكنه فعل ذلك بحماسة كبيرة وفكر ثاقب. وإن غيرته للمسيح ورغبته في الدفاع عن الإيمان مصدرُ إلهام لنا. ونأمل أن يساهم هذا الكتاب ولو بقدر ضئيل في إنتاج مزيد من المسيحيين الذين يتمتعون بهذه الحماسة والغيرة.

المقدمة

العثور على الصورة الكاملة للغز الحياة

"مَن يزعم أنه يشك في مجموعة معينة من المعتقدات هو في الواقع مؤمن حقيقي بمجموعة أخرى من المعتقدات".

فيليب إي. جونسون *Phillip E. Johnson*

حَذَّرَ أستاذ الأديان طلابه المترقّبين تحذيرًا صريحًا منذ أول يوم في الفصل الدراسي: "مِنْ فضلكم، اتركوا معتقداتكم الدينية في البيت. فعندما نتناول العهد القديم، قد أُبدي بعض الملاحظات المخالفة تمامًا لما تعلمتموه في مدرسة الأحد. ولست أقصد من ذلك إهانة أحد، ولكني أقصد أنْ أجري تحليلاً موضوعيًا للنص قدر المستطاع".

أعجبني الكلام. فعلى أي حال، أنا (فرانك) سجَّلتُ في تلك المادة لأني كنت في رحلة بحث روحي. ولم أُرِد أن أسمع كلامًا دينيًا. كل ما أردته أن أعرف إن كان الله موجودًا أم لا. وهل من مكان للحصول على فِكْر موضوعي عن الله والكتاب المقدس أفضل من معهد علماني مثل "جامعة روتشستر" University of Rochester؟ هكذا كنت أفكر.

ومن البداية اتخذ الأستاذ نظرة تشككية جدًا للعهد القديم. وعلى الفور أكَّد نظرية أن موسى ليس هو كاتب أول خمسة أسفار في الكتاب المقدس، وأن الكثير من نصوص الكتاب التي يُفترض أنها نبوية كُتِبَت بعد وقوع الأحداث. وقد رجَّح أيضًا أن اليهود كانوا في الأصل يؤمنون بالكثير من الآلهة (الإيمان بتعدد الآلهة)، ولكنَّ إلهًا واحدًا فاز بالمنافسة؛ لأن آخِر محرري

العهد القديم كانوا "موَّحدين متعصبين دينيًا".

معظم الطلاب لم يجدوا غضاضة في تحليله، عدا شابًا واحدًا كان يجلس أمامي بعدة صفوف. وبمرور الفصل الدراسي، اتضح أن ذلك الطالب يزداد غضبًا تجاه نظريات الأستاذ التشكيكية. وذات يوم، عندما بدأ الأستاذ ينقد نصوصًا من إشعياء، لم يستطع الطالب أن يتمالك نفسه.

وانفجر قائلاً: ليس صحيحًا. هذه كلمةُ الله.

فهمستُ بصوت خفيض للطالب الجالس بجواري: ذلك الشاب متدين أكثر من اللازم.

فذكَّر الأستاذ الجميع: اسمعوا. لقد أخبرتكم جميعًا من البداية أنكم يجب أن تتركوا معتقداتكم الدينية في البيت. وإلا لن نكون موضوعيين.

فوقف الطالب ورَدّ: ولكنك لست موضوعيًا. إنك مفرط التشكك.

بدأ بعض الطلاب يقاطعونه ويصيحون فيه.

"دع الأستاذ يُدَرِّس".

"اجلس".

"لسنا في مدرسة الأحد".

وحاول الأستاذ تهدئة الموقف، ولكن الطالب انطلق غاضبًا من قاعة المحاضرات ولم يعُد أبدًا.

ورغم أني شعرت بشيء من التعاطف مع الطالب، وأدركت أن الأستاذ متحيزٌ شخصيًا ضد الدين، أردت أن أسمع منه المزيد عن العهد القديم، وخاصةً عنِ الله. وعند نهاية الفصل الدراسي، كنت مقتنعًا نوعًا ما أن الأستاذ على صواب، فالعهد القديم لا يجب أن يؤخذ كما يبدو في ظاهره. إلا أنني لم أحصل بعد على إجابة لسؤالي الأساسي: هلِ الله موجود؟ فحتى نهاية المحاضرة الأخيرة لم أكن قد حصلت على إجابة شافية، وهذه المسألة الصعبة لم تُحسَم. فتوجهتُ إلى الأستاذ الذي تَحَلَّق الطلاب حوله يسألونه أسئلتهم الأخيرة.

وانتظرت حتى انصرف الجميع تقريبًا، وقلت: أستاذ. شكرًا على المادة. أظن أني تعلمت منظورًا جديدًا. ولكن لا يزال عندي سؤال جوهري.

فأجاب: بكل سرور. تفضل.

- دخلتُ هذه المادة لأكتشف ما إذا كان الله موجودًا حقًا أم لا. فهل...؟

ودون أن يتردد لحظة واحدة انطلق قائلاً: لا أعرف.

- لا تعرف؟!

- بلى. ليس لدي أدنى فكرة.

صُدِمتُ. وتمنيت لو أمكنني أن أوبخه قائلاً: "لحظة من فضلك. أنت تُعَلِّم بأن العهد القديم خاطئ، وأنت لا تَعْلَم إن كان الله موجودًا أم لا؟ العهد القديم يمكن أن يكون صحيحًا إن كان الله موجودًا بالفعل". ولكن بما أننا لم نكن قد أخذنا التقديرات النهائية للمادة، تراجعتُ، واكتفيت بمغادرة القاعة محبَطًا من الفصل الدراسي بأكمله. كنتُ سأحترم الإجابة بكلمة "نعم" أو "لا" مصحوبة ببعض الأسباب، ولكني لم أقبل "لا أعرف". كان يمكنني أن أحصل على تلك الإجابة من شخص في الشارع قليل المعرفة. ولكني كنت أتوقع أكثر من ذلك بكثير من أستاذ دين جامعي.

إلا أني عرفت فيما بعد أن توقعاتي كانت أعلى كثيرًا من حدود الجامعة الحديثة. إن مصطلح "جامعة" "*university*" هو في الواقع مُركَّب من كلمة "*unity*" (وَحدة)، وكلمة "*diversity*" (تنوع). فعندما يذهب المرء إلى الجامعة، يُفترَض أن يجد من يرشده في مسعاه للعثور على الوحدة في التنوع، أي كيف أن كافة مجالات المعرفة المتنوعة (الفنون، والفلسفة، والعلوم الطبيعية، والرياضيات... إلخ) تتوافق معًا لتُكَوِّن صورة موحَّدة للحياة. مؤكد أنها مهمة شاقة، ولكن الجامعة الحديثة لم تهجرها فحسب بل فعلت عكسها. فبدلاً من أن يكون عندنا *universities*[*] أصبح عندنا *pluraversities*[†]، مؤسسات تعتبر كل وجهة نظر، مهما كانت تفاهتها، تتمتع بنفس القدر من القبول والمعقولية مثل غيرها من الأفكار، ما عدا الفكرة القائلة بأنه لا يمكن أن توجد إلا ديانة واحدة صحيحة أو منظور *worldview* واحد صحيح للحياة. فهذه هي وجهة النظر الوحيدة التي تعتبرها معظم الجامعات فكرة متعنتة لا تقبل الاختلاف.

ورغم الإنكار الذي ينساب من جامعاتنا، فإننا نؤمن بوجود طريقة لاكتشاف الوَحدة في التنوع. وإن تَمَكَّن المرء من اكتشاف هذه الوَحدة، سيكون كمن يرى الصورة الكاملة المبينة على سطح علبة لغز الصور المُقَطَّعة *puzzle*. فكما أنه من الصعب تجميع القطع المكَوِّنة للُغز دون الرجوع للصورة الموضحة على سطح العلبة، هكذا يصعب إيجاد معنى في قطع

---

[*] -*Uni* بادئة تدخل على بعض الكلمات الإنجليزية وتعني واحد، أو مكون من واحد. (المترجمة)

[†] *Plural* تعني جمع، أو مكون من أكثر من واحد. (المترجمة)

الحياة الكثيرة المتنوعة دون صورة كاملة توحد هذه القطع. والسؤال: هل هناك مَنْ يملك سطح علبة هذا اللغز الذي نسميه الحياة؟ تزعم الكثير من ديانات العالم أنها تملك سطح العلبة. فهل أي منها على صواب؟



الشكل ١-١

الدين وسطح العلبة

أديان العالم تمثِّل غالبًا محاولات لتقديم سطح العلبة الذي يسمح لك أن ترى كيف أن القطع الكثيرة التي يتألف منها لغز الحياة تشكِّل صورة كاملة متناسقة. وعادةً ما تبدأ هذه الصورة بزعمٍ ما عنِ الله، وهي بداية منطقية. فما يؤمن به المرء عنِ الله يؤثِّر في سائر معتقداته الأُخرى كافة. وعندما سُئل "مورتيمر آدلر" *Mortimer Adler* عن السر وراء أن الجزء الذي يتحدث عنِ "الله" هو أكبر جزء في سلسلة "كتب الغرب العظيمة" *Great Books of the Western World* (التي حرَّرها)، جاء جوابه عميقًا ثاقبًا؛ إذ أشار إلى أن النتائج المترتبة على موضوع الله تتجاوز ما يترتب على أي موضوع آخر. ومؤكِّد أن أهم خمسة أسئلة في الحياة تترتب على هذا الموضوع هي:

١. **الأصل:** من أين أتينا؟

٢. **الهوية:** مَن نحن؟

٣. **المعنى:** ما غرض وجودنا؟

٤. **الأخلاق:** كيف يجب أن نعيش؟

٥. **المصير:** إلى أين نحن ذاهبون؟

وإجابة كلٍّ من هذه الأسئلة تتوقف على وجود الله. فإن كان الله موجودًا، يكون لحياتك معنى وغرض نهائي. وإن كان لحياتك غرض حقيقي، عندئذٍ يكون هناك بالفعل أسلوب صحيح وأسلوب خاطئ للحياة. واختياراتك اليوم لا تؤثِّر عليك هنا فحسب، ولكنها تؤثر عليك في الأبدية. وعلى العكس، إن لم يكنِ الله موجودًا، فحياتك بلا معنى. وما دامت الحياة ليس لها غرض نهائي بعيد، فما من أسلوب صحيح وأسلوب خاطئ للعيش. ولا يهم كيف تعيش أو بما تؤمن، فمصيرك إلى التراب.

فإن كان أي دين في العالم يمتلك الإجابة الصحيحة عن سؤالِ الله، فما هو؟ هل من ديانة تمدّنا بسطح العلبة الصحيح للحياة؟ الحكمة الشائعة تقول لا، لعدة أسباب.

أولاً، يقول الكثيرون إنه ليس منطقيًا أن تُصَدِّق أن دينـًا واحدًا يمكن أن يكون وحده الدين الصحيح. فلو كان دين بعينه صحيحًا، إذَن مليارات المتدينين في سائر الأديان الأخرى جميعًا مخطئون اليوم، وكانوا مخطئين على مدى قرون. (وهي مشكلة كبيرة إن كانت المسيحية صحيحة؛ لأن المسيحية فيما يبدو تُعَلِّم بأن غير المسيحيين مصيرهم الجحيم!) هذا بالإضافة إلى الخوف المنطقي من أنَّ مَن يعتقدون أنهم يمتلكون الحق لن يقبلوا آراء مَن لا يقبلونه.

والأمريكيون المتساهلون أكثر ميلاً للاعتقاد بأنه ليس هناك ديانة واحدة هي "الحق"، بأل التعريف. وهو موقف يُعَبَّر عنه غالبًا مَثَلٌ مفضل لدى الكثير من أساتذة الجامعات: مَثَل الستة رجال العمي والفيل. كل رجل من الستة يتحسس جزءًا مختلفـًا من الفيل ومِنْ ثَمَّ يتوصل إلى استنتاج مختلف بشأن الشيء الموجود أمامه. فأحدهم يمسك بالناب ويقول: "إنه رمح!" ويتحسس آخر الخرطوم ويقول: "هذا ثعبان!" أما مَن يحتضن الساق يزعم قائلاً: "هذه شجرة!" والأعمى الذي يمسك الذيل يقول: "معي حبل!" أما مَن يتحسس الأذن يظن "أنها مروحة!" ومَن ينحني على جانب الفيل يقول واثقـًا: "إنه حائط!" ويقال إن هؤلاء الرجال العميان يمثلون ديانات العالم لأن كلاً منهم يتوصل إلى استنتاج مختلف عما يتحسسه. ويقال لنا إنه ما من دين واحد يمتلك "الحق" بأل التعريف، مثل كل رجل من الستة العمي. فما من ديانة واحدة تمتلك سطح العلبة الكامل. ولكن الأديان تمثل ببساطة طرقـًا مختلفة تؤدي إلى قمة الجبل نفسها. وهو طبعًا موقف جذّاب جدًا للعقل الأمريكي الذي يقبل الاختلاف قبولاً تامًا.

ففي أمريكا يُعتبر الحق الديني تعبيراً متناقضًا. ولكنهم يقولون لنا إنه لا حق في الدين.

فهي مسألة أذواق وآراء. أنت تحب الشوكولاتة، أنا أحب الـڤـانيليا. أنت تحب المسيحية، أنا أحب الهندوسية. إن كانت البوذية تناسبك، فهي صحيحة بالنسبة لك. ثم إنه ينبغي ألا تحكم علي بمعتقداتي!

أما ثاني المشكلات الكبرى في قضية الحق الديني هي أن بعض قِطَع الحياة يبدو أنها تستعصي على التفسير، يبدو أنها لا تتوافق مع أي سطح علبة ديني. ومنها وجود الشر وصمتُ الله حياله. وهي ما تمثل اعتراضات قوية لأي شخص يزعم بوجود إله كلي القدرة (يؤمن بوجود الله). فالكثير من المتشككين والملحدين يُحاجون بأنه إن كان هناك إله حقيقي قدير، لتَدَخَّل لإزالة كل هذا الارتباك. فإن كان الله موجودًا بالفعل، لماذا يحتجب؟ لماذا لا يُظهر نفسه ويبين خطأ الديانات الزائفة وينهي كل هذا الجدل؟ لماذا لا يتَدَخَّل ويوقف كل الشر المنتشر في العالم، بما فيه كل الحروب الدينية التي تلطّخ اسمه؟ ولماذا يسمح بالضرر للأشخاص الصالحين؟ كلها أسئلة صعبة على أي شخص يزعم بأن دينه الذي يؤمن بوجودِ الله دين صحيح.

وأخيرًا، يشير الكثير من المفكرين المحدثين إلى أن أي سطح علبة يقوم على الدين يفتقد للمشروعية. لماذا؟ يقولون لأن العلم وحده هو ما يقدّم الحق. فهم يقولون إن التطور لم يلغِ الحاجة لله فحسب، بل ما يمكن اختباره في المعمل هو فقط الذي يمكن اعتباره حقيقيًا. أي أن العلم وحده هو الذي يتعامل مع الأمور الحقيقية، في حين أن الدين يظل محصورًا في نطاق الإيمان. فلا معنى لمحاولة حشد الأدلة أو الحقائق لتأييد الدين لأن ذلك يشبه مَن يجمع حقائق لإثبات أن آيس كريم الشوكولاتة أحلى مذاقًا من آيس كريم الـڤـانيليا. لا يمكنك إثبات الاستحسانات. ولذلك، بما أنهم يصرّون على أن الدين ليس مسألةَ حقيقةٍ موضوعيةٍ على الإطلاق ولكنه مجرد ذوق ذاتي*، إذَن أي سطح علبة مستمَد من الدين لا يمكنه تقديم الصورة الموضوعية للحياة التي نبحث عنها.

فإلى أين يأخذنا كل هذا؟ هل البحث عن الله وعن سطح علبة الحياة مهمة ميئوس منها؟ هل يجب أن نفترض أنه ما من معنى موضوعي للحياة، وأن كلاً منا يخترع سطح علبته الذاتي؟ هل يجب أن نقنع بإجابة الأستاذ: "لا أعرف"؟

* الموضوعية هي وجود الشيء مستقلاً عن الأفكار والآراء الشخصية وغير متأثر بها، وتشير في الفلسفة إلى الاعتقاد بأن الموجودات توجد مستقلة عن معرفة البشر بها أو إدراكهم لها. أما الذاتية فهي موقف فلسفي يرى أن المعرفة تتوقف على وجود الذات المدرِكة وأنه ليس هناك حقيقة موضوعية أو خارجية. (المترجمة)

إننا لا نعتقد ذلك. بل نعتقد بوجود إجابة حقيقية. وبالرغم مما رصدنا من اعتراضات قوية (سنناقشها في الفصول القادمة)، نؤمن أن الإجابة منطقية للغاية. بل إننا نعتقد حقيقةً أن هذه الإجابة أكثر منطقية وتتطلب إيمانـًا أقل من أي إجابة أخرى من الإجابات المطروحة، بما فيها إجابة الملحد. فهيا بنا نبين لك ما نعني بذلك.

أي نوع من الآلهة؟

قبل أن نتقدم في مناقشتنا، لا بد أولاً أن نفهم المصطلحات. تندرج معظم ديانات العالم الرئيسية تحت واحد من ثلاثة منظورات دينية للحياة *religious worldviews*: الإيمان بالله الخالق الحافظ* *theism*، وَحدة الوجود *pantheism*، الإلحاد *atheism*.

المؤمن بوجود الله الخالق الحافظ *theist* هو مَن يؤمن بإله شخصي *personal God* خَلَقَ الكون ولكنه ليس جزءًا من هذا الكون. وهو ما يمكن تمثيله بالرسام واللوحة. فالله مثل الرسام، وخليقته مثل اللوحة. الله صنع اللوحة، وصفاته تنعكس فيها، ولكن الله ليس اللوحة. والديانات الرئيسية التي تؤمن بالله الخالق الحافظ هي المسيحية، واليهودية، والإسلام.

على العكس من ذلك، **المؤمن بوحدة الوجود** *pantheist* هو مَن يؤمن بإله غير شخصي *impersonal God*، وهذا الإله **هو** حرفيًا الكون نفسه. وهكذا فالمؤمن بوحدة الوجود لا يؤمن بأن الله **صنع** اللوحة، بل بأن الله **هو** اللوحة. وفي الواقع المؤمنون بوحدة الوجود يعتقدون أن الله هو كل الموجودات: الله هو العشب، الله هو السماء، الله هو الشجرة، الله هو هذا الكتاب، الله هو أنت، الله هو أنا... إلخ. والديانات الرئيسية التي تؤمن بوحدة الوجود هي مجموعة الديانات الشرقية مثل الهندوسية، وبعض أشكال البوذية، والكثير من أشكال "العصر الجديد" "*New Age*".

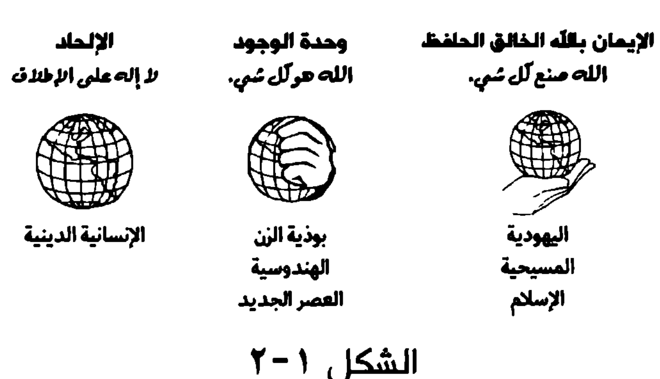
أما **الملحد** *atheist* هو بالطبع مَن لا يؤمن بأي نوع من الآلهة. وتمشيًا مع المشابهة، فالملحد يؤمن أن ما يبدو وكأنه لوحة كان موجودًا باستمرار ولم يرسمه أحد. ويندرج ضمن هذه الفئة "الإنسانيون الدينيون" *Religious humanists*.

وإليك طريقة سهلة لتَذَكُّر هذه المنظورات الدينية الثلاثة: الإيمان بالله الخالق الحافظ: الله **صنع** كل شيء. وحدة الوجود: الله **هو** كل شيء. الإلحاد: **لا** إله على الإطلاق.

---

* المقصود الإيمان بوجود إله خلق الكون ويحفظه باستمرار، وغالبًا سيشار إلى المصطلح في الفصول التالية بتعبير "الإيمان بالله الخالق" للتخفيف. (المترجمة)

والشكل ١-٢ يُصَوِّر الإيمان بالله الخالق الحافظ على هيئة يد **تحمل** العالم، ووحدة الوجود على هيئة يد **في** العالم، والإلحاد على هيئة العالم **فقط دون سواه**.



الشكل ١-٢

وسنستخدم كثيرًا مصطلحًا آخر وهو **لاأدري** *agnostic*. وهو شخص لا يحسم موقفه بخصوص قضية الله.

وبعد أن عرَّفنا مصطلحاتنا، لنَعُدْ إلى قضية الإيمان والدين.

الإيمان والدين

الزعم القائل بأن الدين مجرد مسألة إيمان، على ما يبدو فيه من إقناع ظاهري، ليس إلا أسطورة حديثة، فهو زعم خاطئ. فرغم أن الدين يتطلب الإيمان بكل تأكيد، فالدين **لا يقتصر** على الإيمان. **فالحقائق** أيضًا تلعب دورًا جوهريًا في كل الأديان لأن كل المنظورات الدينية، بما فيها الإلحاد، تتضمن مزاعم تتعلق بالحق، والكثير من تلك المزاعم المتعلقة بالحق يمكن تقييمها بالفحص العلمي والتاريخي.

فمثلاً المؤمنون بالله الخالق الحافظ (مثل المسيحيين، والمسلمين، واليهود) يقولون إن الكون له بداية، في حين أن الكثير من الملحدين والمؤمنين بوحدة الوجود (مثل أتباع حركة العصر الجديد، والهندوس) يقولون إن الكون لا بداية له (الكون أزلي). وكل زعم منهما يلغي الآخر.

فلا يمكن أن يكون كلاهما صحيحًا. فإما أن الكون له بداية أم لا. وعندما نبحث في طبيعة الكون وتاريخه، يمكننا أن نستنتج منطقيًا أن إحدى النظرتين صحيحة والأخرى خاطئة.

وتُعتبر قيامة المسيح المزعومة مثالاً آخر على ذلك. فالمسيحيون يزعمون أن يسوع قام من الأموات، بينما يقول المسلمون إن يسوع لم يمُت أصلاً. وبالمثل، يجب أن يكون أحد هذين الموقفين صحيحًا والآخر خاطئـًا. فكيف نحِّدد الموقف الصحيح؟ بتقييم كل من هذين الزعمين المتضادين بشأن الحق بناءً على الدليل التاريخي.

لاحظ أن الأديان المختلفة ليست الوحيدة التي تحاول أن تجيب عن هذه الأسئلة، ولكن العلماء أيضًا لهم رأي في هذه المسائل. أي أن العلم والدين غالبًا ما يتناولون الأسئلة نفسها: من أين أتى الكون؟ من أين أتت الحياة؟ هل المعجزات ممكنة؟ وهكذا. أي أن العلم والدين لا يقصي أحدهما الآخر كما يرجح البعض.

ولكن من المؤكد أنه لا يمكن إخضاع كل المزاعم الدينية للفحص العلمي أو التاريخي. فبعضها يمثل عقائد لا يمكن التحقق منها. إلا أن الكثير منها يمكن إخضاعه للاختبار. فبعض المعتقدات منطقي، أي يمكن إثباته بيقين كبير، ولكن يتضح أن البعض الآخر غير منطقي.

معضلات المسيحية

هل المسيحية منطقية؟ نحن نؤمن أنها كذلك. إلا أنه ما لم يفحص المرء الأدلة فحصًا دقيقـًا وبذهن منفتح، قد يبدو الاعتقاد في المسيحية إشكاليًا. فأولاً، هناك الكثير من الاعتراضات **الفكرية** المفهومة، مثل ما ذكرناه آنفـًا (مشكلة الشر، واعتراضات الكثير من العلماء).

وثانيًا، هناك عوائق **نفسية** أحيانـًا ما تَحُوْل دون قبول المسيحية. فاعتقاد المسيحية أنها تنفرد بالحق *Christian exclusivism*، والاعتقاد في جهنم، ورياء المسيحيين؛ تمثِل حواجز نفسية أمام الجميع تقريبًا. (الواقع أن الرياء في الكنيسة غالبًا ما يمثل أكثر العوامل المُنَفِّرة للناس. فقد قال أحدهم إن أكبر معضلة في المسيحية هي المسيحيون!).

وأخيرًا، هناك أسباب **إرادية** لرفض المسيحية، ألا وهي الأخلاق المسيحية التي تبدو وكأنها تـُحِدّ من خياراتنا في الحياة. فبما أن معظمنا لا يحب أن يحاسَب، إذَن إخضاع حريتنا لإله غير منظور ليس من الأشياء التي نميل إليها بطبيعتنا.

ولكن بالرغم من هذه العوائق الفكرية، والنفسية، والإرادية، نؤكد أن الإيمان بالمسيحية

ليس هو الصعب، بل الصعوبة تكمن في الإيمان بالإلحاد أو بأي دين آخر. **بمعنى أنه ما إن يمتحن المرء الأدلة، حتى يكتشف أن ما يحتاجه من إيمان ليعتقد في غير المسيحية يفوق الإيمان المطلوب للمسيحية.** وهو ما قد يبدو زعمًا مخالفًا للفهم الطبيعي المعتاد، ولكنه متجذّر في حقيقة مفادها أن كل منظور ديني *religious worldview* يتطلب الإيمان، حتى المنظور الذي يقول بعدم وجود إله.

لماذا؟ لأننا بصفتنا بشرًا محدودين، لا نمتلك نوعية المعرفة التي تزودنا بالبرهان المطلق على وجود الله أو عدم وجوده. فخارج إطار معرفتنا بوجودنا (أنا أعرف أني موجود لأني لا بد أن أكون موجودًا حتى أتمكن من التفكير في هذه المسألة)، نحن نتعامل مع احتمالات. وأيًا كان استنتاجنا عن وجود الله، يُحتمل دائمًا أن يكون الاستنتاج المضاد صحيحًا.

وفي الحقيقة، من المحتمل أن تكون استنتاجاتنا في هذا الكتاب خاطئة. ولكننا لا نعتقد أنها خاطئة لِما لها من أدلة قوية تؤيدها. بل إننا نعتقد أن استنتاجاتنا صحيحة بما يتجاوز أي شك منطقي. (وهذا النوع من اليقين، الذي ربما يتجاوز ٩٥% هو أفضل ما يمكن لكائنات بشرية ناقصة محدودة أن تبلغه في معظم القضايا، وهو أكثر من كافٍ حتى في أهم قرارات الحياة.) إلا أنه لا بد من توافر قدر من الإيمان للتغلب على احتمالية أننا على خطإٍ.

إيمان الملحد

رغم أن قدرًا من الإيمان ضروري لتصديق استنتاجاتنا، فالأمر المنسي غالبًا أن الإيمان ضروري أيضًا لتصديق أي منظور للحياة، بما في ذلك الإلحاد ووحدة الوجود. وهو ما تذكرناه قريبًا عندما التقينا بملحد يدعى "باري" *Barry* في إحدى حلقاتنا النقاشية. لم يستطع "باري" أن يصدِّق أن صديقًا مشتركًا بيننا يدعى "ستيـف" *Steve* أصبح مسيحيًا.

وقد قال: "لا يمكنني أن أفهم "ستيـف". فهو يزعم أنه مفكِّر، لكنه لا يستطيع أن يرد على كل الاعتراضات التي أطرحها عليه بخصوص المسيحية. وهو يقول إنه لا يعرف كل الإجابات لأنه مستجَد وما زال يتعلم".

فقلتُ (فرانك): "باري"، إن معرفة **كل شيء** عن موضوع ما تكاد تكون مستحيلة، وهي بالتأكيد مستحيلة إن كان الموضوع هو الله غير المحدود. لذا، لا بد أن تصل إلى نقطة حيث تدرك أنك امتلكت من المعلومات ما يكفي للوصول إلى استنتاج، حتى لو ظلت لديك أسئلة دون إجابات".

وافقني "باري"، ولكنه لم يدرك أنه كان يفعل تمامًا ما كان ينتقد "ستيـف" عليه. فقد قرَّر "باري" أن منظوره الإلحادي صحيح رغم أنه لم يمتلك معلومات كاملة لدعمه. هل هو متيقن من عدم وجودِ الله؟ هل بَحَثَ كل الحجج والأدلة المؤيّدة لوجودِ الله؟ هل يمتلك معلومات شاملة عن قضية الله؟ هل يمكنه الرد على كل اعتراض على الإلحاد؟ بالطبع لا. بل إنه من المستحيل أن يفعل ذلك. وبما أن "باري"، مثله مثل "ستيـف"، يتعامل في مجال الاحتمالات لا اليقين المطلق، لا بد أن يمتلكَ قدرًا معينـًا من الإيمان ليصدق أن الله **غير** موجود.

ورغم أن "كارل ساجان" *Carl Sagan* كان يزعم أنه لاأدري، فقد نطق بالتصريح النموذجي عن **الإيمان بالمادية الإلحادية** عندما زعم أنه "لا ولم ولن يوجد شيء سوى الكون"[١]. كيف عَلِمَ ذلك عِلْمَ اليقين؟ لم يعلم. وكيف أمكنه أن يعلم ذلك؟ لقد كان كائنـًا بشريًا محدودًا ذا معرفة محدودة. لقد كان "ساجان" يتحرك في محيط الاحتمالات تمامًا مثل المسيحيين عندما يقولون إن الله موجود. ولكن السؤال هو: أيهما يمتلك مزيدًا من الأدلة على استنتاجاته؟ أي الاستنتاجين أكثر منطقية؟ سنرى عندما نتناول الأدلة أن الملحد عليه أن يجمع قدرًا من الإيمان يفوقُ كثيرًا ما يحتاجه المسيحي.

وقد تقول في نفسك: "الملحد عليه أن يجمع قدرًا من الإيمان يفوقُ كثيرًا ما يحتاجه المسيحي! تـُرى ماذا يقصد جايسلر وتورِك بذلك؟" نقصد أنه كلما تناقص ما لديك من أدلة تدعم موقفك، تَزَايدَ ما تحتاج إليه من إيمان لتصديق هذا الموقف (والعكس صحيح). فالإيمان يسد ثغرة معرفية. وفي النهاية يتضح أن الملحد لديه ثغرات معرفية أكبر لأن الأدلة الداعمة لمعتقداته أقل كثيرًا من أدلة المسيحي على معتقداته. أي أن الأدلة التجريبية والشرعية والفلسفية تؤيد بقوة الاستنتاجات المتوافقة مع المسيحية والمخالفة للإلحاد. وإليك بضعة أمثلة على تلك الأدلة التي سيأتي تفصيلها في الفصول القادمة:

١- الدليل العلمي يؤكِّد بما لا يدع مجالاً للشك أن الكون أتى إلى الوجود من لا شيء. فإما أن شخصًا خلق شيئـًا من العدم (الموقف المسيحي)، أو أنه ما من أحد خلق شيئـًا من العدم (الموقف الإلحادي). فأي الموقفين أكثر منطقية؟ الموقف المسيحي. وأي الموقفين يتطلب مزيدًا من الإيمان؟ الموقف الإلحادي.

٢- أبسط شكل من أشكال الحياة يحتوي على معلومات تعادل ١٠٠٠ موسوعة. والمسيحيون يؤمنون أنه لا يمكن إلا لكائن ذكي أن يخلقَ كائنـًا حيًا يحوي ما يعادل ١٠٠٠

موسوعة. أما الملحدون يؤمنون أن قوى طبيعية غير ذكية يمكنها أن تفعل ذلك. ولكن المسيحيون لديهم من الأدلة ما يدعم استنتاجهم. وبما أن الملحدين لا يملكون مثل هذه الأدلة، إذَن معتقدهم يتطلب قدرًا من الإيمان أكبر بكثير.

٣- تنبَّأتْ بعض الكتابات القديمة عن قدوم رجل هو الله بالفعل قبل إتيانه بمئات السنين. وقد تنبَّأتْ هذه الكتابات بأن هذا الإنسان-الإله سيولد في مدينة بعينها ومن نَسَبٍ معين، ويتألم بشكل معين، ويموت في وقت معين، ويقوم من الأموات ليُكَفِّر عن خطايا العالم. وفور انقضاء الوقت الذي أشارت إليه النبوات أعلن العديد من شهود العيان ثم سجلوا أن تلك الأحداث التي تم التنبوء عنها وقعت بالفعل. وشهود العيان أولئك احتملوا الاضطهاد والموت، رغم أنه كان في قدرتهم أن ينقذوا أنفسهم بإنكار الأحداث. وقد تحول الآلاف من سكان أورشليم إلى الإيمان بهذا الشخص بعد أن رأوا هذه الأحداث أو سمعوا عنها، وسرعان ما اكتسحت هذه العقيدة أرجاء العالم القديم. والمؤرخون والكُتَّاب القدماء يشيرون إلى هذه الأحداث أو يؤكِّدونها، والدلائل من علم الآثار تؤيدها. وحيث إن المسيحيين رأوا في الخليقة أدلة على وجودِ الله (النقطة رقم ١ أعلاه)، فقد آمنوا بأن هذه المجموعات العديدة من الأدلة تبين بما لا يدع مجالاً لأي شك منطقي أن الله كانت له يد في هذه الأحداث. ولكن الملحدون يحتاجون لقدر من الإيمان أكبر بكثير لرفض النبوات، وشهادة شهود العيان، واستعداد شهود العيان أن يتألموا ويموتوا، ونشأة الكنيسة المسيحية، وشهادة سائر الكُتَّاب التي تدعم الأحداث، ونتائج الأبحاث الأثرية، وغير ذلك من الأدلة التي سنفحصها لاحقًا.

والآن يُحتمل أن هذه النقاط الثلاث أثارت في ذهنك بعض الأسئلة والاعتراضات. من المفترض أن يحدثَ ذلك؛ لأننا تركنا الكثير من التفاصيل التي سنشرحها على صفحات هذا الكتاب. ولكن ما يهمنا الآن أن تفهم ما نقصده بقولنا إن كل منظور للحياة، بما في ذلك المنظور الإلحادي، يتطلب قدرًا من الإيمان.

وحتى المتشككين لديهم إيمان. فهم يؤمنون بأن الشك صحيح. وبالمثل اللاأدريون يؤمنون أن اللاأدرية صحيحة. فالمعتقدات لا مكان فيها للمواقف الحيادية. وهو ما عبرَّ عنه "فيليپ چونسون" *Phillip Johnson* ببراعة فائقة عندما قال: "مَن يزعم أنه يشك في مجموعة معينة من المعتقدات هو في الواقع مؤمن حقيقي بمجموعة أخرى من المعتقدات"[٢]. أي أن الملحد الذي يتشكك في المسيحية بطبيعة الحال هو في الواقع يؤمن إيمانًا حقيقيًا بالإلحاد. وكما سنرى،

إن كان الملحد أمينـًا أمام ما يُعرض له من أدلة، فهو يحتاج لمقدار من الإيمان للاحتفاظ بمعتقداته الإلحادية يفوق بمراحل ما يحتاج إليه المسيحي من إيمان للاحتفاظ بمعتقداته.

اكتشاف سطح العلبة

نزعم وجود أدلة قوية تؤيد المسيحية. فكيف سنتقدم في هذه الأدلة؟ منذ حوالي سنة ١٩٩٦ ذهبنا سويًا إلى مناطق عديدة لإدارة حلقة نقاشية بعنوان "الاثنتا عشرة نقطة التي تُثْبِت صحة المسيحية" "*The Twelve Points That Show Christianity Is True*". وفي هذه الحلقة ننطلق من مسألة "الحق" ثم نتقدَّم منطقيًا في المناقشة حتى نصل إلى الاستنتاج بأن الكتاب المقدس هو كلمةُ الله. وهذا الكتاب يتبع بوجه عام ذلك المنهج المنطقي ذا النقاط الاثنتي عشرة:

١- الحَقّ المتعلق بالواقع، أو حقيقة الواقع، أمر قابل للمعرفة.

٢- عكس الحق هو الخطإ.

٣- وجودُ إلهٍ خالقٍ حافظٍ حقٌّ. وهو ما يُستدَل عليه من:

أ) بداية الكون (الحجة الكونية *Cosmological Argument*)

ب) تصميم الكون (الحجة الغائية *Teleological Argument* / المبدأ الإنساني *Anthropic Principle*).

ج) تصميم الحياة (الحجة الغائية)

د) القانون الأخلاقي (الحجة الأخلاقية *Moral Argument*)

٤- إن كان الله موجودًا، إذَن المعجزات ممكنة.

٥- يمكن استخدام المعجزات لتأكيد رسالة من الله (أي باعتبارها أعمالاً إلهية تؤكد كلام الله).

٦- العهد الجديد يتمتع بالمصداقية التاريخية. وهو ما يُستدَل عليه من:

أ) الشهادة الأولى

ب) شهادة شهود العيان

ج) الشهادة غير المُفَبْرَكة (الصادقة)

د) شهود العيان الذين لم يكونوا مخدوعين

٧- العهد الجديد يقول إن يسوع زَعَمَ أنه الله.

٨- زَعْمُ يسوع أنه الله تَأكَّدَ معجزيًا بما يلي:

أ) تحقيقه للكثير من النبوات المختصة به

ب) حياته الخالية من الخطية وأعماله المعجزية

ج) تنبؤه بقيامته وإتمامه لها

٩- إذَن يسوع هو الله.

١٠- كل ما يُعَلـِّمه يسوع (الذي هو الله) حقٌّ.

١١- يسوع عَلـَّمَ أن الكتابَ المقدسَ كلمةُ الله.

١٢- إذَن القول بأن الكتابَ المقدسَ كلمةُ الله هو حق (وكل ما يتعارض مع الكتاب خطأ).

وقبل أن نبدأ في تقديم هذا المنهج الفكري، يرجى ملاحظة خمس نقاط:

أولاً: نحن لا نقول إن النقاط سالفة الذكر صحيحة في ذاتها. ولكن معظم هذه النقاط فرضيات يجب تعليلها بالأدلة. فمثلاً النقطة الثالثة تزعم أن "وجودَ إله خالق حافظ حقٌّ". وذلك الزعم ليس حقـًا لمجرد أننا نقول إنه حق. ولكن ينبغي دعمه بأدلة مقنعة، وبأسباب منطقية وجيهة. وسوف نقدِّم تلك الأسباب المنطقية عندما نصل إلى تلك النقطة في الكتاب.

ثانيًا: لاحظ أننا ننطلق من نقطة شك كامل. أي أننا نبدأ مع شخص يقول إنه حتى لا يؤمن بالحق. وينبغي أن نبدأ من هذه النقطة لأنه إن كانت النظرة السائدة في كثير من الثقافة صحيحة، ألا وهي أنه لا يوجد حق، إذَن لا يمكن أن يكون **حقـًا** القول بوجود إله خالق حافظ، أو كلمة **حقيقية** من ذلك الإله. ولكن إن كان الحق موجودًا، وهذا الحق يمكن معرفته، إذَن يمكننا أن نتقدَّم نحو فحص الحق المتعلّق بوجودِ الله، وما يلي ذلك من نقاط (مثل إمكانية المعجزات، والمصداقية التاريخية للعهد الجديد، وهلمّ جرّا).

ثالثـًا: إن كان هذا المنهج الفكري سليمًا (وهو افتراض كبير سيحاول هذا الكتاب إثباته)، فهو يُثـْبِت حتمًا خطأ ما تقوله الديانات الأخرى فيما تختلف فيه مع ما يقوله الكتاب المقدس. (وهو ما يبدو غرورًا وكبرياء غير عادي، ولكننا سنتناول ذلك لاحقـًا). ولكنه لا يعني أن كل الديانات الأخرى خاطئة تمامًا أو أنها خالية من أي حق. فكل الديانات تقريبًا تحوي شيئـًا

من الحق. ولكن كل ما نقوله إنه إن كان **الكتاب المقدس صحيحًا**، إذَن أي زعم بعينه يتناقض مع الكتاب المقدس لا بد أن يكون خاطئـًا. فمثلاً، إن كان الكتاب المقدس صحيحًا، وهو يقول بوجود إله يتجاوز الكون وقد خلق الكون ويحفظه (الإيمان بالله الخالق الحافظ)، عندئذ فإن أي زعم ينكر الإيمان بالله الخالق الحافظ (مثل الإلحاد) لا بد أن يكون خاطئـًا. وبالمثل، إن كان الكتاب المقدس صحيحًا، وهو يزعم أن يسوع قام من الأموات، إذَن إنكار تلك الحقيقة (في أي دين) لا بد أن يكون خاطئـًا. (بالمناسبة، العكس أيضًا صحيح. فإن تَبَيَّن بالدليل أن الزعم الآخر صحيح، إذَن الكتاب المقدس مخطئ في ذلك).

رابعًا: إننا نقدم أدلة على المسيحية لأننا يجب أن نعيش حياتنا بناءً على الحق. وقد قال سقراط ذات مرة إن الحياة التي لا تُفحَص لا تستحق أن تعاش.[٣] ونحن نرى أن الإيمان الذي لا يُفحَص لا يستحق أن يُصدَّق. وخلافـًا للرأي الشائع، ليس مطلوبًا من المسيحيين أن "يؤمنوا فحسب". ولكنَّ المسيحيين **مأمورون** أن يعرفوا ما يؤمنون به ولماذا يؤمنون به. وهم مأمورون أن يقدِّموا إجابات لمن يسألهم (١بط٣: ١٥)، وأن يهدموا الحجج المضادة للإيمان المسيحي (٢كو١٠: ٤-٥). وبما أن الله منطقي (إش١: ١٨) ويريدنا أن نستخدم عقولنا، فهو لا يكافئ المسيحيين على غبائهم. بل إن استخدام العقل يمثِّل جزءًا من الوصية العظمى التي تقول: «تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل **فكرك**»[•] (مت٢٢: ٣٧) كما عَلـَّم يسوع.

وأخيرًا، غالبًا ما نُسأل: "إن كان للمسيحية الكثير من الأدلة المؤيدة، فلماذا لا يصدقها عدد أكبر من الأشخاص؟" وإجابتنا: رغم أننا نعتقد أن الأدلة التي سنقدّمها بعد قليل تبين أن الكتاب المقدس صحيح بما يتجاوز أي شك منطقي، فالأدلة مهما كثرت لا يمكنها أن تجبر أي شخص على تصديقها. وذلك لأن التصديق يتطلب لا موافقة العقل فحسب، بل موافقة الإرادة أيضًا. ورغم أن الكثير من غير المسيحيين لديهم أسئلة فكرية صادقة، فقد اكتشفنا أن أعدادًا أكثر من هؤلاء تقاوم المسيحية إراديًا. أي أن المشكلة لا تكمن في قلة الأدلة، بل في أنهم لا **يريدون** أن يصدقوا. ويمثل الملحد العظيم "فردريك نيتشه" *Friedrich Nietzsche* نموذجًا على هذا النوع من الأشخاص. فقد كتب: "إن أثبت لنا أحدهم وجود إله المسيحيين هذا، يجب أن نصير أقل قدرة على الإيمان به"[٤] وقال أيضًا: "إننا نرفض المسيحية بناءً على

[•] الكلمات المبرزة بالخط الأسود العريض في كل الآيات الكتابية المذكورة في هذا الكتاب من إضافة الكاتبين.

استحساناتنا، لا بناءً على الحجج المنطقية".[٥] وهكذا يتضح أن عدم إيمان "نيتشه" كان مبنيًا على إرادته لا على فِكره فقط.

وعند هذه النقطة قد يعكس المتشكك الحجة ويزعم أن المسيحي هو مَن **يريد** أن يؤمن. صحيح، الكثير من المسيحيين لا يؤمنون إلا لأنهم يريدون أن يؤمنوا، ولا يمكنهم تعليل إيمانهم بالأدلة. ولكنهم يؤمنون ببساطة أن الكتاب المقدس صحيح. إلا أن إرادتهم أن يكون الشيء صحيحًا لا تجعله صحيحًا. ولكننا نقول إن الكثير من غير المسيحيين يفعلون الشيء نفسه: يقفزون "قفزة إيمان عمياء" تتمثل في أن معتقداتهم غير المسيحية صحيحة لمجرد أنهم **يريدونها** صحيحة. وفي الفصول القادمة سنلقي نظرة فاحصة على الأدلة لنرى أي الفريقين عليه أن يقفز قفزة أكبر.

وعندئذٍ قد يتساءل المتشكك: "ولكن لماذا **يريد** أي شخص أن تكون المسيحية خاطئة؟ ما الذي يجعل أي شخص لا يريد هبة الغفران المجانية؟" سؤال وجيه، ولكننا نعتقد أن الإجابة تكمن في العوامل الإرادية التي لمسناها فيما سبق. أي أن الكثيرين يعتقدون أن قبول حق المسيحية يتطلب منهم تغيير تفكيرهم، أو أصدقائهم، أو أولوياتهم، أو أسلوب حياتهم، أو أخلاقهم، وهم لا يريدون أن يتنازلوا عن السيطرة على حياتهم بإجراء تلك التغييرات. فهم يرون أن الحياة أسهل وأكثر إمتاعًا دون هذه التغييرات. وربما يدركون أنه في حين أن المسيحية تتمحور حول الغفران، فهي تتمحور أيضًا حول إنكار النفس وحمل الصليب. فالواقع أن المسيحية مجانية، ولكنها قد تكلفك حياتك.

هناك فرق بين **إثبات** فرضية **وقبول** فرضية. فقد يمكننا أن نُثْبِت صحة المسيحية بما لا يرقى إليه أي شك منطقي، ولكن **أنت** فقط مَنْ تستطيع أن تختار قبولها. نرجو منك أن تفكر في هذا السؤال لتعرف إن كنت منفتحًا على قبولها: إن تَمَكَّن أحدهم من تقديم إجابات منطقية على أهم ما لديك من أسئلة واعتراضات بشأن المسيحية، منطقية إلى الحد الذي تبدو معه المسيحية صحيحة بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي، هل ستصبح مسيحيًا؟ فَكِّر في ذلك دقيقة. إن كانت إجابتك **الصادقة** هي لا، إذَن مقاومتك للمسيحية نفسية أو إرادية، ولا تقتصر على المقاومة الفكرية. وما مِنْ أدلة مهما بلغت كثرتها يمكنها أن تقنعك، لأن الأدلة ليست هي العائق، ولكنك **أنت** العائق. وفي النهاية، أنت وحدك مَنْ يعرف إن كنت بالفعل منفتحًا على الأدلة المؤيّدة للمسيحية.

ومن مظاهر جمال خليقةِ الله هو أنه: إن لم تُرِدْ أن تقبل المسيحية، لك الحرية أن ترفضها. وحرية الاختيار هذه، بل حتى حرية رفض الحق، هي التي تجعلنا مخلوقات أخلاقية وتمكِّن كلاً منا أن يختار مصيره النهائي. وهو ما يلمس غرض وجودنا في الصميم، ويفسّر سبب عدم وضوحِ الله في كشفه عن ذاته لنا بالقدر الذي يتمناه البعض منا. لأنه إن كان الكتاب المقدس صحيحًا، إذَن فالله أتاح لكل منا فرصة لاتخاذ قرار أبَديّ إما بقبوله أو برفضه. ولكي يضمن أن اختيارنا حرٌّ بحق، يضعنا في بيئة زاخرة بأدلة وجوده، ولكن دون حضوره **المباشر**، وهو حضور شديد القوة حتى إنه يمكن أن يطغى على حريتنا، ومِنْ ثم يلغي قدرتنا على رفضه. أي أن **الله قدَّم أدلة في هذه الحياة كافية لإقناع أي شخص يريد أن يصدق، إلا أنه ترك أيضًا شيئًا من الغموض حتى لا يجبر مَنْ لا يريد.** وهكذا يتيحُ الله الفرصة لنا أن نحبه أو أن نرفضه دون أن ينتهك حريتنا. والحقيقة أن غرض هذه الحياة هو أن نتخذ هذا القرار الحر دون قسر. لأن الحب بطبيعته لا بد أن يُعطَى مجانًا. ولا يمكن الحصول عليه عنوةً. ولذلك كتب "سي. إس. لويس" *C. S. Lewis*: "إن طبيعة مخططِ [الله] تمنعه من استخدام سلاحين، ألا وهما: ما يستعصي على المقاومة وما يستعصي على الشك. فمجرد إبطال الإرادة البشرية (الذي لا بد أن يحدث إن شعر الإنسان بأقل وأخف درجة من درجات حضور الله) عديم الفائدة لله. فهو لا يستطيع أن يجبر ويغتصب. ولكنه يستطيع فقط أن يبهر ويجذب".[٦]

ونتمنى أن ما سنقدمه من أدلة في هذا الكتاب يجذبك، ولو بقدر قليل، إلى الله. ولكن ضع في حسبانك أنها ليست أدلتنا، ولكنها **أدلته**. وكل ما نفعله أننا نجمعها معًا في نسق منطقي. ونحن نقصد من استخدام قصص وتشبيهات واقعية على قدر المستطاع أن نقدِّم كتابًا سلسًا ومنطقيًا سهلاً مفهومًا.

الملخص والخُلاصة

كما رأينا، يمكن فحص الكثير من المزاعم الدينية بشأن الحق وتحديد معقوليتها. وبما أن كل الاستنتاجات المختصة بهذه المزاعم تقوم على الاحتمالات أكثر مما تقوم على اليقين المطلق، إذَن جميعها، بما فيها المزاعم الإلحادية، تتطلب قدرًا من الإيمان. وبدراستنا للأدلة في الفصول التالية، سنرى أن استنتاجات من قبيل: "الله موجود" أو "الكتاب المقدس

صحيح" استنتاجات مؤكَّدة بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي. **إذَن تصديق ما هو بخلاف المسيحية يتطلب إيمانـًا يفوق بكثير ما يتطلبه تصديق المسيحية.**

إلا أننا نـُقِرّ أيضًا أن الأدلة وحدها لا تستطيع أن تقنع شخصًا بأن يصبح مسيحيًا. ولكن بعض الملحدين وغير المسيحيين قد يرفضون المسيحية لا لقلة الأدلة، ولكن لأنهم لا يريدون أن يقبلوها. فالبعض يفضِّلون أن يحجزوا الحق عن أن يعيشوا به. **والحقيقة أننا نحن البشر لدينا ميل قاتل نحو محاولة تكييف الحق على رغباتنا بدلاً من تكييف رغباتنا على الحق.**

ولكن مهلاً، أليس من بديل ثالث؟ ما المانع أن نظل لاأدريين مثل أستاذ العهد القديم المذكور في بداية هذا الفصل؟ قال إنه لا يعلم إن كان الله موجودًا. قد يعتقد البعض إنه شخص منفتح العقل. ربما. ولكن الفرق شاسع بين **انفتاح العقل وفراغ العقل**. ففي ضوء الأدلة نعتقد أن اللاأدرية قرار بأن تكون فارغ العقل. فمهما كان، أليس الغرض من انفتاح العقل أن نتمكن من التعرّف على الحق عندما نصادفه؟ نعم. إذَن ماذا يجب أن نفعل عندما نجد من الأدلة ما يكفي لإرشادنا إلى الحق؟ فمثلاً، ماذا يجب أن نفعل عندما نرى أدلة لا يرقى إليها الشك المنطقي على أن چورچ واشنطن كان أول رؤساء الولايات المتحدة؟ هل يجب أن نظل "منفتحي العقل" بخصوص أول رئيس للولايات المتحدة؟ لا، لأننا في هذه الحالة نكون **فارغي العقل**. فبعض الأسئلة أُغْلِقَت وحُسِمَت. وسنرى أن الأدلة المتعلقة بالمسيحية كافية للتوصل إلى استنتاج مؤكَّد منطقيًا.

وكما أشار "مورتيمر آدلر"، إن استنتاجنا بشأنِ الله يؤثِّر على كل جوانب حياتنا. فهو مفتاح العثور على الوحدة والتنوّع ومعنى الحياة النهائي. إنه حقـًا أهم سؤال ينبغي على كل إنسان أن يجيب عنه. ولحسن الحظ، إن كان منطقنا صحيحًا، سنكتشف سطح علبة لغز الحياة في نهاية رحلتنا. فلنخطُ أول خطوة في تلك الرحلة. وهي تبدأ بمسألة الحق.

الفصلان ١ ، ٢ يتناولان:

١- الحَق المتعلق بالواقع أو حقيقة الواقع أمر قابل للمعرفة.

٢- عكس الحق هو الخطأ.

٣- وجودُ إله خالقٍ حافظ حقٌّ. وهو ما يُستدَل عليه من:

أ) بداية الكون (الحجة الكونية *Cosmological Argument*)

ب) تصميم الكون (الحجة الغائية *Teleological Argument* / المبدأ الإنساني *Anthropic Principle*)

ج) تصميم الحياة (الحجة الغائية)

د) القانون الأخلاقي (الحجة الأخلاقية *Moral Argument*)

٤- إن كان الله موجودًا، إذَن المعجزات ممكنة.

٥- يمكن استخدام المعجزات لتأكيد رسالة من الله (أي باعتبارها أعمالاً إلهية تؤكد كلام الله).

٦- العهد الجديد يتمتع بالمصداقية التاريخية. وهو ما يُستدَل عليه من:

أ) الشهادة المبكرة

ب) شهادة شهود العيان

ج) الشهادة غير المُفَبْرَكة (الصادقة)

د) شهود العيان الذين لم يكونوا مخدوعين

٧- العهد الجديد يقول إن يسوع زَعَمَ أنه الله.

٨- زَعْمُ يسوع أنه الله تَأكَّد معجزيًا بما يلي:

أ) تحقيقه للكثير من النبوات المختصة به

ب) حياته الخالية من الخطية وأعماله المعجزية

ج) تنبؤه بقيامته وإتمامه لها

٩- إذَن يسوع هو الله.

١٠- كل ما يُعَلِّمه يسوع (الذي هو الله) حقٌّ.

١١- يسوع عَلَّمَ أن الكتابَ المقدسَ كلمةُ الله.

١٢- إذَن القول بأن الكتابَ المقدسَ كلمةُ الله هو حق (وكل ما يتعارض مع الكتاب خطأ).



هل نستطيع التعامل مع الحق؟

"يتعثر الناس في الحق من آن لآخر، ولكن معظمهم ينهضون ويركضون بعيدًا
عنه وكأن شيئًا لم يكن".

"وينستون تشرتشيل" *Winston Churchill*

في فيلم "القليل من الرجال الصالحين" *A Few Good Men* يلعب "توم كروز" *Tom Cruise* دور محامٍ في البحرية الأمريكية يستجوب عقيد مشاة، يقوم بدوره "چاك نيكولسون" *Jack Nicholson*، بخصوص مقتل أحد رجال "نيكولسون". ويتحول مشهد قاعة المحكمة الدرامي إلى مباراة للصياح عندما يَتَهِّم "كروز" "نيكولسون" بالتورط في جريمة القتل:

كروز: سيادة العقيد، هل أعلنت حالة الطوارئ؟

القاضي: لستَ مضطرًا لإجابة ذلك السؤال!

نيكولسون: سأجيب عن السؤال... أتريد إجابات؟

كروز: أظنها من حقي.

نيكولسون: تريد إجابات!

كروز: أريد الحق!

نيكولوسن: لن تستطيع التعامل مع الحق!

ربما كان "نيكولسون" يصيح في أمريكا بأسرها وليس في "كروز"؛ لأنه يبدو أن الكثيرين في بلدنا لا يستطيعون التعامل مع الحق. فنحن من ناحية نريد الحق في كل مجالات حياتنا تقريبًا. فنحن مثلاً نطلب الحق من:

- أحبائنا (لا أحد يريد أكاذيب من شريكة حياته أو أبنائه).
- الأطباء (نريدهم أن يصفوا لنا الدواء الصحيح ويُجروا لنا العمليات الصحيحة).
- سماسرة البورصة (نريدهم أن يخبرونا بالحق عن الشركات التي ينصحون بها).
- المحاكم (نريدها ألا تحكم إلا على المذنبين حقيقةً).
- أصحاب الأعمال (نريدهم أن يخبرونا بالحق ويدفعوا أجورنا بالعدل).
- الخطوط الجوية (نريد طائرات آمنة بحق وطيارين جادين بحق).

ونتوقع كذلك أن نجد الحق عندما نطالع أحد المراجع، أو نقرأ مقالاً، أو نشاهد خبرًا. ونريد الحق أيضًا من المُعلِنين، والمدرسين، والساسة. ونحن نفترض أن اللافتات المرورية، وزجاجات الأدوية، والمعلومات المُبَيَّنة على عبوات الطعام تكشف الحق. إننا في الواقع نطالب بالحق في كل نواحي الحياة تقريبًا التي تؤثر على أموالنا، أو علاقاتنا، أو أماننا، أو صحتنا.

ولكننا، من ناحية أخرى، رغم إصرارنا على الحق في تلك المجالات، لا نكترث بالحق في مجال الأخلاق والدّين. بل إن الكثيرين يرفضون رفضًا قاطعًا فكرة أن أي دين يمكن أن يكون حقًا.

ومؤكَّد أنك لاحظت ما في هذا الموقف من تناقض كبير. لماذا نطالب بالحق في كل شيء ما عدا الأخلاق والدّين؟ لماذا عندما نتكلم عن الأخلاق أو الدين نقول: "هذا حق بالنسبة لك ولكن ليس بالنسبة لي"، رغم أن هذا الكلام الفارغ لا يخطر لنا ببال عندما نتحدث إلى سمسار في البورصة عن أموالنا أو إلى طبيب عن صحتنا؟

إنَّ رَفْضَنا للحق الديني والأخلاقي غالبًا ما يرجع لأسباب إرادية أكثر منها فكرية، وإن كان القليلين هم الذين يعترفون بهذا. فنحن لا نريد أن نحاسَب بمقتضى أي معايير أخلاقية أو عقيدة دينية. وهو ما يجعلنا نقبل كالعميان مزاعم الحق التي تُفَنِّد نفسها بإثبات عكس ما تريد أن تُثْبِته *self-defeating* التي يطلقها المفكِّرون ذوو الكياسة الاجتماعية عندما يخبروننا أنه لا يوجد حق، كل شيء نسبي، ليس هناك مطْلَقات، إنها مسألة رأي، لا تحكم، الدين يختص بالإيمان لا بالحقائق. وربما أصاب أغسطينوس حين قال إننا نحب الحق عندما ينيرنا، ولكننا نكرهه عندما يُبَكِّتنا. من المحتمل أننا لا نستطيع التعامل مع الحق.

وحتى نعالج هذا الانفصام الثقافي، علينا أن نجيب عن أربعة أسئلة بخصوص الحق:

١- ما هو الحق؟

٢- هل معرفة الحق ممكنة؟

٣- هل معرفة الحق المختص بالله ممكنة؟

٤- ماذا يعنينا؟ مَن يهتم بالحق؟

سنناقش هذه الأسئلة في هذا الفصل والفصل القادم.

ما هو الحق؟ حقيقة الحق

ما هو الحق؟ الحق بمنتهى البساطة هو "قول الشيء كما هو". فالوالي الروماني بيلاطس عندما سأل يسوع: "ما هو الحق؟" منذ قرابة ألفي عام، لم ينتظر ليسمع إجابة يسوع. ولكنه سرعان ما تَصَرَّف وكأنه يعرف على الأقل شيئًا من الحق. فقد قال عن يسوع: «أنا لست أجد فيه علة واحدة» (انظر يو١٨: ٣٨). وبإعلان بيلاطس براءة يسوع كان "يقول الشيء كما هو".

ويمكن تعريف الحق أيضًا بأنه "ما يتوافق مع موضوعه" أو "ما يصف الواقع". فقد كان حكم بيلاطس صحيحًا لأنه كان يتفق مع موضوعه، ووَصَفَ الواقع وصفًا دقيقًا. فيسوع كان بريئًا بالفعل.

وخلافًا لما يُدَرَّس في الكثير من المدارس الحكومية، الحق مطلق وليس نسبيًا. فإن كان شيءٌ ما صحيحًا، فهو يصح لكل الناس، وفي كل وقت، وفي كل مكان. كل مزاعم الحق مطلقة، وضيقة، وإقصائية. خذ مثلاً الزعم القائل بأن "كل الأشياء حق". إنه زعم مطلق، ضيق، إقصائي. فهو يقصي عكسه (أي أنه يزعم أن الجملة التي تقول إن "**ليست** كل الأشياء حقًا" جملة خاطئة). والواقع أن أي حق يقصي كل ما هو ضده، حتى الحق الديني.

وهو ما تبيَّن على نحو مضحك منذ عدة سنوات عندما كنتُ (أنا "نورم") أناظر المفكر الإنساني الديني* "مايكل قسطنطين كولندا" *Michael Constantine Kolenda*. وكان من

---

* مصطلح "الإنساني" *humanist* يُستخدم اليوم للإشارة إلى من يسعى ليعيش حياة صالحة دون اعتماد على معتقدات دينية أو خرافية (*humanism.org.uk/humanism/humanism-today/non-religious-beliefs*)، تم الاطلاع على الرابط بتاريخ ١٣ تموز/يوليو ٢٠١٦. (المترجمة)

الملحدين القلائل الذين ناظرتهم ممن قرؤوا كتابي "الدفاعيات المسيحية" *Christian Apologetics* قبل المناظرة.

وعندما حان دوره ليتكلم رفع كتابي قائلاً: "هؤلاء المسيحيون ضيقو الأفق للغاية. لقد قرأت كتاب الدكتور "جايسلر". أتعرفون ما يؤمن به؟ يؤمن أن المسيحية صحيحة وكل ما يتعارض معها خطأ! هؤلاء المسيحيون ضيقو الأفق للغاية!"

"كولندا" أيضًا ألَّف كتابًا قرأته قبل المناظرة. وكان عنوانه "دين بدونِ الله" *Religion Without God* (مثل قصة حب بدون محبوب!). وعندما حان دوري للكلام رفعت كتاب "كولندا" قائلاً: "هؤلاء الإنسانيون ضيقو الأفق للغاية. لقد قرأت كتاب الدكتور "كولندا". أتعرفون ما يؤمن به؟ يؤمن أن الإنسانية صحيحة وكل ما يتعارض معها خطأ! هؤلاء الإنسانيون ضيقو الأفق للغاية!"

فضحك الجمهور لأنهم فهموا القصد. إن مزاعم الحق الإنسانية ضيقة ضيق مزاعم الحق المسيحية، لأنه إن كانت الإنسانية صحيحة، فكل ما يتعارض مع الإنسانية خطأ. وبالمثل، إن كانت المسيحية صحيحة، فكل ما يتعارض مع المسيحية خطأ.

وهناك الكثير من الحقائق الأخرى عن الحق. وإليك بعضها:

- الحق يُكتشَف ولا يُخترَع. فهو يوجد بالاستقلال عن معرفة أي شخص به. (الجاذبية كانت موجودة قبل "نيوتن").
- الحق يشمل كل الثقافات. أي أنه إن كان شيءٌ ما حقـًا، فهو حق عند كل الناس، وفي كل الأماكن، وفي كل الأوقات (٢+٢=٤ عند الجميع، وفي كل مكان، وفي كل وقت).
- الحق لا يتغير رغم أن **معتقداتنا** عن الحق تتغير. (عندما بدأنا نعتقد أن الأرض كروية بعد أن كنا نعتقد أنها مسطّحة، **الحق** بخصوص الأرض لم يتغير. ما تغيَّر هو **اعتقادنا** بخصوص الأرض).
- المعتقدات لا تستطيع أن تغير حقيقة، مهما كان صدق أصحابها في اعتناقهم لها. (فيمكن أن يعتقد شخصٌ ما بصدق أن الأرض مسطحة، ولكن هذا الاعتقاد لا يفعل شيئًا سوى أنه يجعل الشخص مخطئـًا بصدق).
- الحق لا يتأثر بحالة الشخص الذي يعلنه. (فإن كان الشخص مغرورًا، غروره لا يجعل

الحق الذي يعلنه خاطئًا. وإن كان الشخص متواضعًا، تواضعه لا يجعل الخطأ الذي يعلنه حقـًا).

- كل الحق هو حق مطلق. وحتى الحق الذي يبدو نسبيًا هو في الحقيقة مطلق. (مثلاً جملة "أنا فرانك تورك أشعر بالدفء يوم ٢٠ نوقمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٣" قد تبدو حقـًا نسبيًا، ولكن شعور "فرانك تورك" بالدفء في ذلك اليوم هو أمر حقيقي بصفة مطلقة بالنسبة لكل شخص في كل مكان).

وإيجازًا نقول إن وجود **معتقدات** متضادة أمر وارد، ولكن وجود **حقائق** متضادة مستحيل. يمكننا أن **نعتقد** أن كل شيء صحيح، ولكننا لا نستطيع أن **نجعل** كل شيء صحيحًا.

هذه الأفكار تبدو واضحة وضوحًا كافيًا. ولكن كيف نتعامل مع الفكر الحديث الذي يدعي أنه لا يوجد حق؟ يمكننا أن نستعين باثنتين من الشخصيات الكارتونية لمساعدتنا.

خطة رود رَنَر

إن قال لك أحدهم: "عندي لك فكرة ستُحدِث قطعًا تغييرًا جذريًا في قدرتك على سرعة التعرف على العبارات الخاطئة والفلسفات الخاطئة التي تنتشر في ثقافتنا وتُمَكِّنك من تحديدها بوضوح"، هل ستهتم أن تعرف الفكرة؟ هذا ما سنفعله هنا. والحقيقة أننا إن أردنا أن نختار أَقْيَم قدرة فكرية تعلمناها أثناء سنوات دراستنا الطويلة في كلية اللاهوت والدراسات العليا، سنختار القدرة على تحديد ودحض الجمل المتناقضة التي تُفَنِّد نفسها *self-defeating statements*. ونورد هنا موقفـًا من برنامج إذاعي حواري يوضح ما نعنيه بالعبارات التي تُفَنِّد نفسها.

كان "چري" *Jerry* مقدِّم البرنامج الليبرالي يستقبل مكالمات هاتفية في موضوع الأخلاق. وبعد أن سمع العديد من المتصلين يزعمون بجرأة أن موقفـًا أخلاقيًا بعينه هو حق، انبرى أحد المتصلين قائلاً: "چري.. چري، ليس هناك شيء اسمه الحق".

فأسرعتُ (أنا "فرانك") أبحث عن الهاتف وبدأتُ أطلب الرقم وقد استشطتُ غضبًا. مشغول. مشغول. مشغول. أردت أن أتصل بالبرنامج وأقول: "چري، أوجه سؤالي للرجل الذي قال "ليس هناك شيء اسمه الحق": هل **ما تقوله** حق؟"

ولكني لم أتمكن أبدًا من إجراء المكالمة. وبالطبع اتفق "چري" مع المتصل، دون أن يدرك مطلقـًا أن ادعاءه يستحيل أن يكون صحيحًا لأنه يفنِّد نفسه.

العبارة التي تفند نفسها هي عبارة تعجز عن التوافق مع المعيار الذي تحدده. ومؤكد أنك أدركت أن عبارة المتصل التي تقول "لا يوجد شيء اسمه الحق" تدعي أنها حق؛ ومن ثمَّ، تفنِّد نفسها. إنها تشبه من يقول: "لا أتحدث كلمة واحدة بالعربية". إن قال أحدهم ذلك، لا بد أنك ستجيب قائلاً: "لحظة من فضلك! بالتأكيد عبارتك خاطئة لأنك قلتها باللغة العربية!"

التصريحات المتناقضة التي تفند نفسها تُطلَق باستمرار في ثقافة ما بعد الحداثة التي نشهدها اليوم، وما إن تشحذ قدرتك على رصدها حتى تتمكن من الدفاع عن الحق بمنتهى الجرأة. فلا شك أنك سمعت أشخاصًا يقولون مثلا: "كل الحق نسبي"، "ليس هناك مطْلَقات". ولكنك الآن ستتسلح بالسلاح اللازم لدحض هذه العبارات السخيفة بسهولة بأن تكشف عجزها عن بلوغ ما وضعَتْه من مقاييس. أي أنك عندما تقلب العبارة المتناقضة على نفسها يمكنك أن تكشف خواءها.

ونحن نطلق على عملية قلب العبارة المتناقضة على نفسها خطة "رود رَنَر" *Road Runner tactic* لأنها تُذَكِّرنا بالشخصيتين الكارتونيتين "رود رَنَر" و"وايل إي. كويوت" *Wile E. Coyote*•. وربما تَذْكُر من أفلام الكارتون التي كانت تُعرض صباح السبت أن الكويوت كان شغله الشاغل وَهَمَّه الأوحد أن يطارد "رود رَنَر" السريع ويتناوله على العشاء. ولكن "رود رَنَر" شديد السرعة وحاد الذكاء. فحالما يحرز الكويوت نوعًا من الانتصار، يتوقف "رود رَنَر" فجأة على حافة الجُرف ويترك الكويوت الذي يركض وراءه معلقًا في الهواء على لا شيء. وما إن يدرك الكويوت أنه لا أرض تحته يقف عليها حتى يهوي إلى قاع الوادي ويسقط في كومة من الرمال.

وهذا هو بالضبط ما تستطيع خطة "رود رَنَر" أن تفعله مع النسبيين وما بعد الحداثيين في يومنا هذا. إنها تساعدهم أن يدركوا أن حججهم أضعف من أن تحملهم. ولذلك، يهوون إلى القاع ويسقطون في كومة من الرمال. وهو ما يجعلك تبدو في منتهى العبقرية! فلنأخذ خطة "رود رَنَر" إلى الجامعة ونشرح لك ما نقصده.

• *Road runner* تعني عَدَّاء المسافات الطويلة وهو في هذا الفيلم الكارتوني اسم لطائر سريع جدًا، أما "الكويوت" *Coyote* فهو حيوان من فصيلة الكلاب البرية أو الذئاب ويعيش في أمريكا الشمالية وأحيانًا ما يسرق الطعام أو يقتل الحيوانات المنزلية الصغيرة. (المترجمة)

العَدّاء رود رَنَر يذهب إلى الجامعة

إن أكثر من يحتاجون اليوم لخطة "رود رَنَر" هم طلاب الجامعات. لماذا؟ لأنك إن استمعت للكثير من أساتذة جامعاتنا، ستجدهم يقولون لك إنه لا يوجد حق. ولكن المدهش أن الآباء والأمهات في العالم أجمع ينفقون فعليًا آلاف الدولارات على التعليم الجامعي حتى يتعلم أبناؤهم وبناتهم **"الحق" القائل بعدم وجود حق**، ناهيك عن غير ذلك من التصريحات المتناقضة التي تفند نفسها مثل: "كل الحق نسبي" (هل **هذه الجملة** حق نسبي؟)، "ليس هناك مُطْلَقات" (هل أنت متأكد بصفة **مطلقة**؟)، "إنه حق بالنسبة لك ولكن ليس بالنسبة لي" (هل هذه العبارة حق بالنسبة لك فقط، أم أنها حق بالنسبة للجميع؟) "حق بالنسبة لك لكن ليس بالنسبة لي" هي الشعار الببغائي العصري، ولكن الواقع أن العالم لا يسير هكذا. جرِّب مثلاً أن تردد هذا الشعار لصَرَّاف البنك، أو ضابط الشرطة، أو مصلحة الضرائب وانظر إلى أين يؤدي بك!

وهذه الشعارات الحديثة خاطئة بالطبع لأنها تفنِّد نفسها بسبب تناقضها. ولكننا نريد أن نوجِّه بضعة أسئلة لمن لا يزالون يقبلونها قبولاً أعمى: إن لم يكن هناك أي حق، فلماذا تحاولون أن تتعلموا أصلاً؟ ما الذي يضطر أي طالب أن يستمع لأستاذه؟ فمهما كان، الأستاذ لا يملك الحق. ما معنى الذهاب إلى المدرسة أو الجامعة، وبالأحرى دفع مصروفاتها؟ وما معنى الابتعاد عن الممنوعات الأخلاقية التي يحدِّدها الأستاذ من الغش في الامتحانات والسرقة الفكرية في الأبحاث الدراسية؟

الأفكار لها عواقب. الأفكار الصالحة تأتي بعواقب صالحة، والأفكار السيئة تأتي بعواقب سيئة. والحقيقة أن الكثير من الطلاب يدركون تداعيات هذه الأفكار السيئة لما بعد الحداثة ويتصرفون بناءً عليها. فإن علـَّمنا طلابنا أنه لا يوجد صواب ولا خطأ، لماذا نندهش عندما يطلق اثنان من الطلاب الرصاص على زملائهم، أو عندما تترك أمٌّ مراهِقةٌ رضيعَها في صندوق القمامة؟ لماذا يجب أن يفعلوا "الصواب" ونحن نُعَلـِّمهم أنه ليس هناك "صواب"؟

لقد كشف "سي. إس. لويس" *C. S. Lewis* عبثيةَ انتظار الفضيلة من أناس تَعَلـَّموا أنه لا توجد فضيلة: "بنوع من السذاجة المقيتة نستأصل العضو ونطالب بأداء وظيفته. نصنع رجالاً بلا قلب وننتظر منهم الفضيلة وحسن السلوك. نستهزئ بالشرف ونُصْدَم عندما نكتشف خونة فيما بيننا. إننا كمن يخصي خيله ويتوقع منها أن تتكاثر[١]

إن حقيقة الأمر أن: الأفكار الخاطئة عن الحق تؤدي إلى أفكار خاطئة عن الحياة. وفي الكثير من الأحيان هذه الأفكار الخاطئة تبرِّر ظاهريًا سلوكيات غير أخلاقية بالمرَّة. لأنك إن قتلت مفهوم الحق، عندئذٍ يمكنك أن تقتل مفهوم أي ديانة صحيحة أو أي أخلاق صحيحة. وقد حاول الكثيرون في ثقافتنا أن يفعلوا ذلك، والأربعون سنة الماضية من الانحدار الديني والأخلاقي تشهد على نجاحهم. فللأسف أن العواقب الوخيمة التي ترتبت على جهودهم ليست صحيحة بالنسبة لهم فقط، ولكنها صحيحة بالنسبة لنا جميعًا.

إذَن الحق موجود. ولا يمكن إنكاره. ومَن ينكرون الحق يزعمون هذا الزعم المتناقض عن الحق الذي يقول بعدم وجود حق. وهم يشبهون في ذلك "الدبويني" *Winnie the Pooh*، يجيبون قارع الباب قائلين: "لا أحد في البيت".

فلنرَ الآن كيف يمكن أن تساعدنا خطة "رود رَنَر" في الرد على الزعم المتشكك في الحق الذي يقول إنه "يستحيل أن نعرف الحق".

هل معرفة الحق ممكنة؟ قَرَعات على الباب...

يؤمن المسيحيون بأن عليهم أن يطيعوا وصية يسوع حين قال: «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم» (مت٢٨: ١٩). ولمساعدة المسيحيين في القيام بهذه "المأمورية العظمى"، ابتكر "دي چيمز كينيدي" *D. James Kennedy* أسلوبًا كرازيًا يعتمد على قرع أبواب البيوت، يطلق عليه "انفجار الكرازة" "*Evangelism Explosion*"(EE). وإن كنت مسيحيًا، أسلوب "انفجار الكرازة" يتيح لك أن تحدِّد بسرعة موقع الشخص روحيًا. فبعد أن تقدِّم نفسك، تسأل من يفتح لك الباب أسئلة من قبيل:

١- هل لي أن أسألك سؤالاً روحيًا؟

٢- إن انتهت حياتك الليلة ووقفت أمام الله، وسألك الله: "لماذا أُدْخِلك إلى سمائي؟" بم ستجيب؟

معظم الناس لديهم من الفضول ما يجعلهم يردّون بالإيجاب على السؤال الأول. (إن قالوا: "ماذا تقصد بالسؤال الروحي؟" تنتقل إلى السؤال الثاني). أما عن السؤال الثاني، فدليل "انفجار الكرازة" يتوقع أن غير المسيحي عادة ما يقدم إجابة "الأعمال الصالحة". فهو يقول شيئًا مثل: "الله سيقبلني لأني شخص صالح في الأساس. لم أقتل أحدًا. أذهب إلى الكنيسة. أعطي

الفقراء..." في هذه الحالة يخبرك دليل "انفجار الكرازة" أن تجيبه بالإنجيل (يعني حرفيًا "الخبر السار"): أن الجميع (بما فيهم أنت) قـَصُروا عن بلوغ مستوى كمالِ الله، وما من أعمال صالحة يمكنها أن تمحو حقيقة أنك ساقط فعليًا في الخطية، لكن الخبر السار أنه يُمْكِنك أن تخلص من العقاب بأن تثق في المسيح الذي تَحَمَّل العقاب نيابةً عنك.

ورغم ما حقَّقه هذا الأسلوب من نجاح ملحوظ، بعض غير المسيحيين لا يجيبون عن السؤالين كما هو متوقع. فمثلاً، قررتُ (أنا "نورم") ذات ليلة أن أستخدم أسلوب "انفجار الكرازة" في الشوارع مع أحد إخوتي من أعضاء الكنيسة. وإليك ما حدث:

قـَرَعْنا الباب.

"مَن الطارق؟" (فتح رَجُلٌ الباب).

رفعت يدي محييًا وقلت: "مساء الخير. اسمي "نورم جايسلر"، وهذا صديقي "رون" *Ron*. نحن من الكنيسة الواقعة في نهاية الشارع".

أجاب الرجل وهو يتفحصنا بعينيه: "أنا "دون" *Don*".

فبادرته فورًا بالسؤال الأول: ""دون" هل عندك مانع أن نسألك سؤالاً روحيًا؟"

أجاب "دون" بثقة وكأنه يتوق لتناوُل لَكْمة كتابية بدلاً من حلوى العشاء: "لا، تَفَضَّل".

فطرحت عليه السؤال الثاني: ""دون"، إذا انتهت حياتك الليلة ووقفت أمام الله، وسألك الله: "لماذا أُدْخِلك إلى سمائي؟" بم ستجيب؟"

فأجاب "دون" غاضبًا: "سأقول لله: "ولماذا لا تُدخلني إلى سمائك؟""

مفاجأة... لا يُفترض أن يقول ذلك! أقصد هذه الإجابة ليست في الكتيب!

بعد لحيظة من الارتباك رفعْتُ صلاة سريعة وأجبت: ""دون"، إن قرعنا بابك وأردنا الدخول إلى بيتك، فقلتَ لنا: "لماذا أُدْخِلكم إلى بيتي؟" فقلنا: "ولماذا لا تـُدْخِلنا؟" ماذا تقول؟"

أشار "دون" بإصبعه نحو صدري وأجاب بحزم: "سأخبركما إلى أين تذهبان!"

فرددتُ فورًا: "هذا بالضبط ما سيقوله الله لك!"

صُعِقَ "دون" لحظة ولكنه بعدئذٍ ضيَّق عينيه وقال: "الحقيقة أنا لا أؤمن بالله. أنا ملحد".

"أنت ملحد؟"

"بالضبط".

فسألته: ''هل أنت متيقن يقينـًا مطلقـًا أن الله غير موجود؟''

فصمت ثم قال: ''لا لستُ متيقنـًا يقينـًا **مطلقـًا**. أظن أنه من المحتمل أن يكون هناك إله''.

فأخبرته: ''إذَن أنت لستَ ملحدًا حقيقيًا. أنت لاأدري، لأن الملحد يقول "أنا أدري أن الله غير موجود". واللاأدري يقول: "لستُ أدري إن كان الله موجودًا"''.

فاعترف قائلاً: ''آه... وهو كذلك. إذَن أظن أني لاأدري''.

يا له من تقدُّم! بسؤال واحد فقط انتقلنا من الإلحاد إلى اللاأدرية! ولكن بقي عليَّ أن أكتشف نوع اللاأدريين الذي ينتمي إليه ''دون''.

فسألته: ''"دون"، أي نوع من اللاأدريين أنت؟''

فسألني ضاحكـًا: ''ماذا تقصد؟'' (محتمل أنه كان يقول لنفسه ''منذ دقيقة واحدة كنتُ ملحدًا. لا أعلم أنا أي نوع من اللاأدريين الآن!'')

فشرحتُ قائلاً: ''"دون" اللاأدريون نوعان. الأول هو اللاأدري **العادي** الذي يقول إنه **لا** يعرف أي شيء على وجه اليقين، والثاني هو اللاأدري **العنيد** الذي يقول إنه **لا يستطيع** أن يعرف أي شيء على وجه اليقين''.

أجاب ''دون'' واثقـًا: ''أنا من النوع العنيد. لا تستطيع أن تعرف أي شيء على وجه اليقين''.

وهنا رأيت أن زعمه متناقض يفند نفسه، فأطلقت خطة ''رود رَنَر'' وسألته: ''"دون"، إن كنت تقول إنك لا تستطيع أن تعرف أي شيء على وجه اليقين، فكيف تعرف **ذلك** على وجه اليقين؟''

فقال متحيرًا: ''ماذا تقصد؟''

فشرحتُ له بأسلوب مختلف قائلاً: ''كيف **تعرف** على وجه اليقين أنك لا تستطيع أن **تعرف** أي شيء على وجه اليقين؟''

لاحظت بريق الفهم بدأ يطل من عينيه، لكني قرَّرت أن أضيف نقطة أخرى: ''ثم إنك يا "دون" لا تستطيع أن تتشكك في كل شيء لأن هذا يعني أنك لا بد أن تتشكك في الشك، ولكنك كلما شككت في الشك، ازداد يقينك''.

فبدأ يلين، وقال: ''أظن أني فعلاً **أستطيع** أن أعرف شيئـًا على وجه اليقين. مؤكد أني لاأدري **عادي**''.

وهنا بدأنا فعلاً نصل إلى نقطة محددة. فبالقليل من الأسئلة انتقل ''دون'' من الإلحاد مرورًا باللاأدرية **العنيدة** إلى اللاأدرية **العادية**.

فاستطردتُ قائلاً: "ما دمت تعترف الآن أنك **تستطيع** أن تعرف، لماذا لا تعرف إن كان الله موجودًا؟"

فهز كتفيه قائلاً: "أظن لأنه ما من أحد بيَّن لي أي أدلة".

وهنا سألته سؤالاً بمليون دولار: "هل ترغب في الاطلاع على بعض الأدلة؟"

فأجاب: "بالتأكيد".

وهذا هو أفضل نوع من الأشخاص يمكنك أن تتحدث إليه: شخص يريد أن ينظر نظرة صادقة للأدلة. فالإرادة ضرورية لأن الأدلة لا تستطيع أن تقنع مَن لا يريد.

وبما أن "دون" كانت له الإرادة، أعطيناه كتابًا بقلم "فرانك موريسون" *Frank Morison* بعنوان "مَن دحرج الحَجَر؟"[٢] *Who Moved the Stone* وقد كان "موريسون" شكوكيًا عَزَمَ أن يكتب كتابًا يفند فيه المسيحية، ولكنه بدلاً من أن يكتب الكتاب اقتنع بالأدلة أن المسيحية صحيحة بالفعل. (والحقيقة أن الفصل الأول من كتاب "مَن حَرَّكَ الحَجَر؟" عنوانه "الكتاب الذي أبى أن يُكتَب" "*The Book That Refused to Be Written*").

ثم زرنا "دون" بعد فترة قصيرة. ووصف الأدلة التي قدمها "موريسون" بأنها "مقنعة جدًا". وبعد عدة أسابيع في دراسة لإنجيل يوحنا، قَبِل "دون" يسوع المسيح ربًا ومخلصًا شخصيًا.

واليوم "دون" يخدم في إحدى الكنائس المعمدانية بالقرب من "سانت لويس" في ولاية ميزوري. وعلى مدى سنوات وهو يقود حافلة الكنيسة صباح الأحد ليأتي بأطفال الحي الذين لا يذهب آباؤهم وأمهاتهم إلى الكنيسة. وخدمته تُمَثِّل لي (أنا "نورم") قيمة خاصة لأن رَجُلَين مثل "دون" (مستر "كوستي" *Costie* ومستر "سويتلاند" *Sweetland*) أخذاني إلى الكنيسة بالحافلة أكثر من ٤٠٠ مرة، كل يوم أحد منذ سن التاسعة حتى السابعة عشر. وقبولي للمسيح في سن السابعة عشر يرجع الفضل الأكبر فيه لخدمة الحافلة هذه. أظن أن المثل القائل "كما تزرع تحصد" مثل صحيح، حتى إن كانت حافلة مدرسة الأحد.

هل يمكن ان تكون كل الديانات صحيحة؟

الدرس الذي نستخلصه من قصة "انفجار الكرازة" هو أن اللاأدرية التامة أو الشكوكية التامة تفنِّد نفسها. فاللاأدريون والمتشككون يزعمون زعمًا بخصوص الحق يقول إننا لا نستطيع أن نزعم أي شيء بخصوص الحق. وهم يقولون إننا لا نستطيع أن نعرف الحق،

ولكنهم بعدئذٍ يزعمون أن موقفهم هذا حق. ولكن من المستحيل أن يجمعوا بين الاثنين.

لذا فقد أثبتنا أن معرفة الحق ممكنة. بل إن الحق لا يمكن إنكاره. ولكن ألا يمكن أن تكون كل الديانات صحيحة؟ مما يؤسَف له أن اللغط المرتبط بهذا السؤال لا يقتصر على الدوائر العلمانية فحسب، بل حتى بعض قسوس الكنائس متحيرون في هذا السؤال.

وقد سمع البروفسور "رونالد ناش" *Ronald Nash* الأستاذ بكلية اللاهوت عن مثال جيد على ذلك. فقد أخبرنا عن أحد طلابه منذ بضع سنوات ذهب لقضاء عطلة الكريسماس في بيته في مدينة "بولينج جرين" *Bowling Green* بولاية كنتاكي. وأثناء العطلة قرّر هذا الطالب الذي يؤمن بالكتاب المقدس أن يغامر ويحضر خدمة الأحد في كنيسة لم يذهب إليها من قبل. ولكن ما إن نطق القس بأول جملة في عظته، حتى أدرك الطالب خطأه، فقد كان القس يناقض الكتاب المقدس.

وهكذا بدأ القس: "موضوع عظتي هذا الصباح أن كل المعتقدات الدينية صحيحة!" وأخذ الطالب يتلوى في مقعده، بينما استمرّ القس يؤكِّد لكل شخص في الحاضرين أن كل ما لديه من عقائد دينية "حق"!

وبعد انتهاء العظة أراد الطالب أن يَنْسَلّ خارجًا دون أن يلحظه أحد، ولكن القس، ضخم الجثة، وقف بردائه على الباب يحتضن كل شخص بقوة عند خروجه.

فحيّا القس الطالب وسأله بصوت جهوري: "من أين أنت يا ابني؟"

"أنا من "بولينج جرين"، سيدي. أتيت من كلية اللاهوت لقضاء العطلة مع أسرتي".

"كلية اللاهوت! ممتاز. إذَن ما هي معتقداتك الدينية يا بُنَيّ؟"

"سيدي، أُفَضِّل أن أحتفظ بها لنفسي".

"لماذا يا بُنَيّ؟"

"لأني لا أريد أن أؤذيك، سيدي".

"لا يا بُنَيّ. لن تؤذيني. وأيًا كانت معتقداتك فهي صحيحة. بمَ تؤمن إذَن؟"

فأذعن الطالب وقال: "حسنًا". ومال نحو القس وأحاط فمه بيده وهمس: "سيدي، أنا أؤمن أنك ذاهب إلى الجحيم!"

اشتعل وجه القس حمرة وهو يحاول أن يجد إجابة، ثم قال: "أنا، آه، أظن أني... أخطأت! لا يمكن أن تكون كل المعتقدات الدينية صحيحة لأنه مؤكد أن معتقداتك ليست صحيحة".

بالطبع، كما أدرك القس، يستحيل أن تكون كل المعتقدات الدينية صحيحة لأن الكثير من المعتقدات الدينية متناقضة، أي أنها تـُعَلـِّم مفاهيم عكس بعضها البعض. فمثلاً المسيحيون المحافظون يؤمنون أن مَن لم يقبل المسيح مخلِّصًا اختار جهنّم مصيرًا أبديًا له. والكثير من المسلمين أيضًا يؤمنون أن غير المسلمين ذاهبون إلى جهنم، إلا أننا غالبًا ما نتجاهل ذلك. والهندوس عمومًا يؤمنون أن الجميع، بصرف النظر عن معتقداتهم، محبوسون في دائرة لانهائية من تناسخ الأرواح حسب أعمالهم. وهذه المعتقدات المتناقضة لا يمكن أن تكون كلها صحيحة.

والحقيقة أن الأفكار المتناقضة في ديانات العالم تزيد عن الأفكار المتوافقة فيها. والفكرة القائلة بأن كل الديانات في جوهرها تـُعَلـِّم نفس التعاليم، لذا علينا أن نحب بعضنا بعضًا، تنم عن سوء فهم خطير لديانات العالم. فمعظم الديانات تتشابه في قانونها الأخلاقي نوعًا ما؛ لأن الله زرع الصواب والخطأ في ضمائرنا (سنناقشُ ذلك في الفصل السابع)، إلا أنها تختلف في كل القضايا الرئيسية تقريبًا، بما فيها طبيعةُ الله، وطبيعة الإنسان، والخطية، والخلاص، والسماء، وجهنم، والخليقة!

فكِّر فيها: **طبيعةُ الله، طبيعة الإنسان، الخطية، الخلاص، السماء، جهنم، الخليقة.** تلك هي الموضوعات الكبيرة! وإليك بعضًا من تلك الاختلافات الكبيرة:

- اليهود والمسيحيون والمسلمون يؤمنون، بصور مختلفة، بالله الخالق الحافظ، بينما يؤمن معظم الهندوس وأتباع العصر الجديد أن كل الموجودات جزء من قوة غير شخصية *impersonal* متوحدة مع الوجود *pantheistic* يطلقون عليها "الله".
- كثير من الهندوس يعتقدون أن الشر وَهْمٌ مَحضْ، في حين أن المسيحيين والمسلمين واليهود يؤمنون أن الشر حقيقة.
- المسيحيون يؤمنون أن الإنسان يخلص بالنعمة في حين أن سائر الديانات جميعًا، إن كانت تؤمن بالخلاص أصلاً، تـُعَلـِّم بنوع من الخلاص على أساس الأعمال الصالحة (وتختلف فيما بينها اختلافًا كبيرًا في تعريف "الصلاح" وفيما يخلص منه الإنسان).

وهي مجرد أمثلة قليلة على الكثير من الاختلافات الجوهرية. اختلافات أكبر من استيعاب الفكرة القائلة بأن كل الديانات تتفقُ جوهريًا في تعاليمها.

الحق مقابل قبول الاختلاف

رغم أن معظم الديانات تحوي بعض المعتقدات الصحيحة، لا يمكن أن تكون كل المعتقدات الدينية صحيحة لأنها تقصي بعضها البعض، أي أنها تحوي تعاليم مضادة لبعضها البعض. وهو ما يعني أن بعض المعتقدات الدينية لا بد أن تكون خاطئة. ولكنك لا يجب أن تقول هذا الكلام في أمريكا اليوم. يجب أن "تقبل الاختلاف" بين كل المعتقدات الدينية. وفي ثقافتنا اليوم لم يعد "قبول الاختلاف" *tolerance* يعني أن تجبر نفسك على تَحَمُّل شيء تراه خاطئًا (طبيعي أنك لا تجبر نفسك على تَحَمُّل ما تتفق معه). **ولكن قبول الاختلاف الآن يعني أنك يجب أن تقبل كل معتقد باعتباره صحيحًا!** وهو ما يُعرَف في المجال الديني باسم التعدّدية الدينية، وتعني الاعتقاد بأن كل الديانات صحيحة. إلا أن هذا التعريف الجديد لقبول الاختلاف ينطوي على عدد من المشكلات.

أولاً، لا بد أن نسجِّل امتناننا لما ننعم به من حرية دينية في هذا البلد، وأننا لا نؤمن بفرض ديانة بقوة القانون (انظر كتابنا "تشريع الأخلاق" *Legislating Morality*).[٣] فنحن واعون تمامًا بمخاطر عدم قبول الاختلاف الديني، ونؤمن أنه علينا أن نقبل مَن يختلفون عنا في العقائد الدينية ونحترمهم. إلا أن هذا لا يعني أنه علينا أن نعتنق شخصيًا الفكرة المستحيلة القائلة بأن كل المعتقدات الدينية صحيحة. فبما أن المعتقدات الدينية المتضادة، يستحيل أن تكون كلها صحيحة، فلا معنى للتظاهر بأنها صحيحة. والحقيقة أن هذا التظاهر خطير على المستوى الفردي. فإن كانت المسيحية صحيحة، فعدم إيمانك بها يهدِّد مصيرك الأبدي. وكذلك، إن كان الإسلام صحيحًا، فعدم إيمانك به يهدّد مصيرك الأبدي.

ثانيًا، الزعم الذي يقول إنه "يجب ألا تتساءل في صحة المعتقدات الدينية لأي شخص" هو نفسه يمثِّل معتَقَدًا دينيًا يعتنقه التعدديون. ولكن هذا المعتقد في حد ذاته يتساوى في إقصائه للمعتقدات الأخرى وفي "رفضه للاختلاف" مع أي معتقد ديني يؤمن به المسيحي أو اليهودي. بمعنى أن التعدديين يرون أن كل المعتقدات غير التعددية خاطئة. لذا، فالتعدديون متصلبو الفكر ومنغلقو العقل، مثلهم مثل غيرهم ممن يطلقون مزاعم عن الحق في سوق الأفكار، ويريدون مِنْ كل مَنْ يختلف معهم أن يرى الأمور كما يرونها هم.

ثالثًا، منع التساؤل في صحة المعتقدات الدينية يُعَبِّر أيضًا عن موقف أخلاقي مطلق. ما المانع أن نتساءل في صحة المعتقدات الدينية؟ هل هذا الفعل ضد الأخلاق؟ وإن كان كذلك،

فمن الذي وضع هذا المعيار؟ هل يملك التعدديون أسبابًا وجيهة تؤيد **اعتقادهم** بأننا يجب ألا نتساءل في صحة المعتقدات الدينية، أم إنه مجرد رأي شخصي يريدون أن يفرضوه علينا جميعًا؟ فإن لم يتمكنوا من أن يقدِّموا لنا أسبابًا وجيهة لهذا المعيار الأخلاقي، لماذا نسمح لهم بفرضه علينا؟ ولماذا يحاول التعدديون فرض ذلك الموقف الأخلاقي علينا بأي حال؟ فهم بهذا لا "يقبلون الاختلاف".

رابعًا، الكتاب المقدس يأمر المسيحيين أن يتساءلوا في صحة المعتقدات الدينية (مثلاً تث١٣: ١-٥؛ ١يو٤: ١؛ غل١: ٨؛ ٢كو١١: ١٣، وغيرها). وبما أن التساؤل في صحة المعتقدات الدينية يدخل ضمن المعتقدات الدينية للمسيحيين، إذَن التعدّديون يجب أن يقبلوا هذا المعتقَد المسيحي أيضًا، وفقًا للمعيار الذي وضعوه بأنفسهم. ولكنهم لا يقبلونه طبعًا. فمن المضحك أن التعدديين، أنصار المفهوم الجديد لقبول الاختلاف، لا يقبلون الاختلاف على الإطلاق. فهم لا "يقبلون" إلا مَن يتفق معهم، وهو ما لا يُعَدّ قبولاً للاختلاف، أيًا كان تعريف قبول الاختلاف.

خامسًا، زَعْم التعدديين بأنه يجب ألا نتساءل في صحة المعتقدات الدينية مشتق من الحظر الثقافي الخاطئ على إصدار الأحكام. إنَّ حظر إصدار الأحكام هو حظر خاطئ لأنه يعجز عن التوافق مع المعيار الذي يضعه: عبارةُ "يجب ألا تحكم" هي نفسها حكم! (التعدديون يسيئون تفسير كلام يسوع عن إصدار الأحكام [مت٧: ١-٥]. فيسوع لم يمنع هذا النوع من إصدار الأحكام، ولكنه مَنَعَ فقط الحكم المرائي). بل الواقع أن الجميع، من تعدديين ومسيحيين وملحدين ولاأدريين، يصدرون أحكامًا. فالقضية ليست في إصدار الأحكام أو عدمه، ولكن في إصدار الأحكام **الصحيحة**.

وأخيرًا، هل التعدديون مستعدون لقبول المعتقدات الدينية التي تعتنقها بعض الجماعات الإرهابية باعتبارها صحيحة، وخاصةً عندما تقول تلك المعتقدات إن كل مَن لا يؤمنون بعقائدهم (ومنهم التعدديون) يجب قتلهم؟ هل هم مستعدون لقبول المعتقدات الدينية لمن يؤمنون بذبائح الأطفال أو غيرها من الأعمال الوحشية باعتبارها صحيحة؟ نتمنى لا.

صحيح أنه يجب علينا أن نحترم حقوق الآخرين في أن يؤمنوا بما يشاؤون، إلا أننا نكون أغبياء وغير محبين للآخرين إن قَبِلْنا ضمنًا كل عقيدة دينية باعتبارها صحيحة. لماذا

نكون غير محبين إن فعلنا ذلك؟ لأنه إن كانت المسيحية صحيحة، فإن أوحينا لأي شخص أن معتقداته الدينية المخالفة للمسيحية أيضًا صحيحة نكون غير محبين له. فتأكيد ما عنده من خطإٍ قد يبقيه في طريق الهلاك الأبدي. ولكن إن كانت المسيحية صحيحة، علينا أن نـُعَرِّفه الحق بلطف؛ لأن الحق فقط هو الذي يستطيع أن يحرِّره.

كنت أعمى والآن ابصر

بم تخبرنا التعددية المذهلة للمعتقدات الدينية عن الحق الديني؟ للوهلة الأولى قد يظهر أن تعدد المعتقدات المتناقضة يؤكد مَثـَل الفيل الذي ذكرناه في المقدمة، أي أن الحق الديني لا يمكن معرفته. ولكن الحقيقة أن العكس هو الصحيح.

وللتذكِرة، نرى في هذا المثل ستة رجال مكفوفين يتفحصون فيلاً. وكل رجل يتحسس جزءًا مختلفـًا من الفيل، ومن ثم يتوصل إلى استنتاج مختلف بخصوص الشيء الموجود أمامه. يمسك أحدهم بالناب ويقول: "هذا رمح!" ويمسك آخرُ الخرطومَ ويقول: "إنه ثعبان!" أما مَنْ يحتضن الساق يقول: "هذه شجرة!" والأعمى الذي يمسك الذيل يقول: "معي حبل!" ومن يتحسس الأذن يقول "إنها مروحة!" ومَن ينحني على جانب الفيل يقول واثقـًا: "إنه حائط!" ويقال إن هؤلاء الرجال العميان يمثلون ديانات العالم لأن كلاً منهم يتوصل إلى استنتاج مختلف عما يتحسسه. ويقال لنا إنه ما من دين واحد يمتلك "الحق"، بأل التعريف، مثل كل رجل من الستة العمي. فالحق الديني نسبي يختص بالفرد. إنه ذاتي، وليس موضوعيًا.*

وقد يبدو هذا الكلام مقنعًا حتى تسأل نفسك سؤالاً واحدًا: "ما منظور الشخص الذي يروي هذا المثل؟" حسنًا، لنرَ الشخص الذي يروي هذا المثل... يبدو أن منظوره **موضوعي** للعملية كلها لأنه يدرك أن الرجال العميان مخطئون. بالضبط. والحقيقة أنه ما كان لـَيعرف أن الرجال العميان مخطئون إلا إذا كان عنده منظور موضوعي لما هو صائب!

فإن كان راوي المثل يمكنه أن يدرك الأمر من منظور موضوعي، لِمَ لا يستطيع الرجال العمي ذلك؟ بإمكانهم ذلك، فإن تمَكـَّن الرجال العمي من أن يروا فجأة، سيتمكنون هم أيضًا من إدراك خطئهم في البداية. سيدركون أن الكائن الموجود أمامهم فيل وليس حائطـًا، ولا مروحة، ولا حبلاً.

---

* للاطلاع على الفرق بين الموضوعية والذاتية يمكن الرجوع للحاشية السفلية ص ٢٦. (المترجمة)

ونحن أيضًا نستطيع أن نرى الحق الديني. ولكن للأسف الكثير منـّا ممن ينكرون وجود حق في الدين ليسوا عميانـًا **فعليًا** ولكنهم عميان **عمدًا**. فقد لا نريد أن نعترف بوجود حق في الدين لأن ذلك الحق سيُبَكِّتنا. ولكننا إن فتحنا أعيننا وتوقفنا عن الاختباء خلف هذا الكلام الفارغ الذي يفنـِّد نفسه زاعمًا أن معرفة الحق غير ممكنة، سنتمكن من رؤية الحق. ولن نرى الحق في المجالات التي نريده فيها فقط، كالمال، والعلاقات، والصحة، والقانون... إلخ، بل الحق الديني أيضًا. ونقول مع الأعمى الذي شفاه يسوع: "كنت أعمى والآن أبصر".

وقد يقول المتشكك: "لحظة من فضلك! من المحتمل أن مَثَل الفيل ليس مُوَفـَّقـًا، إلا أن ذلك لا يُثـْبِت أن معرفة الحق الديني ممكنة. لقد أثـْبَتَّ أن معرفة الحق ممكنة، ولكن ليس بالضرورة الحق الديني. أوَ لم يدحض "ديـڤيد هيوم" *David Hume* وكذلك "إيمانيول كانط" *Immanuel Kant* فكرة الحق الديني؟"

بالقطع لا، وسنناقش السبب في الفصل التالي.

الملخص والخلاصة

١- رغم ما تنضحه ثقافتنا من نسبية، فالحق مطلق، وإقصائي، وقابل للمعرفة. وإنكار الحق المطلق وإمكانية معرفته هو افتراض يفنـِّد نفسه بإثبات عكس ما يريد أن يُثـْبِت.

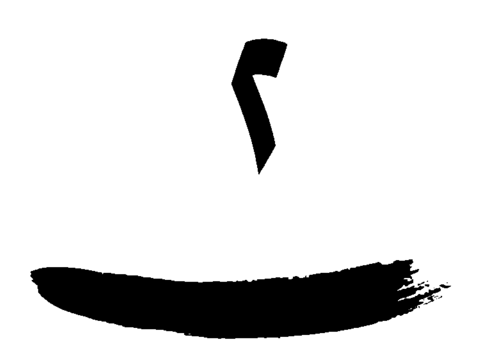
٢- خطة "رود رَنَر" تقلب الجملة على نفسها وتساعد في كشف الجـُمَل المفنـِّدة لنفسها (التي هي بالتالي خاطئة) التي أصبحت واسعة الانتشار اليوم. ومن هذه الجُمَل: "ليس هناك حق" (هل **تلك الجملة** حق؟)، "كل الحق نسبي" (هل **تلك الجملة** حق نسبي؟)، "لا يمكنك أن تعرف الحق" (فكيف عرفت **ذلك** إذَن؟). في الأساس أي جملة لا يمكن تأكيدها (لأنها تناقض نفسها) لا بد أن تكون خاطئة. فالنسبيون يهزمون أنفسهم بمنطقهم.

٣- الحق لا يعتمد على مشاعرنا ولا استحساناتنا. فالشيء يكون صحيحًا سواء أعْجَبَنا أم لا.

٤- خلافـًا للرأي الشائع، ديانات العالم الرئيسية لا "تـُعَلـِّم جميعًا تعاليم واحدة". بل

إنها تختلف فيما بينها اختلافات جوهرية ولا تتفق إلا في أمور سطحية. فلا يمكن أن تكون كل الديانات صحيحة لأنها تُعَلِّم تعاليم متناقضة.

٥- بما أنه يستحيل منطقيًا أن تكون كل الديانات صحيحة، لا نستطيع أن نقبل التعريف الحديث لقبول الاختلاف الذي يطالبنا بقبول الفكرة المستحيلة القائلة بأن كل المعتقدات الدينية صحيحة. لذا، علينا أن نحترم معتقدات الآخرين، ولكن نخبرهم بالحق بمحبة. فمهما كان، إن كنتَ تحب الناس حقًا وتحترمهم، ستخبرهم بالحق المتعلق بمعلومات قد تَجُرّ عواقب أبدية.



ما الذي يجعلنا نُصَدِّق أي شيء على الإطلاق؟

في كل الحالات تقريبًا يُكَوِّن البشر معتقداتهم لا على أساس البرهان بل على أساس جاذبية المعتقد.

"بليز باسكال" *Blaise Pascal*

يدير الكاتب والمتحدث "چيمز سَير" *James Sire* حلقة نقاشية تفاعلية في الكليات والجامعات في أنحاء البلاد تبعث استنارات جديدة في الأذهان. والحلقة النقاشية بعنوان "ما الذي يجعلنا نُصَدِّق أي شيء على الإطلاق" *Why Should Anyone Believe Anything At All?*

وعادة ما يجذب هذا العنوان المثير جمهورًا كبيرًا. ويبدأ "سَير" بطرح هذا السؤال على الحضور: "لماذا يُصَدِّق الناس ما يُصَدِّقون؟" ورغم تنوع الإجابات وتعدُّدها، يوضِّح "سَير" أن كل إجابة تدخل ضمن واحدة من هذه الفئات الأربع: اجتماعية، نفسية، دينية، فلسفية.[1]

الأسباب الاجتماعية	الأسباب النفسية	الأسباب الدينية	الأسباب الفلسفية
الوالدان	الارتياح	النص المقدس	الاتساق
الأصدقاء	سلام العقل	القس/الكاهن	الترابط
المجتمع	المعنى	المعلم الهندوسي	الاكتمال (أفضل
الثقافة	الهدف	الحاخام	تفسير لكل الأدلة)
	الأمل	الإمام	
	الهوية	الكنيسة	

جدول ٢-١

يبدأ "سَير" من اليمين ويسأل الطلاب عن كل سبب في كل فئة قائلاً: "هل هذا سبب وجيه لتصديق شيء ما؟" وإن كان الطلاب حادي الذكاء (مثل طلاب كلية اللاهوت الإنجيلية الجنوبية! *Southern Evangelical Seminary*)، قد يسير الحوار هكذا:

"سَير": أرى أن الكثيرين منكم ذكروا عوامل اجتماعية. فمثلاً الكثيرون يعتنقون معتقدات معينة لأن والديهم يعتنقونها. فهل ترون أن هذا العامل وحده يمثِّل سببًا وجيهًا كافيًا لتصديق شيء ما؟

الطلاب: لا. الوالدان قد يخطئان أحيانـًا.

"سَير": وماذا عن المؤثرات الثقافية؟ هل ترون أنه على الناس أن يُصَدِّقوا شيئًا لمجرد أنه مقبول ثقافيًا؟

الطلاب: لا. ليس بالضرورة. ثقافة النازيين قـَبِلَت قـَتْل كل اليهود. وقبولهم لا يجعل قتل اليهود صحيحًا.

"سَير": ممتاز. بعضكم ذَكَر عوامل نفسية مثل الارتياح. هل هذا سبب وجيه، يكفي لتصديق شيء؟

الطلاب: لا. لا نشعر "بارتياح" لذلك! الحقيقة أن الارتياح ليس معيارًا للحق. فقد يريحنا الاعتقاد في وجود إله يعتني بنا، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنه موجود بالفعل. وكذلك المدمن قد يستريح مؤقتـًا لأحد أنواع المخدرات، إلا أن ذلك المخدر قد يودي بحياته.

"سَير": إذَن تقصدون أن الحق مهم لأننا إن أخطأنا قد تترتب على ذلك عواقب؟

الطلاب: نعم. إن أخطأ أحدهم بخصوص دواء ما، قد يفرط في تناوله ويموت. وكذلك إن أخطأ أحدهم في تقديره لسُمْك الجليد، قد يسقط فيه ويتجمد حتى يموت.

"سَير": إذَن من المنطقي ألا نُصَدِّق إلا الأشياء الصحيحة لاعتبارات عملية.

الطلاب: طبعًا. وعلى المدى البعيد الحق يحمي والخطأ يضر.

"سَير": إذَن الأسباب الاجتماعية والنفسية وحدها لا تمثل أساسًا كافيًا لتصديق شيءٍ ما. ماذا عن الأسباب الدينية؟ البعض ذكروا الكتاب المقدس، وآخرون ذكروا القرآن، والبعض الآخر استقوا معتقداتهم من الكهنة أو المعلمين الهندوس. هل يجب أن تصدِّق شيئـًا لمجرد أن مصدرًا دينيًا أو كتابًا مقدسًا يقول لك ذلك؟

الطلاب: لا. لأن السؤال الذي يطرح نفسه: "كتاب مَن أو مصدر مَن الذي يجب أن نُصَدِّقه؟" فمهما كان، الكتب تتناقض مع بعضها البعض.

"سَير": هل يمكن أن تعطوني مثالاً؟

الطلاب: الكتاب المقدس مثلاً يتناقض مع كتب أخرى. فلا يمكن أن يكون كلاهما صحيحًا. فالكتاب المقدس يقول إن يسوع مات على الصليب وقام بعد ثلاثة أيام (١كو١٥: ١-٨)، في حين أن بعض الأديان الأخرى تقول إن يسوع شخصية حقيقية ولكنه لم يمت على الصليب. لذا، إن كان أحدهما صحيحًا، لا بد أن يكون الآخر خاطئًا. وإن لم يكن هناك شخص حقيقي يدعى يسوع على الإطلاق، يكون كلاهما خاطئًا.

"سَير": فكيف نحكم إذَن بين الاثنين؟

الطلاب: نحتاج بعض البراهين من خارج هذين النصين، اللذين يُعتبران مقدَّسَيْن، حتى نكتشف أيهما صحيح، إن كان أحدهما بالفعل صحيحًا.

"سَير": من أي فئة نستمد هذه البراهين؟

الطلاب: لا يبقى لنا إلا الفئة الفلسفية.

"سَير": ولكن كيف يمكن لفلسفة أحد الأشخاص أن تكون برهانًا؟ ألا تُعتبر مجرد رأي شخصي؟

الطلاب: لا. لا نقصد الفلسفة بهذا المعنى لكلمة فلسفة، ولكن بمعناها الكلاسيكي حيث تعني الفلسفة العثور على الحق بالمنطق، والدليل، والعِلم.

"سَير": ممتاز! فلنسأل السؤال نفسه عن الفئة الفلسفية بناءً على ذلك التعريف. هل يستحق الشيء تصديقه إن كان منطقيًا، ومدعومًا بالأدلة، وإن كان يقدِّم أفضل تفسير لكل البيانات؟

الطلاب: هذا الكلام مقبول جدًا!

إنَّ كشف المبررات القاصرة للمعتقدات يمهِّد الطريق للباحث عن الحق ليعثر على مبررات وافية. وهذا ما يفعله المتخصِّص في الدفاعيات. فالمدافع هو شخص يبين ما إذا كان المنطق السليم والدليل يدعمان معتقدًا ما أو يتناقضان معه. وهو ما نحاول أن نفعله في هذا الكتاب، وما يفعله "سَير" في حلقته النقاشية.

ومنهج "سَير" السُّقراطي* يساعد الطلاب على إدراك ثلاثة أمور على الأقل. أولاً، أي تعليم، سواء أكان دينيًا أم غير ديني، لا يستحق الثقة إلا إذا كان يشير إلى الحق. ولكن اللامبالاة بالحق موقف خطير. والحقيقة أن تصديق الخطإ يمكن أن يَجُرّ عواقب مميتة زمنيًا، وأبديًا أيضًا إن كان أي من التعاليم الدينية صحيحًا.

ثانيًا، الكثير من المعتقدات التي يعتنقها الناس اليوم لا تدعمها الأدلة، ولكنها مدعومة فقط باستحساناتهم الذاتية. وكما قال "پـاسكال": في كل الحالات تقريبًا يُكَوِّن البشر معتقداتهم لا على أساس البرهان بل على أساس جاذبية المعتقد. إلا أن الحق ليس مسألة ذوق ذاتي، ولكنه حقيقة موضوعية.

وأخيرًا، حتى يعثر الإنسان على الحق، عليه أن يكون مستعدًا للتخلي عن تلك الاستحسانات الذاتية في سبيل الوصول للحقائق الموضوعية. وأفضل السبل لاكتشاف الحقائق هي المنطق، والدليل، والعِلم.

ورغم أن المنطق، والدليل، والعِلم، تمثِّل أفضل طريق للتوصل إلى الحق، يظل هناك اعتراض عند البعض. وذلك الاعتراض يتعلق بالمنطق، فهم يقولون أي منطق يجب أن نتبعه، المنطق الشرقي أم الغربي؟ يروى "راڤـي زكراياس" *Ravi Zacharias* حكاية مضحكة تكشف الإجابة.

المنطق الغربي مقابل المنطق الشرقي

"راڤـي زكراياس" باعتباره مدافعًا وكاتبًا مسيحيًا هندي الأصل يجوب أنحاء البسيطة مقدمًا الأدلة على الإيمان المسيحي. وهو يتميز بفكر ثاقب وشخصية جذابة تجعله من المتحدثين المفضَّلين في الكليات والجامعات.

ومؤخَّرًا بعد أن قدَّم عرضًا في إحدى الجامعات الأمريكية عن تَفَـرُّد المسيح، هاجمه أحد أساتذة الجامعة متهمًا إياه بأنه لا يفهم المنطق الشرقي. ففي فترة الأسئلة والإجابة انبرى الأستاذ قائلاً: "دكتور "زكراياس"، ما عرضتَه عن المسيح زاعمًا ومُثبتـًا أنه الطريق الوحيد للخلاص خاطئ من وجهة نظر الهنود لأنك تستخدم منطق "إمّا... أو". في الشرق لا نستخدم

---

* هو المنهج الذي اتبعه سقراط في تعليمه ويعتمد على طرح الأسئلة للتوصل إلى الحق (*www.law.uchicago.edu/prospectives/lifeofthemind/socraticmethod*)، تم الاطلاع على الرابط بتاريخ ٢٤ تموز/يوليو ٢٠١٦. (المترجمة)

منطق "إمّا... أو"، إنه منطق غربي. ولكننا في الشرق نستخدم منطقَ "كلٍّ من... و". إذَن الخلاص ليس **إما** بالمسيح **أو** لا طريق سواه، ولكنه **بكل من** المسيح وطرق أخرى".

وهو ما رآه "راقـي" مضحكًا جدًا لأنه نشأ في الهند، وهذا أستاذ أمريكي مولود في الغرب يقول له إنه لا يفهم كيف تسير الأمور في الهند! وكان الأمر مثيرًا للغاية حتى إن "راقـي" قَبِل دعوة الأستاذ على الغداء ليناقش الموضوع مطولاً.

وقد انضم إليهما على الغداء أحد زملاء الأستاذ، وبينما كان يأكل هو و"راقـي" استخدم الأستاذ كل ما على المائدة من مناشف وقواعد أطباق لتوضيح فكرته بخصوص المنطق الغربي والمنطق الشرقي.

قال الأستاذ بإصرار: "هناك نوعان من المنطق".

واستمر "راقـي" يجيب قائلاً: "لا، لستَ تقصد ذلك".

وأصر الأستاذ قائلاً: "بل إن هذا ما أعنيه بكل تأكيد".

واستمر الحال هكذا لما يزيد عن نصف ساعة: الأستاذ يحاضر، ويكتب، ويرسم. ومن شدة انهماكه في توضيح أفكاره نسي أن يتناول وجبته التي بدأت تتجمد في الطبق.

وعند انتهاء "راقـي" من تناول طعامه قرر إطلاق خطة "رود رَنَر" لتفنيد الأستاذ المشوش، المُصِرّ على أفكاره، فقاطعه قائلاً: "بروفسور، أظن أنه بإمكاننا حل هذا الجدال بمنتهى السرعة بسؤال واحد فقط".

فرفع عينيه من على الرسم الذي كان منشغلاً به وتوقف لحظة ثم قال: "تَـفَـضَّـل".

فانحنى "راقـي" إلى الأمام ونظر في عيني الأستاذ وسأله: "هل تقصد أني عندما أكون في الهند لا بد أن أستخدم **إما** "منطقَ كلٍّ من... و" **أو** لا شيء سواه؟"

فنظر الأستاذ إلى "راقـي" مذهولاً، فأعاد "راقـي" السؤال مؤكِّدًا: "هل تقصد أني عندما أكون في الهند لا بد أن أستخدم **إما**"، وتوقف "راقـي" لإضفاء مزيد من التأثير ""منطقَ كلٍّ من... و" **أو**"، ثم صمت قليلاً وأردف "لا شيء سواه؟"

وأخبرَنا "راقـي" أنَّ ما خرج من فم الأستاذ فيما بعد كان يستحق الوقت الذي قضاه في الاستماع إلى لَغْوِه المتضارب. نظر الأستاذ خجلاً إلى زميله، ثم نظر إلى طعامه المتجمد وتمتم قائلاً: "يبدو أن "**إما**.. **أو**" منطق حاضر دائمًا. أليس كذلك؟" فأضاف

"راقــي": "نعم. حتى في الهند ننظر في الاتجاهين قبل أن نعبر الشارع لأنه **إما** أن أعبر أنا **أو** الحافلة، لا كلينا معًا".

حقيقةً يبدو أن منطق **إما أو** حاضر باستمرار. فالأستاذ استخدم منطق "إما أو" ليبرهن على منطقِ "كلٍّ من"، وهي المشكلة التي يواجهها كل من يحاول أن يجادل ضد أول قوانين المنطق، فينتهي به الأمر ببتر الساق التي يقف عليها.

تَخَيَّل أن الأستاذ قال: ""راقــي" حساباتك الرياضية خاطئة في الهند لأنك لا تستخدم الرياضيات الشرقية بل الغربية". أو هب أنه قال: ""راقــي" حساباتك الفيزيائية لا تنطبق على الهند لأنك لا تستخدم قوانين الجاذبية الشرقية بل الغربية"، لاكتشفنا فورًا حماقة منطق الأستاذ.

والحقيقة أنه رغم ما يؤمن به النسبيون، فالأمور تسير في الشرق كما في أي مكان آخر. في الهند وفي الولايات المتحدة كذلك، الحافلة إن صدمت إنسانـًا تصيبه بأذى، وأيضًا ٢+٢=٤، والجاذبية الأرضية التي تحفظ الجميع على سطح الأرض واحدة. وكذلك، القتل خطأ في الهند كما هو خطأ في الولايات المتحدة. الحق هو الحق بصرف النظر عن بلدِك. والحق هو الحق بصرف النظر عن معتقداتك عنه. فكما أن جاذبية واحدة تحفظ الجميع ثابتين على الأرض سواء اعتقدوا فيها أم لا، فالمنطق نفسه ينطبق على الجميع سواء صَدَّقوه أم لم يصدقوه.

فما الفكرة إذَن؟ الفكرة أنه لا يوجد إلا نوع واحد من المنطق يساعدنا على اكتشاف الحق. إنه المنطق المتأصّل في طبيعة الواقع الذي لا يمكننا الهروب منه. ومع ذلك، يحاول الناس أن يخبروك أن المنطق لا ينطبق على الواقع، أو أن المنطق لا ينطبق على الله، أو أن هناك أنواعًا مختلفة من المنطق*، وهكذا. ولكنهم في قولهم لهذه الأمور، يستخدمون المنطق عينَه الذي ينكرونه. وهو ما يشبه استخدام قوانين الحساب لإثبات أنه لا يمكننا أن نثق في الحساب.

ومن المهم أن نلاحظ أن ما نفعله ليس مجرد لعب بالألفاظ. فخطة "رود رَنَر" تستخدم قوانين المنطق الثابتة لتكشف أن الكثير مما تؤمن به ثقافتنا السائدة بخصوص الحق والدين والأخلاق خاطئ خطأً بيِّنـًا. فما يفنِّـد نفسه يستحيل أن يكون صحيحًا، ومع ذلك يؤمن به الكثير من الأمريكيين. إننا نناقض أنفسنا لضررنا.

---

* هناك طبعًا المنطق الاستقرائي، والمنطق الاستنباطي، والمنطق الرمزي، ولكن كلها متأصلة في نفس قوانين الفكر الأساسية.

أُحرَق او لا أُحرَق، تلك هي المشكلة

ترجع فاعلية خطة "رود رَنَر" إلى أنها تستخدم قانون عدم التناقض. وقانون عدم التناقض هو أول مبدأ من مبادئ التفكير، وهو واضح في ذاته لا يحتاج إلى شرح. ويقول القانون إن أي زَعمين متناقضين لا يمكن أن يكون كلاهما صحيحًا في نفس الوقت وبنفس المعنى. فهو يقول باختصار إن عكس الصواب هو الخطأ. وكلنا نعرف هذا القانون بالفطرة ونستخدمه يوميًا.

هَب أنك رأيت زوجين ذات يوم في الشارع، وهما صديقان لك، فسألت الزوجة عما إذا كانت تنتظرًا مولودًا. إن قالت "نعم"، وقال زوجها "لا"، لن تقول لهما: "شكرًا جزيلاً على الإفادة العظيمة!". ولكنك ستفكر قائلاً: "ربما لم تخبره، أو ربما فَهِما سؤالي خطًا (أو ربما شيء أسوأ!)". ولكنك ستكون متأكدًا من شيء واحد: لا يمكن أن يكون كلاهما صحيحًا! وقانون عدم التناقض يجعل ذلك واضحًا وضوح الشمس أمام عينيك.

وعند استقصاء أي موضوع يتعلق بالحقيقة، بما في ذلك موضوعُ الله، يظل قانون عدم التناقض ساريًا. إما أن يكون المؤمنون بالله الخالق على صواب، أي أن الله موجود، أو أن يكون الملحدون على صواب، أي أن الله غير موجود. ولكن يستحيل أن يكون كلاهما صحيحًا. وكذلك، إما أن يسوع مات وقام من الأموات كما يزعم الكتاب المقدس، أو أنه لم يمت ولم يقُم من الأموات كما تزعم عقائد أخرى. لا بد أن أحد الزعمين صحيح، والآخر خاطئ.

الحقيقة أن ابن سينا، أحد الفلاسفة في العصور الوسطى، اقترح طريقة ناجحة لتصحيح شخص ينكر قانون عدم التناقض. فقد قال إن أي شخص ينكر قانون عدم التناقض يجب أن يُضرَب ويُحرَق حتى يعترف أن ضربه يختلف عن عدم ضربه، وأن حرقه يختلف عن عدم حرقه! (اقتراح متطرف نوعًا ما، ولكن لا بد أنك التقطت الفكرة المقصودة).

بينما لا يجد أي شخص منطقي مشكلة في قانون عدم التناقض، نجد أن بعض الفلاسفة المؤثِّرين أنكروه ضمنًا في تعاليمهم. وربما أكثرهم تأثيرًا "ديـڤيد هيوم" و"إيمانيول كانط". ورغم أن الكثيرين لم يسمعوا عن "هيوم" ولا "كانط"، فتعاليمهما أثَّرت على العقل الحديث تأثيرًا كبيرًا. لذا، من الأهمية بمكان أن نلقي نظرة سريعة على كلٍّ منهما. فلنأخذ "هيوم" أولاً.

شكوكية "هيوم": هل يجب أن نتشكك فيها؟

ربما يُعَدّ "ديـڤيد هيوم" المسؤول الأول عن نزعة الشك السائدة اليوم. فبصفته فيلسوفًا

تجريبيًا، آمن أن كل الأفكار ذات المعنى لا بد أن تكون صحيحة بطبيعتها، أو أن تقوم على الخبرة الحسية. ومن ثم يرى ''هيوم'' أنه بما أن مفاهيم ما وراء الطبيعة لا يمكن أن تخضع للخبرة الحسية، إذَن مزاعم الميتافيزيقا (المتعلقة بمفاهيم ما وراء الطبيعة التي تقع خارج العالم الحسي الطبيعي، بما فيها الله) لا يجب تصديقها لأنها بلا معنى. والحقيقة أن ''هيوم'' أكَّد أن الفرضيات لا يمكن أن تكون ذات معنى إلا إذا تحقق فيها أحد الشرطين التاليين:

- أن يكون الزعم المتعلق بالحق منطقًا مجرَّدًا مثل المعادلات أو التعريفات الرياضية (مثلاً ''٢+٢=٤'' أو ''كل المثلثات لها ثلاثة أضلاع'').
- الزعم المتعلق بالحق يمكن التحقق منه تجريبيًا بحاسة أو أكثر من الحواس الخمس.

ورغم زَعْم ''هيوم'' بأنه شكوكي، من المؤكَّد أنه لم يشُك في هذين الشرطين، بل كان مقتنعًا تمام الاقتناع بأنه يملك الحق. وهو يختم كتابه ''بحث في الفهم الإنساني'' *Inquiry Concerning Human Understanding* بهذه العبارة: ''إنْ أمسكنا بأيدينا أي كتاب، عن اللاهوت أو ما وراء الطبيعة الذي يُدَرَّس في المدارس مثلاً، يجب أن نسأل: "هل يحوي أي منطق مجرد بخصوص الكَمّ أو العدد؟" لا. "هل يحوي أي منطق تجريبي بخصوص الواقع والوجود؟" لا. إذَن، فلتستودعه للنيران، لأنه لا يحوي إلا السفسطة والوهم''.[٢]

هل ترى ما ينطوي عليه شرطا ''هيوم''؟ فإن كان على صواب، إذَن أي كتاب يتحدث عنِ الله بلا معنى. وبذلك يمكنك أن تستخدم كل الكتابات الدينية في إشعال النيران.

وبعد ما يقرب من مائتي عام، تَحَوَّل شرطا ''هيوم'' إلى ''مبدأ التحقق التجريبي'' *"principle of empirical verifiability"* على يد الفيلسوف "أ. ج. إير" *A. J. Ayer* في القرن العشرين. ويزعم مبدأ التحقق التجريبي أن الفرضية لا يمكن أن تكون ذات معنى إلا إذا كانت صحيحة بطبيعتها أو إذا أمكن التحقق منها تجريبيًا.

وفي منتصف ستينيات القرن العشرين أصبحت هذه النظرة هي الموضة السائدة في أقسام الفلسفة بالجامعات في أنحاء أمريكا، ومنها ''جامعة دترويت'' *University of Detroit* حيث درستُ (أنا ''نورم''). والحقيقة أني درستُ مادة كاملة في الوضعية المنطقية *Logical Positivism*. وكان أستاذ تلك المادة، وهو يؤمن بالوضعية المنطقية، من نوعية غريبة. فرغم أنه كان يدَّعي أنه كاثوليكي، كان يرى أنه لا معنى للحديث عن وجود واقع وراء الطبيعة (أي الميتافيزيقا، الله). أي أنه كان ملحدًا صريحًا وكان يخبرنا أنه يريد أن يحوِّل كل طلاب الفصل

إلى نوعية إلحاده الذي له معنى. (وسألته ذات مرة: ''كيف يمكن أن تكون كاثوليكيًا وملحدًا في الوقت نفسه؟'' فأجابني متجاهلاً ألفي عام من التعليم الكاثوليكي الرسمي: ''لستَ مضطرًا أن تؤمن بالله حتى تكون كاثوليكيًا، ليس عليك إلا أن تلتزم بالقواعد!'').

في اليوم الأول من هذه المادة كلَّفَنا ذلك الأستاذ بعرض فصول معينة من كتاب ''إير'' ''المنطق والحق واللغة'' *Logic, Truth, and Language*. فاخترت فصلاً عنوانه ''مبدأ التحقق التجريبي''. تَذَكَّر أن هذا المبدأ هو أساس الوضعية المنطقية، ومن ثم أساس المادة كلها.

وفي بداية المحاضرة التالية، قال الأستاذ: ''مستر "جايسلر"، سنبدأ بك. لا تَزِد عن عشرين دقيقة حتى يتوفر لنا وقت كافٍ للمناقشة''.

وبما أني كنت أستخدم خطة ''رود رَنَر'' السريع سرعة البرق، لم أواجه أدنى صعوبة في الالتزام بالوقت المحدد. فوقفت وقلت ببساطة: ''يقول مبدأ التحقق التجريبي إنه ليس هناك إلا نوعان من الفرضيات ذات المعنى: ١) فرضيات صحيحة بطبيعتها. ٢) فرضيات يمكن التحقق منها تجريبيًا. وبما أن مبدأ التحقق التجريبي نفسه ليس صحيحًا بطبيعته ولا يمكن التحقق منه تجريبيًا، إذَن لا يمكن أن يكون ذا معنى''.

كان هذا هو عرضي، فقدمتُه وجلست.

خيَّمَت على الفصل حالة من الصمت الرهيب. وتمَكَّن معظم الطلاب من رؤية الكويوت معلقًا في الهواء. وأدركوا أن مبدأ التحقق التجريبي لا يمكن أن يكون له معنى بناءً على المعيار الذي وضعه المبدأ نفسه. لقد قفز المبدأ في الهواء وانتحر! وفي ثاني محاضرة انهار أساس المادة كلها! فعمَّ سيتحدث الأستاذ على مدى الأربعة عشر أسبوعًا القادمة؟

سأخبركم بما تَحدَّث عنه. بدلاً من الاعتراف بأن مادته وموقفه الفلسفي بالكامل متناقض ويفنِّد نفسه، ومن ثم فهو خاطئ، كتم ذلك الحق، وفي تردده وحيرته أخذ يُلَمِّح أني وراء كل الخلل الذي حدث بقية الفصل الدراسي. لقد كان ولاؤه لمبدإ التحقق التجريبي، رغم ما يشوبه من خطإٍ قاتل بيِّن، ولاءً إراديًا وليس عقليًا.

ولكن هناك الكثير من الموضوعات الأخرى في فلسفة ''هيوم''، أهمها حججه المضادة للمعجزات التي سنتناولها عندما نصل إلى الفصل الثامن. ولكن النقطة التي نود توضيحها الآن هي: تجريبية ''هيوم'' الضيِّقة التي تبناها تابعُه الأمين ''أ. ج. إير'' تفنِّد نفسها. فالزعم

القائل بأن "الشيء لا يمكن أن يكون ذا معنى إلا إذا أمكن التحقُّق منه تجريبيًا أو إذا كان صحيحًا بطبيعته" ينفي نفسه لأن تلك الجملة لا يمكن التحقق منها تجريبيًا ولا هي صحيحة بطبيعتها. أي أن "هيوم" و"إير" يحاولان أن يُثبِتا أشياء أكثر من اللازم لأن أسلوبهما في اكتشاف الفرضيات ذات المعنى يستبعد أشياء أكثر من اللازم. لأنه أمر طبيعي أن المزاعم التي يمكن التحقق منها تجريبيًا أو الصحيحة بطبيعتها يكون لها معنى. إلا أن هذه المزاعم لا تشكل **كل** العبارات ذات المعنى كما يرجح "هيوم" و"إير". لذا، بدلاً من أن نستودع كل الكتب التي تتحدث عنِ الله "للنيران" كما يقترح "هيوم"، قد تُفَضِّل أن تستخدم كتب "هيوم" في إشعال النيران.

لاادرية "كانط": هل يجب ان نتخذ منها موقفاً لاادرياً؟

كان تأثير "إيمانيول كانط" أكثر تدميرًا للمنظور المسيحي من تأثير "ديـڤيد هيوم". لأنه إن كانت فلسفة "كانط" صحيحة، يستحيل معرفة **أي شيء** عن العالم الحقيقي حتى الأشياء التي يمكن التحقق منها تجريبيًا! لماذا؟ لأنه وفقًا لفلسفة "كانط"، بنية حواسك وعقلك تُشَكِّل كل البيانات الحسية، ومن ثم يستحيل أن تعرف الشيء **في ذاته** معرفة حقيقية. ولكنك تعرف الشيء **بالنسبة لك** بعد أن يُشَكِّله عقلك وحواسك.

وحتى تفهم هذه الفكرة، انظر لمدة ثانية واحدة إلى شجرة من نافذتك. يقول "كانط" إن الشجرة التي تظن أنك تنظر إليها تبدو بالشكل الذي تبدو عليه لأن عقلك يُكَوِّن البيانات الحسية التي تتلقاها من الشجرة. فأنت لا تعرف الشجرة في ذاتها معرفة حقيقية. لأنك لا تعرف إلا الظواهر التي يصنِّفها عقلك عن الشجرة. باختصار، لا تستطيع أن تعرف الشجرة الحقيقية في حد ذاتها، فأنت لا تعرف سوى الشجرة كما تبدو لك.

عجب العجاب! لماذا لا يشكّ رجل الشارع العادي فيما يراه بأمّ عينيه، بينما يشك الفلاسفة الذين يُفترض فيهم الذكاء الخارق؟ كلما درسنا الفلسفة، ازداد اقتناعنا بذلك: إن أردت أن تجعل الواضح غامضًا، أعطِه لفيلسوف!

ومع ذلك ليس بوسعنا أن نتجنب دراسة الفلسفة لأنه كما قال "سي. إس. لويس": "لا بد من وجود فلسفة جيدة، إن لم يكن لأي سبب، فعلى الأقل للرد على الفلسفة الرديئة".[٣] إن فلسفة "كانط" فلسفة رديئة، ولكنها أقنعت الكثيرين بوجود هوة لا تُعْبَرَ بينهم وبين العالم

الحقيقي، حتى إنه يستحيل أن تحصل على أي معرفة صادقة عن حقيقة العالم، ناهيك عن حقيقةِ الله. ويرى "كانط" أننا محبوسون في لاأدرية تامة بالعالم الحقيقي.

ولكن من حسن الحظ أنه يوجد رد بسيط على كل ذلك: خطة "رود رَنَر". إن "كانط" يرتكب نفس خطأ "هيوم"، بكَسْرِه لقانون عدم التناقض. إنه يناقض فرضيته بقوله إنه **ما من أحد يستطيع أن يعرف** العالم الحقيقي في حين أنه **يزعم** أنه يعرف شيئًا عنه، ألا وهو أنه من المستحيل أن نعرف العالم الحقيقي! ففي الواقع "كانط" يقول إن **الحق** عن العالم الحقيقي هو أنه **لا يوجد حق** عن العالم الحقيقي.

وبما أن هذه العبارات المفنِّدة لذاتها قادرة على تعجيز أعظم العقول، فلننظر إلى خطإ "كانط" من زاوية أخرى. إن "كانط" يرتكب أيضًا مغالطة منطقية يُطلق عليها مغالطة "ليس إلا". وهي مغالطة لأن عبارات "ليس إلا" تنطوي على معرفةِ ما هو "أكثر من". أي أن "كانط" يقول إنه يعرف أن البيانات التي تصل إلى عقله **ليست إلا** ظواهر. ولكنه حتى يعرف ذلك، لا بد أن يكون قادرًا على معرفة ما هو **أكثر من** مجرد الظواهر. بمعنى أنك حتى تتمكن من التمييز بين شيئين، يجب أن تتمكن من رؤية النقطة التي عندها ينتهي أحدهما ويبدأ الآخر. فمثلاً، إن وضعت ورقة بيضاء على مكتب أسود، لا يمكنك أن تعرف أين تنتهي الورقة إلا إذا رأيت شيئًا من المكتب المحيط بها. فالتضاد بين الورقة والمكتب يتيح لك أن ترى حدود الورقة. وهكذا، حتى يتمكن "كانط" من التمييز بين الشيء الموجود في العالم الحقيقي والشيء الذي يدركه عقله، لا بد أن يتمكن من رؤية الاثنين. ولكن هذا بالضبط ما يقول إنه يستحيل أن نفعله! فهو يقول إنه لا يمكننا أن نعرف **إلا ظواهر** *phenomena* العقل، وليس المفاهيم الحقيقية للأشياء في ذاتها [نومينا *noumena*] (مصطلح "كانط" للإشارة إلى العالم الحقيقي).

إن لم تكن هناك وسيلة للتمييز بين الظواهر والمفاهيم الحقيقية [الفينومينا والنومينا]، إذَن لا يمكنك أن تعرف الفرق بينهما. وإن كان لا يمكنك أن تعرف الفرق بينهما، فالمنطقي أن تفترض أنهما شيء واحد، بمعنى أن الفكرة التي في عقلك تمثل الشيء الموجود في العالم الحقيقي تمثيلاً دقيقًا.

فما نقوله إنك **تعرف** الشيء في ذاته معرفة حقيقية. فأنت **تعرف** الشجرة التي تراها معرفة حقيقية لأنها تُطبَع على عقلك من خلال حواسك. أي أن "كانط" كان مخطئًا: إن عقلك لا يُشَكِّل الشجرة، بل **الشجرة تُشَكِّل عقلك**. (تخيل الختم الشمعي. ليس الشمع هو ما

يطبع الختم، بل الختم هو الذي يطبع الشمع). فليست هناك فجوة بين عقلك والعالم الحقيقي. بل الواقع أن حواسك هي نوافذك على العالم. والحواس كالنوافذ هي التي ننظر **من خلالها** على العالم الخارجي، وليست هي ما **ننظر إليه**.

في أحد فصول الفلسفة التي كنتُ (أنا "نورم") أُدَرِّسها، أوضحت أخطاء فلسفة "كانط" على هذا النحو. قلت: "أولاً، إن كان "كانط" يزعم أنه لا يستطيع أن يعرف أي شيء عن العالم الحقيقي (الشيء في ذاته) فكيف يعرف إذَن أنه يوجد عالم حقيقي من الأصل؟ ثانيًا، موقفه يفند نفسه لأنه يزعم أنك **لا تستطيع أن تعرف** أي شيء عن العالم الحقيقي في حين أنه يؤكد أنه **يعرف** أن العالم الحقيقي يستحيل أن يُعْرَف!"*

فانبرى أحد الطلاب قائلاً: "لا. لا يمكن أن يكون الأمر بهذه السهولة يا دكتور "جايسلر". لا يمكنك بجملتين بسيطتين أن تدمر المبدأ الجوهري الذي دام أكثر من مائة سنة حتى الآن في الفكر الفلسفي!"

فأجبته مقتبسًا من مصدري المفضل، مجلة "ريدارز دايـجست" *The Reader's Digest*: ""هذا ما يحدث عندما تواجه إحدى النظريات الجميلة عصابة من الحقائق المتوحشة". ثم، مَنْ قال إن التفنيد يجب أن يكون معقَّدًا؟ فإنْ أخطأ أحدهم خطأً بسيطًا، لا يستلزم كشفُه إلا تصحيحًا بسيطًا". إن خطة "رود رَنَر" خالية من أي تعقيد. كل ما في الأمر أنه سريع وفعال.

"هيوم" و"كانط" مخطئان. فماذا إذَن؟

بما أن "هيوم" و"كانط" يكسران قانون عدم التناقض، إذَن محاولاتهما لتدمير كل الحق "الديني" محاولات فاشلة. إلا أن خطأ "هيوم" و"كانط" لا يعني بالضرورة أننا نملك أدلة إيجابية على وجودِ الله مثلاً. فخطة "رود رَنَر" لا يمكنها إلا أن تكشف خطأ فرضية معينة. ولكنها لا تقدم أدلة إيجابية على صحة أي زعم بعينه.

فهل صحيح أنه يوجد إله خَلَقَ العالم ويحفظه؟ هل هناك أي دليل قابل للمعرفة يمكن أن

* طبعًا "كانط" يرى أنه يمكننا أن نعرف أشياء عن هذا العالم الظاهري للحواس مثل الفرضيات العلمية. وقد آمن "كانط" أيضًا أنه رغم أننا لا نستطيع أن **نعرف** أي شيء عن العالم الحقيقي (مثل الله)، يمكننا أن **نفترض** وجود الله ونعيش **وكأنه** موجود، رغم أننا لا نستطيع أن نعرف أي شيء عن حقيقة طبيعته. وهو ما سمَّاه "كانط" العقل "العملي".

يقدِّم لنا يقينـًا منطقيًا بشكل أو بآخر؟ هل هناك دليل يمكننا معرفته يشير إلى وجود إله غير منظور؟ للإجابة على تلك الأسئلة، يجب أن نبحث في كيفية معرفة الحق نفسه.

كيف يُعرَف الحق؟

لنُلَخِّص ما توصلنا إليه حتى الآن: الحق موجود، وهو مطلق ولا يمكن إنكاره. والقول بأن "الحق لا يمكن معرفته" متناقض لأنه قول يزعم عن نفسه أنه حق **معروف ومطلق**. وفي الواقع أننا عندما نقول أي شيء في أي وقت، فنحن نعني ضمنـًا أننا نعرف على الأقل شيئـًا من الحق؛ لأن أي **موقف** نتخذه من **أي** موضوع يشتمل ضمنـًا على درجةٍ ما من المعرفة. فإن قلت إن موقف شخصٍ ما هو موقف خاطئ، ينبغي أن **تعرف** ما هو صوابٌ لكي تقول ذلك (لا يمكنك أن تعرف الخطأ إلا إذا عرفت الصواب). وحتى إن قلت: "لا أعرف"، فإنك تعترف أنك تعرف شيئـًا، ألا وهو أنك **تعرف** أنك لا تعرف شيئـًا آخر عن الموضوع المطروح، وليس أنك لا تعرف أي شيء **على الإطلاق**.

ولكن كيف يمكن للمرء أن يعرف الحق؟ أي: ما العملية التي بها نكتشف الحقائق المختصة بالعالم؟ إن عملية اكتشاف الحق تبدأ بقوانين المنطق الواضحة في ذاتها التي يُطلق عليها المبادئ الأولى. وتـُعْرَف باسم المبادئ الأولى لأنه ليس هناك أي شيء أبعد منها. أي أننا لا نبرهن عليها بمبادئ أخرى، لأنها متأصلة في طبيعة الواقع، مما يجعلها واضحة في ذاتها. ومن ثم، فأنت لا تتعلم هذه المبادئ الأولى. وذلك، لأنك تعرفها تلقائيًا. وكل إنسان يعرف هذه المبادئ بديهيًا حتى وإن لم يفكر فيها صراحةً.

ومن هذه المبادئ قانونان هما: قانون عدم التناقض وقانون الثالث المرفوع *Law of the Excluded Middle*. وقد رأينا حقيقة قانون عدم التناقض وقيمته. أما قانون الثالث المرفوع يخبرنا أن الشيء إما أنه **هكذا** أو **ليس** هكذا. فمثلاً، إما أن الله موجود أو غير موجود. إما أن يسوع قام من الأموات أو لم يقم. ليس هناك بدائل ثالثة.

وهذه المبادئ الأولى هي الأدوات التي نستخدمها لنكتشف كل الحقائق الأخرى. والحقيقة أنه لولاها لما أمكنك أن تتعلم أي شيء. فأهمية المبادئ الأولى للتعلم كأهمية العينين للبصر. أي أنه كما يجب أن تكون عيناك ثابتة في جسمك حتى تبصر أي شيء، هكذا المبادئ الأولى لا بد أن تكون ثابتة في عقلك حتى تتعلم أي شيء. ومن هذه المبادئ الأولى يمكننا أن نتعلم

عن الواقع ونكتشف أخيرًا سطح علبة هذا اللغز الذي نسميه الحياة.

ورغم أننا نستخدم هذه المبادئ الأولى لتساعدنا على اكتشاف الحق، فهذه المبادئ وحدها لا تستطيع أن تخبرنا ما إذا كانت فرضية بعينها صحيحة. وحتى تفهم ما نقصد، خذ الحجة المنطقية التالية:

١- كل إنسان فانٍ.

٢- "سـپنسر" إنسان.

٣- إذَن "سـپنسر" فانٍ.

قوانين المنطق الواضحة في ذاتها تخبرنا أن النتيجة: "سـپنسر" فانٍ نتيجة معقولة. أي أن النتيجة تتبع الفرضيات بالضرورة. **فإن كان** كل إنسان فانيًا، **وإن كان** "سـپنسر" إنسانـًا. فمن ثم، "سـپنسر" فانٍ. إلا أن قوانين المنطق لا تخبرنا بما إذا كانت تلك الفرضيات، وبالتالي النتيجة، صحيحة. فربما كل إنسان **ليس** فانيًا. ربما "سـپنسر" ليس إنسانـًا. فالمنطق وحده لا يستطيع أن يخبرنا ما إذا كانت هذه الأشياء صحيحة أم خاطئة.

ويسهل إدراك هذه الفكرة عندما نتناول حجة مقبولة ولكنها ليست صحيحة. خذ الحجة التالية:

١- كل الناس هم زواحف من ذوات الأربع.

٢- زخاري إنسان.

٣- إذَن زخاري من الزواحف ذوات الأربع.

هذه الحجة مقبولة منطقيًا، ولكننا جميعًا نعرف أنها ليست صحيحة. فالحجة مقبولة لأن النتيجة تتبع المقدمات. ولكن النتيجة خاطئة لأن المقدمة الأولى خاطئة. أي أن الحجة يمكن أن تكون سليمة منطقيًا، ومع ذلك تكون خاطئة لأن مقدمات الحجة لا تتطابق مع الواقع. فإلى هنا ينتهي عمل المنطق. أي أنّ المنطق يخبرنا أن حجةً ما خاطئة، ولكنه لا يستطيع وحده أن يُعَرِّفنا أي المقدمات صحيحة. فكيف نعرف أن زخاري إنسان؟ كيف نعرف أن البشر ليسوا زواحف ذوات أربع؟ نحتاج لمزيد من المعلومات حتى نكتشف تلك الحقائق.

ونحن نحصل على تلك المعلومات من ملاحظة العالم حولنا، ثم التوصل إلى نتائج عامة من تلك الملاحظات. فعندما تلاحظُ شيئـًا مرارًا وتكرارًا، قد تستنتج مبدأً عامًا صحيحًا يحكم

هذا الشيء. فمثلاً عندما تُسقِط شيئًا من على المنضدة عدة مرات، من الطبيعي أن تلاحظ أن الشيء دائمًا ما يسقط على الأرض. فإن فعلت ذلك كثيرًا، ستدرك في النهاية أنه لا بد من وجود مبدأ عام يُعرَف باسم الجاذبية.

وهذه الطريقة في التوصُّل إلى استنتاجات عامة من ملاحظات محدّدة يُطلق عليها الاستقراء *induction* (وهي الطريقة المستخدمة في العلم بوجه عام). وللتوضيح، لا بد أن نميز بين الاستقراء والاستنباط *deduction*. إن عملية وضع مقدّمات بترتيب معين في حجة ما والتوصل منها إلى نتيجة مقبولة منطقيًا يُطلق عليها الاستنباط. وهو ما فعلناه في الحجتين أعلاه. أما عملية التحقق من صحة المقدمات التي تتضمنها الحجة عادة ما تتطلب الاستقراء.

والكثير من الأشياء التي تعرفها، عرفتها بالاستقراء. والواقع أنك استخدمت الاستقراء حدسيًا لتتأكد من صحة المقدّمات المتضمنة في الحجتين السابقتين. أي أنك قررت أنه بما أن كل إنسان رأيته هو من الثدييات التي تمشي على ساقين، فالرجل زخاري لا يمكن أن يكون من الزواحف ذوات الأربع. وقد طَبَّقتَ الطريقة نفسها على مسألة فناء "سپنسر". فبما أن كل الناس الذين سمعت عنهم يموتون في النهاية، فقد توصلت إلى استنتاج عام بأن كل الناس يفنَون، ومنهم رجل محدد يُدعى "سپنسر". وهذه الاستنتاجات: البشر ذوو الساقين، الجاذبية، فناء البشر، كلها استنتاجات استقرائية.

ومعظم الاستنتاجات القائمة على الاستقراء لا يمكن اعتبارها مؤكَّدة بصفة مطلقة، ولكنها تُعتبر صحيحة بنسبة كبيرة جدًا. فمثلاً هل أنت متأكد تمامًا بنسبة ١٠٠% أن الجاذبية تتسبب في سقوط كل الأشياء؟ لا. لأنك لم تلاحظ كل الأشياء وهي تسقط. وهكذا، هل أنت متأكد تمامًا أن كل إنسان فانٍ؟ لا. لأنك لم ترَ كل الناس تموت. ربما هناك شخصٌ ما في مكانٍ ما لم يمُت أو لن يموت.

لذا، إن كانت الاستنتاجات الاستقرائية غير مؤكَّدة، هل يمكننا أن نثق فيها؟ نعم. ولكن بدرجات متفاوتة من اليقين. فكما ذكرنا سابقًا، بما أنه ليس هناك إنسان يمتلك معرفة غير محدودة، إذَن معظم استنتاجاتنا الاستقرائية قد تكون خاطئة. (مع استثناء واحد مهم. ويطلق عليه "الاستقراء التام" "*perfect induction*"، حيث تكون كل الجزئيات معروفة. فمثلاً، "كل الحروف في هذه الصفحة سوداء". هذا الاستقراء التام يقدِّم نتيجة يقينية لأنك تستطيع أن تلاحظ أن كل حرف هو فعلاً أسود ويمكنك التحقق من ذلك).

ولكن حتى عندما لا تتوفر لنا معلومات كاملة أو تامة، غالبًا ما تتوفر لنا معلومات كافية للتوصل إلى استنتاجات مؤكَّدة بدرجة مقبولة في معظم مسائل الحياة. فمثلاً، بما أنه من الملاحظ أن الجميع تقريبًا يموتون، إذَن استنتاجك أن كل إنسان فانٍ يُعتبر صحيحًا بما لا يقبل أي شك منطقي، فهو استنتاج مؤكَّد بنسبة تزيد عن ٩٩%، ولكنه ليس معصومًا من أي شك على الإطلاق. فالأمر يتطلب شيئًا من الإيمان، وإن كان بقدر ضئيل جدًا، لتصديق هذا الاستنتاج*. وهو ما ينطبق أيضًا على استنتاج أن الجاذبية تؤثِّر على كل الأشياء، وليس فقط على البعض منها. فهو استنتاج مؤكَّد عمليًا ولكنه ليس مؤكَّدًا بشكل مطلق. أي أننا نستطيع أن نتيقن بما لا يقبل الشك **المنطقي**، ولكننا لا نستطيع أن نتيقن بما لا يقبل **أي** شك على الإطلاق.

كيف تُعرف الحقائق المتعلقة بالله؟

فما علاقة الملاحظة والاستقراء باكتشاف وجودِ الله؟ العلاقة وثيقة. فالواقع أن الملاحظة والاستقراء يساعداننا في بحث أهم سؤال ديني: "هل الله موجود؟"

تقول: "لحظة من فضلِك! كيف يمكننا أن نستخدم الملاحظة لنبحث في كائن غير قابل للملاحظة يُدعى "الله"؟ فمهما كان، إن كان الله غير منظور وغير مادي، كما يقول المسيحيين، واليهود، والمسلمين، فكيف تساعدنا حواسنا في جمع معلومات عنه؟"

الإجابة: "نحن نستخدم الاستقراء لبحث مسألة الله كما نستخدمه لبحث ما لا نراه من أشياء أخرى؛ أي بملاحظة آثارها. فمثلاً، نحن لا نستطيع أن نلاحظ الجاذبية على نحو مباشر، كل ما يمكننا هو ملاحظة آثارها. وهكذا، لا نستطيع أن نلاحظ العقل البشري على نحو مباشر، ولكننا نلاحظ آثاره فحسب. ومن تلك الآثار نستدل منطقيًا على وجود مسبِّب.

---

* الحقيقة أننا نصل إلى معظم قرارات حياتنا، بدءًا من اختيارنا لما نأكل من أطعمة وانتهاء باختيارنا لأصدقائنا، عن طريق الملاحظة والاستقراء. فمثلاً، نحن لا نمتلك معلومات كاملة عن السائل الموجود في علبة العصير، ولكننا نعتقد أنه شيء يمكن أن نشربه وأنه ليس سامًا، ولكننا لسنا متأكدين مائة في المائة. إلا أننا نعتمد على خبرتنا السابقة مع هذا النوع من العصير وثقتنا فيه، ومنها نستنتج أن ما في العلبة هو فعلاً عصير وليس سمًا. وبالمثل، لسنا نملك معلومات كاملة عن شخصيات الأشخاص الذين نلتقي بهم. ولكن بعد قضاء وقت معهم، يمكننا أن نستنتج أنهم أهل للثقة. هل نحن متأكدون مائة في المائة؟ لا، لأننا نعمِّم من خبراتنا المحدودة. وقد يكون استنتاجنا محتمَلاً بدرجة عالية، ولكنه ليس مؤكَّدًا. وهذا هو حال الكثير من القرارات التي نتخذها في حياتنا.

وفي الواقع الكتاب الذي تقرؤه الآن مثال جيد على ذلك. لماذا تفترض أن هذا الكتاب هو أثر لعقل بشري؟ لأن كل ملاحظاتك تخبرك أن أي كتاب هو أثر لا يَنْتُج إلا من ذكاء سابق الوجود (أي مؤلِّف). وأنت لم ترَ مطلقًا الريح أو المطر أو غيرهما من القوى الطبيعية تُنتِجُ كتابًا، بل رأيت أن البشر فقط هم مَن يفعلون ذلك. لذا، رغم أنك لم تَرَ أحدًا يكتب هذا الكتاب، فقد استنتجت أنه لا بد أن يكون له على الأقل مؤلِّف واحد.

وعندما تستنتج أن هذا الكتاب له مؤلِّف، تكون قد جمعت طبيعيًا بين الملاحظة، والاستقراء، والاستنباط. فإن أردنا أن نكتب أفكارك في قالب منطقي، ستظهر على هيئة هذه الحجة الاستنباطية:

١- كل الكُتب لها مؤلِّف واحد على الأقل (مقدِّمة تقوم على البحث الاستقرائي).

٢- "لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد" كتاب (مقدمة تقوم على الملاحظة).

٣- إذَن "لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد" له مؤلِّف واحد على الأقل (نتيجة).

وأنت تعرف أن الحجة مقبولة منطقيًا عن طريق الاستنباط، وتعرف أنها صحيحة لأن المقدمات صحيحة (وهو ما تحققتَ منه بالملاحظة والاستقراء).

والآن إليك السؤال المهم: كما أن الكتاب يتطلب ذكاءً بشريًا سابق الوجود، هل هناك أي آثار قابلة للملاحظة يبدو أنها تتطلب نوعًا من الذكاء فوق الطبيعي سابق الوجود؟ أي أنه: هل هناك آثار يمكن أن نلاحظها تشير إلى وجودِ الله؟ الإجابة نعم، وأول أثر هو الكون نفسه. وسيكون استقصاء بداية الكون هو الخطوة التالية في مسيرتنا نحو اكتشاف سطح العلبة.

ولكن قبل أن نبحث أدلة بداية الكون، يجب أن نتناول اعتراضًا آخر على الحق. فالبعض يقولون: "وماذا يعنينا في الحق؟"

وماذا يعنينا في الحق؟

أحيانًا ما نسأل طلابنا: "ما أكبر مشكلة في أمريكا اليوم؟ الجهل أم اللامبالاة؟" ذات مرة أجاب أحد الطلاب قائلاً: "لا أعرف. ولا يعنيني أن أعرف".

هذه الإجابة تلخِّص مشكلة أمريكا اليوم. فالكثير منا يجهلون الحق ولا يبالون به، إلا إذا كان الحق يتعلق بالمال، أو الطب، أو غير ذلك من الأمور الملموسة التي ذكرناها آنفًا. فهذه الأشياء تعنينا بشدة. ولكن الكثيرون يجهلون الحق المتعلّق بالأخلاق والدين، ولا يبالون به

(ولكننا نعلم أنك لست منهم لأنك تصرف وقتـًا في قراءة هذا الكتاب). هل الفئة التي تَبَنَّت الشعار الثقافي: "أيًا كان" هم على صواب، أم أن الحق الأخلاقي والديني أمر مهم فعلاً؟

إنه أمر مهم فعلاً. كيف نعرف ذلك؟ أولاً، رغم أن الناس قد يزعمون أن الحق الأخلاقي لا يهم، فهم لا يعتقدون في ذلك فعليًا عندما يتعامل معهم أحد الأشخاص معاملة لا أخلاقية. فقد يزعمون مثلاً أن الكذب ليس خطأً، ولكن لاحظ ما ينتابهم من غضب أخلاقي شديد إن كذِبْتَ عليهم (وخاصةً إن كان الأمر يمَسّ أموالهم!).

وغالبًا ما نسمع عبارة: "هذا هو الاقتصاد يا غبي". ولكن تخيل إلى أي مدى يمكن أن يتحسن الاقتصاد لو قال الجميع الحق. ستختفي كل الفضائح المالية وكل عمليات الغش. وستختفي الضوابط الحكومية المرهقة. لا شك أن الاقتصاد مهم، ولكنه يتأثر تأثرًا مباشرًا بالأخلاق! إن الأخلاق هي الأساس الذي يُبنى عليه كل ما نفعله تقريبًا. وتأثيرها علينا لا يقتصر على النواحي المالية، ولكنه في ظروف معينة يمتد إلى النواحي الاجتماعية، والنفسية، والروحية، بل حتى الجسدية.

ثانيًا، ترجع أهمية الحق الأخلاقي إلى أن النجاح في الحياة غالبًا ما يتوقف على ما يتخذه المرء من قرارات أخلاقية. وهي تشمل اختياراته فيما يتعلق بالجنس، والزواج، والأطفال، والمخدرات، والمال، والمعاملات التجارية، وما إلى ذلك. وبعض الاختيارات تجلب النجاح، والبعض الآخر يجُرّ الدمار.

ثالثـًا، كما ذكرنا في كتاب سابق بعنوان "تشريع الأخلاق"[٤]، كل القوانين تـُشرِّع الأخلاق. ولكن السؤال الوحيد هو: "أخلاق مَن هي التي ستُشرَّع؟" فكِّر فيها. كل قانون يبين أن سلوكـًا ما هو الصحيح وعكسه هو الخطأ، هذه أخلاق. فأخلاق مَن هي التي يجب أن تـُشرَّع في قضايا مثل الإجهاض أو القتل الرحيم؟ إنها قضايا تؤثِّر تأثيرًا مباشرًا على حياة أشخاص حقيقيين وصحتهم. فإن كان قتل الأبرياء خطأً أخلاقيًا، ألا يجب تشريع ذلك الحق؟ وكذلك، أخلاق مَن يجب أن تـُشرَّع فيما يختص بقضايا أخرى في السياسة العامة قد تؤثر على حياتك، أو صحتك، أو أموالك؟ إن الإجابات التي نُشرِّعها من شأنها أن تؤثّر تأثيرًا عميقـًا على حياة كل مواطن، وحريته، وتحقيقه للسعادة.

فلا شك أن ما نراه صحيحًا بخصوص الأخلاق يؤثر تأثيرًا مباشرًا على حياة الناس. هل كان يَهُمّ ما رأته المحكمة العليا للولايات المتحدة (كما يتبين من قرار "درِد سكوت"

Dred Scott لسنة ١٨٥٧) من أن السود ليسوا مواطنين بل مِلكًا لأسيادهم؟ هل كان يَهُمّ ما اعتقده النازيون من أن اليهود أدنى من الجنس الآري؟ هل يَهُمّ اليوم رأيُنا في الوضع الأخلاقي للأشخاص الذين ينتمون لأجناس أو أديان أخرى؟ بالطبع! الحق الأخلاقي مهم.

وماذا عن الحق الديني؟ إن هذا الحق قد يكون تأثيره علينا أعمق من تأثير الحق الأخلاقي. وقد ساعدَني (أنا "فرانك") أحد زملائي من ضباط البحرية أن أفهم ذلك سنة ١٩٨٨ وأنا حديث الإيمان بالمسيحية.

كنا آنذاك مبعوثين ضمن قوة للبحرية الأمريكية لإحدى بلدان الخليج العربي. وكان ذلك قبيل نهاية حرب إيران والعراق، وكان الصراع لا يزال عنيفًا. وعندما تكون في مكان غريب وخطير، تفكّر بجدية وبكثرة في الحياة والموت.

وفي أحد الأيام، كان هذا بالضبط ما نفعله: نتحدث عنِ الله والحياة الآخرة. وأثناء الحديث قال صديقي شيئًا ظل عالقًا بذهني حتى اليوم. فقد قال مشيرًا إلى الكتاب المقدس: "لا أؤمن بالكتاب المقدس. ولكنه إن كان صحيحًا، سأكون في مشكلة كبيرة".

وبالطبع كان على صواب. لأنه إن كان الكتاب المقدس **صحيحًا**، فقد **اختار** صديقي مصيرًا أبديًا تعيسًا. والحقيقة أنه إن كان الكتاب المقدس صحيحًا، إذَن يمكن قراءة المصير الأبدي لكل شخص على صفحاته. ولكن إن لم يكن الكتاب المقدس صحيحًا، فإنه من السذاجة أن الكثير من المسيحيين يُضَيِّعون الكثير من الوقت والمال، بل يُضَيِّعون حياتهم أحيانًا في الكرازة بالمسيحية في مناطق خطرة. وفي الحالتين، الحق الديني مهم.

وإن كانت ديانة أخرى صحيحة، فهذا أيضًا مهم. فمثلاً، إن كان أي نَصّ مقدّس بخلاف الكتاب المقدس صحيحًا، إذَن أنا أيضًا في مشكلة أبدية مثل مشكلة صديقي ضابط البحرية غير المسيحي. ولكن، إن كان الملحدون على صواب، يمكننا أن نكذب، ونغش، ونسرق لنحصل على ما نريد؛ لأنه ليس هناك شيء إلا هذه الحياة، وليست هناك عواقب أبدية.

ولكن، لننسَ الأبدية قليلاً. ولنفكر في التداعيات الزمنية للتعاليم الدينية حول العالم. ففي بعض الأماكن، يتعلم بعض تلاميذ المدارس أن اليهود خنازير وأن غير المسلمين (الكفار) يجب أن يُقتَلوا (إلا أنه من حسن الحظ أن معظم المسلمين لا يؤمنون أنه يجب قتل غير المسلمين). هل صحيح أن هناك إلهًا في الأعالي اسمه الله يريد من المسلمين أن يقتلوا كل مَن لا يدينون بالإسلام (الذين قد تكون واحدًا منهم)؟ هل هذا "الحق" الديني مهم؟ إنه مهم عندما يكبر

أولئك الأطفال ويدخلون بالطائرات في المباني ويُفَجِّرون أنفسهم في المناطق الآهلة بالسكان. أليس من الأفضل أن نعلِّمهم الحق الديني القائل بأن الله يريدهم أن يحبوا قريبهم؟

ربما يُعَلـِّم أولئك بأن اليهود خنازير، ولكن في بلدنا، بسبب مناهج الأحياء أحادية النظرة، نـُعَلـِّم الأطفال أنه لا فرق بين أي إنسان والخنزير. فمهما كان، إن كنا مجرد نتاج القوى الطبيعية العمياء، إن لم يكن هناك إله خلقنا وأعطانا قيمة خاصة، فنحن لسنا أكثر من خنازير بأمخاخ كبيرة. هل يَهُمّ هذا "الحق" الديني (الإلحادي)؟ نعم. عندما يُنَفـِّذ الأطفال تداعياته. فبدلاً من أن نـُكَوِّن مواطنين صالحين يرون البشر مخلوقين على صورةِ الله، نـُنْتِج مجرمين لا يرون في الحياة البشرية معنى ولا قيمة. الأفكار لها عواقب.

ومن الناحية الإيجابية، ساعدت الأم تريزا في تحسين الأوضاع في الهند بمجابهة المعتقدات الدينية التي يعتنقها الكثيرون في الثقافة الهندوسية. فاعتقاد الهندوس في الكارما وتناسخ الأرواح* يؤدي بالكثيرين منهم إلى تجاهل صرخات المتألمين. لماذا؟ لأنهم يؤمنون أن المتألمين يستحقون هذه المعاناة لأنهم ارتكبوا خطأً في إحدى حيواتهم الماضية. ومن ثمّ، إن ساعدت المتألمين، فإنك تتدخل في الكارما الخاصة بهم. ولكن الأم تريزا علـَّمت الهندوس في الهند المبادئ المسيحية من الاعتناء بالفقراء والمتألمين. هل تلك الفكرة الدينية مهمة؟ اسأل الملايين الذين لمَسَتْ حياتهم. هل تعليم الكارما الديني مهم؟ اسأل الملايين الذين ما زالوا يعانون.

خلاصة القول: بصرف النظر عن أي فكر من الأفكار الدينية والأخلاقية هو الصواب، فإن حياتنا تتأثر به شديدًا اليوم، وربما في الأبدية. ومَن يقولون في كبرياء: "وما الذي يعنينا في الحق الأخلاقي والديني؟" يتجاهلون الواقع ويتزلجون على طبقة رقيقة من الجليد بعيون معصوبة. إننا مدينون لأنفسنا وللآخرين بالعثور على الحق، وبالتصرف بناءً عليه. فلنبدأ بالسؤال: "هلِ الله موجود؟"

---

* في العقيدة الهندوسية والبوذية، "الكارما" هي أثر أفعال الإنسان في حياته. فإن كانت أفعاله صالحة، تكون له كارما صالحة؛ بمعنى أنه عندما يحيا حياة ثانية (تناسخ الأرواح) تكون حياته أفضل. ولكن إن كانت أفعاله شريرة تكون له كارما سيئة، فعندما يحيا حياة ثانية يعاني ويتألم حتى يـُصلح من أفعاله، وقد يصل الأمر إلى أن تتناسخ روحه في هيئة حيوان أو حشرة. (المترجمة)

الملخص والخلاصة

١- غالبًا ما يأخذ الناس معتقداتهم من الوالدين، أو الأصدقاء، أو الدين الذي نشؤوا عليه، أو الثقافة. وأحيانًا ما يصيغون معتقداتهم ببساطة على أساس أحاسيسهم فقط. ورغم أن هذه المعتقدات قد تكون صحيحة، من الممكن أيضًا أن تكون خاطئة. والطريقة الوحيدة التي نتوصل بها إلى يقين معقول هي اختبار المعتقدات بالأدلة. وهو ما يتم باستخدام مبادئ فلسفية سليمة، ومنها مبادئ المنطق* والعلم.

٢- يُعَرِّفنا المنطق أن المتناقضات لا يمكن أن تكون صحيحة في نفس الوقت وبنفس المعنى. والمنطق هو جزء من الواقع نفسه، ومن ثم فهو ثابت في أمريكا، والهند، وكل مكان في الكون.

٣- يمكننا باستخدام خطة "رود رَنَر" أن نعرف أن "هيوم" لا يتشكك في نزعته الشكوكية، وأن "كانط" لا يتخذ موقفًا لاأدريًا من لاأدريته. إذَن، آراء كلٍّ منهما متناقضة تفند نفسها. فمن الممكن معرفة حقائق عنِ الله.

٤- الكثير من الحقائق عنِ الله يمكن معرفتها من آثاره التي نستطيع أن نلاحظها. وبالكثير من الملاحظات (الاستقراء) يمكننا أن نتوصل إلى نتائج منطقية (الاستنباط) عن وجودِ الله وطبيعته (وهو ما سنفعله في الفصول القادمة).

٥- الحق الأخلاقي والديني له عواقب زمنية وربما أبدية. واللامبالاة والجهل قد يأتيان بنتائج مميتة. فما لا تعرفه، أو ما لا تبالي بأن تعرفه، **يمكن** أن يؤذيك.

٦- فما الذي يجعل أي شخص يعتقد في أي شيء على الإطلاق؟ أنه يمتلك من الأدلة ما يؤيد معتقداته، ولأن المعتقدات لها عواقب.

* مَن لا يقبلون ضرورة المنطق في العثور على الحق، يفندون فكرتهم ويُثبتون فكرتنا. لماذا؟ لأنهم يحاولون استخدام المنطق لإنكار المنطق. وهو ما يشبه محاولة استخدام اللغة لتوصيل فكرة أن اللغة لا يمكن أن تُستخدَم في التواصل!

الفصول ٣ - ٧ تتناول:

١- الحَقّ المتعلق بالواقع أو حقيقة الواقع أمر قابل للمعرفة.
٢- عكس الحق هو الخطأ.

٣- وجودُ إلهٍ خالقٍ حافظٍ حقّ. وهو ما يُستدَل عليه من:

أ) بداية الكون (الحجة الكونية *Cosmological Argument*)

ب) تصميم الكون (الحجة الغائية *Teleological Argument* / المبدأ الإنساني *Anthropic Principle*)

ج) تصميم الحياة (الحجة الغائية)

د) القانون الأخلاقي (الحجة الأخلاقية *Moral Argument*)

٤- إن كان الله موجودًا، إذَن المعجزات ممكنة.
٥- يمكن استخدام المعجزات لتأكيد رسالة من الله (أي باعتبارها أعمالاً إلهية تؤكد كلام الله).
٦- العهد الجديد يتمتع بالمصداقية التاريخية. وهو ما يُستدَل عليه من:
أ) الشهادة المبكرة
ب) شهادة شهود العيان
ج) الشهادة غير المُفَبْرَكة (الصادقة)
د) شهود العيان الذين لم يكونوا مخدوعين
٧- العهد الجديد يقول إن يسوع زَعَمَ أنه الله.
٨- زَعْمُ يسوع أنه الله تَأكَّد معجزيًا بما يلي:
أ) تحقيقه للكثير من النبوات المختصة به
ب) حياته الخالية من الخطية وأعماله المعجزية
ج) تنبؤه بقيامته وإتمامه لها
٩- إذَن يسوع هو الله.
١٠- كل ما يُعَلِّمه يسوع (الذي هو الله) حقّ.
١١- يسوع عَلَّمَ أن الكتابَ المقدسَ كلمةُ الله.
١٢- إذَن القول بأن الكتابَ المقدسَ كلمةُ الله هو حق (وكل ما يتعارض مع الكتاب خطأ).



في البدء كان انفجار كبير

"العلم بلا دين أعرج، والدين بلا علم أعمى".

"ألبرت أينشتاين" *Albert Einstein*

حقائق "مزعجة"

كان العام ١٩١٦ ولم يكن "ألبرت أينشتاين" *Albert Einstein* سعيدًا بما قادته إليه حساباته. لأنه إن كانت نظريته في النسبية العامة *General Relativity* صحيحة، فهي تعني أن الكون ليس أزليًا بل له بداية. وكانت حسابات "أينشتاين" تكشف فعليًا بداية محددة للزمن كله، وللمادة كلها، وللفضاء كله. وهو ما ضرب بعرض الحائط اعتقاده في استاتيكية (أي ثبات) الكون وأزليته.

وقد وصف "أينشتاين" اكتشافه فيما بعد بالاكتشاف "المزعج"، لأنه أراد للكون أن يكون ذاتي الوجود - لا يعتمد على أي مسبب خارجي - ولكن ظهر أن الكون هو أثر عملاق. والحقيقة أن "أينشتاين" ضاق جدًا بتداعيات النسبية العامة، وهي نظرية ثبتت دقتها بدرجة لخمسة أرقام عشرية (واحد من مائة ألف)، حتى إنه أدخل ثابتًا كونيًا (أطلق عليه البعض منذ ذلك الحين "مُعامِل التصحيح" "*fudge factor*") في معادلاته ليبينّ أن الكون استاتيكي، وليتجنب فكرة البداية المحددة.

إلا أن معامل تصحيح "أينشتاين" لم يصحِّح طويلاً. ففي عام ١٩١٩ أجرى عالم الكون

البريطاني ''آرثر إدينتون'' *Arthur Eddington* تجربة أثناء كسوف شمسي أكدت فعليًا صحة النسبية العامة، فالكون ليس استاتيكيًا بل له بداية. ولم يسعد ''إدينتون'' كما لم يسعد ''أينشتاين'' بالتداعيات. فقد كتب فيما بعد: ''من الناحية الفلسفية، أرى أن وجود بداية لنظام الطبيعة الحالي فكرة مُنَفِّرة لي شخصيًا... أتمنى أن أعثر على ثغرة حقيقية''.[١]

وفي سنة ١٩٢٢ أثبت عالم الرياضيات الروسي ''ألكسندر فريدمَن'' *Alexander Friedmann* رسميًا أن معامل تصحيح ''أينشتاين'' خاطئ وفقًا لقواعد علم الجبر. (الغريب أن ''أينشتاين'' بكل نبوغه، في محاولاته للهروب من البداية، قَسَمَ على صفر، وهو ما يعرف حتى تلاميذ المدارس أنه لا يجوز مطلقًا!) وفي الوقت نفسه اكتشف عالِم الفَلَك الهولندي ''ڤيلِم دي سيتَر'' *Willem de Sitter* أن النسبية العامة تستلزم تمدد الكون. وسنة ١٩٢٧ لاحظ عالم الفلك ''إدوين هَبِل'' *Edwin Hubble* (الذي سُمِّي التلسكوب الفلكي "هَبِل" باسمه) تمدُّد الكون فعليًا.

فعندما نظر ''هَبِل'' من التلسكوب البالغ قطره ٢٥٤ سنتيمترًا الكائن في ''مرصد ماونت ويلسون'' *Mount Wilson Observatory* بولاية كاليفورنيا، اكتشف ''انزياحًا نحو الأحمر'' ''*red shift*'' في الضوء من كل المجرات التي يمكن ملاحظتها، مما يعني أن تلك المجرات تتحرك بعيدًا عنا. أي أن النسبية العامة تأكَّدت مرة أخرى، ويبدو أن الكون يتمدد من نقطة معينة في الماضي السحيق*.

وسنة ١٩٢٩ شدَّ ''أينشتاين'' الرِّحال إلى ''ماونت ويلسون'' لينظر في تلسكوب ''هَبِل'' بنفسه. وما رآه كان شيئًا لا يقبل الجدل. فالدليل **المبني على الملاحظة** بيَّن أن الكون يتمدَّد فعلاً كما تنبأَتْ النسبية العامة. والآن بعد أن انسحق ثابته الكوني نهائيًا تحت وطأة الدليل المضاد، لم يتمكن ''أينشتاين'' منذ تلك اللحظة أن يدعم أمله في أزلية الكون. ومن ثم، وَصَفَ الثابت الكوني بأنه ''أكبر خطأ محرج في حياتي''، وأعاد توجيه جهوده نحو العثور على سطح علبة لغز الحياة. وقال ''أينشتاين'' إني أريد ''أن أعرف كيف خَلَقَ الله العالم. ولا تهمني هذه الظاهرة أو تلك، ولستُ مهتمًا بمدى هذا العنصر أو ذاك. ولكني أريد أن أعرف

---

* كل المجرات تتجه بعيدًا عنا، ولكن هذا لا يعني أننا في مركز الكون. ولكي ترسم صورة في ذهنك لهذه الفكرة، تَخَيل بالونة عليها نقط سوداء. وعندما تنفخ البالونة، تنفصل كل النقط عن بعضها البعض سواء أكانت قريبة من المركز أم لا. والنقط التي على جانبي البالونة (الأبعد عن بعضها البعض) تنفصل أسرع من النقط المتجاورة. والحقيقة أن ''هَبِل'' اكتشف علاقة طردية بين المسافة والسرعة، أظهرت أن مجرة تبعد عنا ضعف المسافة التي تبعدها مجرة أخرى، تسير بعيدًا عنا بمقدار ضعف السرعة. وهو ما عُرِف باسم ''قانون هَبِل''.

فِكرَه، أما الباقي فهو تفاصيل".[٢]

ورغم أن "أينشتاين" قال إنه يؤمن بوحدة الوجود (الله والكون واحد)، فتعليقاته التي يعترف فيها بالخلق والفكر الإلهي هي أقرب للإيمان بالإله الخالق الحافظ. ورغم ما تسببه نظريته في النسبية العامة من "إزعاج"، فهي تقف اليوم بوصفها من أقوى الأدلة على وجود إله خالق حافظ. والحقيقة أن النسبية العامة تؤيد واحدة من أقدم الحجج الرسمية على وجود الإله الخالق الحافظ، ألا وهي الحجة الكونية.

الحجة الكونية: بدايةُ نهايةِ الإلحاد

لا تخف من هذا الاسم الاصطلاحي: فكلمة "كوني" "*cosmological*" مشتقة من الكلمة اليونانية *cosmos* التي تعني "العالم" أو "الكون". أي أن الحجة الكونية *Cosmological Argument* هي الحجة المبنية على بداية الكون. فإن كان للكون بداية، إذَن للكون مسبب. وفي القالب المنطقي تظهر الحجة هكذا:

١- كل ما له بداية له مسبِّب.

٢- الكون له بداية.

٣- إذَن الكون له مسبِّب.

وكما بينَّا في الفصل السابق، لكي تكون الحجة صحيحة، لا بد أن تكون مقبولة منطقيًا، ولا بد أن تكون فرضياتها صحيحة. هذه الحجة مقبولة منطقيًا، ولكن هل المقدمات صحيحة؟ فلنلقِ نظرة على فرضياتها.

فرضية ١: كل ما له بداية له مسبِّب. هذا هو قانون السببية الذي يمثِّل المبدأ الأساسي للعلم. فلولا قانون السببية، لكان العلم مستحيلاً. وقد قال "فرانسيس بيكون" *Francis Bacon* (أبو العلم الحديث): "المعرفة الحقيقية هي معرفة بالمسبِّبات".[٣] أي أن العلم هو بحث عن المسببات. وهذا ما يفعله العلماء؛ يحاولون أن يكتشفوا مسببات الأشياء.

وإن كنا قد لاحظنا أي شيء عن الكون، فما لاحظناه هو أن الأشياء لا تحدث بلا مسبب. فعندما يقود رَجُل سيارته في الطريق لا يمكن أن تظهر أمامه سيارة من مكان لا وجود له، بلا سائق، أو بلا مسبب. صحيح نحن نعلم أن الكثيرين من رجال الشرطة يسمعون ذلك، ولكنه ليس صحيحًا. فدائمًا ما يكون هناك سائق أو أي مسبب آخر وراء تلك السيارة التي ظهرت.

وحتى المتشكك العظيم "ديـڤيد هيوم" لم يقدر أن ينكر قانون السببية. وقد كتب: "لم أؤكد مطلقًا هذه الفرضية شديدة السخافة: أن شيئًا يمكن أن يحدث دون مسبب".[٤]

والحقيقة أن إنكار قانون السببية يعني إنكار العقلانية، لأن عملية التفكير العقلاني نفسها تتطلب منا أن نجمع معًا الأفكار (المسببات) التي تؤدي إلى نتائج (الآثار). فإن قال لك أحد إنه لا يؤمن بقانون السببية، اسأله: "ما السبب الذي وصل بك إلى تلك النتيجة؟"

وبما أن قانون السببية ثابت ومؤكَّد ولا يمكن إنكاره، إذَن الفرضية رقم ١ صحيحة. ماذا عن الفرضية رقم ٢؟ هل للكون بداية؟ إن لم يكن كذلك، إذَن لا حاجة لمسبِّب. ولكن إن كان كذلك، إذَن لا بد أن يكون للكون مسبب.

حتى زمن "أينشتاين" تقريبًا، كان الملحدون مستكينين للاعتقاد بأن الكون أزلي، ومن ثم لا يحتاج لمسبب. ولكن منذ ذلك الحين، اكتُشِفَت خمسة فروع من الأدلة العلمية تُثْبِت بما لا يقبل الشك المنطقي أن الكون له بداية بالفعل. وتلك البداية هي ما يُطلِق عليه العلماء حاليًا "الانفجار الكبير" "*The Big Bang*". وأدلة الانفجار الكبير يمكن تذكرها بسهولة بكلمة *SURGE*.*

في البدء كان انفجار كبير

كل عدة سنوات أو نحو ذلك، تنشر كبرى المجلات الإخبارية، مثل مجلة "تايم" *Time* ومجلة "نيوزويك" *Newsweek* وغيرهما، موضوع غلاف عن أصل الكون ومصيره. ومن الأسئلة التي تبحثها هذه المقالات: "متى بدأ الكون؟" و"متى سينتهي؟" ولكن فكرة أن الكون له بداية وأنه سيموت في النهاية لا تُطرح للمناقشة في هذه الموضوعات. لماذا؟ لأن العلماء اليوم يعلمون أنه لا بد من وجود بداية ونهاية للكون بناءً على واحد من أكثر القوانين الطبيعية المؤكَّدة، ألا وهو القانون الثاني في الديناميكا الحرارية.

القانون الثاني في الديناميكا الحرارية *(S)*

القانون الثاني في الديناميكا الحرارية *Second Law of Thermodynamics* هو ما سنشير إليه بحرف *S* في كلمة *SURGE*. والديناميكا الحرارية هي العلم الذي يدرس المادة والطاقة، ومن الأشياء التي ينص عليها القانون الثاني أن الكون يفقد الطاقة القابلة للاستخدام. فكل لحظة يتناقص مقدار الطاقة القابلة للاستخدام في الكون، مما يؤدي بالعلماء إلى النتيجة الواضحة

* الطريف أن كلمة *surge* تعني زيادة مفاجئة، أو ارتفاع مفاجئ، أو تدفق قوي مفاجئ. (المترجمة)

من أنه يومًا ما كل الطاقة ستنفد والكون سيموت. فالكون مثل السيارة المنطلقة على الطريق، لا بد أن تفرغ من البنزين.

تقول: "وَلَوْ! كيف يُثْبِت ذلك بداية الكون؟" لتنظر إلى الأمر هكذا: القانون الأول في الديناميكا الحرارية يقول إن إجمالي كمية الطاقة في الكون ثابت*. أي أن الكون لا يملك إلا مقدارًا محدودًا من الطاقة (مثل سيارتك التي لا تملك إلا مقدارًا محدودًا من الوقود). والآن، إن كانت سيارتك بها مقدار محدود من الوقود (القانون الأول)، وكلما تسير تستهلك الوقود باستمرار (القانون الثاني)، فهل يمكن لسيارتك أن تتحرك الآن لو كنت قد أدرتها منذ الأزل؟ لا، بالطبع لا. كان وقودها سينتهي. وهكذا لو كان الكون يعمل منذ الأزل، لكان الآن قد فقد كل طاقته. ولكنه ما زال يعمل. إذَن لا بد أنه بدأ في وقت ما في الماضي المحدود. أي أن الكون ليس أزليًا، ولكن له بداية.

يمكنك أيضًا أن تتخيل الكون مثل كشاف كهربائي. إن تركت الكشاف الكهربائي مضاءً طوال الليل، فكيف ستكون قوة الضوء في الصباح؟ سيكون خافتًا لأن البطاريات استهلكت معظم طاقتها. إن الكون مثل كشاف كهربائي يخفت ضوءه. وهو لا يملك إلا قدرًا محدَّدًا من الطاقة المتبقية المتاحة للاستهلاك. ولكن بما أن بطارية الكون ما زال فيها قدر من الطاقة (لم تمُتْ تمامًا)، إذَن يستحيل أن يكون أزليًا. بل لا بد أن له بداية، لأنه لو كان أزليًا لكانت البطارية قد فرغت تمامًا من الطاقة.

ويُعرف القانون الثاني أيضًا باسم قانون الإنتروبي *Law of Entropy* وهو عبارة عن طريقة معقَّدة للتعبير عن ميل الطبيعة لإشاعة حالة من الفوضى. أي أن الأشياء تتهالك بمرور الزمن. فسيارتك تتهالك، وبيتك يتهالك، وجسمك يتهالك. (الحقيقة أن القانون الثاني هو السبب في أننا عندما نشيخ نمشي على ثلاثة بعد أن كنا نمشي على اثنتين!) ولكن إن كان النظام يقل في الكون، فمِن أين أتى النظام الأصلي؟ عالم الفلك "روبرت چاسترو" *Robert Jastrow* يُشَبِّه الكون بساعة تُدار يدويًا.[٥] إن كانت هذه الساعة تعمل، لا بد أن شخصًا أدارها.

---

* ربما أنك سمعت القانون الأول في الديناميكا الحرارية مصاغًا على هذا النحو: "الطاقة لا تُخلق ولا تُدَمَّر" أو الطاقة لا تفنى ولا تُستحدث من عدم". هذه عبارة فلسفية، وليست ملاحظة تجريبية. فكيف لنا أن نعرف أن الطاقة لم تُخلَق (لم تستحدث من عدم)؟ لم يكن هناك ملاحظون ليتحققوا من هذا الافتراض. ولكن التعريف الأدق للقانون الأول، بقدر ما تتيحه الملاحظة، هو أن "إجمالي كمية الطاقة في الكون (أي الطاقة القابلة للاستخدام وغير القابلة للاستخدام) تظل ثابتة". لذلك بينما تُستهلك الطاقة القابلة للاستخدام، تتحول إلى طاقة غير قابلة للاستخدام، ولكن مجموع الاثنتين يبقى كما هو. كل ما يتغير هو نسبة الطاقة القابلة للاستخدام إلى الطاقة غير القابلة للاستخدام.

وهذا الجانب أيضًا في القانون الثاني يُعَرِّفنا أن الكون له بداية. فبما أنه ما زال شيء من النظام متبقيًا عندنا، تمامًا كما أنه ما زال عندنا قدر من الطاقة القابلة للاستخدام، إذَن لا يمكن أن يكون الكون أزليًا، لأنه إن كان كذلك لكُنا الآن قد وصلنا إلى فوضى كاملة (إنتروپي).

منذ عدة سنوات، دعاني ("أنا نورم") أحد الطلاب الذين يشاركون في خدمة مسيحية في إحدى جامعات رابطة أيـڤـي ليج *Ivy League* لأتحدث هناك عن موضوع مشابه. وفي المحاضرة التي قدمتها للطلاب كان موضوعي الأساسي ما كتبناه هنا، ولكن بمزيد من التفاصيل الكثيرة. وبعد المحاضرة طلب مني الطالب الذي دعاني أن أتناول الغداء معه ومع الأستاذ الذي يُدَرِّسه الفيزياء.

وعندما جلسنا للأكل، أوضح الأستاذ أنه متشكك في حجتي التي مفادها أن القانون الثاني يستلزم بداية للكون. وقال إنه يؤمن بالفلسفة المادية التي تقول إنه لا يوجد إلا المادة، وإنها موجودة منذ الأزل.

فسألته: "إن كانت المادة أزلية، فماذا تفعل بالقانون الثاني؟"

أجاب: "لكل قاعدة استثناء. وهذا هو استثنائي".

كان يمكنني أن أسأله إن كان هذا الافتراض علميًا. فهذا الكلام ليس علميًا، بل قد يكون متناقضًا ويفند نفسه. فهو يفند نفسه إن سألت: "هل القاعدة التي تقول "لكل قاعدة استثناء" لها استثناءات؟" إن كان لها أي استثناء، فقد يكون القانون الثاني استثناء من القانون الذي يقول إن كل قاعدة لها استثناءات.

ولكني لم أتخذ هذا النهج لأني لم أُرِدْ أن أحرجه. ولكني وضعت القانون الثاني جانبًا بشكل مؤقت وقررت أن أسأله عن المادية.

فسألته: "إن كانت كل الأشياء مادية، إذَن ما هي النظرية العلمية؟ فمهما كان، النظريات عن كل الأشياء المادية ليست مادية، فالنظرية لا تتكون من جزيئات".

ودون أن يتردد لحظة واحدة، أجاب بِرَدّ عبقري قائلاً: "النظرية سِحْر".

فكررت ما قال لأني لم أصدق أذني: "سحر؟ على أي أساس تقول ذلك؟"

فأجاب مسرعًا: "الإيمان".

ففكرت في نفسي: "الإيمان بالسحر؟ لست أصدق أذني! إن كان الإيمان بالسحر أفضل ما يمكن لدعاة الفلسفة المادية تقديمه، إذَن **لست أملك الإيمان الكافي لاعتناق المادية!**"

وعندما استرجعتُ الموقف بدا لي أن هذا الأستاذ عاش لحظة وجيزة من الصدق التام؛ فقد عرف أنه لا يستطيع الرد على الأدلة الكاسحة التي تؤيد القانون الثاني. ولذلك، اعترف أن موقفه لا يقوم على أي دليل أو منطق سليم. وبذلك، قَدَّم مثالاً آخر على رفض الإرادة أن تُصَدِّق ما يقبله العقل باعتباره الحق، وهو أيضًا مثال يبيِّن أن موقف الملحد يقوم على إيمان مَحض.

لقد أصاب الأستاذ في شيء واحد، ألا وهو أن عنده إيمانًا. والحقيقة أنه كان يحتاجُ قفزة إيمانية حتى يتجاهل إراديًا أكثر القوانين المؤكَّدة في الطبيعة برمتها. وقد وصف "آرثر إدينتون" القانون الثاني منذ أكثر من ثمانين عامًا قائلاً:

> القانون الذي يقول بزيادة الإنتروبي، وهو القانون الثاني في الديناميكا الحرارية، أظن أنه يحتل المكانة العليا بين قوانين الطبيعة. فإن أخبرك أحدهم أن نظريتك المفضلة عن الكون تتعارض مع معادلات "ماكسويل" *Maxwell*، يمكن أن تُنَحّي معادلات "ماكسويل" جانبًا. وإن وُجدَت متعارضة مع الملاحظة، لا يهم، فالتجارب أحيانًا ما تفسد الأمور. ولكن **إن وُجِدَت نظريتك متعارضة مع القانون الثاني في الديناميكا الحرارية فلا أستطيع أن أعطيك أي أمل، لأنه ليس أمامها إلا أن تهوي إلى أعماق الخزي.**[٦]

وبما أني أدركت أن البروفسور لم يكن مهتمًا بقبول الحق، لم أسأله أي أسئلة أخرى محرجة. ولكن لأننا لم نتمكن من تجاهل تأثير القانون الثاني على أجسامنا، طَلَب كلانا الحلوى بعد الغداء. ولم يُرِدْ أي منا أن ينكر أننا نحتاج أن نعوض الطاقة التي فقدناها لتونا!

تمدد الكون *(U) The Universe Is Expanding*

إن النظريات العلمية الجيدة هي التي تستطيع أن تتنبأ بالظواهر التي لم تخضع للملاحظة بعد. فكما رأينا النسبية العامة تنبأت بأن الكون يتمدد. ولكن العلماء لم يؤكدوا أن الكون يتمدد وأنه يتمدد من نقطة واحدة إلا بعد أكثر من عشر سنوات عندما نظر أسطورة علم الفلك "إدوين هَبِل" في تلسكوبه. (منذ عام ١٩١٣ كان عالم الفلك "ڤستو ملـڤين سليفَر" *Vesto Melvin Slipher* على وشك أن يكتشف تمدد الكون، ولكن "هَبِل" هو من وَضَع أجزاء الصورة معًا حتى اكتملت في أواخر العشرينيات). وهذا الكون المتمدد هو الفرع الثاني من الأدلة العلمية على بداية الكون.

كيف يُثْبِت تمدُّد الكون أن له بداية؟ فكِّر فيها هكذا: تَخيَّل أننا نشاهد تسجيلاً بالفيديو لتاريخ الكون ولكن بالعكس، سنرى أن كل مادة الكون تنهار حتى تصل إلى نقطة، ليست في حجم كرة السلة، ولا في حجم كرة الجولف، ولا حتى في حجم رأس الدبوس، ولكنها رياضيًا ومنطقيًا نقطة عبارة عن لا شيء (لا مكان، ولا زمان، ولا مادة). أي أنه كان هناك عدم ثم، انفجار، صار هناك شيء، انفجر الكون كله إلى الوجود! وهو ما شاعت تسميته طبعًا باسم "الانفجار الكبير".

ومهم أن نفهم أن الكون لا يتمدد في فضاء فارغ، ولكن الفضاء نفسه يتمدد، فلم يكن هناك فضاء قبل الانفجار الكبير. ومهم أيضًا أن نفهم أن الكون لم ينبثق من مادة موجودة، ولكن من لا شيء، فقبل الانفجار الكبير لم يكن هناك مادة. بل الحقيقة أنه من الناحية الزمنية لم يكن هناك "قبل" الانفجار الكبير لأنه بدون الزمن ليس هناك "قبل"، ولم يكن هناك زمن حتى حدوث الانفجار الكبير.* الزمان، والمكان، والمادة أتت إلى الوجود عند الانفجار الكبير.

وهذه الحقائق تسبِّب الكثير من الاضطراب للملحدين، كما حدث في ليلة مطيرة في ولاية چورچيا من شهر نيسان/أبريل سنة ١٩٩٨. في تلك الليلة حضرتُ (أنا "فرانك") مناظرة في مدينة "أتلانتا" حول سؤال: "هلِ الله موجود؟" وقد اتخذ "وليم لين كريج" *William Lane Craig* الموقف المؤيِّد، واتخذ "پيتر آتكينز" *Peter Atkins* الموقف المعارض. وكانت المناظرة حيوية جدًا، بل فكاهية أحيانًا، وهو ما كان يرجع جزئيًا لحَكَم المناظرة "وليم ف. بَكلي" الابن*William F. Buckley, Jr*. (لم يُخفِ "بَكلي" انحيازه لموقف "كريج" المؤيِّد لله، فبعد أن قدَّم "كريج" ومؤهلاته المبهرة، بدأ تقديم "آتكينز" بتعبير فكاهي، فقال: "ومعنا الدكتور "پيتر آتكينز" في صف الشيطان!").

وكانت الحجة الكونية واحدة من الحجج الخمس التي طرحها "كريج" لإثبات وجودِ الله مؤيَّدةً بدليل الانفجار الكبير الذي تناولناه هنا. وقد أشار إلى أن الكون: كل الزمان، وكل المادة، وكل المكان انفجر من لا شيء، وهي حقيقة اعترف بها "آتكينز" في كتابه وأكدها ثانية فيما بعد في تلك المناظرة.

---

* كلمات مثل "يسبق" و"قبل" عادة ما تنطوي على زمن. ولكننا لا نقصدها بذلك المعنى، لأنه لم يكن هناك زمن "قبل" الانفجار الكبير. لأنه يستحيل أن يكون هناك زمن قبل بدء الزمن. فما الذي يمكن أن يوجد إذَن قبل الزمن؟ الإجابة بمنتهى البساطة هي: الأزلي! أي المسبب الأزلي الذي أوجد الزمان، والمكان، والمادة.

وبما أن "كريج" تحدَّث أولاً فقد أخبر الحضور عن محاولة "آتكينز" أن يفسر الكون من منظور إلحادي قائلاً: "يبذل الدكتور "آتكينز" قصارى جهده في كتابه "مراجعة الخليقة" *The Creation Revisited* ليفسِّر كيفية ظهور الكون إلى الوجود، بلا مسبب ومن العدم. ولكنه في النهاية يجد نفسه وقد سقط في التناقض. فهو [يكتب]: "والآن نعود بالزمن إلى ما قبل لحظة الخلق عندما لم يكن هناك زمان، وحيثما لم يكن هناك مكان". وفي هذا الزمان الذي قبل الزمان يتخيل ترابًا من النقاط الرياضية التي تتحرك في دوامات وتتصل مرارًا وتكرارًا وأخيرًا عن طريق المحاولة والخطأ تشكل كوننا بزمانه ومكانه"".[٧]

ثم أشار "كريج" إلى أن موقف "آتكينز" ليس نظرية علمية ولكنه في الواقع ميتافيزيقا شعبية متناقضة. وهو ميتافيزيقا شعبية لأنها تفسير مُفَبرَك، فليس هناك دليل علمي على الإطلاق يؤيده. وهو متناقض لأنه يفترض الزمان والمكان قبل أن يكون هناك زمان ومكان.

وحيث إن "كريج" لم يحصل على فرصة ليتحاور مع "آتكينز" مباشرةً حول هذه النقطة، وقفت أنا وكذلك "راڤـي زكراياس" في صف الأسئلة قرب نهاية المناظرة لنسأل "آتكينز" عن موقفه. ولكن للأسف الوقت انتهى قبل أن يتمكن أيٌّ منا من طرح سؤاله. لذلك ذهبنا إلى "آتكينز" على انفراد بعد المناظرة.

وبدأ "راڤـي" الحديث قائلاً: "دكتور "آتكينز"، إنك تعترف أن الكون انفجر من لا شيء، ولكن تفسيرك لبدايته يتلاعب بمعنى "اللاشيء". وذلك لأن النقاط الرياضية التي تتحرك في دوامات ليست لا شيء. ولكنها شيء. كيف تبرر ذلك؟"

وبدلاً من أن يرد "آتكينز" على هذه القضية استسلم حرفيًا للقانون الثاني من الديناميكا الحرارية، وقال: "الحقيقة أنا متعَب جدًا ولا يمكنني أن أجيب عن المزيد من الأسئلة الآن". أي أن انخفاض طاقته أثبت أن القانون الثاني سارٍ. والحقيقة أن "آتكينز" لم يكن لديه فعليًا أي شيء يقوله.

وفقًا للأدلة الكونية الحديثة، لم يكن هناك فعليًا أي شيء انبثق منه الكون. ولكن عندما حاول "آتكينز" أن يقدم تفسيرًا إلحاديًا لذلك لم يبدأ باللاشيء، بل بنقاط رياضية وزمان. وبالطبع لا يستطيع المرء على أي حال أن يتخيل كيف يمكن لمجرد نقاط رياضية وزمان أن يُسَبِّبا الكون. إلا أننا أردنا أن نؤكد أن الملحدين أمثال "آتكينز" عليهم أن يجدوا طريقة ليفسروا كيفية بدء الكون من لا شيء أصلاً.

ما هو اللاشيء؟ قدَّم أرسطو تعريفًا جيدًا حين قال: **اللاشيء هو ما تحلم به الصخور!** إن اللاشيء الذي نشأ منه الكون ليس "نقاطًا رياضية" كما يرجح "آتكينز"، ولا "طاقة إيجابية وسلبية" كما كتب ذات مرة "إسحاق أزيموف" *Isaac Asimov*، وهو أيضًا ملحد.[٨] اللاشيء هو حرفيًا لا شيء، إنه ما تحلم به الصخور.

وقد وصف الكاتب البريطاني "أنتوني كني" *Anthony Kenny* بأمانة المأزق الذي يجد نفسه فيه بصفته ملحدًا في ضوء الأدلة على الانفجار الكبير. فكتب: "وفقًا لنظرية الانفجار الكبير، كل مادة الكون ظهرت في الوجود في وقت معين في الماضي السحيق. ومؤيد هذه النظرية، على الأقل إن كان ملحدًا، لا بد أن يؤمن أن مادة الكون أتت من لا شيء وبواسطة لا شيء".[٩]

الإشعاع المنبعث من الانفجار الكبير *(R) Radiation from the Big Bang*

الفرع الثالث من الأدلة العلمية على أن للكون بداية اكتُشِفَ بالصدفة سنة ١٩٦٥. وكان ذلك عندما التقط كلٌّ من "آرنو بنزياس" *Arno Penzias* وزميله "روبرت ويلسون" *Robert Wilson* إشعاعًا غريبًا على هوائي "مَعامل بل" *Bell Labs* في "هولمدل" *Holmdel* بولاية نيو جيرسي. وحتى عندما أدارا الهوائي في كل الاتجاهات ظل هذا الإشعاع الغامض موجودًا. وفي البداية ظنّا أنه يمكن أن يكون نتيجة تراكم فضلات الحمام المعشش من شاطئ نيو جيرسي على الهوائي. فطلبا إبعاد الحمام وإزالة فضلاته. ولكنهما عندما دخلا ثانية وجدا أن الإشعاع ظل باقيًا، وظل يأتي من كل الاتجاهات.

وما رصده "بنزياس" وزميله "ويلسون" أصبح من أكثر الاكتشافات المدهشة في القرن الماضي، حتى إنه كان سببًا في فوزهما بجائزة نوبل. لقد اكتشف عالِما "مَعامل بل" الشعاع التابع لانفجار كرة النار الكبير!

وهذا الشعاع التابع للانفجار الذي يُعرف اصطلاحًا باسم إشعاع الخلفية الكونية *cosmic background radiation* هو فعليًا عبارة عن ضوء وحرارة من الانفجار الأصلي. إلا أن هذا الضوء لم يعُد منظورًا لأن طوله الموجي تَمَدَّد بفعل التمدُّد الكوني حتى وصل إلى أطوال موجية أقصر قليلاً من الموجات الصادرة من فرن الميكروويف. ولكننا ما زلنا قادرين على رصد الحرارة المنبعثة.

ومنذ سنة ١٩٤٨ تنبأ ثلاثة علماء أن الانفجار الكبير، إن كان حقيقيًا، فلا بد أن يوجد إشعاع كهذا. ولكن لسببٍ ما، لم يحاول أحد أن يرصده قبل أن يتعثر فيه "بنزياس" وزميله "ويلسون" بالصدفة بعد ما يقرب من عشرين عامًا. وعندما تأكد الاكتشاف أسكت كل الاقتراحات التي تُلِحّ على أن الكون في حالة أزلية ثابتة. وهو ما عَبَّرَ عنه عالم الفلك اللاأدري "روبرت چاسترو" بهذه الكلمات:

> لم يُكتَشَف تفسير لإشعاع كرة النار إلا الانفجار الكبير. والفيصل الذي أقنع تقريبًا آخر توما شكاك هو أن الإشعاع الذي اكتشفه "بنزياس" و"ويلسون" له نفس نمط الأطوال الموجية المتوقَّعة للضوء والحرارة الناتجين من انفجار ضخم. وقد حاول مؤيدو نظرية الحالة الثابتة *steady state theory* محاولات مستميتة أن يجدوا تفسيرًا بديلاً، ولكنهم فشلوا. وفي الوقت الحالي، نظرية الانفجار الكبير تقف بلا منافس.[١٠]

والواقع أن اكتشاف إشعاع كرة النار أحرق أي أمل في الحالة الثابتة. إلا أنه لم يكن آخِر الاكتشافات. وفيما يلي مزيد من أدلة الانفجار الكبير. والحقيقة أنه لو كان عِلم الكون مباراة كرة قدم أمريكية، لَطـُلِب من المؤمنين بالانفجار الكبير أن "يقفزوا" فوق لاعبي الفريق المنافس مع ظهور هذا الاكتشاف التالي.

بذور المجرة العظيمة *(G) Great Galaxy Seeds*

بعد اكتشاف تمدُّد الكون الذي تنبأت به النظريات، والإشعاع التابع للانفجار الكبير، وَجَّهَ العلماء انتباههم لتنبوء آخر من شأنه تأكيد الانفجار الكبير. فإن كان الانفجار الكبير قد حدث بالفعل، رأى العلماء أنه لا بد أن نرى تنوعات طفيفة (أو حركات موجية دائرية صغيرة) في درجة حرارة الإشعاع الخلفي الكوني الذي اكتشفه "بنزياس" و"ويلسون". وهذه الحركات الموجية الدائرية من درجة الحرارة مَكَّنَت المادة من التجمع بفعل الجاذبية في هيئة مجرات. وإن وُجِدَت، ستُشَكِّل الفرع الرابع من الأدلة العلمية على بداية الكون.

وسنة ١٩٨٩ تَكَثـَّف البحث عن هذه الحركات الموجية عندما أطلقت ناسا القمر الصناعي الذي تعادل قيمته ٢٠٠ مليون دولار، والذي اختير له اسم مناسب جدًا هو "مستكشف الخلفية الكونية" *Cosmic Background Explorer* واختصاره "كوب" *COBE*. وقد تَمَكَّن "كوب" بما حمله من أجهزة شديدة الحساسية أن يرى ما إذا كانت هذه الحركات الموجية الدائرية الصغيرة موجودة بالفعل في الإشعاع الخلفي ومدى دقتها.

وعندما أعلن عالم الفلك "جورج سموت" *George Smoot*، قائد المشروع، نتائجَ "كوب" سنة ١٩٩٢ نشرت صحف العالم وصفَه الصادم. فقد قال: "إن كنتَ متدينـًا، فالأمر يشبه النظر إلى الله". ولم يكن "مايكل ترنر" *Michael Turner* عالم الفيزياء الفلكية بجامعة شيكاغو أقل حماسًا، إذ زعم قائلاً: "إن قيمة هذا [الاكتشاف] أعظم من أن توصف. لقد وجدوا قدس أقداس الكونيات". وقد اتفق معهما أيضًا "ستيـڤن هوكينج" عالم الفلك بجامعة كامبريدچ، ووصف النتائج بأنها "أهم اكتشاف في القرن، إن لم يكن في التاريخ كله".[١١] فما الذي اكتشفه "كوب" حتى يستحق كل هذه الأوصاف الرنانة؟

إن "كوب" لم يجد الحركات الموجية الدائرية فحسب، ولكن العلماء ذُهِلوا من دقتها. فالحركات الموجية تُبَيِّن أن انفجار الكون وتمدُّده ضُبِطَا بدقة تتيح إنتاج المادة بكمية تكفي لتَجَمُّعها معًا بما يسمح بتكوين المجرات، ولكنها لا تكفي لتجعل الكون ينهار مرة أخرى على نفسه. ولو حدث تغيير طفيف بأي شكل من الأشكال لن يكون أيٌّ منـًا هنا حتى يخبر به. وفي الحقيقة الحركات الموجية الدائرية الصغيرة في منتهى الدقة (تصل دقتها إلى جزء من مائة ألف) حتى إن "سموت" أطلق عليها "آثارُ آلةِ خلق الكون"، ووَصَفَها أيضًا بأنها "بصمات الخالق".[١٢]

ولكن هذه الحركات الموجية الدائرية لدرجة الحرارة ليست مجرد نقط على رسم بياني لأحد العلماء في مكانٍ ما. ولكن "كوب" التقط صورًا تحت الحمراء للحركات الموجية. تَذَكَّر أن ملاحظة الفضاء هي في الواقع ملاحظة للماضي، نظرًا لطول الزمن الذي يستغرقه الضوء القادم من أجسام بعيدة جدًا حتى يصل إلينا. لذا، صور "كوب" هي فعليًا صور من الماضي. أي أن الصور تحت الحمراء التي التقطها "كوب" تشير إلى وجود مادة من الكون الأولي تُشَكِّل في النهاية المجرات والعناقيد المجرِّية. وقد أطلق "سموت" على هذه المادة "بذور" المجرات كما توجد اليوم (يمكن الاطلاع على هذه الصور على الموقع الإلكتروني للقمر "كوب": *http://Lambda.gsfc.nasa.gov*). وهذه "البذور" هي أكبر بِنَى تم رصدها على الإطلاق، وأكبرها يمتد بعرض ثُلث الكون المعروف. وهو ما يعادل ١٠ مليار سنة ضوئية أو ٩٥ مليار تريليون (٩٥ يتبعها ٢١ صفر) كيلومتر.[١٣]

والآن تستطيع أن تفهم سبب الأوصاف المهيبة التي أطلقها بعض العلماء على الاكتشاف. إنه شيء آخر تنبأت به نظرية الانفجار الكبير، والآن تم اكتشافه، وكان ذلك الشيء عظيم الكِبَر وشديد الدقة حتى إنه أحدث انفجارًا كبيرًا عند العلماء!

نظرية أينشتاين في النسبية العامة *(E) Einstein's Theory of General Relativity*

حرف *E* في كلمة *SURGE* يشير إلى "أينشتاين" *Einstein*. وتمثِّل نظريته في النسبية العامة الفرع الخامس في الأدلة العلمية على بداية الكون، وكان اكتشافها بداية النهاية لفكرة أزلية الكون. والنظرية نفسها التي تم التحقُّق من دقتها للرقم العشري الخامس (أي بنسبة واحد من مائة ألف)، تستلزم بداية محددة للزمان، والمكان، والمادة. وهي تبين أن الزمان، والمكان، والمادة ملازِمة لبعضها البعض. أي أنها في علاقة تكافلية، لا يمكن أن يوجد عنصر واحد دون العنصرين الآخَرين.

ومن نظرية النسبية العامة، تنبأ العلماء بتمدد الكون، والإشعاع المنبعث عقب الانفجار، وبذور المجرة العظيمة التي ضُبِطَت بدقة تسمح للكون أن يتخذ شكله الحالي، ثم اكتشفوا كل هذه الحقائق. أضف هذه الاكتشافات إلى القانون الثاني في الديناميكا الحرارية، وبذلك تتكون لدينا خمسة فروع من الأدلة العلمية القوية على أن الكون له بداية. بداية، إن جاز لنا التعبير، أتت في انفجار كبير أشرنا إلى أدلته بلفظ *SURGE*.

الله وعلماء الفلك

إذَن الكون له بداية. ماذا يعني ذلك لمسألة وجودِ الله؟ العالِم الذي يشغل حاليًا كرسي "إدوين هَبِل" في "مرصد ماونت ويلسون" يخبرنا ببعض الأمور عن هذا الموضوع. واسمه "روبرت چاسترو"، وهو عالم فلك اقتبسنا من أقواله في هذا الفصل. وهو مدير "مرصد ماونت ويلسون"، ومؤسس "معهد جودارد لدراسات الفضاء التابع لناسا" *NASA's Goddard Institute of Space Studies*. ومن الواضح أن مؤهلاته العلمية لا تشوبها شائبة. وهو ما جعل لكتابه "الله وعلماء الفلك" *God and the Astronomers* تأثيرًا كبيرًا على من يبحثون في تداعيات الانفجار الكبير، أي من يطرحون سؤال: "هل الانفجار الكبير يشير إلى الله؟"

ويكشف "چاسترو" في افتتاحية الفصل الأول أنه لا يتبنى أي آراء دينية يود إقناع القارئ بها. فهو يقول: "عندما يكتب عالِم فَلَك عنِ الله، يفترض زملاؤه إما أنه شاخ وخَرِف، أو أنه أصيب بالجنون. ولكني أرجو أن يُفـْهَم من البداية أني لاأدري في الأمور الدينية".[١٤]

في ضوء لاأدرية "چاسترو"، تظهر أقواله التي تتعلق بالإيمان بالله الخالق أكثر إثارةً. فبعد أن شرح بعض أدلة الانفجار الكبير التي استعرضناها توًا، كتب: "يمكننا الآن أن نرى أن

الأدلة الفلكية تؤدي بنا إلى منظور كتابي* لأصل العالم. ورغم اختلاف تفاصيل الرواية الفلكية عن الرواية الكتابية الواردة في سفر التكوين؛ فالعناصر الأساسية في الروايتين واحدة: سلسلة الأحداث التي تؤدي إلى ظهور الإنسان بدأت بداية مفاجئة واضحة في لحظة محدَّدة في الزمن، في ومضة من الضوء والطاقة".[١٥]

والأدلة المذهلة على الانفجار الكبير وتوافقها مع الرواية الكتابية في سفر التكوين دفعا "جاسترو" أن يقول في حوار أُجري معه: "يرى علماء الفلك اليوم أنهم وضعوا أنفسهم في مزنق؛ لأنهم أثبتوا بطُرُقِهم العلمية أن العالم بدأ فجأة بفِعْلِ خَلْق يمْكِنك أن تعزي له كل بذور كل نجم، وكل كوكب، وكل كائن حي في هذا الكون وعلى الأرض. وقد وجدوا أن كل هذا حدث نتاجًا لقوى لا يمكنهم حتى أن يحلموا باكتشافها... **إني أعتقد أن وجود ما أُطْلِقُ عليه، أنا أو غيري، قوى فوق طبيعية عاملة أصبح الآن حقيقة ثابتة علميًا**".[١٦]

وإذ يثير "جاسترو" فكرة فوق الطبيعي، يردد الخلاصة التي توصل إليها "آرثر إدينتون" الذي عاصر "أينشتاين". فكما ذكرنا فيما سبق، أنه رغم أن "إدينتون" وجدها فكرة "منفِّرة"، فقد اعترف أن "البداية يبدو أنها تطرح صعوبات مستعصية إلا إذا اتفقنا أن ننظر إليها بصفتها فوق طبيعية على نحو صريح".[١٧]

ولكن لماذا يعترف "جاسترو" وكذلك "إدينتون" بوجود قوى "فوق طبيعية" عاملة؟ ما المانع أن يكون الكون نتاجَ قوى طبيعية؟ لأن هؤلاء العلماء يعلمون، مثلما يعلم أي شخص آخر، أن القوى الطبيعية، بل الطبيعة برمتها، خُلِقَت في الانفجار الكبير. أي أن الانفجار الكبير كان نقطة البداية للكون المادي كله. فالزمان والمكان والمادة أتت إلى الوجود عند تلك النقطة. وقبل الانفجار الكبير لم يكن هناك عالم طبيعي ولا قانون طبيعي. وبما أن المسبِّب لا يمكن أن يَعْقُب الأثر، إذَن القوى الطبيعية لا يمكن أن تفسِّر الانفجار الكبير. ومن ثم لا بد من وجود شيء **خارج الطبيعة** يقوم بهذه الوظيفة. وهذا هو بالضبط ما يعنيه تعبير **فوق طبيعي**.

و"روبرت ويلسون" و"آرنو بنزياس"، مكتشِفا الشعاع التابع للانفجار، لم يكونا من معلمي الكتاب المقدس المتحمسين له. بل كان كلاهما في البداية يؤمن بنظرية الحالة الثابتة. ولكنهما نظرًا لتزايد الأدلة، غيرًا موقفهما واعترفا بحقائق تتفق مع الكتاب المقدس. ويعترف "بنزياس" قائلاً: "لقد اتضح أن نظرية الحالة الثابتة في منتهى البشاعة حتى إن الناس

* كلمة "كتابيّ" في الفهم المسيحي تعني: وفقًا للكتاب المقدس. (المترجمة)

لفظوها. وأسهل وسيلة لتوفيق الملاحظات على أقل عدد من المعايير تتمثل في تأكيد أن الكون خُلِقَ من لا شيء، في لحظة، وأنه ما زال يتمدد".[١٨]

وقد قال "ويلسون" الذي درس على يد "فْرِد هويل" *Fred Hoyle* (الذي روَّج لنظرية الحالة الثابتة ونشرها على نطاق واسع سنة ١٩٤٨): "لقد أُعجِبْتُ بنظرية الحالة الثابتة من الناحية الفلسفية. ولكن واضح أنه كان لا بد أن أتخلى عنها".[١٩] وعندما سأله الكاتب العلمي "فْرِد هيرِن" *Fred Heeren* عما إذا كانت أدلة الانفجار الكبير تشير إلى وجود خالق، أجاب "ويلسون" قائلاً: "مؤكد أن شيئًا ما أطلق هذه العملية برمتها. ومؤكد، إن كنتَ متدينًا، أنه لا يمكنني أن أجد نظرية أفضل منها عن أصل الكون تتناسب مع سفر التكوين".[٢٠] وقد أكد "چورچ سموت" تقييم "ويلسون" حينما قال: "لا شك أن هناك تشابهًا بين الانفجار الكبير بصفته حدثًا والفكرة المسيحية المختصة بالخلق من عدم".[٢١]

"الإمبراطورية تعيد الضربات"* (ولكنها تتلاشى)

ما قول الملحدين في ذلك؟ لقد رأينا ما في تفسيرات "آتكينز" و"إسحق أزيموف" من قصور، فهي تنطلق من شيء وليس من عدم فعلي. فهل هناك أي تفسيرات إلحادية أخرى مقبولة منطقيًا؟ لم نرَ للملحدين تفسيرات مقبولة حتى الآن. فقد خرجوا بنظريات أخرى، ولكنها جميعًا مشوبة بأخطاء فادحة[٢٢]. فلنلقِ نظرة سريعة على القليل منها.

نظرية الارتداد الكوني ***The Cosmic Rebound Theory***: ترجِّح هذه النظرية أن الكون كان يتمدَّد وينكمش منذ الأزل. وهو ما يساعد مؤيديها على الهروب من البداية المحدَّدة. ولكن هذه النظرية محاطة بمشكلات عديدة، مما أدى إلى رفضها.

وأول هذه المشكلات وأوضحها هو عدم توافر دليل على وجود عدد لانهائي من الانفجارات (فمهما كان النظرية ليست نظرية الانفجار، الانفجار، الانفجار، الانفجار، الانفجار... الكبير!) بل يظهر أن الكون انفجر مرة واحدة من العدم، وليس مرارًا من مادة موجودة.

ثانيًا، الكون لا يحوي مادة كافية لسحب كل الأشياء معًا مرة أخرى. فيبدو أن الكون محكوم بشكل يجعله يستمر في التمدد إلى ما لانهاية.[٢٣] وهو ما أكَّده سنة ٢٠٠٣ "تشارلز بنِت" *Charles Bennett* أحد علماء "مركز جودارد لرحلات الفضاء التابع لناسا" *NASA's Goddard Space Flight Center*. فبعد أن فحص قراءات من أحدث مسبار فضائي لوكالة ناسا قال:

---

* الإشارة إلى الجزء الخامس من فيلم "حرب النجوم" *Star Wars*، وعنوانه بالإنجليزية *The Empire Strikes Back*. (المترجمة)

"الكون سيستمر في التمدد إلى الأبد. فهو لن يرتد على نفسه وينهار محدثًا دويًا عظيمًا"[٢٤] والحقيقة أن علماء الفلك يكتشفون حاليًا أن سرعة تمدّد الكون تتزايد بالفعل، مما يستبعد أيضًا احتمالية الانهيار.[٢٥]

ثالثًا، حتى وإن كانت هناك مادة كافية لجعل الكون ينكمش ثم "ينفجر" ثانيةً، فنظرية الارتداد الكوني تتناقض مع القانون الثاني في الديناميكا الحرارية لأن النظرية تفترض، خطأً، أنه لن يُفقَد أي قدر من الطاقة في كل انكماش وانفجار. إن الكون الذي "ينفجر" مرارًا كثيرة لا بد أن يضعف ويتلاشى كما تضعف الكرة الساقطة. فلو كان الكون يتمدد وينكمش **منذ الأزل**، لكان قد تلاشى.

وأخيرًا، كان من المستحيل أن نصل إلى يومنا هذا لو كان الكون يتمدد وينكمش منذ الأزل. فحدوث عدد لانهائي من الانفجارات الكبيرة هو استحالة حقيقية (وسوف نتناول ذلك بالتفصيل بعد بضع صفحات). وحتى لو كان هناك عدد **نهائي** من الانفجارات، فالنظرية لا تستطيع أن تشرح ما سَبَّبَ أول انفجار. فلم يكن هناك شيء "ينفجر" قبل الانفجار الأول!

الزمن التخيلي ***Imaginary Time***: أما المحاولات الإلحادية الأخرى التي تحاول تفسير كيفية انفجار الكون إلى الوجود من عدم هي أيضًا محاولات معيبة. فمثلاً في محاولةً لتجنب بداية محددة للكون، طرح "ستيفن هوكينج" *Stephen Hawking* نظرية تستخدم "الزمن التخيلي". ويمكننا نحن أيضًا أن نسميها "نظرية تخيلية" لأن "هوكينج" نفسه يعترف أن نظريته "مجرد مقترح [ميتافيزيقي]" لا يستطيع أن يفسِّر ما حدث في الزمن الحقيقي. فهو يعترف أنه "في الزمن الحقيقي الكون له بداية..."[٢٦] والواقع أن "هوكينج" يرى أن "الجميع تقريبًا اليوم يؤمنون أن الكون والزمن نفسه بدآ في الانفجار الكبير".[٢٧] ومن ثم، باعتراف "هوكينج" نفسه، نظريته التخيلية تتلاشى عندما تُطَبَّق على العالم الحقيقي. فالزمن التخيلي محض خيال.

انعدام اليقين ***Uncertainty***: نظرًا لقوة الأدلة على بداية الكون، فإن بعض الملحدين يشكِّكون في الفرضية المنطقية الأولى في الحجة الكونية، ألا وهي قانون السببية. إلا أن هذا التشكيك يمثّل خطورة كبيرة على الملحدين الذين عادة ما يفخرون بأنهم أبطال العقل والعلم. وكما أشرنا آنفًا، قانون السببية هو أساس العلم برمته. فالعلم هو بحث عن المسببات. فإن دَمَّرتَ قانون السببية، دَمَّرتَ العلم نفسه.

ولكن الملحدون يحاولون التشكيك في قانون السببية باللجوء إلى الفيزياء الكمية، وتحديدًا مبدأ عدم اليقين عند هايزنبرج *Heisenberg's Uncertainty Principle*. ويصف هذا المبدأ عجزنا عن التنبوء في آن واحد بموقع وسرعة الجسيمات الموجودة في الذرة *subatomic particles* (أي الإلكترونات). والملحدون هنا مقتنعون بأنه: إن كانت السببية غير ضرورية في عالم الذرة الداخلي، إذَن ربما سببية الكون برمته غير ضرورية أيضًا.

ولكن من حسن حظ العلم أن هذه المحاولة الإلحادية للتشكيك في قانون السببية تبوء بالفشل. لماذا؟ لأنها تخلط بين **السببية وإمكانية التنبوء**. فمبدأ عدم اليقين عند هايزنبرج لا يُثبت أن حركة الإلكترونات بلا مسبب، ولكنه يصف فقط عجزنا عن **التنبوء** بموقعها وسرعتها في وقت بعينه. فعدم قدرتنا على التنبوء بشيء لا يعني أن هذا الشيء بلا مسبب. والحقيقة أن واضعي نظريات الكم يعترفون أنه قد لا نستطيع التنبوء بسرعة الإلكترونات وموقعها في آن لأن محاولتنا لملاحظتها هي السبب في تحركاتها التي لا يمكن التنبوء بها! فكما يضع مربي النحل رأسه في خلية النحل، علينا أن نستثيرها حتى نلاحظها. ومن ثم قد تكون الحركة الحادثة هي عبارة عن عالِم يرى رموشه في الميكروسكوب.

وفي النهاية يتضح أنه ليست هناك نظرية إلحادية تُفَنِّد أيًا من فرضيات الحجة الكونية بكفاءة. فللكون بداية، ومن ثم فهو يحتاج إلى مسبب.

ديانة العلم

فلماذا إذَن لا يقبل كل العلماء هذه النتيجة بدلاً من أن يحاولوا تجنب الحقائق ومضامينها بتفسيرات معيبة وغير مقبولة منطقيًا؟ وتعليقات "چاسترو" ثاقبة في هذا الصدد أيضًا (تَذكَّر أن "چاسترو" لاأدري). فهو يقول:

> اللاهوتيون عمومًا سعداء **بالبرهان** على بداية الكون، ولكن الغريب أن الفلكيين متضايقون. وردود أفعالهم تُعَبِّر تعبيرًا مثيرًا عن استجابة العقل العلمي، الذي يُفتَرَض أنه عقل موضوعي جدًا، عندما تؤدّي الأدلة التي كشفها العلم نفسه إلى صدام مع **بنود الإيمان في مهنتنا**. وينتهي المطاف بالعالِم إلى أن يتصرف كما نفعل جميعًا عندما تصطدم معتقداتنا بالأدلة. فإما أننا ننزعج، أو نتظاهر بعدم وجود صدام، أو نخفيه بعبارات لا معنى لها.[٢٨]

والعبارات التي رأينا "آتكينز" و"أزيموف" يستخدمانها لتفسير بداية الكون مثل "النقاط الرياضية"، و"الطاقة الإيجابية والسلبية" على الترتيب تبدو لنا بالتأكيد بلا معنى. وهي في الواقع لا تفسِّر شيئًا.

أما بخصوص مشاعر "أينشتاين" "المزعجة" تجاه النسبية العامة وتمدد الكون، يقول "چاسترو": "إنها لغة عاطفية غريبة لا تناسب مناقشة الصيغ الرياضية. ولكني أظن أن فكرة البداية الزمنية ضايقت "أينشتاين" لما لها من مضامين لاهوتية".[٢٩]

إن الجميع يعلمون أن المؤمنين بالله الخالق لديهم معتقدات لاهوتية. ولكن الحقيقة المهملة غالبًا هي أن العلماء الملحدين والمؤمنين بوحدة الوجود لديهم أيضًا معتقدات لاهوتية. وكما أشرنا آنفًا، يُطلِق "چاسترو" على بعض هذه المعتقدات "بنود الإيمان في مهنتنا"، وهو يؤكد أن بعض هذه المعتقدات تشكل "الديانة العلمية". فهو يكتب قائلاً:

> هناك نوع من الديانة العلمية... كل أثر لا بد أن يكون له مسبب؛ فليس هناك مسبب أولي... ولكن هذا الإيمان الديني عند العالِم يتأذى باكتشاف أن العالَم له بداية شروطها تُبطل قوانين الفيزياء المعروفة، وأنه نتاجُ قوى أو ظروف لا يمكننا اكتشافها. وعندما يحدثُ ذلك يفقد العالم السيطرة. ولو فَحَصَ مضامين هذه الاكتشافات فحصًا حقيقيًا، لأُصيب بصدمة. وكالعادة عندما يواجه العقل صدمة يكون رد فعله أنه يتجاهل مضامينها، وهو ما يُعرف في العلم باسم "رفض توقع النتائج المتضمّنة"، أو التهوين من أصل العالَم بتسميته الانفجار الكبير، وكأن الكون لعبة نارية.[٣٠]

وسواء كان العلماء مصدومين أم لا، عليهم أن يدركوا ما تنطوي عليه أدلة الانفجار الكبير من مضامين. فقد لا تعجبهم الأدلة أو مضامينها، إلا أن هذا لا يغير الحقائق. وحيث إن الأدلة تبين أن الزمان والمكان والمادة خُلِقَت في الانفجار الكبير، فالخلاصة العلمية الأكثر احتمالاً هي أن الكون سُبِّبَ بفعل شيء **خارج** الزمان والمكان والمادة (أي مسبب أزلي). وعندما يقصر العلماء عن مواجهة تلك الخلاصة بإخفائها "بعبارات لا معنى لها" أو "برفض توقع النتائج المتضمنة"، يبدو أنهم ببساطة يرفضون قبول الحقائق والخلاصات الأكثر منطقية المترتبة عليها. وهو رفض إرادي، لا عقلي. فالأدلة موضوعية، ولكن العلماء الذين لا يصدقونها غير موضوعيين.

ماذا لو كانت نظرية الانفجار الكبير خاطئة؟

لقد استعرضنا حتى الآن أدلة علمية متينة (*SURGE*) على حقيقة بداية الكون. ولكن هَبْ أن العلماء استيقظوا ذات يوم واكتشفوا أن كل حساباتهم خاطئة، وأنه لم يكن هناك انفجار كبير. ولكننا إن أخذنا في الاعتبار الأدلة العديدة المتنوعة وقدرة النظرية على التنبوء تنبوءات صحيحة بكمّ كبير من الظواهر القابلة للملاحظة، يصبح رفض نظرية الانفجار الكبير أمرًا مستبعدًا تمامًا.

وهو ما يعترف به حتى الملحدين أنفسهم. فمثلاً ''ڤيكتور ستنجر'' *Victor Stenger*، وهو فيزيائي كان يُدَرِّس في ''جامعة هاواي'' *University of Hawaii* كتب أن ''الكون انفجر من العدم''.[31] واعترف ''ستنجر'' مؤخَّرًا أن الانفجار الكبير يبدو دائمًا أكثر احتمالاً. وقد قال: ''علينا أن نترك المجال مفتوحًا لاحتمالية خطأ [الانفجار الكبير]، لكننا... كل سنة نكتشف أن البيانات الفلكية المتراكمة تزداد توافقًا على الأقل مع الصورة العامة للانفجار الكبير''.[32]

والواقع أنه سنة ٢٠٠٣ ظهرت المزيد من الأدلة على صحة الانفجار الكبير. فالقمر الصناعي المسمى ''مسبار ويلكينسون لقياس اختلاف الموجات الراديوية'' *WMAP (Wilkinson Microwave Anisotropy Probe)* التابع لناسا أكد اكتشافات سابقه ''كوب'' وأنتج صورًا أوضح خمسًا وثلاثين مرة من صور ''كوب'' للحركات الموجية الدائرية لإشعاع الخلفية الكونية.[33] والحقيقة أن ملاحظات الفضاء تؤيِّد، يومًا بعد يوم، المنظور الإيماني حتى إن ''چورچ ويل'' *George Will* يعلق عليها قائلاً: ''"الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية" *American Civil Liberties Union*، أو "أناس من أجل النهج الأمريكي" *People for the American Way*، أو غيرهما من الفصائل العلمانية المُحِبَّة للتقاضي سترفع قريبًا دعاوى قضائية على ناسا متهمة إياها بأن تلسكوب هَبِل الفضائي ينحاز لذوي الميول الدينية بما يخالف الدستور''.[34]

ومع ذلك دعونا نلعب دور محامي الشيطان للحظات. فلنفترض أنه في نقطة ما في المستقبل اعتُبِرَت نظرية الانفجار الكبير خاطئة. فهل هذا سيعني أن الكون أزلي؟ لا، لعدة أسباب.

أولاً، القانون الثاني في الديناميكا الحرارية (المشار إليه بحرف *S* في كلمة *SURGE*) يؤيّد الانفجار الكبير ولكنه لا يعتمد عليه. فحقيقة أن الكون يستنفد الطاقة القابلة للاستخدام ويتجه نحو حالة من الفوضى هي حقيقة لا جدال عليها. وهو ما عبرَّ عنه ''إدينتون'' قائلاً إن القانون الثاني ''يحتل المكانة العليا بين قوانين الطبيعة''. فهو قانون صحيح حتى إن لم يكن الانفجار الكبير صحيحًا.

ثانيًا، ينطبق هذا الكلام نفسه على نظرية "أينشتاين" في النسبية العامة (المشار إليها بحرف *E* في كلمة *SURGE*). فهذه النظرية، التي تم التحقق منها جيدًا بالملاحظة، تستلزم وجود بداية للمكان، والمادة، والزمان سواء أكان كل هذا قد بدأ بانفجار أم لا.

ثالثًا، هناك أيضًا أدلة علمية جيولوجية تؤكّد أن للكون بداية. وكما دَرَسَ الكثير منا في مادة الكيمياء في المدرسة الثانوية، العناصر المشعة تضمحل بمرور الوقت متحولة إلى عناصر أخرى. فمثلاً اليورانيوم المشع يتحول في النهاية إلى رصاص. وهو ما يعني أنه لو كانت كل ذرات اليورانيوم أزلية، لكانت قد تحولت جميعها إلى رصاص، ولكن ذلك لم يحدث. إذَن لا يمكن أن تكون الأرض أزلية.

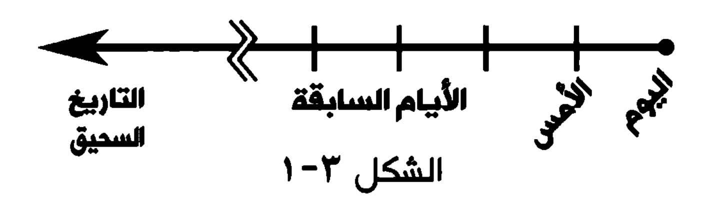
أخيرًا، هناك فرع فلسفي من الأدلة على بداية الكون. وهذا الفرع من الأدلة منطقي جدًا، على نحو لا يمَكّننا من التملص منه ،حتى إن البعض يعتبرونه أقوى الحجج جميعًا. ويطلق عليه الحجة الكونية من علم الكلام *Kalam Cosmological Argument* ، وهي تقول:

١- العدد اللانهائي من الأيام لا نهاية له.

٢- ولكن اليومَ هو اليومُ النهائي في التاريخ (التاريخ باعتباره مجموعة من كل الأيام).

٣- إذَن لم يكن هناك عدد لانهائي من الأيام قبل اليوم (أي أن الزمان له بداية).

ولفهم هذه الحجة، انظر الخط الزمني أدناه، وهو مقسَّم إلى أجزاء تمثل أيامًا (شكل ٣-١). وكلما تتحرك يسارًا، تتجه تاريخيًا إلى الماضي. والآن تخيَّل لِلَحظة أن هذا الخط يمتد يسارًا إلى ما لانهاية، بحيث لا ترى بدايته أو لا ترى إن كانت له بداية أصلاً. ولكنك عندما تنظر إلى اليمين ترى نهاية الخط لأن آخر جزء في الخط يمثل اليوم. والغَدّ لم يأتِ بعد، ولكنه عندما يأتي سنضيف جزءًا آخر (أي يومًا) على الطرف الأيمن من الخط.



الشكل ٣-١

ولنشرح الآن كيف يُثْبت ذلك أن الزمان له بداية: بما أنه من المؤكَّد أن الخط ينتهي على اليمين، فلا يمكن أن يكون الخط الزمني لانهائيًا لأن اللانهائي ليس له نهاية. علاوة على ذلك، لا يمكنك أن تضيف أي شيء إلى اللانهائي، ولكننا غدًا سنضيف يومًا آخر إلى خطنا الزمني. إذَن لا نستطيع أن ننكر أن خطنا الزمني محدود.

ولننظر إلى هذه الحجة من زاوية مختلفة. لو كان هناك عدد لانهائي من الأيام قبل اليوم، إذَن اليوم لن يأتي أبدًا. ولكنه أتى! إذَن لا بد أنه لم يكن هناك إلا عدد **نهائي** من الأيام قبل اليوم. أي أننا حتى وإن كنا لا نستطيع أن نرى بداية الخط عندما ننظر يسارًا فنحن نعلم أنه لا بد أن يكون قد بدأ عند نقطةٍ ما، لأنه لا بد أن تنقضي مدة نهائية من الزمن حتى يأتي هذا اليوم الحاضر. فلا يمكن لعدد لانهائي من الأيام أن ينقضي. إذَن لا بد أن الزمان له بداية.

وقد يقول البعض إن الأعداد اللانهائية موجودة، فما المانع أن يكون هناك عدد لانهائي من الأيام؟ لأن هناك فرقًا بين سلسلة لانهائية مجرّدة وسلسلة محسوسة. فالأولى نظريةٌ بحتة، والثانية فعلية. فمن الناحية الرياضية يمكننا أن ندرك عددًا لانهائيًا من الأيام، ولكن من الناحية الفعلية يستحيل أن نَعُدّ أو نعيش عددًا لانهائيًا من الأيام. يمكنك أن تدرك عددًا لانهائيًا من النقاط الرياضية بين طرفي رف من رفوف المكتبة، ولكنك لا تستطيع أن تضع بينهما عددًا لانهائيًا من الكتب. وهذا هو الفرق بين المجرد والمحسوس. فالأرقام مجردة. أما الأيام محسوسة. (وبالمناسبة ينسحب هذا الكلام على إجابتنا المذكورة آنفًا عن سبب استحالة وجود عدد لانهائي من الانفجارات في تاريخ الكون. فمن المستحيل وجود عدد لانهائي من الأحداث الفعلية).

إن ما نقصده هنا هو أن الكون، سواء أكان الانفجار الكبير صحيحًا أم لا، له بداية. أي أن الحجة الكونية صحيحة لأن فرضيتيّ الحجة كلتيهما صحيحتان: كل ما يأتي للوجود له مسبِّب، والكون أتى للوجود. بما أن الكون له بداية، لا بد أن له بادئ.

مَنْ صَنَعَ الله؟

في ضوء كل الأدلة على وجود بداية للكون المحدود بالزمكان *space-time universe*، لا بد أن يكون البادئ خارجَ كونِ الزمكان. وعندما نقترح أن الله هو البادئ، ينبري الملحدون يسألون السؤال القديم قِدَم التاريخ: "إذَن مَنْ صَنَعَ الله؟ إن كان كل شيء يحتاج لمسبب،

فالله أيضًا يحتاج لمسبب!"

كما رأينا قانون السببية هو أساس العلم. فالعلم بحث عن المسببات، وذلك البحث يقوم على ملاحظتنا التي تبين دائمًا أن كل ما له بداية له مسبب. والحقيقة أن سؤال "مَنْ صَنَعَ الله؟" يشير إلى مدى احترامنا لقانون السببية. فإنه من المُسَلَّم به أن كل شيء تقريبًا يحتاج لمسبب.

فلماذا إذَن لا يحتاجُ الله لمسبب؟ لأن قناعات الملحد تسيء فهم قانون السببية. فقانون السببية لا يقول إن **كل شيء** يحتاج لمسبب. ولكنه يقول إن كل شيء **يأتي إلى الوجود** يحتاج لمسبب. والله لم يأتِ إلى الوجود. فالله لم يصنعه أحد. إنه غير مصنوع. والله بصفته كائنًا أزليًا لا بداية له، إذَن فهو لا يحتاج لمسبّب.

إلا أن الملحد سيَحتَجّ قائلاً: "ولكن مهلاً، إن كان عندك إله أزلي، إذَن يمكن أن يكون عندي كون أزلي! وإن كان الكون أزليًا، إذَن لا يكون له مسبب". نعم، من الممكن منطقيًا أن يكون الكون أزليًا ومن ثم لا يكون له مسبب. والواقع أن هذا الاحتمال هو واحد من اثنين: إما أن الكون أزلي، أو شيء خارج الكون هو الأزلي. (بما أنه لا شك أن شيئًا ما يوجد اليوم، إذَن لا بد أن شيئًا آخر وُجِدَ أزلاً. وليس أمامنا إلا خياران: الكون، أو شيء سبَّبَ الكون). ولكن المشكلة التي تواجه الملحد هي أنه رغم أنه ممكن **من الناحية المنطقية** أن يكون الكون أزليًا، يبدو أنه ليس ممكنًا **من الناحية الواقعية**. وذلك لأن كل الأدلة العلمية والفلسفية (*SURGE*)، واضمحلال النشاط الإشعاعي، والحجة الكونية من علم الكلام) تخبرنا أن الكون يستحيل أن يكون أزليًا. وعليه، باستبعاد أحد الخيارين، ليس أمامنا إلا الخيار الآخر: شيء خارج الكون هو الأزلي.

وعندما تنتبه للأمر جديًا، لا تجد إلا احتمالين لأي شيء موجود: إما أنه (١) موجود أزلاً ومن ثم لا مسبب له، أو (٢) له بداية وقد سبَّبَه شيء آخر (لا يمكن أن يكون سبَّبَ نفسه، لأنه في هذه الحالة لا بد أن يكون موجودًا من الأصل حتى يسبّب أي شيء). ووفقًا للأدلة الهائلة، الكون له بداية، إذَن لا بد أن شيئًا آخر سبَّبَه، شيء خارجه. لاحظ أن هذا الاستنتاج يتوافق مع الأديان التي تؤمن بالله الخالق، ولكنه لا يقوم على تلك الأديان، بل يقوم على منطق سليم ودليل صلب.

فما صفات هذا المسبب الأولي؟ قد يظن المرء أنه لا بد أن يعتمد على الكتاب المقدس أو

غيره مما يطلق عليه وحي ديني للإجابة عن ذلك السؤال، ولكننا لا نحتاج هنا أيضًا لأي نص مقدس حتى نستنتج صفات ذلك المسبب الأولي. فقد أصاب "أينشتاين" حين قال: "العلم بلا دين أعرج، والدين بلا علم أعمى".[٣٥] العلم يؤكد الدين ويُطـعِّمه بالمعارف، وهو ما تفعله الحجة الكونية مثلاً. أي أنه يمكننا أن نكتشف بعض سمات المسبب الأولي من الأدلة التي تناولناها في هذا الفصل فحسب. ومن تلك الأدلة فقط نعرف أن المسبب الأولي لا بد أن يكون:

- ذاتي الوجود، سرمدي غير محدود بزمان، غير محدود بمكان، غير مادي (بما أن المسبب الأولي خلق الزمان، والمكان، والمادة، إذَن لا بد أن يكون المسبب الأولي خارج الزمان، والمكان، والمادة). أي أنه غير محدود أو لانهائي.
- قويًا بشكل يفوق الخيال، ما دام قادرًا على خلق الكون برمته من العدم.
- ذكيًا ذكاءً فائقـًا، ما دام قادرًا على تصميم الكون بهذه الدقة المذهلة (سنرى المزيد في هذا الموضوع في الفصل القادم).
- شخص، ما دام قادرًا أن يختار أن يُحَوِّل حالة العدم إلى كون من الزمان والمكان والمادة (القوة اللاشخصية لا تقدر على الاختيار).

سمات المسبب الأولي هذه هي بالضبط السمات التي ينسبها المؤمنون بالله الخالق إلى الله. ونكرِّر إن هذه السمات لا تقوم على ديانة شخصٍ ما أو على خبرة ذاتية. ولكنها مأخوذة من الأدلة العلمية التي استعرضناها توًا، وهي تساعدنا على رؤية جزء جوهري من سطح علبة هذا اللغز الذي نسميه الحياة.

الخلاصة: إن لم يكن الله موجودًا، فلماذا يوجد شيء بدلاً من العدم؟

منذ سنوات ناظرتُ ("أنا نورم") أحد الملحدين في "جامعة ميامي" *University of Miami* حول سؤال "هلِ الله موجود؟" وبعد أن قـدَّمتُ الكثير من الأدلة التي استعرضناها في هذا الفصل، أتيحت لي الفرصة أن أسأل خصمي بعض الأسئلة. وإليك ما سألت:

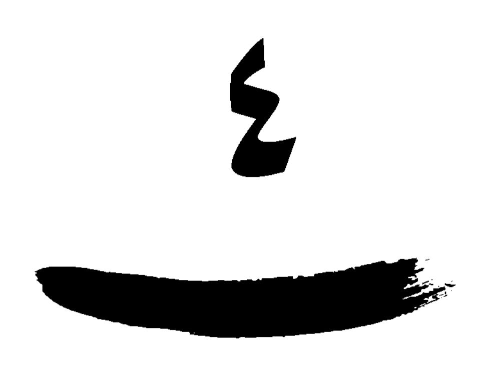
"سيدي، عندي لك بعض الأسئلة: أولاً "إن لم يكنِ الله موجودًا، لماذا أصلاً يوجد شيء بدلاً من العدم؟"" ثم سألته بضعة أسئلة أخرى معتقدًا أنه سيجيب عنها بالترتيب.

عادة عندما تناظر شخصًا تحاول أن تقنع الجمهور. ولكنك لا تتوقع أن تجعل خصمك يعترف بأنه مخطئ. فقد استثمر الكثير والكثير في الموقف الذي يتبناه، ومعظم المناظرين لا تسمح لهم كبرياؤهم أن يعترفوا بالخطإ. ولكن هذا الرجل كان مختلفًا. فقد فاجأني بالقول: "السؤال الأول سؤال وجيه. إنه **حقًا** سؤال وجيه". ودون أن يضيف أي تعليق آخر انتقل إلى إجابة سؤالي الثاني.

فبعد أن سمع هذا المُناظر الأدلة على وجودِ الله بدأ يشك في معتقداته. بل إنه حضر اجتماع متابعة عقب المناظرة وعبرّ عن أنه يشك في الإلحاد. لقد بدأ إيمانه بالإلحاد يهتز بالفعل.

"إن لم يكنِ الله موجودًا، لماذا أصلاً يوجد شيء بدلاً من العدم؟" سؤال علينا جميعًا أن نجيبه. وفي ضوء الأدلة ليس أمامنا إلا خياران: إما أنه **لا أحدَ** خلق شيئًا من العدم، أو أن **شخصًا ما** خلق شيئًا من العدم. أيّ المنظورين أكثر منطقية؟ العدم خلق شيئًا؟ لا. حتى "چولي أندروز" *Julie Andrews* عرفت الإجابة عندما غنَّت قائلة: "لا شيء يأتي من العدم. لا شيء أبدًا أتى من العدم!" وإن كنت لا تستطيع أن تصدق أن العدم سبَّبَ شيئًا، **إذَن أنت لا تملك الإيمان الكافي للإلحاد!**

إن المنظور الأكثر منطقية هو الله. وهو ما رجحه "روبرت چاسترو" عندما ختم كتابه "الله وعلماء الفلك" بهذه الكلمات الكلاسيكية: "بالنسبة للعالِم الذي عاش على إيمانه بقوة العقل، تنتهي القصة كحُلْم مزعج. لقد تسلق جبال الجهل، وكان على وشك أن يغزو أعلى قممها، وبينما يجذب جسمه على آخر صخرة، يصادف مجموعة من اللاهوتيين يحيّونه وقد جلسوا هناك منذ قرون".[٣٦]



التصميم الإلهي

”الجاهل الذي لا يعرف شيئًا عن العلم هو فقط مَن يقول إن العلم يقلّل من الإيمان. لأنك إن درستَ العلمَ بحق يقرِّبك العلمُ من الله“.

”جيمز تور“ *James Tour* عالِم نانو

لا بد أن الأدلة الفلكية على وجودِ الله قوية طالما أن الفيزيائيين الملحدين يعترفون أن ”الكون انفجر من العدم“، وعلماء الفلك اللاأدريين يزعمون أن ”قوى فوق طبيعية“ عملت في البداية، حتى إن العلماء يجدون أنفسهم يعودون إلى ”مجموعة من اللاهوتيين... وقد جلسوا هناك منذ قرون“ (انظر الفصل الثالث). إلا أن الأدلة العلمية على وجودِ الله لا تنتهي عند الحجة الكونية. فالكثيرون يرون أن الدقة التي انفجر بها الكون إلى الوجود تزودنا بدليل أكثر إقناعًا على وجود الله.

وهذا الدليل الذي يُعرَف اصطلاحًا باسم الحجة الغائية *Teleological Argument*، اسمه مشتق من الكلمة اليونانية *telos* التي تعني ”تصميم“. وتقول الحجة الغائية:

١- لكل تصميم مصمِّم.

٢- الكون له تصميم شديد التعقيد.

٣- إذَن الكون له مصمِّم.

وقد أكَّد "إسحاق نيوتن" (١٦٤٢-١٧٢٧) ضمنًا صحة الحجة الغائية عندما عبرَّ عن اندهاشه من تصميم مجموعتنا الشمسية، وكتب "إن هذا النظام الأخاذ الذي يحكم الشمس، والكواكب، والنيازك لا يمكن أن ينبثق إلا من مشورةٍ وسيادةِ كائنٍ ذي ذكاء وقوة".[١] إلا أن "وليم بيلي" *William Paley* (١٧٤٣-١٨٠٥) هو مَن أعطى الحجةً شهرة واسعة عندما صرَّح تصريحًا بديهيًا مفاده أن كل ساعة تتطلب صانعًا. تخيل أنك تسير في الغابة ووجدت في الأرض ساعة ماركة "رولكس" مرصَّعة بالألماس. فما الذي تظن أنه مسبِّب تلك الساعة: الريح والمطر؟ عوامل التعرية؟ مزيج من القوى الطبيعية؟ بالطبع لا! لن تشك لحظة أن كائنًا ذكيًا صنع تلك الساعة، وأنها سقطت صدفةً من شخص سيء الحظ في تلك الغابة.

والعلماء اليوم يكتشفون أن الكون الذي نعيش فيه يشبه تلك الساعة "رولكس" المرصعة بفصوص الألماس، فيما عدا أن الكون مصمَّم بدقة تتجاوز دقة تصميم الساعة. والحقيقة أن الكون مصمم بدقة تسمح تحديدًا بوجود الحياة على الأرض، وهي كوكب يحوي المئات من الظروف المتكافلة التي يُعتبر وجودها أمرًا غير محتمل الحدوث، وهذه الظروف تدعم الحياة وتجعل من الأرض واحة شديدة الصغر وسط كون شاسع عدائي.

وهذه الظروف البيئية المتكافلة متناهية الدقة (التي يطلَق عليها "الثوابت الإنسانية" "*anthropic constants*") تشكِّل ما يُعرَف باسم "المبدأ الإنساني" "*Anthropic Principle*". وكلمة "*Anthropic*" مشتقة من كلمة يونانية تعني "إنساني" أو "إنسان". والمبدأ الإنساني هو مجرد تسمية جذابة للأدلة المتراكمة التي تجعل الكثير من العلماء يعتقدون أن الكون مضبوط ضبطًا في منتهى الدقة (مصمَّم) بحيث يدعم الحياة البشرية هنا على الأرض.

وفي هذا الكون الشاسع العدائي، نحن البشر سكان كوكب الأرض نشبه كثيرًا رواد الفضاء الذين لا يمكنهم البقاء على قيد الحياة إلا بين جدران سفينتهم الفضائية الصغيرة. وأرضنا مثل سفينة الفضاء، تدعم الحياة بينما تنطلق وسط فضاء بلا حياة. ولكنها مثل سفينة الفضاء أيضًا من حيث إنه إذا حدث أي تغير طفيف أو خلل في أي من العوامل، سواء في الكون أو في الأرض نفسها، يمكنه أن يُحْدِث تغييرًا قاتلاً في الظروف البيئية المحسوبة حسابًا دقيقًا اللازمة لبقائنا على قيد الحياة.

والمهمة "أبولو ١٣" *Apollo 13* التي تُعَدّ واحدة من أصعب المهام في تاريخ ناسا وأشهرها سوف تساعد في كشف هذه النقطة بمزيد من الجلاء. وسوف نقضي بضع

الصفحات القادمة على متن "أبولو ١٣". وأثناء رحلتنا سنشير إلى بعض الثوابت الإنسانية التي تجعـ   ـل حياتنا ممكنة.

هيوستن عندنا مشكلة

اليوم هو ١٣ نيسان/أبريل ١٩٧٠ بعد مرور أكثر من يومين على انطلاق رئيس المهمة "چيم لَـڤل" *Jim Lovell* ورائدي فضاء آخَرَيْن خارج الغلاف الجوي للأرض على متن سفينة الفضاء "أپولو ١٣". وهم الآن يطيرون عبر الفضاء بسرعة تزيد عن ٣٢٠٠ كيلومتر في الساعة، ويترقبون بشوق تمشية لم يقُم بها إلا عدد قليل من الرجال، تمشية على سطح القمر. وكل شيء يسير حسب الخطة على مركبتهم الفضائية ذات التصميم الرائع. وقد قال "لـَڤل" بالحرف الواحد إنه وطاقمه "منتفخون، مدهوشون، سعداء". ولكن هذه الحالة ستتغير سريعًا.

ففي الساعة الخامسة والخمسين والدقيقة الرابعة والخمسين من بدء المهمة بعد وقت قصير من إنهاء بث تليفزيوني للأرض، يعيد "لـَڤل" الأسلاك إلى مكانها حينما يسمع صوتًا مدويًا، فيظن في البداية أنه الطيار "چاك سويجرت" *Jack Swigert* يمزح بتشغيل صمام مرتفع الصوت خفيةً. ولكنه عندما يلمح علامات القلق على وجه "سويجرت"، وكأنه يريد أن يقول لستُ أنا"، سرعان ما يدرك "لـَڤل" أنها ليست مزحة.

والحوار الذي يدور بين رواد الفضاء "لَـڤل" و"سويجرت" و"فرِد هيز" *Fred Haise* و"تشارلي دوك" *Charlie Duke* (الذي كان على الأرض في مدينة هيوستن) يسير كالتالي:

"سويجرت": هيوستن، عندنا مشكلة هنا.

"دوك": هنا هيوستن. كَرِّرْ من فضلك.

"لـَڤل": هيوستن عندنا مشكلة. انخفاض في فولت الموصل العمومي *B*.

"دوك": "روچر". انخفاض في فولت العمومي *B*.

"هيز": هيوستن الفولت الآن... يبدو جيدًا. كان عندنا صوت عالٍ جدًا من الإنذار والتحذير. وعلى قدر ما أتذكر، العمومي *B* هو الذي حدث فيه من قبل ارتفاع مفاجئ في الأمبير.

"دوك": "روچر"، "فرِد".

"هيز": أكيد هذه الحركة العنيفة هزّت جهاز إحساس كمية الأكسجين رقم ٢، فهبط وأخذ يتذبذب من ٢٠ إلى ٦٠%. ولكنه الآن ارتفع إلى الحد الأقصى.

وعند هذه النقطة رواد الفضاء ليسوا متأكدين تمامًا مما يحدث. فأجهزة إحساس أنبوبة الأكسجين متذبذبة. تارة تبيّن أن الأنابيب تحوي فقط ٢٠% وتارة أكثر من ١٠٠% وهو شيء مستحيل. وفي الوقت نفسه رغم ملاحظة "هيز" الأولى أن "الفولت يبدو جيدًا"، فإن إشارة الإنذارات المتعددة على الأجهزة الكهربية في السفينة تحكي قصة عكسية.

وفي غضون بضع دقائق، تتضح حقيقة المشكلة الخطيرة. "أپولو ١٣" ليس فيها مجرد مشكلة جهاز إحساس. ولكن فيها مشكلة فعلية. إن مركبتهم الفضائية التي تبعد حاليًا قرابة ٣٧٠ ألف كيلومتر عن الأرض وتتجه بعيدًا عن موطنها، تفقد الأكسجين والطاقة بسرعة. لقد فرغت اثنتان من خلايا الوقود الثلاث، والثالثة تنضب سريعًا. ويُخطر "هيز" هيوستن بحالة الطاقة:

"هيز": قراءة *AC 2* صفر... وعندنا الآن انخفاض في فولت الموصل العمومي *A*... قراءته حوالي ٢٥ ونصف. وقراءة العمومي *B* الآن صفر.

ثم يُبلغ "لَـڤل" عن مشكلة الأكسجين:

"لَـڤل": وأنبوبة رقم ٢ لكمية الأكسجين قراءتها صفر. سمعْتَ؟

هيوستن: كمية الأكسجين رقم ٢ صفر.

وبينما ينظر "لَـڤل" من زجاج إحدى النوافذ يرى شيئًا كأنه تسرب غاز إلى الفضاء من جانب مركبتهم الفضائية.

"لَـڤل": ويظهر لي وأنا أنظر من زجاج النافذة أن شيئًا ما يتسرب من عندنا.

هيوستن: "روچر".

"لَـڤل": نعم... نحن نُـسَرِّب شيئًا إلى، إلى الفضاء.

هيوستن: "روچر". نحن نسمعكم هنا، أنتم تُـسَرِّبون.

"روچر": إنه غاز من نوع ما.

اتضَحَ فيما بعد أن هذا الغاز هو الأكسجين. لقد انفجرت أنبوبة الأكسجين رقم ٢ وأضَرَّت أنبوبة الأكسجين رقم ١ بسبب انفجارها، وهو ما لم يكن يعلمه الطاقم حتى هذه اللحظة. فالقائد "لَـڤل" لا يستطيع رؤية الضرر الذي حدث للأنبوبة ولكنه يرى الغاز المتسرب فقط.

الثابت الإنساني ١ (مستوى الأكسجين): يشكل الأكسجين على الأرض ٢١% من الغلاف الجوي. وهذا الرقم الدقيق هو ثابت إنساني يجعل الحياة على الأرض ممكنة. فلو كان الأكسجين ٢٥%، لاندلعت الحرائق تلقائيًا، ولو كان ١٥% لاختنق البشر. والآن يتعين على "لَـقِل" وطاقمه أن يجدوا طريقة للحفاظ على مستوى الأكسجين الصحيح في سفينتهم.

ولكن الأكسجين ليس مشكلتهم الوحيدة. فكما هو الحال في الغلاف الجوي للأرض، تغيير ثابت واحد على المركبة الفضائية يمكن أن يؤثِّر على عدة ثوابت أخرى لازمة للحياة أيضًا. وذلك لأن الانفجار يؤدي إلى نقص في الأكسجين، وفي الكهرباء والماء أيضًا. وعلى "أپولو ١٣" يتم إنتاج الماء والكهرباء بخلط الأكسجين مع الهيدروجين في خلايا الوقود. ودون الأكسجين يستحيل تصنيع الهواء، أو الماء، أو الطاقة. وبما أنهم في فراغ الفضاء، ليس هناك مصدر خارجي للأكسجين.

إن المشكلة تفوق الخيال حتى إن "چاك سويجرت" قال فيما بعد "لو أن أحدًا فعل ذلك معنا في المُحاكي"، يقصد افتعل إخفاقـًا رباعيًا في خليَّتَي الوقود رقم ١ ورقم ٣، وأنبوبتي الأكسجين رقم ١ ورقم ٢، "لقلنا له: "هذا ليس واقعيًا"."

ولكن للأسف هذا ليس المحاكي، بل حالة طوارئ حقيقية في مركبة فضاء قطعت ثلثي الطريق إلى القمر. فماذا يفعلون؟ من حسن الحظ معهم قارب نجاة اسمه المركبة القمرية *Lunar Module* (*LM*، وتُعرَف أيضًا باسم "اللـِّم" *the lem*). وهي مزودة بإمدادات يمكن استخدامها في حالات الطوارئ. والمركبة القمرية تكون متصلة بسطح مركبة القيادة *Command Module (CM)* ليهبط بها اثنان من رواد الفضاء على سطح القمر بينما يدور الثالث في فَلَكه عاليًا. وبالطبع الهبوط على القمر سيُلغَى، لأن إنقاذ حياة رواد الفضاء أصبح الآن مهمة "أپولو ١٣" الجديدة.

وفي محاولة لتوفير الطاقة للعودة إلى الغلاف الجوي للأرض، يفصل رواد الفضاء الكهرباء بسرعة عن مركبة القيادة ويصعدون إلى المركبة القمرية. ولكنهم حتى داخل مركبة الفضاء ليسوا في مأمن من الخطر على الإطلاق، لأنهم يجب أن يستمروا في الدوران حول القمر حتى يعودوا إلى الأرض. وهو ما سيستغرق وقتـًا، وقتـًا ليس متوفرًا لديهم. والمركبة القمرية مجهزة بطريقة تمكِّنها من الحفاظ على حياة رجلين لمدة حوالي أربعين ساعة، ولكنهم ينبغي أن يحافظوا على حياة ثلاثة رجال لمدة أربعة أيام!

لذلك، فهم يبذلون كل جهدهم للحفاظ على الماء، والأكسجين، والكهرباء. كل الأجهزة غير الضرورية أُغْلِقت بما فيها جهاز التدفئة، ورواد الفضاء يُخفـِّضون استهلاكهم للمياه إلى كوب واحد صغير في اليوم. ولكن "هيز" يشعر بالإعياء ويصاب بالحمى، ورواد الفضاء الثلاثة يصابون تدريجيًا بالجفاف، فيصعب عليهم التركيز.

ولسوء الحظ، مع إيقاف معظم الأجهزة الأوتوماتيكية يكون كل الاعتماد على تركيز أفراد الطاقم. فيجب عليهم، بالإضافة إلى الدوران حول القمر، أن يُجروا يدويًا عدة تعديلات في المسار ليضمنوا أنهم يدخلون الغلاف الجوي للأرض من الزاوية الصحيحة، وليسرعوا من رحلة العودة. وحتى يتمكنوا من ذلك، عليهم أن يوجِّهوا السفينة يدويًا بين النجوم. ولكن بما أن الحطام الناتج من الانفجار ما زال يغلف السفينة في فراغ الفضاء، فهم لا يستطيعون تمييز النجوم من ضوء الشمس المنعكس من الحطام. ومن ثم، ليس أمامهم إلا أن يستخدموا الأرض والشمس نقاطـًا مرجعية لتوجيه السفينة بمحاذاتهما معًا في إحدى نوافذ مركبة الفضاء.

وباستخدام هذه الوسيلة البدائية، يراجعون حساباتهم مرة ومرات ليتأكدوا أنهم على صواب، لأن مساحة الخطإ المسموحة ضئيلة جدًا، لأنهم لا بد أن يبحروا بالسفينة للعودة إلى الأرض عند نقطة لا تقل عن ٥,٥ درجة ولا تزيد عن ٧,٣ درجة تحت أفق الأرض (من منظور مركبة الفضاء). وأي انحراف عن ذلك المدى سيؤدي بالسفينة إلى الخروج عن الغلاف الجوي للأرض أو السقوط بعمق كبير جدًا يتسبب في احتراقها.

الثابت الإنساني ٢ (شفافية الغلاف الجوي): النافذة الصغيرة التي يجب على رواد الفضاء التوصل إليها تعكس المعايير بالغة الدقة التي صُمِّم الكون على أساسها. فبينما يمثِّل الغلاف الجوي مشكلة لرواد الفضاء في عودتهم إلى الأرض، خواصه الحالية تمثل ضرورة مطلقة للحياة هنا على الأرض. إن درجة شفافية الغلاف الجوي هي أحد الثوابت الإنسانية. فلو كان الغلاف الجوي أقل شفافية، لما وصل سطح الأرض قدر كافٍ من الإشعاع الشمسي. ولو كان أكثر شفافية، لهبط علينا قدر هائل من الإشعاع الشمسي. (بالإضافة إلى شفافية الغلاف الجوي، فإن المستويات الدقيقة للعناصر المكونة للغلاف الجوي من النيتروجين، والأكسجين، وثاني أكسيد الكربون، والأوزون تـُعتبر في حد ذاتها ثوابت إنسانية).

الثابت الإنساني ٣ (تفاعل الجاذبية بين القمر والأرض): عندما يبدأ رواد الفضاء في الدوران حول القمر، يلتقون بثابت إنساني آخر*. وهذا الثابت يختص بتفاعل الجاذبية بين الأرض والقمر. فلو كان التفاعل أكبر من مقداره الحالي، لكان تأثير المد على المحيطات والغلاف الجوي وفترة الدوران حادًا للغاية. ولو كان أقل، لتسببت تغيرات المدارات الفلكية في اضطرابات مناخية. وفي أي من الحالتين تصبح الحياة على الأرض مستحيلة.

وبعد أن يواجه رواد الفضاء القمر عن قرب يتجهون أخيرًا إلى موطنهم. ولكنهم يواجهون مشكلة أخرى، لأن ظروف الحياة الحساسة داخل مركبة الفضاء بدأت تتلوث. فمع استهلاك الأكسجين بدأ رواد الفضاء في خلق مشكلة أخرى بالزفير. أي أن ثاني أكسيد الكربون بدأ يصل إلى مستويات خطيرة داخل السفينة. وإن لم يتمكنوا من إيجاد وسيلة لتغيير مرشِّحات ثاني أكسيد الكربون في المركبة القمرية، سيتسمم رواد الفضاء الثلاثة من أنفاسهم!

وطاقم التحكم في المهمة يخبر رواد الفضاء أن يفتحوا المرشِّحات المصمَّمة لمركبة القيادة (جزء السفينة الذي أخلاه رواد الفضاء وفصلوا عنه الكهرباء) ليجرِّبوا استخدامها في المركبة القمرية. ولكن بدلاً من أن يتلقى رواد الفضاء أخبارًا سارة هم في أمسّ الحاجة إليها، سرعان ما يكتشفون أن مرشِّحات مركبة القيادة لا تتناسب في حجمها ولا شكلها مع المركبة القمرية! يبدو أن المُوَرِّد (أ) لم ينسق مع المُوَرِّد (ب)! ومدير الرحلة المحبط "چين كرانس" *Gene Krantz* الذي اشتهر بمقولته "الفشل ليس خيارًا" التي ألهمت فريق التحكم في المهمة، يصيح غاضبًا: "قولوا لي إنه ليس مشروعًا حكوميًا!"

وفي محاولة للعثور على حل، يبدأ مهندسو ناسا على الأرض في "التحايل على المشكلة"، فهم يعصرون أذهانهم للعثور على طريقة لتعديل مرشِّحات مركبة القيادة المربعة لتتناسب مع فتحة المركبة القمرية المستديرة باستخدام مواد يمكن العثور عليها على مركبة الفضاء، فيصممون حلاً يعتقدون أنه سيفي الغرض، ثم يشرحون للطاقم كيفية عمل التعديل خطوة خطوة. ويتضمن الحل العبقري الذي توصلوا إليه استخدام الورق المقوى، وخراطيم بِدَل الفضاء، وحقائب التخزين، والشريط اللاصق (نعم، يُستخدم لإصلاح أي شيء حتى في الفضاء، لا تَخْرُج من بيتك بدونه!).

---

* كما هو الحال مع معظم الثوابت، هذا الثابت يعتمد على ثوابت أخرى. فمثلاً تفاعل الجاذبية هو أيضًا دالة *function* من حجم القمر الذي هو أكبر بالنسبة لكوكبه من معظم الأقمار الأخرى.

الثابت الإنساني ٤ (مستوى ثاني أكسيد الكربون): طبعًا هذا التعديل ليس مطلوبًا هنا على الأرض؛ لأن ثاني أكسيد الكربون محفوظ في مستواه الصحيح طبيعيًا في الغلاف الجوي للأرض. وهو ثابت آخر من الثوابت الإنسانية. فلو كان مستوى ثاني أكسيد الكربون أعلى من مستواه الحالي، لحدث احتباس حراري شديد (واحترقنا جميعًا). ولو كان المستوى أقل مما هو عليه الآن، لما تَمَكَّنت النباتات من الاستمرار في عملية البناء الضوئي بكفاءة (ولاختنقنا جميعًا، وهو المصير الذي يحاول رواد الفضاء الهروب منه).

ولحسن الحظ تنجح عملية تعديل المرشِّحات وتُكسب الطاقم وقتًا ثمينًا (وهواءً صالحًا للتنفس). وسريعًا يحين الوقت للتخلص من وحدة الخدمة المعطَّلة. وعندما تنفصل وحدة الخدمة، يرى الطاقم لأول مرة حجم الدمار: انفجار أنبوبة الأكسجين أطاح بلوحة حجمها حوالي ٣,٥ × ٢ متر من جانب وحدة الخدمة، وأمالَ خلايا الوقود، وأفسد الهوائي. ولو حدث انفجار حجمه **أقل من نصف ذلك الحجم** بالقرب من الدرع الحراري لمركبة القيادة، لأدى إلى خلل كارثي في مركبة الفضاء وفقدان الطاقم.

وعندما يقترب أفراد الطاقم من الغلاف الجوي للأرض يصعدون مرة أخرى إلى مركبة القيادة ليحاولوا توصيلها بالكهرباء. فهذا هو أملهم الوحيد للعودة إلى موطنهم (لأن المركبة القمرية ليس فيها درع حراري). ولكن مع فراغِ خلايا الوقود الثلاث ولم تبقَ إلا كهرباء البطارية، لا يمكن توصيل الكهرباء لمركبة القيادة بالإجراءات الطبيعية. فلا يمكن تشغيل كل الأجهزة لعدم توافر طاقة كافية في البطاريات. وبالتالي عليهم أن يعتمدوا على إجراء جديد للحصول على الكهرباء انتهى من تصميمه حالاً رواد فضاء ناسا ومُهَنْدسوها الموجودون على الأرض.

إلا أن ما زاد الأمر تعقيدًا أن المياه المكثَّفة بدأت تقطر من لوحات تحكم مركبة القيادة حيث درجة الحرارة أقل من ٣,٥ درجة مئوية. فهل سيحدث ماس كهربائي في لوحات التحكم؟ هل ستعمل الأجهزة الضرورية؟ من الخطورة استخدام الكهرباء في هذه البيئة، ولكن ليس أمامهم خيار آخر.

ورغم الخطورة، ينجح إجراء توصيل الكهرباء الجديد، ويربط رواد الفضاء أحزمتهم للعودة إلى الأرض. وأثناء رحلة عودة الرجال الثلاثة إلى الأرض تتطلع أنظار العالم كله إلى مصيرهم. فنشرات الأخبار والمؤتمرات الصحفية تنقل الأخبار أولاً بأول. والكونجرس يصدر قرارًا للشعب الأمريكي أن يصلي، والبابا يحثّ العالم على الصلاة بينما يتجه الأبطال الأمريكيون

الثلاثة نحو الغلاف الجوي للأرض بسرعة هائلة في كبسولة فضاء معطوبة. وبعد وقت قصير ستسحبهم الجاذبية الأرضية بأقصى سرعة تصل إلى ما يقرب من ٤٠ ألف كيلومتر في الساعة، أي ما يعادل تقريبًا ١١ كيلومتر في **الثانية!**

الثابت الإنساني ٥ (الجاذبية): الجاذبية التي تسحب رواد الفضاء إلى موطنهم الأرض هي أيضًا من الثوابت الإنسانية. وهي ذات قوة مريعة، ولكنها لا يمكن أن تكون غير ذلك لكي توجد حياة على الأرض. فإن تغيرَّتْ قوة الجاذبية بمقدار ٠,٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠١% لما وُجدَت شمسُنا، وبالتالي لما وُجِدنا نحن.[٢] تخيَّل مدى الدقة!

وعندما يهوي رواد الفضاء إلى الأرض بمركبتهم الفضائية المُضارة، لا أحد يعرف يقينًا إن كانوا سينجون من هذه العودة العنيفة شديدة الحرارة. وتبقى أسئلة عديدة بلا إجابات: هل الدرع الحراري سليم تمامًا؟ هل السفينة فعلاً على الزاوية الصحيحة لدخول الغلاف الجوي؟ هل بطاريات العودة على مركبة القيادة ستعمل؟ هل المظلات ستُبسَط على النحو الصحيح؟ ومما يزيد الطينة بلَّة صدور تحذير من حدوث إعصار استوائي في منطقة دخول مركبة الفضاء إلى الغلاف الجوي *recovery area*.

وفي ضوء كل هذا المجهول يتواصل رواد الفضاء مع الطاقم الأرضي قبل انقطاع الاتصال الذي استمر ثلاث دقائق عند العودة إلى الغلاف الجوي للأرض:

"سويجرت": مرحى! أريد أن أقول لكم إنكم تُبلون بلاءً حسنًا يا رجال.

هيوستن: وأنتم أيضًا يا "چاك".

"سويجرت": أعرف أن كلنا نريد أن نشكركم جميعًا على العمل الرائع الذي قمتم به.

"لـَڤل": أكيد يا "چو".

هيوستن: أؤكد لكم أننا استمتعنا بالعمل.

"لـَڤل": أنتم كالطبيب الماهر الذي يعتني بالمريض.

هيوستن: هذا أجمل ما سمعت.

هيوستن: سنفقد الإشارة بعد دقيقة... أهلاً بكم في وطنكم.

"سويجرت": شكرًا.

وأثناء العودة إلى الأرض، تحلق طائرة *C-135* في منطقة عودة مركبة الفضاء إلى الغلاف الجوي لإعادة الاتصال اللازم إلى وحدة التحكم في المهمة. ولكن بعد ثلاث دقائق ينقطع الاتصال مع رواد الفضاء. ويزداد التوتر.

هيوستون: يجب عودة الاتصال إلى "أپولو ١٣" هذه المرة. نحن مستعدون لأي أخبار عن التقاط طائرة معدات مدى أپولو *ARIA (Apollo Range Instrumentation Aircraft)* لأي إشارة.

الرحلة: شبكة، ليس هناك اتصال مع طائرة *ARIA* بعد؟

الشبكة: الآن ليس عندنا اتصال يا رحلة. (فترة صمت طويلة)

انقضت أربع دقائق على عودة المركبة إلى الغلاف الجوي، وما زال الاتصال منقطعًا. لم يحدث أبدًا أن العودة إلى الأرض استغرقت كل هذا الوقت.

هيوستن: مستعدون لأي أخبار عن التقاط إشارة. (صمت)

أخيرًا، تتلقى الطائرة إشارة من الكبسولة:

هيوستن: وصلَنا إخطار أن طائرة *ARIA 4* التقطت إشارة.

ولكن لم يصلنا تأكيد بأن أيًا منهم حي.

هيوستن: مركبة القيادة "أوديسي"، هنا هيوستن. مستعدون. حوِّل.

وأخيرًا يلتقط الجميع أنفاسهم عند سماع صوت "سويجرت".

"سويجرت": حسنًا يا "چو".

هيوستن: نسمعكم يا "چاك"!

رواد الفضاء أحياء، ولكن يبقى آخر عائق: مرحلتان من المظلات لا بد أن تعملا وإلا ضاع كل شيء، أولاً المظلة الابتدائية ثم المظلة الأساسية. فإن لم تُبسَط المظلات جيدًا، يتلاشى رواد الفضاء عند ارتطام كبسولتهم بالمحيط بسرعة ٤٨٠ كيلومترًا في الساعة.

هيوستن: باقي أقل من دقيقتين على بسط المظلات الابتدائية.

انتظار...

هيوستن: إخطار عن مظلتين ابتدائيتين نُشِرَتا بنجاح. والآن يقترب وقت المظلات الرئيسية. (صمت) مستعدون لتأكيد خبر بسط المظلات الرئيسية.

تنبسط المظلات الرئيسية حسب الخطة، وتتمكن هيوستن من رؤيتهم.

هيوستن: "أوديسي"، هنا هيوستن. نحن نَعْرِضُكم وأنتم على المظلات الرئيسية. المنظر رائع!

أخيرًا، بعد أربعة أيام من الترقب القلِق، رواد الفضاء، وطاقم وحدة التحكم في المهمة، والعالم كله يتنفسون الصعداء:

هيوستن: تصفيق حاد جدًا هنا في وحدة التحكم في المهمة! ... تصفيق حاد بينما تظهر "أپولو ١٣" في المظلات الرئيسية بكل وضوح على شاشات التليفزيون هنا.

تهبط مركبة الفضاء على المحيط الساعة ١:٠٧ مساءً بالتوقيت الشرقي القياسي لأمريكا الشمالية *ESt* يوم ١٧ نيسان/أبريل ١٩٧٠

المبدأ الإنساني: التصميم في التفاصيل

عندما بدأ بعض أفراد وحدة التحكم في المهمة يُعَبِّرون عن شكوكهم في أن رواد الفضاء سيعودون أحياء، واجه مدير الرحلة "چين كرانس" تشاؤمهم بقوله: "يا سادة، أظن أن هذه ستكون أسعد لحظاتنا". وقد كانت هكذا بالحقيقة. وعُرِفَت "أپولو ١٣" باسم "الإخفاق الناجح". لقد فشل رواد الفضاء في السير على القمر، ولكنهم نجحوا في العودة إلى الأرض رغم الظروف التي كان يمكن أن تودي بحياتهم.

وكما نجا الطاقم رغم كل المصاعب من تلك الظروف المميتة، نحن أيضًا نبقى على قيد الحياة، رغم كل الظروف المعاكسة، على هذا الكوكب الصغير الذي يطلَق عليه الأرض. فمركبات "أپولو" الفضائية صُمِّمَت، مثل أرضنا، بحيث تحافظ على الحياة البشرية في بيئة الفضاء المعادية. وبما أن البشر لا يمكنهم أن يظلوا على قيد الحياة إلا في غلاف ضيق جدًا من الظروف البيئية، لا بد من تصميم هذه السفن بدقة فائقة وبآلاف المكونات. وإن حدث خطأ واحد صغير، تعرضت الحياة البشرية للخطر.

والشيء الصغير الذي عَرَّضَ حياة طاقم "أپولو ١٣" للخطر يبدو أمرًا تافهًا: أنبوبة الأكسجين رقم ٢ سقطت بالصدفة من ارتفاع ٢ بوصة (٥سم) قبل تركيبها. وذلك السقوط من على ارتفاع بوصتين فقط أفسد جدار الأنبوبة الرفيع وأطلق سلسلة من الأحداث التي أدت في النهاية إلى انفجارها.[٢] ونظرًا للعلاقة التكافلية بين المكونات، أدى الخلل في جهاز الأكسجين إلى خلل في سائر الأجهزة وكاد يقضي على مركبة الفضاء وطاقمها. تخيل! ذلك السقوط البسيط من على ارتفاع بوصتين فقط تَسَبَّب في كل المشكلات التي كان لا بد لرواد الفضاء أن يتغلبوا عليها حتى

ينجوا. فقد أدى إلى تقليص كمية الأكسجين، والماء، والطاقة بشكل مفرط، وزيادة ثاني أكسيد الكربون زيادة مفرطة، وخلل في توجيه السفينة في الفضاء.

وكما هو الحال في حالة حدوث تغيير بسيط في سفينة الفضاء، هكذا أي تغيير بسيط في الكون يتسبّب لنا أيضًا في مشاكل هائلة. وكما رأينا، اكتشف العلماء أن الكون، مثل مركبة الفضاء، مصمَّم بدقة بحيث ينشئ غلافًا ضيقًا جدًا من الظروف الداعمة للحياة هنا على الأرض. وأي انحراف ضئيل في أي من العوامل البيئية والفيزيائية (التي أطلقنا عليها "الثوابت") من شأنه أن يمنع وجودنا أصلاً. وهذه الثوابت تكافلية مثل المكونات الموجودة على "أپولو ١٣"، أي أن تغييرًا صغيرًا في أحدها يمكن أن يؤثر على الثوابت الأخرى ويمنع الظروف اللازمة للحياة أو يدمرها.

إن مدى الضبط الدقيق في الكون قد يجعل المبدأ الإنساني أقوى حجة لوجودِ الله. فليس هناك مجرد بضعة ثوابت محددة بشكل عام قد تكون نشأت بالصدفة. لا، بل هناك أكثر من ١٠٠ ثابت محدَّدة بمنتهى الدقة تشير بقوة إلى مصمِّم ذكي.[٤] وقد تَعَرَّفنا بالفعل على خمسة منها. وإليك عشرة أُخَر:

١- لو لم تكن قوة الطرد المركزي في حركة الكواكب متوازنة بدقة مع قوى الجذب لما بقي شيء في مداره حول الشمس.

٢- لو انخفضت سرعةُ تمدُّدِ الكون بمقدار واحد على مليون من السرعة التي تَمَدَّد بها، لتوقف التمدد وانهار الكون على نفسه قبل تَكَوُّن أي نجم من النجوم.

٣- أي من قوانين الفيزياء يمكن تعريفه بأنه دالـَّة في سرعة الضوء (تـُحَدَّد حاليًا بمقدار ٢٩٩٧٩٢٤٥٨ متر في الثانية). وأقل تغير في سرعة الضوء من شأنه أن يغير سائر الثوابت ويمنع إمكانية الحياة على الأرض.

٤- لو ارتفعت مستويات بخار الماء في الغلاف الجوي عن معدلاتها الحالية، لحدث احتباس حراري شديد يؤدي إلى ارتفاع كبير في درجة الحرارة لا تتحمله الحياة البشرية. ولو انخفضت مستويات بخار الماء، لانخفض الاحتباس الحراري على نحو يتسبب في برودة الأرض بشكل مفرِط لا يلائم الحياة البشرية.

٥- لو لم يكن المشترى في مداره الحالي، لانهالت المواد الفضائية على الأرض. وذلك لأن

مجال جاذبية المشترى يعمل مثل مكنسة كهربائية كونية تجذب الكويكبات والنيازك فلا تضرب الأرض.

٦- لو زاد سُمك القشرة الأرضية، لانتقلت كمية ضخمة جدًا من الأكسجين إلى القشرة لدعم الحياة. ولو كانت أقل سُمكًا، لتسبب النشاط البركاني والتكتوني في استحالة الحياة على الأرض.

٧- لو طالت دورة الأرض عن أربع وعشرين ساعة، لاتسعت الفروق بين درجتي حرارة الليل والنهار اتساعًا مفرطًا. ولو قَصُرَت، لازدادت سرعة رياح الغلاف الجوي زيادة مفرطة.

٨- الميل المحوري للأرض بمقدار ٢٣ درجة هو الميل الصحيح الدقيق. فلو تغير تغيرًا طفيفًا، لارتفعت درجات حرارة سطح الأرض ارتفاعًا هائلاً.

٩- لو ارتفع معدل تفريغ الغلاف الجوي (البرق)، لاندلعت الحرائق المدمِّرة بمعدلات عالية جدًا. ولو انخفض، انخفضت معدلات تثبيت النيتروجين في التربة انخفاضًا حادًا.

١٠- لو ازداد النشاط الزلزالي، لارتفعت معدلات الوفيات الناتجة عن الزلازل. ولو انخفض، لما عادت العناصر الغذائية من قيعان البحار والمياه الجارية من الأنهار إلى القارات عن طريق الزيادة التكتونية. (نعم، حتى الزلازل ضرورية للحفاظ على هذه الحياة في صورتها الحالية!)

وجدير بالذكر أن "هيو روس" *Hugh Ross* عالم الفيزياء الفلكية حَسَبَ احتمال وجود هذه الثوابت وغيرها (تبلغ جميعًا ١٢٢ ثابت) اليوم **على أي كوكب في الكون** بالصدفة (أي بلا تصميم إلهي). فقد افترض أن هناك $١٠^{٢٢}$ كوكب في الكون (رقم ضخم جدًا: ١ وأمامه ٢٢ صفرًا)، وبناءً على هذا الافتراض جاءت النتيجة صادمة: الاحتمال هو واحد إلى $١٠^{١٣٨}$، أي احتمال واحد لواحد أمامه ١٣٨ صفر![٥] وليس في الكون كله سوى $١٠^{٧٠}$ **ذرة**. وهو ما يعني أن احتمال أن يحوي أي كوكب في الكون الظروف الداعمة للحياة المتوافرة على كوكب الأرض هو احتمال مقداره **صفر، إلا إذا** وُجِد وراء كل هذا مصمم ذكي.

وهو ما عَبَّرَ عنه ''آرنو پنزياس'' الحائز على جائزة نوبل لمشاركته في اكتشاف الإشعاع التابع للانفجار قائلاً: ''عِلـْم الفلك يقودنا إلى حدث فريد، ألا وهو كون خـُلِقَ من عدم ووُضِعَ في حالة من التوازن الدقيق ليوفِّر الظروف اللازمة بالضبط لدعم الحياة. وفي غياب فكرة

الصدفة الساذجة غير المحتملة، يبدو أن ملاحظات العلم الحديث ترجِّح وجود خطة فوق طبيعية، إن جاز التعبير، تكمن وراء كل شيء".[٦]

ويستخدم عالِم الكون "إد هاريسون" *Ed Harrison* كلمةَ "برهان" عندما يتناول تداعيات المبدإ الإنساني على مسألةِ الله. فهو يكتب قائلاً: "إليك البرهان الكوني على وجودِ الله، أيْ حجة التصميم التي وضعها "پيلي" بعد التحديث والتجديد. إن الضبط الدقيق للكون يزوّدنا بأدلة صريحة على التصميم الإلهي".[٧]

البرهان على وجودِ الله! ما هو رد الملحدين؟

كيف يرد الملحدون على هذا "البرهان على وجودِ الله"؟ يعترف بعض الملحدين بوجود مصمِّم ما في مكان ما. فقد اهتز إلحاد عالم الفلك "فـرْد هويل" بفعل المبدأ الإنساني وبما رآه في الحياة من تعقيد (وهو ما سنتناوله في الفصلين القادمين). وخلُص "هويل" إلى أن "تفسير الحقائق القائم على الحكم السليم يرجح أن "عقلاً أعلى قد تَدَخَّل في الفيزياء، وفي الكيمياء، وفي الأحياء وأنه ليس هناك قوى عمياء في الطبيعة تستحق أن نتحدث عنها"".[٨] ورغم أن "هويل" لم يوضح مَنْ هو هذا "العقل الأعلى"، فقد اعترف أن الضبط الدقيق للكون يتطلب ذكاءً.

ولكن غيره من الملحدين يعترفون بالتصميم ولكنهم ينكرون وجود مصمِّم، ويُرجعون كل هذا إلى الصدفة. ولكن كيف يمكنهم أن يقترحوا فكرة الصدفة فعليًا رغم أن احتمال بقاء الثوابت التي تزيد عن ١٠٠ كما هي، هو احتمال مقداره صفر تقريبًا لو لم يكن هناك ذكاء؟ الأمر ليس بهذه السهولة. لذا اضطر الملحدون للجوء إلى استنتاج غريب ليتيحوا للصدفة فرصة أكبر. ويطلَق على استنتاجهم هذا نظرية الأكوان المتعددة.

وتقول نظرية الأكوان المتعددة بوجود عدد لانهائي من الأكوان، وكل ما في الأمر أن حُسْن حظنا هو ما وضَعَنا في كون يحوي الظروف المناسبة. وبناءً على وجود عدد لانهائي من الأكوان يقول هؤلاء الملحدون إن كل مجموعة من الظروف سوف تحدث، بما فيها الظروف الداعمة للحياة الموجودة على كوكبنا.

ولكن تفسير الأكوان المتعددة هذا مليء بمشكلات متعددة. أولها وأهمها أنه **لا دليل عليه!** فالأدلة تبين أن كل الواقع المحدود النهائي أتى إلى الوجود في الانفجار الكبير. وهذا الواقع

النهائي هو تحديدًا ما نطلق عليه "الكون". فإن وُجِدَ أي واقع نهائي آخر، فهو خارج نطاق ملاحظتنا. فلم يلحظ أحد أي أدلة على وجود هذه الأكوان. لذلك فكرة الأكوان المتعددة هذه ليست أكثر من فبركة ميتافيزيقية، قصة خيالية من قصص الجنيات تقوم على إيمان أعمى، وهي منفصلة عن الواقع مثل "الزمن التخيلي" عند "ستيـڤن هوكينج".

ثانيًا، كما ذكرنا في الفصل السابق، عدد لانهائي من الأشياء "المحدودة" سواء أكانت أيامًا، أم كتبًا، أم انفجارات، أم أكوانـًا؛ يمثّل استحالة فعلية. يستحيل أن يكون هناك عدد غير محدود من أكوان محدودة.

ثالثـًا، حتى لو أمكن وجود أكوان أخرى، ستتطلب ضبطـًا دقيقـًا لكي تبدأ مثلما بدأ كوننا (تذكّر الدقة المتناهية للانفجار الكبير التي استعرضناها في الفصل السابق). لذلك افتراض وجود أكوان متعدّدة لا يلغي ضرورة وجود مصمِّم، بل **يُزيد** من ضرورة وجود مصمِّم!

رابعًا، نظرية الأكوان المتعددة واسعة جدًا حتى إنه يمكن استخدامها للتهوين من **أي حدث**. فمثلاً، إن سألنا: "لماذا صدمت الطائرات البنتاجون ومركز التجارة العالمي؟" يجب ألا نلوم الإرهابيين، لأن النظرية تسمح لنا أن نقول إننا موجودون بالصدفة في **هذا** الكون حيث تلك الطائرات واقعيًا تصدم المباني بالصدفة، ولكن ما يبدو ظاهريًا هو أن الطائرات صدمت المباني عمدًا. ومع نظرية الأكوان المتعددة يمكننا أن نبرّئ حتى هتلر. فربما أننا موجودون بالصدفة في **هذا** الكون الذي فيه يبدو ظاهريًا أن الهولوكوست قتل، ولكن واقعيًا اليهود تآمروا سرًا مع الألمان وأرسلوا أنفسهم إلى الأفران. في الحقيقة نظرية الأكوان المتعددة واسعة جدًا لدرجة أنها يمكن حتى أن تـُستخدم لالتماس العذر للملحدين الذين اخترعوها. لعلنا وُجِدنا بالصدفة في **هذا** الكون *الذي فيه الناس يفتقرون للعقلانية لدرجة أنهم يرون أن هذا الكلام الفارغ هو الحق!*

وفي النهاية نظرية الأكوان المتعدّدة هي مجرد محاولة يائسة لتجنب تداعيات التصميم. وهي لا تُزيد الصُّدَف، بل تـُزيد العبث. إنها تشبه رواد فضاء "أپولو ١٣" إذا أنكروا أن ناسا صمَّمت مركبتهم الفضائية وصنعتها، لصالح النظرية التي لا دليل عليها والتي تقول بوجود عدد لانهائي من مركبات الفضاء التي تحدث طبيعيًا، ورواد الفضاء محظوظون أن يكونوا على المركبة التي تدعم الحياة بالصدفة. هذه النظرية طبعًا كلام فارغ وعبثيتها الواضحة تكشف قوة الأدلة على التصميم. ولكن الأدلة غير العادية تتطلب نظريات غير عادية لتقلّل من شأنها.

الله؟ "ارفعوا إلى العلاء عيونكم"

في الأول من شباط/فبراير ٢٠٠٣ نظر الرئيس چورج و. بوش بعينين حزينتين في عدسة الكاميرا وخاطب الشعب الأمريكي عبر شاشات التليفزيون قائلاً: "إخوتي الأمريكيين، هذا اليوم حمل لبلادنا خبرًا مزعجًا وحزنًا عميقًا. في التاسعة من صباح اليوم فقدَتْ وحدة التحكم في هيوستن الاتصال مع مكوكنا الفضائي "كولومبيا". وبعد وقت قصير شوهد الحطام ساقطًا من سماء تكساس. لقد فُقِد "كولومبيا"، ولم ينجُ أحد".[٩]

لَمَّا كان "كولومبيا" يسير بسرعة ٢٠ ألف كيلومتر في الساعة، تفكَّك عند محاولته للدخول إلى الغلاف الجوي للأرض. وهذه المأساة المكوكية الثانية الكبرى هزت الأمة ولكنها لم تُثْنِها. فقد تَعَهَّد الرئيس قائلاً: "القضية التي ماتوا فيها ستستمر. فالجنس البشري يخترق الظلام القابع خلف عالمنا بإلهام الاكتشاف والتوق إلى الفهم. ورحلتنا إلى الفضاء ستستمر".

ولكن أي رحلة بشرية إلى الفضاء لن تخترق إلا جزءًا يسيرًا منه. فمجرتنا تحوي ١٠٠ مليار نجم، ومتوسط المسافة بين تلك النجوم يبلغ ٣٠ تريليون ميل (٤٨ تريليون كم). (بالمناسبة، هذه المسافة هي ثابت إنساني آخر. فلو قَصُرَت المسافة بين النجوم أو طالت، لتأثَّرَتْ مدارات الكواكب).

ما مقدار الثلاثين تريليون ميل؟ لنشرحها بهذه الطريقة: عندما يكون المكوك الفضائي في المدار، يتحرك بسرعة حوالي ١٧٠٠٠ ميل في الساعة، أي **ما يقرب من ٥ أميال في الثانية**. فلو تمكنت من الدخول إلى مكوك الفضاء وأبحرت في الفضاء بسرعة خمسة أميال في الساعة تقريبًا، ستأخذ ٢٠١٤٥٠ **سنة** لكي تقطع ٣٠ تريليون ميل! أي أنك لو ركبت المكوك الفضائي في زمن المسيح وبدأت تتحرك من شمسنا تجاه نجم آخر يبعد عنها مسافة متوسطة، ستكون الآن قد قطعت **واحد على مائة** من الطريق. شيء مذهل.

لاحظ أن هذه المسافة تقع بين **اثنين** فقط من المائة مليار نجم الموجودة في مجرتنا. فكم عدد النجوم في الكون كله؟ **عدد النجوم في الكون يعادل حوالي عدد حبات الرمال التي تغطي كل شواطئ الأرض بأسرها.** فلو سافرت بسرعة خمسة أميال في الساعة ستستغرق أكثر من ٢٠٠ ألف سنة لتنتقل من حبة رمل إلى الأخرى! ما **أبهى** العلاء.

يوصينا الكتاب المقدس أننا إن أردنا أن نعرف شيئًا من صفات الله علينا أن نرفع إلى العلاء عيوننا. وفي مزمور ١٩ يُعبرِّ داود عن الحجة الغائية قبل "نيوتن" وقبل "پيلي" بآلاف السنين

قائلاً: «السماوات تُحَدِّث بمجدِ الله. والفَلَك يخبر بعمل يديه». وبعد بضعة قرون يطرح النبي إشعياء سؤالاً من الله: «فبمن تشبهونني فأساويه؟ يقول القدوس» (٤٠: ٢٥). وتأتي الإجابة في العدد التالي: «ارفعوا إلى العلاء عيونكم وانظروا» (ع ٢٦). ويستطرد إشعياء قائلاً إن الله يعرف كل نجوم السماء بأسمائها!

لماذا يخبرنا الله أن نُشَبِّهه بالسماوات؟ لأن الله لا حدود له، وهكذا السماوات من منظورنا. الله هو اللامحدود الذي يضع حدودًا لكل شيء، هو اللامخلوق الذي يخلقُ كل شيء. إنه الكائن اللانهائي، ذاتي الوجود، الذي خلق هذا الكون الفسيح الجميل من عدمٍ، والذي يحفظه معًا اليوم. وليس هناك إلا كيان واحد في خبرتنا يمكن أن يزودنا بمشابهةٍ للامحدوديةِ الله. فرسم صورة تُعَبِّر عنِ الله لن يجدي*، بل إنها تُحِدّ جلاله. ولكن السماوات فقط هي التي تصيح وتنادي بلامحدوديته.

إن اللامحدودية هي السمة المميِّزة لكل صفة من صفاتِ الله بما فيها قوته، ومعرفته، وعدله، ومحبته. ولذلك يستخدم الكتاب المقدس السماوات ليساعدنا على إدراك ارتفاع محبةِ الله اللامحدود. فمزمور ١٠٣: ١١ يقول: «لأنه مثل ارتفاع السماوات فوق الأرض قويت رحمته† على خائفيه». فما ارتفاع السماوات فوق الأرض؟ عندما تفكر أن المسافة بين النجوم تصل إلى ٣٠ تريليون ميل وأن هذه النجوم تساوي في كثرتها عدد حبات الرمال التي تغطي الشطئان، قد تقول أيضًا: "السماوات مرتفعة بلا حدود". صحيح، وهذا هو ارتفاع محبةِ الله.

ولعل محبة الله غير المحدودة هي ما دفعت الرئيس بوش ليقتبس من إشعياء في تكريمه لطاقم "كولومبيا": "لقد رأينا في السماوات اليوم دمارًا مأساويًا. ولكن خلف المنظور الذي تراه عيوننا يوجد عزاء ورجاء، كما قال إشعياء النبي «ارفعوا إلى العلاء عيونكم وانظروا من خلق هذه. مَنْ الذي يُخرج بعدد جندها يدعو كلها بأسماء. لكثرة القوة وكونه شديد القدرة لا يُفقد أحد». إن الخالق نفسه الذي يدعو النجوم بأسماء يعرف أيضًا أسماء النفوس السبع التي ننوح عليها اليوم. إن طاقم المكوك "كولومبيا" لم يعد إلى الأرض بسلام، ولكننا نستطيع أن نصلي أن يكونوا جميعًا قد وصلوا إلى الوطن الأبدي بسلام".[١٠]

---

* ربما هذا هو سبب منع الوصية الثانية صُنْع الصور. فالصور تُحِدّ جلال الله. ولكن الأوثان أوثان سواء أكانت معدنية أم عقلية.

† ترد في ترجمة *NIV* (التي يستخدمها الكاتبان) "محبته" *his love*. (المترجمة)

الخلاصة

منذ ما يقرب من ٢٠٠٠ سنة كتب بولس في بداية رسالته إلى المؤمنين في رومية «لأن أموره غير المنظورة تُرى منذ خلق العالم مدركة بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته حتى إنهم بلا عذر». مؤكّدٌ أن الدليل على وجود مصمِّم واضح في الخليقة، ولكننا دائمًا ما نعتبره شيئًا عاديًا.

ويقدم "سي. إس. لويس" في كتابه الكلاسيكي "رسائل خربر" *The Screwtape Letters* فهمًا ثاقبًا لميلنا أن نرى العالم المُبهِر المحيط بنا وكأنه شيء عادي. فالشيطان الكبير "خُربر" يكتب نصيحة للشيطان الأصغر "علقم" *Wormwood* عن كيفية منع الناس من أن يصبحوا مسيحيين. فيكتب "خربر" قائلاً: "اطبع في داخله باستمرار أن الأشياء **عادية**. وأهم شيء ألا تحاول أن تستخدم العِلم (أقصد العلوم الحقيقية) للهجوم على المسيحية. لأنه سيشجعه على التفكير في الحقائق التي لا يمكنه أن يلمسها ويراها. وقد رأينا حالات مؤسفة بين علماء الفيزياء المحدثين".[11] "الحالات المؤسفة" هي طبعًا علماء فيزياء كانوا أمناء للأدلة التي رأوها فأصبحوا مسيحيين.

لقد رصد "لويس" ميلاً عند الكثير منا. ففي حياتنا السريعة نادرًا ما نتوقف ونلاحظ العالم المحيط بنا، ومن ثم نميل أن نعتبر كل وجه مبهر لهذا الكون الجميل شيئًا عاديًا. ولكن كما رأينا، هذا الكون أبعد من أن يكون عاديًا. واليوم يبين لنا العلم، أكثر من أي وقت مضى في التاريخ، أن الكون يمتاز بتصميم وتعقيد مذهلين. فهو يزوّدنا بمنظور جديد للعالم الذي غالبًا ما نعتبره نحن أيضًا شيئًا عاديًا.

ورواد الفضاء يرون العالم من منظور جديد من سفنهم الفضائية يساعدهم أن يدركوا أن هذا الكون يمكن أن يكون أي شيء إلا أن يكون عاديًا. فعندما سار رواد الفضاء الأوائل على سطح القمر ورأوا **الأرض** تشرق*، وهو منظر لم يشهده إنسان من قبل، قرؤوا في خشوع من سفر التكوين «في البدء خلق الله السماوات والأرض». وهل من شيء آخر يناسب تلك اللحظة؟ فتلاوة نظرية الأكوان المتعددة ما كانت – طبعًا - لَتُعَبِّرَ عما اجتاح رواد الفضاء من مشاعر المهابة. لقد شهدوا تصميمًا من زاوية لم يشهدها أحد قبلهم وبُهِتوا بفكرة أن الخليقة

* المقصود ارتفاع الأرض فوق الأفقِ كما تُرى من القمر (*https://www.ahdictionary.com/word/search.html?q=earthrise*)، تم الاطلاع على الرابط بتاريخ ٢٠١٦/٩/٢٩. (المترجمة)

المبهرة تستلزم خالقًا مبهرًا. وقد ردد "چون جلن" *John Glenn* هذه القناعة عينها عندما نظر من مكوك الفضاء "ديسكڤري" *Discovery* وهو في السابعة والسبعين من عمره وقال: "أن تنظر إلى خليقة كهذه ولا تؤمن بالله أمر مستحيل في نظري".

إن تأثير خبراتهم العميق يكشف أن الحجة الغائية أمر بديهي يدركه الإنسان بالحدس. فأنت لا تحتاج لمَنْ يخبرك أن الشيء المصمَّم تصميمًا جميلاً يتطلب مصمِّمًا. فهو أمر واضح في ذاته. ومع ذلك، لنطرح الحجة في شكلها المنطقي ثانيةً مع التركيز على ما اكتشفناه في هذا الفصل:

١- لكل تصميم مصمِّم.

٢- بناءً على المبدأ الإنساني، نعرف **بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي** أن الكون مصمَّم.

٣- إذَن الكون له مصمِّم.

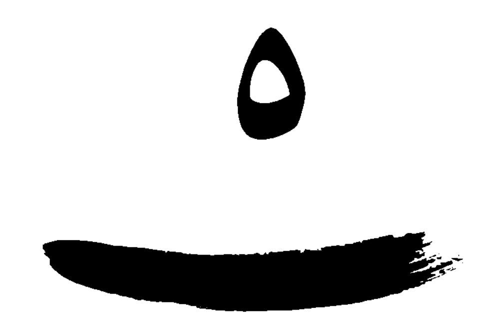
ليس هناك تفسير مقبول منطقيًا للمبدإ الإنساني إلا وجود مصمِّم كوني. وعلى الملحدين أن يشطحوا بمزاعمهم لكي يتمكنوا من إنكار الواضح. فعندما يخترعون نظريات افتراضية بلا أدلة تساندها، بل بالفعل نظريات مستحيلة، يكونون قد خرجوا من عالم المنطق والعقلانية ودخلوا إلى عالم الإيمان الأعمى. فقد كتب عالم الفيزياء "پول ديڤيز" *Paul Davies*: "ربما يجد المرء أن الاعتقاد في مجموعة لانهائية من الأكوان أسهل من الاعتقاد في إله لانهائي، ولكن هذا الاعتقاد لا بد أن يقوم على الإيمان وليس على الملاحظة".[١٢]

والاعتقاد في شيء دون ملاحظته هو عين الاتهام الذي يوجّهه الملحدون للأشخاص "المتدينين". ولكن المضحك أن الملحدين هم مَنْ يروِّجون لدين يقوم على الإيمان الأعمى. ولكن المسيحيين يستندون على أسباب وجيهة تقوم على الملاحظة (مثل الانفجار الكبير والمبدأ الإنساني) تُبرِّر ما يعتقدون فيه. إلا أن الملحدين ليس عندهم أسباب. **ولذلك لسنا نملك الإيمان الكافي للإلحاد.**

وهذا الإيمان الأعمى الذي يتسم به الملحد يكشف أن رفض المصمِّم لا يمثل مشكلة **عقلية**، فهو لا يرجع إلى قلة الأدلة أو المبررات العقلية التي تؤيد وجود مصمِّم. بل العكس هو الصحيح، فالأدلة مبهرة. ولكن المشكلة التي نحن بصددها مشكلة **إرادية**، فكل ما في الأمر أن البعض لا **يريدون** أن يعترفوا بوجود مصمِّم رغم الأدلة. وقد اعترف أحد نقاد المبدإ

الإنساني لمجلة "نيويورك تايمز" *New York Times* أن رفضه الحقيقي "عاطفي محض" لأنه "يشم رائحة الدين والتصميم الذكي".[١٣] إذَن وداعًا للموضوعية العلمية.

وسوف نتناول في الفصل السادس مزيدًا من هذه الدوافع وراء إنكار الأدلة القوية على وجود الله. ولكننا سنبحث أولاً في الفصل الخامس مزيدًا من الأدلة المقنعة على المصمِّم، وهي أدلة موجودة في الحياة نفسها.



الحياة الأولى: قوانين طبيعية أم عجائب إلهية؟

"الله لم يصنع معجزة أبدًا ليقنع ملحدًا، لأن أعماله العادية تقدِّم أدلة وافية".

"إريال روث" *Ariel Roth*

اخرج القمامة — ماما

نزل چوني، البالغ من العمر ستة عشر عامًا، من غرفة نومه ودخل إلى المطبخ ليتناول سلطانية من حبوبه المفضلة ماركة ألفا بيتس *Alpha-Bits*. وعندما وصل إلى المائدة، فوجئ أن علبة الحبوب مقلوبة وبعض الحبوب مسكوبة على مفرش الأطباق وقد شكَّلت عبارةَ "أخْرِجْ القمامة – ماما" "*TAKE OUT THE GARBAGE—MOM*".*

وإذ تذكّر چوني درسًا في علم الأحياء أخذه مؤخرًا في المدرسة الثانوية، لم ينسب الرسالة لأمه. فقد درس أن الحياة نفسها مجرَّد نتاج للقوانين الطبيعية غير العاقلة. لذلك رأى چوني أنه ما دام الأمر كذلك، فما المانع أن تكون رسالة بسيطة مثل "أخْرِج القمامة – ماما" هي أيضًا نتاج للقوانين الطبيعية غير العاقلة؟ لعل القطة هلي التي قلبت العلبة، أو زلزالاً هز

* هذا النوع من الحبوب على هيئة الحروف الأبجدية الإنجليزية، ومن هنا يأتي اسمه *Alpha-Bits*. (المترجمة)

البيت. ولكن لا فائدة من القفز إلى الاستنتاجات. فعلى أي حال چوني لم يُرِد أن يُخـرِج القمامة، لأنه لم يكن لديه وقت للأعمال المنزلية. فقد كان في العطلة الصيفية، وأراد أن يذهب إلى الشاطئ لأن ماري ستكون هناك.

وبما أن ماري هي الفتاة التي يحبها سكوت *Scott* أيضًا، فقد أراد چوني أن يصل إلى الشاطئ قبله. ولكنه عندما وصل رأى ماري تسير على الشاطئ ويدها في يد سكوت. وبينما أخذ يتبعهما من بعيد نظر لأسفل فرأى قلبًا مرسومًا في الرمال وفيه عبارة تقول "ماري تحب سكوت". وللحظة اعتصر قلب چوني ألمًا. ولكن الأفكار التي تَعَلَّمها في مادة الأحياء أنقذته من السقوط في هوة اليأس. ففكَّر في نفسه قائلاً: "لعلها حالة أخرى من حالات نشاط القوانين الطبيعية! ربما أن كابوريا أو أمواجًا غريبة الشكل أنتجت بالصدفة رسالة الحب هذه بشكل طبيعي". فلا داعي لقبول استنتاج لا يعجبه! ويجب عليه أيضًا أن يتجاهل الدليل الذي يدعم كل ذلك، ألا وهو تشابك اليدين.

وإذ استراح چوني لفكرة أن المبادئ التي درسها في مادة الأحياء يمكن أن تساعده على تجاهل استنتاجات لا تعجبه، قرر أن يستلقي دقائق ويستمتع بالشمس قليلاً. وعندما سند رأسه على المنشفة لاحظ رسالة في السحب تقول: "اشرب كوكاكولا"، وقد ظهرت الحروف البيضاء الكبيرة على خلفية السماء الزرقاء. ففكر في نفسه قائلاً: "تكوينات غريبة من السحب؟ ربما دوامات الرياح؟"

وهنا لم يقدر چوني أن يواصل لعبة الإنكار. "اشرب كوكاكولا" كانت شيئًا حقيقيًا. ورسالة كهذه تمثل علامة أكيدة على وجود ذكاء، فمن المستحيل أن تكون نتيجة قوى طبيعية لأنه لم يثبت أبدًا بالملاحظة أن القوى الطبيعية تنشئ رسائل. ورغم أنه لم يرَ طائرة، فقد عرف أنه لا بد أن طائرة مرت هنا توًا وكتبت هذا الإعلان. وقد أراد أيضًا أن يُصَدِّق تلك الرسالة، فقد جف ريقه من حرارة الشمس وتمنى أن يشرب كوكاكولا.

حياة بسيطة؟ لا يوجد شيء بهذا الاسم!

لا بد أن يكون الشخص مخه ضارب أو أن يتعامى حتى يفترض أن رسائل مثل "أخرِج القمامة–ماما"، "ماري تحب سكوت" هي نتاجُ القوانين الطبيعية. إلا أن هذه الاستنتاجات تتماشى تمامًا مع المبادئ التي تُدَرَّس اليوم في معظم مناهج الأحياء في المدارس الثانوية

والجامعات، حيث يؤكِّد علماء الأحياء الطبيعيون بكل تَعَنُّت أن الرسائل الأكثر تعقيدًا بما لا يقاس هي منتجات بلا عقل للقوانين الطبيعية. وهم يطلقون هذا الزعم محاولةً منهم أن يفسروا أصل الحياة.

فعلماء الأحياء الطبيعيون يؤكدون أن الحياة تَوَلَّدت تلقائيًا من مواد كيميائية غير حية بالقوانين الطبيعية دون أي تدخل ذكي. ربما كانت تبدو هذه النظرية مقبولة منطقيًا لعالِم في القرن التاسع عشر لم تتوافر له التكنولوجيا اللازمة لفحص الخلية واكتشاف تعقيدها المذهل. ولكن اليوم هذه النظرية الطبيعية تضرب بعرض الحائط كل ما نعرفه عن القوانين الطبيعية والأنظمة البيولوجية.

فمنذ خمسينيات القرن العشرين تمَكَّن العلماء بفضل التكنولوجيا الحديثة من اكتشاف عالَم متناهي الصغر من التصميم الأخّاذ والتعقيد المذهل. فبينما بدأت تلسكوباتنا ترى مسافات أبعد في الفضاء، بدأت ميكروسكوباتنا تسبر أغوارًا أعمق في مكونات الحياة. وبينما أسفرت ملاحظاتنا للفضاء عن المبدإ الإنساني في الفيزياء (الذي ناقشناه في الفصل السابق)، أسفرت ملاحظاتنا للحياة عن مبدإ إنساني في علم الأحياء بنفس الروعة.

ولنوضّح ما نقصده، سنتناول المفهوم المدعو الحياة "البسيطة"، أي الحيوان وحيد الخلية المعروف باسم الأميبا. يزعم التطوريون الطبيعيون أن هذه الأميبا وحيدة الخلية (أو ما يشابهها) تكوَّنت بفعل التولُّد التلقائي (أي دون تدخل ذكاء) في بِركة صغيرة دافئة في مكانٍ ما على الأرض القديمة جدًا. وتقول نظريتهم إن كل الحياة البيولوجية تطورت من الأميبا الأولى دون أي توجيه ذكي على الإطلاق. وهذه هي طبعًا نظرية الماكرو تطور *macroevolution*: من الخلية إلى الحيوان إلى الإنسان، أو من الخلية إلى الإنسان مرورًا بالحيوان *from the goo to you via the zoo.* والمؤمنون بهذه النظرية عن أصل الكون لهم أسماء كثيرة: التطوريون الطبيعيون، الماديون، الإنسانيون، الملحدون، الداروينيون (سنشير في بقية هذا الفصل والفصل التالي إلى المؤمنين بهذه النظرية التطورية الإلحادية باسم الدراوينيين أو الملحدين. وهذان الاسمان لا يشملان المؤمنين بالتطور الخَلقي *theistic evolutionists*، أي مَنْ يؤمنون أن الله وجَّهَ عملية التطور). وبصرف النظر عن الاسم الذي نُطلقه على المؤمنين الحقيقيين بهذه النظرية، فالسؤال الذي يهمنا هو: "هل نظريتهم صحيحة؟" لا تبدو كذلك.

ولنضع جانبًا التأكيدات الداروينية أن البشر انحدروا من القردة العليا أو أن الطيور تطورت من الزواحف. فالمشكلة الكبرى التي تواجه الداروينيين ليست تفسير كيفية ارتباط كل

أشكال الحياة ببعضها (رغم أن هذه أيضًا تمثل مشكلة كبيرة كما سنرى في الفصل القادم). إلا أن المشكلة الكبرى التي تواجه الداروينيين هي تفسير أصل أول حياة. فحتى يكون الماكرو تطور صحيحًا، لا بد أن تكون الحياة الأولى قد تولَّدت تلقائيًا من مواد كيميائية غير حية. ولكن لسوء حظ الداروينيين أن الحياة الأولى، بل أي شكل من أشكال الحياة، ليست "بسيطة" على الإطلاق. وهو ما أصبح واضحًا وضوح الشمس سنة ١٩٥٣ عندما اكتشف چيمز واطسون *James Watson* وفرانسيس كريك *Francis Crick* الـ*DNA* (*deoxyribonucleic acid* الحمض النووي الريبوزي منقوص الأكسجين)، وهو المادة الكيميائية التي تُشَفِّر تعليمات بناء وتكاثر كل الكائنات الحية.

وللـ*DNA* بنية حلزونية تشبه السُلَّم المبروم. وجوانب السُّلَّم تتكون من جزيئات الريبوز منقوص الأكسجين وجزيئات الفوسفات بالتبادل. ودرجات السُّلَّم تتكون من أربع قواعد نيتروجينية لها ترتيب محدَّد. وهذه القواعد النيتروجينية هي الأدنين *Adenine*، الثايمين *Thymine*، السايتوسين *Cytosine*، الجوانين *Guanine*، ويشار إليها عادةً بالحروف أ، ث، س، ج *A, T, C, G*. وتشكل هذه الحروف ما يُعرَف باسم الأبجدية الوراثية ذات الحروف الأربعة. وهذه الأبجدية تماثل الأبجدية الإنجليزية من حيث قدرتها على توصيل رسالة، فيما عدا أن الأبجدية الوراثية تحوي أربعة حروف فقط لا ستة وعشرين حرفًا*. فكما أن ترتيب الحروف المحدَّد في هذه الجملة يوصل رسالة فريدة، كذلك الترتيب المحدد للحروف أ، ث، س، ج داخل الخلية الحيّة يحدّد التكوين الوراثي الفريد لذلك الكائن الحي. وتُعرَف أيضًا تلك الرسالة أو المعلومات، سواء كانت في جملة أو في الـ*DNA* باسم "التعقيد المحدَّد" "*specified complexity*". أي أنها معقدة، وتحمل رسالة محددة.

ويتضح هذا التعقيد المحدّد المذهل للحياة في رسالة الـ*DNA* للأميبا وحيدة الخلية (كائن صغير للغاية حتى إنه يمكن رَصّ عدة مئات منه في بوصة واحدة). ويعترف الدارويني الأصيل ريتشارد دوكينز *Richard Dawkins*، أستاذ علم الحيوان في جامعة أكسفورد، أن الرسالة الموجودة فقط في نواة خلية الأميبا متناهية الصغر أكبر من "موسوعة بريتانيكا"

* يوضح عالِم المعلومات "هيوبرت يوكي" *Hubert Yockey* من جامعة كاليفورنيا في بركلي، أن هذا المقارنة بين الأبجدية الإنجليزية والأبجدية الجينية ليست مشابهة جزئية ولكنها نموذج للتماثل الرياضي. فهو يكتب قائلاً: "من المهم أن نفهم أننا لا نتحدث عن مشابهة جزئية. ولكن الفرضية التسلسلية *sequence hypothesis* تنطبق مباشرة على البروتين والنص الجيني مثلما تنطبق على اللغة المكتوبة، ومن ثم نعامل كلاً منهما معاملة متماثلة رياضيًا". انظر *Hubert P. Yockey, "Self Organization, Origin-of-life Scenarios and Information Theory," Journal of Theoretical Biology 91 (1981):16*

Encyclopedia Britannica بأجزائها الثلاثين مجتمعة، والأميبا كلها تحوي معلومات في الـ*DNA* الخاص بها تعادل ١٠٠٠ مجموعة كاملة من "موسوعة بريتانيكا"![١] أي أنك لو أردت أن تتهجى كل أبجدية أ، ث، س، ج المتضمنة في "الأميبا التي يُطلق عليها ظلمًا "بدائية"" (كما يصفها دوكينز)، لملأتْ الحروف ١٠٠٠ مجموعة كاملة من الموسوعة!

وهنا لا بد أن نؤكِّد أن هذه الموسوعات الألف لا تحوي حروفًا عشوائية، بل حروفًا مرتَّبة ترتيبًا محدّدًا جدًا، مثل الموسوعات الحقيقية. وهنا يأتي السؤال المحوري للداروينيين أمثال دوكينز: إن كانت الرسائل البسيطة مثل "أَخرِج القمامة–ماما"، "ماري تحب سكوت"، "اشرب كوكاكولا" تتطلب كائنًا ذكيًا، فلماذا لا تتطلب رسالة في حجم ١٠٠٠ موسوعة كائنًا ذكيًا أيضًا؟

لا يمكن للداروينيين الإجابة عن ذلك السؤال بأن يبينوا كيف يمكن للقوانين الطبيعية القيام بهذه المهمة. وبدلاً من ذلك يقدّمون تعريفات ضيقة جدًا لقواعد العلم، بحيث تستبعد الذكاء مُقَدَّمًا، وتجعل القوانين الطبيعية الشيء الوحيد الذي له قيمة. وقبل أن نبين كيف يفعل الداروينيون ذلك ولماذا يفعلونه، نلقي نظرة على المبادئ العلمية التي يجب استخدامها في اكتشاف كيف بدأت أول حياة.

استقصاء أصل أول حياة

يتحدّث الكثير من التطوريين وكذلك الخَلقيين وكأنهم يعرفون دون أدنى شك كيف أتت أول حياة إلى الوجود. وطبعًا لا يمكن أن يكون كلاهما على صواب. فإن كان أحدهما صائبًا، يكون الآخر خاطئًا. فكيف نكتشف أيهما على صواب؟

إن الحقيقة التالية واضحة ولكنها غالبًا مهمَلة: ليس هناك إنسان **لاحظ** أصل أول حياة. فنشأة أول حياة على الأرض كانت حدثًا تاريخيًا غير قابل للتكرار وقع مرة واحدة. ولم يكن أحد موجودًا ليراه، لا التطوريين ولا الخلقيين، ومؤكد أننا لا نستطيع أن نعود بالزمن ونلاحظ مباشرة سواء أكانت أول حياة خُلِقَت بفعل نوع من الذكاء أم نشأت بفعل القوانين الطبيعية من مواد غير حية.

وهو ما يطرح سؤالاً مهمًا: إن كنا لا نستطيع أن نلاحظ الماضي ملاحظة مباشرة، إذَن ما المبادئ العلمية التي يمكن أن نستخدمها لتساعدنا على اكتشاف مسبب الحياة الأولى؟ إننا نستخدم المبادئ المستعملة يوميًا في نظامنا الجنائي، أي مبادئ علم الأدلة الجنائية. بمعنى أن أصل الحياة هو مسألة بحث جنائي تتطلب منا أن نجمع الأدلة معًا مثلما يجمع

المخبرون السريون الأدلة في جريمة قتل. فالمخبرون لا يستطيعون أن يَرجعوا بالزمن ويشهدوا جريمة القتل ثانيةً. وهم لا يستطيعون أن يُحْيوا الضحية ويذهبوا إلى المعمل لإجراء تجربةٍ ما تتيح لهم ملاحظة الجريمة وإعادتها مرارًا وتكرارًا. ولكنهم لا بد أن يستخدموا مبادئ علم الأدلة الجنائية ليكتشفوا ما حدث بالفعل.

والمبدأ المحوري في علم الأدلة الجنائية هو مبدأ النمطية *Principle of Uniformity* الذي يقضي بأن مسببات الماضي تماثل المسببات التي نلاحظها اليوم. أي أننا بناءً على مبدإ النمطية نفترض أن العالم سار في الماضي كما يسير اليوم بالضبط، خاصةً فيما يتعلق بالمسببات. فإن كانت رسالة "أخرج القمامة – ماما" تتطلب اليوم مسبِّبًا ذكيًا، إذَن أي رسالة مشابهة من الماضي لا بد أيضًا أن تتطلب مسببًا ذكيًا. وبالعكس، إن كانت القوانين الطبيعية تستطيع أن تقوم بهذه المهمة اليوم، إذَن يقودنا مبدأ النمطية إلى أن نستنتج أن القوانين الطبيعية تمكنت من القيام بالمهمة في الماضي.

خذ مثلاً الأخدود العظيم *Grand Canyon*. ما الذي سبَّبه؟ هل رآه أحد وهو يتكون؟ لا، ولكن وفقًا لمبدأ النمطية، نستطيع أن نستنتج أن العمليات الطبيعية، وخصوصًا التعرية المائية، هي المسؤولة عن الأخدود العظيم. ويمكننا أن نخلص إلى هذا الاستنتاج بثقة، رغم أننا لم نكن موجودين لنرى ذلك الحدث. وذلك لأننا نلاحظ هذه العمليات الطبيعية اليوم تُكَوِّن أخاديد. فنحن نرى هذا في الطبيعة عندما نلاحظ تأثير المياه على مساحة من اليابس. بل يمكننا حتى أن ندخل المعمل ونَصُبّ ماءً مرارًا وتكرارًا في وسط كومة من التراب، ودائمًا ما سنحصل على أخدود.

والآن خذ تكوينًا جيولوجيًا آخر: جبل رشمور *Mount Rushmore*. ما الذي سبَّبه؟ يخبرنا الحس السليم بأننا لا يمكن أن نفترض أن وجوه الرؤساء المنحوتة في جبل رشمور نتجت من القوانين الطبيعية. ولا يمكن أن تكون التعرية هي التي نحتتها. ولكن "حسنا السليم" هو نفسه مبدأ النمطية. فبما أننا اليوم لا نلحظ أبدًا القوانين الطبيعية تنحت في الحجر تمثالاً ذا تفاصيل غاية في الدقة لرأس رئيس، إذَن من الصواب أن نستنتج أنه يستحيل أن تكون القوانين الطبيعية قد فعلت ذلك في الماضي. فاليوم نحن لا نرى إلا الكائنات الذكية تصنع منحوتات مفصَّلة. ونتيجةً لذلك نستنتج استنتاجًا صائبًا أنه في الماضي لا يمكن إلا لكائن ذكي (نحَّات) أن يكون قد نحت الوجوه في جبل رشمور.

وبالقياس نفسه، عندما ننظر إلى الحياة الأولى وحيدة الخلية، يخبرنا مبدأ النمطية أن مسببًا ذكيًا هو فقط الذي يستطيع أن يجمع ما يعادل ١٠٠٠ موسوعة. فلم يلحظ أحد أبدًا القوانين الطبيعية تخلق رسالة بسيطة مثل "اشرب كوكاكولا"، فكم بالأحرى رسالة طولها ١٠٠٠ موسوعة.

فلماذا إذَن يستنتج الداروينيون أن أول حياة تولّدت تلقائيًا من مواد كيميائية غير حية دون تدخل ذكي؟ فلم يلحظ أحد أبدًا تولّدًا تلقائيًا للحياة. ومنذ أن عَقّمَ پاستير دورقه، ظهرت واحدة من أهم الملاحظات في العلم كله، ألا وهي أن الحياة لا تنشأ إلا من حياة موجودة تشبهها. ولم يتمكن العلماء من خلط مواد كيميائية في أنبوبة اختبار وتخليقِ جزئ *DNA*، فكم بالأحرى الحياة.[٢] والحقيقة أن كل التجارب المصمَّمة لتُوَلّد الحياة تلقائيًا، بما فيها تجربة يوري-ميلر *Urey-Miller*، التي فقدت مصداقيتها حاليًا، لم تفشل فحسب، بل استخدمت الذكاء استخدامًا غير مشروع.[٣] أي أن العلماء يُجرون تجارب بذكاء ومع ذلك لا يمكنهم حتى الآن أن يفعلوا ما يقولون إن القوانين الطبيعية غير العاقلة فعلته. فلماذا نُصَدِّق أن العمليات غير العاقلة يمكنها أن تفعل ما لا يستطيع فعله العلماء العباقرة؟ وحتى لو تَمَكّن العلماء في النهاية من خلق حياة في المعمل، سوف يُثْبِتون الخلق. لماذا؟ لأن جهودهم ستبين أن خلق الحياة يتطلب الكثير من الذكاء.

هل الداروينيون يُصرّون على التولد التلقائي لأنهم لا يرون أدلة على التصميم؟ إطلاقًا. بل العكس تمامًا هو الصحيح، إنهم يرون الأدلة بوضوح! فمثلاً ريتشارد دوكينز اختار لكتابه عنوان "صانع الساعات الأعمى" *The Blind Watchmaker* ردًا على حجة التصميم لوليم پيلي التي أشرنا إليها في الفصل السابق. ويعترف دوكينز في أول صفحة من "صانع الساعات الأعمى" بأن الحياة تبدو ظاهريًا مصمَّمة. فهو يكتب: "علم الأحياء يختص بدراسة أمور معقدة تبدو ظاهريًا مصمَّمة لغرض".[٤] وبعد صفحتين، بالرغم من اعترافه بوجود "بنية وتصميم هندسي في منتهى الدقة" في الحياة البشرية وفي كل خلية من تريليونات الخلايا في الجسم البشري، فهو ينكر صراحةً أن الحياة البشرية أو أي حياة أخرى مصمَّمة. يظهر أن دوكينز يرفض أن يسمح للملاحظة أن تتدخل في استنتاجاته. وهو موقف غريب جدًا على رجل يؤمن بسلطة العلم العليا الذي يُفترَض أنه يقوم على الملاحظة.

وفرانسيس كريك الذي شارك في اكتشاف الـ*DNA*، وهو دارويني آخر عنيد، يتفق مع دوكينز في فكرة التصميم الظاهري. والحقيقة أن التصميم الظاهري في غاية الوضوح حتى إنه يشدد على أن "علماء الأحياء لا بد أن يضعوا في أذهانهم باستمرار أن ما يرونه لم يصمَّم، بل تَطَوّر".[٥] وتَذكِرة كريك الصغيرة لعلماء الأحياء دفعَتْ فيليپ چونسون، وهو كاتب وواحد من

قادة حركة التصميم الذكي *Intelligent Design (ID)* أن يقول: "على علماء الأحياء الداروينيين أن يستمروا في ترديد تلك التّذكِرة لأنفسهم لئلا يستفيقون على الواقع الذي يحدق في عيونهم ويحاول أن يلفت انتباههم".[٦]

إلا أن طبيعة الـ*DNA* المعقدة ليست المشكلة الوحيدة التي تواجه الداروينيين. ولكن أصله أيضًا مشكلة. فهذه القضية تطرح السؤال العسير "الكتكوت أم البيضة؟"؛ لأن إنتاج الـ*DNA* يعتمد على البروتينات ولكن إنتاج البروتينات يعتمد على الـ*DNA*. فأيهما أتى أولاً، البروتينات أم الـ*DNA*؟ لا بد أن يوجد أحدهما أولاً حتى يُصنَع الآخر.

فلماذا يتجاهل كريك، ودوكينز، وغيرهما ممن ينتمون لنفس المعسكر مضامين الأدلة الجَليَّة التي تحدق في عيونهم؟ لأن أيديولوجيتهم المسبقة، ألا وهي المذهب الطبيعي، تمنعهم حتى من التفكير في مسبب ذكي. وكما سنرى بعد قليل هذا علم ركيك ويؤدي إلى خلاصات خاطئة.

العلم السليم مقابل العلم الركيك

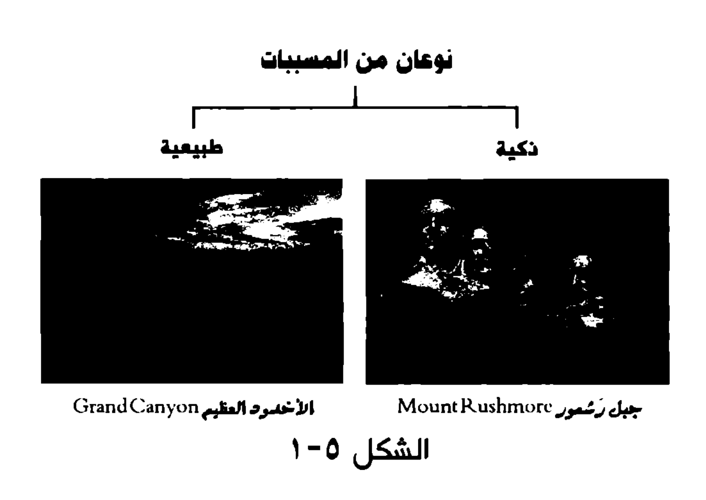
يشيع الاعتقاد بأن ما يُطلَق عليه جدل الخلق والتطور (غالبًا ما يُعرَف اليوم باسم جدل التصميم الذكي مقابل المذهب الطبيعي) ينطوي على حرب بين الدين والعلم، أو الكتاب المقدس والعلم، أو الإيمان والمنطق. وهو فهم تُروِّج له وسائل الإعلام التي دائمًا ما تصور الجدل في قالب فيلم "ميراث الرياح" *Inherit the Wind* إنتاج سنة ١٩٦٠ الذي صوَّر "محاكمة سكوپس في قضية القرد"* *Scopes monkey trial* سنة ١٩٢٥. وأنت تعرف هذا الأسلوب الذي يقصد أن يقول: ها هم أولئك الأصوليون المتدينون ثانيةً، وهم يُصِرّون على فرض دينهم بيقين مطلق، ويتجاهلون العلم الموضوعي.

وفي الواقع أنه ليس هناك ما هو أبعد عن الحقيقة من هذا الكلام. فجدل الخلق والتطور لا يدور حول الدين مقابل العلم، أو الكتاب المقدس مقابل العلم، ولكنه يدور حول العلم السليم مقابل العلم الركيك. وهو كذلك لا يدور حول الإيمان مقابل العقل، ولكنه يدور حول الإيمان العقلاني مقابل الإيمان اللاعقلاني. وقد تندهش عندما تعرف مَنْ الذين يمارسون العلم الركيك، ومَنْ الذين يتبنون الإيمان اللاعقلاني.

---

* محاكمة جرت في ولاية تنسي الأمريكية حيث اتُّهم سكوپس مدرس الأحياء بتدريس نظرية التطور بما يخالف قانون الولاية الذي يحظر تدريسها (من مذكرات غير منشورة بقلم د. مايكل پاركر، مستخدَمة باعتبارها منهجًا دراسيًا إلكترونيًا لمادة تاريخ الكنيسة في كلية اللاهوت الإنجيلية بالقاهرة). (المترجمة)

وكما ذكرنا آنفًا، العلم هو بحث عن المسبّبات. ومنطقيًا لا يوجد إلا نوعان من المسببات: الذكية وغير الذكية (أي الطبيعية). فالأخدود العظيم له مسبب طبيعي، وجبل رَشمور له مسبب ذكي (انظر الشكل ٥-١). وللأسف أن الداروينيين مثل دوكينز وكريك عندما يواجهون مسألة أول حياة يستبعدون المسبّبات الذكية حتى قبل أن ينظروا إلى الدليل. أي أن استنتاجاتهم متضمنة مسبقًا في افتراضاتهم. وهكذا **لا بد** أن يكون التولد التلقائي بفعل القوانين الطبيعية هو مسبب الحياة لأنهم لا يأخذون في اعتبارهم أي بدائل أخرى.



الشكل ٥-١

إن التولّد التلقائي هو ما يطلق عليه نقاد التطور قصة "بلا دليل". وذلك لأن التطوريين لا يقدمون أدلة لدعم التولد التلقائي الذي لا تؤيده الملاحظة التجريبية ولا قواعد علم الأدلة الجنائية. وهو "بلا دليل" لأن الحياة موجودة، وبما أن **المسببات الذكية مستبعدة مقدمًا**، فلا يمكن أن يكون هناك أي تفسير آخر.

إن الداروينيين يواجهون مشكلة ضخمة. فعالِم الكيمياء الحيوية كلاوس دوس *Klaus Dose* يعترف أن أكثر من ثلاثين عامًا من البحث في أصل الحياة أدت إلى "فهم أفضل لضخامة مشكلة أصل الحياة على الأرض أكثر مما ساعدت في حلها. ففي الوقت الحالي كل المناقشات التي تتناول النظريات والتجارب الكبرى في المجال إما تنتهي إلى طريق مسدود أو إلى الاعتراف بالجهل".[٧] ويُعبِّر فرانسيس كريك عن حسرته قائلاً: "كلما أكتب ورقة بحثية في أصل الحياة، أُقْسِم أنها ستكون الأخيرة لأن التخمينات كثيرة جدًا والحقائق شحيحة جدًا".[٨]

إن الأدلة تؤيد الذكاء بقوة وتتعارض مع المذهب الطبيعي، لدرجة أن التطوريين البارزين اقترحوا فعليًا أن كائنات فضائية أودعت أول حياة هنا على الأرض. فقد اخترع فرِد هُويل (التطوري الذي روَّج نظرية الحالة الثابتة التي ناقشناها في الفصل الثالث) نظرية شديدة الغرابة (تسمى "الپانسپرميا" "*panspermia*" وتعني "البذور في كل مكان") بعد أن ثَبَتَ حسابيًا أن احتمال نشأة الحياة بالتولد التلقائي هي فعليًا صفر. (وطبعًا نظرية "الپانسپرميا" لا تحل المشكلة، بل تزيحها إلى خطوة أبعد: فمن إذَن الذي صنع الكائنات الفضائية الذكية؟)

ورغم جنون نظرية "الپانسپرميا"، فعلى الأقل مؤيِّدوها يعترفون أن ذكاءً ما لا بد أن يكون وراء هذا الشيء المذهل العجيب الذي نسميه الحياة. ومع ذلك عندما يضطر أبرز التطوريين للجوء إلى كائنات فضائية لتفسير أصل الحياة، أنت تَعْرِف أن أبسط أشكال الحياة لا بد أن يكون في منتهى التعقيد.

ويعترف تشاندرا ويكراماسينغ *Chandra Wickramasinghe*، وهو أيضًا من مؤيدي نظرية "الپانسپرميا"، بأن الداروينيين يبنون اقتناعهم بالتولد التلقائي على إيمان أعمى. فهو يشير إلى أن "نشأة الحياة من حساء أساسي على الأرض هو **مجرد بند إيماني** يصعب على العلماء التخلص منه. فما من دليل تجريبي يؤيد هذا البند في الوقت الحاضر. والحقيقة أن كل محاولات خلق الحياة من اللاحياة، بدءًا من پاستير باءت بالفشل".[٩] ويضيف مايكل دنتون *Michael Denton* عالِم الأحياء الدقيقة، رغم أنه ملحد، قائلاً: "إن أبسط أنواع الخلايا المعروفة في غاية التعقيد حتى إنه يستحيل أن نقبل أن شيئًا كهذا تكوَّن بغتةً على نحو عشوائي بفعل حدثٍ شاذ غير محتمل بالمرة، وإذا وقع هذا الحدث فهو يعادل المعجزة".[١٠]

وفي ضوء التفسيرات التي "بلا دليل" مثل التولد التلقائي ونظرية "الپانسپرميا"، مَنْ في رأيك يمارس العلم الركيك: المدعوون، استهزاءً، "متدينيين" (المؤمنين بالله الخالق الحافظ/الخلقيين) أم "المستنيرون" (الملحدون/الداروينيون) الذين هم في الواقع متدينون تمامًا مثل "المتدينين"؟ يرى هيوبرت يوكي *Hubert Yockey* عالِم الفيزياء والمعلومات أنهم الداروينيون. فهو يكتب: "الاعتقاد بأن الحياة على الأرض نشأت تلقائيًا من مادة غير حية **هو ببساطة مسألة إيمان** بالاختزالية المتشددة، وهو يقوم برمته على أيديولوجية".[١١]

يوكي مُحِق، فالداروينيون يؤمنون خطأً أنه بإمكانهم اختزال الحياة إلى مكوناتها الكيميائية غير الحية. وهذه هي أيديولوجية الاختزالية. ففي نظر الداروينيون أمثال دوكينز أو كريك الذين يؤمنون قطعًا أنه لا يوجد شيء إلا المادة (وليس هناك شيء غير مادي)، الحياة ليست

أكثر من مواد كيميائية. ولكن واضح أن الحياة أكثر من مواد كيميائية. فالحياة تحتوي على رسالة هي الـ*DNA* الذي **تُعَبرِّ عنه** المواد الكيميائية، ولكن تلك المواد الكيميائية لا تستطيع أن تسبِّب الرسالة، كما أن المواد الكيميائية المكوِّنة للحبر والورق لا تستطيع أن تسبب الجمل الموجودة على هذه الصفحة. إن الرسالة تشير إلى شيء أبعد من المواد الكيميائية. والرسالة الموجودة في الحياة، مثل الرسالة الموجودة على هذه الصفحة، تشير إلى ذكاء أبعد من عناصرها الكيميائية. (إننا ندرك أن الحياة بالتأكيد **أكثر** من مجرد مواد كيميائية برسالة، ولكن النقطة المحورية هنا هي أنها بالتأكيد ليست **أقل** من ذلك).

ومن ثم يؤكِّد الداروينيون بمنتهى اليقين أن الحياة نشأت تلقائيًا من مكوناتها الكيميائية غير الحية، نظرًا لولائهم الأعمى لهذه الأيديولوجية الطبيعية الاختزالية. ولكن المضحك أن هذا هو الاتهام الذي طالما وجَّهه الداروينيون للخلقيين، أنهم يسمحون لأيديولوجيتهم أن تطغى على الملاحظة والعقل. والحقيقة أن الداروينيين هم من يسمحون **لإيمانهم** أن يطغى على الملاحظة والعقل. ولكنَّ الخلقيين ومؤيدي التصميم الذكي يستدلون استدلالاً منطقيًا بناء على الأدلة. فهم يتبعون الدليل إلى حيث يقودهم؛ إلى مسبب ذكي.

ويوكي ليس الوحيد الذي يشير إلى أن الداروينيين متحيزون فلسفيًا ضد المسببات الذكية. وفيليپ چونسون يمثل حَدّ الإسفين الماضي الذي يقطع خشبَ المذهبِ الطبيعيِّ المتحجرَ في المجتمع العلمي. فهو يشير صائبًا إلى أن "الداروينية تقوم على ولاء قَبْلِي *a priori* [مسبق] للمذهب الطبيعي، وليس على تقييم للأدلة محايد فلسفيًا. افصل الفلسفة عن العلم وستجد البرج الشامخ ينهار".[12]

وليس فقط نقاد التطور هم من يرون هذا التحيز. بل إن الداروينيين يعترفون به. ففي الحقيقة دوكينز نفسه اعترف بالتحيز ردًا على سؤال أُرسِلَ له بالبريد الإلكتروني من فيليپ چونسون. فقد أجابه قائلاً: "إن ولاءنا الفلسفي للمادية والاختزالية صحيح. ولكني أُفَضِّل أن أَصِفَه بأنه ولاء فلسفي لتفسير حقيقي في مقابل الانعدام التام للتفسير الذي تتبناه أنت".[13] (قد يعتقد دوكينز أنه يملك "تفسيرًا حقيقيًا"، ولكن تفسيره كما رأينا يتعارض مع كل الدلائل التي تقوم على الملاحظة وعلم الأدلة الجنائية).

وإن كان ريتشارد دوكينز يُسَرِّب على استحياء اعترافًا بتحيزه، فالدارويني ريتشارد ليونتِن *Richard Lewontin* الأستاذ في جامعة هارڤارد *Harvard University* يتدفق باعتراف كامل

مكتوب. اقرأ كيف يعترف ليونتنِ أن الداروينيين يقبلون قصصًا عبثية "بلا دليل" تتعارض مع الحس العام بسبب ولائهم المسبق للمادية:

> استعدادنا لقبول المزاعم العلمية التي تخالف الحس العام هو مفتاح فهم الصراع الحقيقي بين العلم وما هو فائق للطبيعة. إننا نأخذُ صف العلم رغم ما يشوب بعض أفكاره من عبث بيِّن، رغم فشله في الوفاء بالكثير من وعوده السخية بالصحة والحياة، رغم قبول المجتمع العلمي للقصص التي لا تقوم على دليل لأننا **ملتزمون مسبقًا بالفلسفة المادية**. فمناهج العلم ومؤسساته لا تجبرنا على قبول تفسير مادي للعالم الظاهر، بل بالعكس، **التزامنا القَبْلي بالقضايا المادية هو ما يجبرنا** على خلق أداة للبحث ومجموعة من المفاهيم تُنتج تفسيرات مادية، مهما كانت مناقضة لما هو واضح، ومهما بدت غامضة لضعيف المعرفة. فضلاً عن ذلك، هذه المادية مطلقة لأننا **لا نستطيع أن نسمح بدخول قَدَم إلهية من الباب.**[١٤]

وهنا تنكشف الحقيقة. فالموضوع ليس أن الأدلة تؤيد الداروينية، بل الحقيقة أن التفسيرات الداروينية "مناقضة لما هو واضح" وفقًا لما يقوله ليونتنِ وما يقبله حِسُّنا العام. فالحقيقة أن الداروينيين عرَّفوا العلم على نحو يجعل من الداروينية الإجابة الوحيدة الممكنة. وأي تعريف آخر، لا قدَّرَ الله، سيسمح لله بأن يُدخل "قدمه من الباب"!

وسوف نبحث في الفصل القادم ما قد يكمن من دوافع وراء إبقاءِ الله في الخارج. ولكن النقطة الفاصلة الآن هي أن الداروينيين يُصَدِّقون الحدث اللازم لتشغيل نظرية الماكرو تطور الإلحادية، ألا وهو التولد التلقائي لأول حياة، لأنهم ملتزمون بافتراضات فلسفية مغلوطة تتنكر في ثوب العلم، لا لأن هناك ملاحظات علمية مشروعة تؤيد التولد التلقائي. إن العلم الزائف علم ركيك، والداروينيون هم من يمارسونه. فاعتقادهم في التولد التلقائي يَنتُج من إيمانهم الأعمى بالمذهب الطبيعي. إن الاعتقاد بأن أول كائن وحيد الخلية تَكوَّن بفعل القوانين الطبيعية يتطلب قدرًا ضخمًا من الإيمان لأنه مثل الاعتقاد في أن ١٠٠٠ موسوعة نتجت من انفجار في إحدى المطابع! إن الملحدين لا يمكنهم حتى أن يفسروا أصل المطبعة، فكم بالأحرى الألف موسوعة. **لذلك، لسنا نملك الإيمان الكافي للإلحاد.**

أتِحْ للزمن والصدفة فرصة!

يقول الداروينيون: "الأمر لا يحدث بسرعة. لقد تجاهلتم الزمن والصدفة باعتبارهما تفسيرين مقبولين منطقيًا لكيفية تَوَلُّد الحياة تلقائيًا".

امنح الزمن زمنـًا أطول!

يرفض الداروينيون الاستنتاج الذي مفاده أن ذكاءً ما ضروري لإنشاء أول حياة، وذلك بالاستناد على أن مزيدًا من الزمن يتيح للقوانين الطبيعية أن تؤدي عملها. أعطها عدة مليارات من السنين وفي النهاية سنحصل على حياة. هل هذا مقبول منطقيًا؟

لِنَعُد قليلاً إلى جبل رَشمور. يؤكد الداروينيون أن العلم يقوم على الملاحظة والتكرار. فلنفترض أننا نلاحظ ونكرر تجربة نسمح فيها للقوانين الطبيعية أن تعمل في الصخر لمدة عشر سنوات. هل سنحصل على الوجوه الموجودة على جبل رَشمور؟ أبدًا.

تقول ربما تتمكن القوانين الطبيعية من القيام بهذا العمل إن أعطيناها مليارات السنين. لا، لن يحدث. لماذا؟ لأن الطبيعة لا تنظم الأشياء بل تـُحدث فيها حالة من الفوضى (إحداث الطبيعة للفوضى هو جانب آخر من جوانب القانون الثاني في الديناميكا الحرارية). وعليه فإن طول الوقت لا يُحَسِّن موقف الداروينيين بل يزيده سوءًا. كيف؟

هب أنك تنثر قصاصات من الورق الأحمر والأبيض والأزرق من طائرة على ارتفاع حوالي ٣٠٠ متر فوق منزلك. ما احتمال تكوينها للعَلَم الأمريكي على حوض النجيل الأمامي في حديقة بيتك؟ احتمال ضعيف جدًا. لماذا؟ لأن القوانين الطبيعية ستخلط القصاصات وتنثرها بعشوائية. تقول: "أعطها وقتـًا أطول". حسنـًا، لنرتفع بالطائرة إلى ٣٠٠٠ متر لنتيح للقوانين الطبيعية وقتـًا أطول لاستخدام القصاصات الملونة. هل يُزيد ذلك من احتمال تكُّون العلم على حوض النجيل الأمامي؟ لا، بل إن المزيد من الوقت يُقـلـِّص احتمالات تَكَوُّن العَلَم لأنه يتيح فرصة أكبر للقوانين الطبيعية لتؤدي عملها، ألا وهو الفوضى والعشوائية.

ما الفرق بين هذا المثال وأصل أول حياة؟ قد يقول الداروينيون إن القانون الثاني في الديناميكا الحرارية لا ينطبق دائمًا على الأنظمة الحية. فالكائنات الحية مهما كان تنمو ويمكنها أن تزداد تنظيمًا. نعم، إنها تنمو وتزداد تنظيمًا، ولكنها في الوقت نفسه تفقدُ طاقة في عملية النمو. فالطعام الذي يدخل إلى نظام حي لا يعالَج بدرجة ١٠٠% من الكفاءة. ومن ثم فالقانون الثاني ينطبق على الأنظمة الحية. ولكن هذه ليست النقطة المحورية. النقطة هي أننا لا نتحدث عما يمكن أن يفعله الشيء بمجرد أن يكون حيًا، بل **نتحدث عن الحصول على كائن حي أصلاً.** كيف نشأت الحياة من مواد كيميائية غير حية دون تدخُّل ذكي، وهذه المواد الكيميائية غير الحية خاضعة للقانون الثاني؟ الداروينيون لا يملكون إجابة، كل ما يملكونه هو الإيمان.

امنح الصدفة فرصة!

هل يمكن أن تمثِّل الصدفة تفسيراً لكل ما في الحياة من تعقيد محدَّد مذهل؟ من رابع المستحيلات. لقد حَسَبَ الملحدون والمؤمنون بالله الخالق، على حد سواء، احتمالية أن تكون الحياة قد نشأت بالصدفة من مواد كيميائية غير حية، وجاءت محصلة حساباتهم في منتهى الصغر، تقارب الصفر. فقد قال مايكل بيهي *Michael Behe* مثلاً إن احتمالية الحصول على **جزيء واحد من البروتين** (الذي يحوي حوالي ١٠٠ حمض أميني) بالصدفة يعادل احتمالية أن يتمكن رجل معصوب العينين من العثور على حبة رمل عليها علامة معينة في الصحراء الكبرى ثلاث مرات متتالية. والحقيقة أن جزيء بروتين واحد ليس حياة. وذلك لأنك لكي تحصل على الحياة يجب أن تحصل على حوالي ٢٠٠ جزيء بروتين مجتمعة![١٥]

إن تلك الاحتمالية تقارب الصفر. ولكننا نعتقد أنها **فعليًا** صفر. لماذا؟ لأن "الصدفة" ليست مسبِّبًا. الصدفة **كلمة** نستخدمها للإشارة إلى الاحتمالات الرياضية. فهي لا تملكُ قوة خاصة بها. الصدفة هي **لا شيء**. إنها ما تحلم به الصخور.

إذا نقر شخصٌ طرف عملةً معدنيةً متعادلة *fair coin* بإصبعه، ما احتمال أن يظهر الوجه الذي يحمل الصورة؟ نقول إنه خمسون في المائة. نعم، ولكن ما **المسببات** التي تجعل وجه الصورة هو الذي يظهر؟ هل الصدفة؟ لا، بل إن المسبب الأولي هو كائن ذكي قرَّر أن ينقر طرف العملة ويستخدم قدرًا من القوة في هذا الفعل. والمسببات الثانوية، مثل القوى الطبيعية للرياح والجاذبية، تؤثِّر كذلك على نتيجة نقر العملة. فلو عرفنا كل تلك المتغيرات، أمكننا أن نحسب نتيجة نَقر العملة مقدّمًا. ولكن لأننا لا نعلم تلك المتغيرات، فإننا نستخدم كلمة "الصدفة" لنخفي جهلنا.

لذا يجب ألا نسمح للملحدين أن يخفوا جهلهم بكلمة "الصدفة". فإن كانوا لا يعرفون آلية طبيعية أتت بأول حياة إلى الوجود، إذَن عليهم أن يعترفوا أنهم لا يعلمون بدلاً من طرح كلمة عديمة القوة، يستحيل طبعًا أن تمثِّل مسببًا. إن "الصدفة" ليست إلا مثال آخر على العلم الركيك الذي يمارسه الداروينيون.

العلم عبد الفلسفة

نجح الداروينيون للأسف في إقناع العامة أن العلم الركيك الوحيد هو ما يخالف الداروينية (وهم يقولون إنه في الحقيقة ليس علمًا على الإطلاق، إنه مجرد دين متنكِّر في زي العلم).

والحقيقة أن العكس تمامًا هو الصحيح. إن الداروينيين هم من يمارسون العلم الركيك لأن علمهم مبني على فلسفة خاطئة. أي أن دينهم العلماني المتمثل في المذهب الطبيعي هو ما يدفعهم إلى تجاهل الأدلة العلمية الثابتة تجريبيًا التي تؤكِّد وجود تصميم.

فما الدروس التي يمكن أن نتعلمها من علم الداروينيين الركيك؟ للإجابة عن ذلك السؤال نتناول مزيدًا من تفاصيل المناظرة التي أشرنا إليها في الفصل الثالث بين وليم لين كريج المسيحي وبيتر آتكينز الدارويني.[١٦] تَذَكَّر أن المناظرة انتهت بوجودِ الله. ولكن عند نقطة معيَّنة طرح آتكينز حجة مفادها أن الله ليس ضروريًا لأن العلم يستطيع أن يفسِّر كل شيء.

فقد صرح آتكينز قائلاً: "لا حاجة لله. كل ما في العالم يمكن فهمه دون الاستعانة بإله. وعليك أن تقبل أنه من الممكن النظر إلى العالم من هذه الزاوية".

اعترف كريج أن هذا "ممكن بالتأكيد. لكن..." فقاطعه آتكينز متحديًا: "هل تنكر أن العلم يمكنه أن يفسر كل شيء؟"

أجاب كريج: "نعم. **مؤكد** أني أنكر أن العلم يمكنه أن يفسر كل شيء".

سأله آتكينز: "فما الذي لا يمكنه تفسيره؟"

وكريج له باع كبير في العديد من المناظرات، فكان جاهزًا بإجابة متعدِّدة الجوانب. ومن ثم قال له: "أظن أن الكثير من الأشياء لا يمكن إثباتها علميًا، ومع ذلك فإننا نمتلك من العقلانية ما يُمَكِّننا من قبولها". ثم سَرَدَ كريج خمسة أمثلة لمعتقدات عقلانية لا يمكن إثباتها بالعلم:

١- الرياضيات والمنطق (العلم لا يستطيع أن يثبتهما لأن العلم يتخذ منهما فرضيات مسبقة).

٢- الحقائق الميتافيزيقية (مثل وجود عقول أخرى غير عقلي).

٣- الأحكام الأخلاقية (لا يمكنك أن تُثْبِت بالعلم أن النازيين كانوا أشرارًا لأن الأخلاق لا تخضع للمنهج العلمي).

٤- الأحكام الجمالية (الجميل، كالخيِّر، لا يمكن إثباته علميًا)، بل

٥- العلم نفسه (الاعتقاد بأن المنهج العلمي يكتشف الحقيقة لا يمكن إثباته بالمنهج العلمي نفسه)، (سنتحدث عن المزيد في هذا الموضوع أدناه).

(بعد هذا الوابل من الأمثلة التي تدحض موقف آتكينز، لم يتمكن الحَكَم وليم ف. بَكلي الابن من إخفاء سعادته بإجابة كريج. فالتفت إلى آتكينز وقال: "اضغط على نفسك وحاول أن تبلعها!")

كان كريج محقًا. إن المنهج العلمي من البحث عن المسببات بالملاحظة والتكرار ليس إلا

وسيلة **واحدة** للعثور على الحق. ولكنه ليس الوسيلة **الوحيدة** للعثور على الحق. وكما رأينا في الفصل الأول، القوانين غير العلمية (الفلسفية) مثل قوانين المنطق تساعدنا أيضًا في العثور على الحق. والحقيقة أن المنهج العلمي يستخدم تلك القوانين!

فضلاً عن ذلك، زَعْم آتكينز أن العلم يستطيع أن يفسِّر كل شيء خاطئ نظرًا للأمثلة الخمسة المضادة التي ذكرها كريج، وهو خاطئ أيضًا لأنه يفنِّد نفسه. فكأن آتكينز يقول: "العلم هو المصدر الموضوعي الوحيد للحق". وإن اختبرنا هذا التصريح بخطة "رود رَنَر" التي ذكرناها في الفصل الأول، نرى أنه يفند نفسه، ومن ثم فهو خاطئ. فعبارة "العلم هو المصدر الوحيد للحق الموضوعي" تزعم أنها حق موضوعي، ولكنها ليست حقـًا علميًا. بل العبارة فلسفية في طبيعتها، أي لا يمكن إثباتها بالعلم، ومن ثم تفند نفسها.

وقد يأتي بنا ذلك إلى أهم درس يمكننا أن نتعلمه من علم الداروينيين الركيك: **العلم مبني على الفلسفة. بل الحقيقة إن العلم عبد الفلسفة.** والفلسفة الركيكة تؤدي إلى علم ركيك، والعلم السليم يتطلب فلسفة سليمة. لماذا؟ لأن:

١- **العلم لا يمكن أن يتم دون الفلسفة.** فالافتراضات الفلسفية تُستخدم في البحث عن المسببات، ومن ثم لا يمكن أن تكون نتيجة للمسببات. فمثلاً العلماء يفترضون (بالإيمان) أن العقل والمنهج العلمي يتيحان لنا أن نفهم بدقة العالم المحيط بنا. هذا الافتراض لا يمكن إثباته بالعلم نفسه. فلا يمكنك أن تُثْبِت أدوات العلم، ألا وهي قوانين المنطق، وقانون السببية، ومبدأ النمطية، وصدق الملاحظة بإجراء تجربةٍ ما. ولكن عليك أن تفترض أن تلك الأشياء صحيحة حتى **تُجري** التجربة! إذَن العلمِ مبني على الفلسفة. ولكن للأسف الكثيرون من المدعوين علماء هم فلاسفة أردياء للغاية.

٢- **الافتراضات الفلسفية قادرة على إحداث تأثير شديد على الاستنتاجات العلمية.** فإن افترض أحد العلماء مسبقـًا أن المسببات الطبيعية فقط هي الممكنة، من المحتمل أن الأدلة مهما بلغ قدرها لن تقنعه بأن ذكاءً خَلَقَ أول أميبا وحيدة الخلية أو أي كيان آخر ذا تصميم. فعندما **يفترض** الداروينيون **مسبقـًا** أن المسببات الذكية مستحيلة، تصبح القوانين الطبيعية هي الشيء الوحيد الذي له قيمة. وبالمثل إن استبعد أحد الخَلْقيين مسبقـًا المسببات الطبيعية (وإن كنا لا نعرف أيًا منهم يفعل ذلك)، فهو أيضًا يخاطر بفقدان الإجابة الصحيحة. ولكن العالِم **ذو الذهن المنفتح**

على كل من المسببات الطبيعية والذكية يمكنه أن يتبع الأدلة حيثما تقوده.

٣- **العلم في الواقع لا يقول شيئـا، العلماء هم مَنْ يقولون.** إن العلماء هم دائمًا مَنْ يفسّرون البيانات. وعندما يسمح أولئك العلماء لاستحساناتهم الشخصية أو لافتراضاتهم الفلسفية غير المثـْبَتة أن تملي عليهم تفسير الأدلة، يفعلون بالضبط ما يتهمون به المتدينين، أي أنهم يسمحون لأيديولوجيتهم أن تملي عليهم استنتاجاتهم. وفي هذه الحالة يجب أن نتشكك في استنتاجاتهم لأنها قد لا تكون أكثر من افتراضات فلسفية مسبقة تُعرَض على أنها حقائق علمية.

المادية تجعل العقل مستحيلاً

عندما تصل إلى جذر المشكلة، تجد أن علم الداروينيين الركيك يَنتج من الفلسفة الطبيعية أو المادية التي تمثل أساس منظورهم الفلسفي للحياة. ولكن لماذا تـُعد المادية خاطئة؟ إليك خمسة أسباب تجعل المادية غير منطقية:

أولاً، كما أشرنا هناك رسالة كامنة في الحياة، يطلق عليها اصطلاحًا التعقيد المحدد، لا يمكن تفسيرها ماديًا. فهذه الرسالة لا يمكن أن تفسرها القوانين الطبيعية غير الذكية، تمامًا كما أن قوانين الحبر والورق غير الذكية لا تستطيع أن تفسر الرسالة المتضمنة في هذا الكتاب.

ثانيًا، الأفكار والنظريات البشرية لا تتكون من مواد فحسب. مؤكد أن المواد الكيميائية تشارك في عملية الفكر البشري، ولكنها لا تستطيع أن تشرح كل الأفكار البشرية. **فنظرية** المادية غير مصنوعة من جزيئات. وكذلكَ أفكار المرء، سواء أكانت أفكار حُبّ أو كراهية، ليست مواد كيميائية. فكم يَزِن الحب؟ وما التركيب الكيميائي للكراهية؟ إنها أسئلة عبثية لأن الأفكار والقناعات والعواطف لا تقوم بالكامل على المادة. وبما أنها لا تقوم بالكامل على المادة، إذَن المادية خاطئة.

ثالثـًا، لو لم تكن الحياة سوى مواد، يمكننا أن نأخذ كل مواد الحياة، وهي نفس المواد الموجودة في التراب، ونصنع منها كائنـًا حيًا. ولكننا لا نستطيع. واضح أن هناك شيئـًا في الحياة أبعد من المواد. فمَنْ مِنَ الماديين يستطيع أن يفسر لماذا يكون أحد الأجسام حيًا وجسم آخر ميتـًا؟ كلاهما يحتوي على نفس المواد الكيميائية. لماذا يكون جسم ما حيًا الآن وفي لحظة يموت؟ ما مزيج المواد الذي يمكنه أن يفسر الوعي؟ حتى آتكينز في مناظرته مع كريج اعترف أن تفسير الوعي مشكلة كبيرة للملحدين.

رابعًا، إن كانت المادية صحيحة، إذَن كل مَنْ مَرَّ بأي نوع من الخبرة الروحية في كل التاريخ البشري كان مخطئًا تمامًا. رغم أن هذا وارد، ولكن بالنظر إلى العدد الضخم من الخبرات الروحية، من غير المحتمل أنهم كانوا مخطئين. فمن الصعب أن نُصَدِّق أن عظماء القادة والمفكرين الروحيين في تاريخ البشرية كانوا جميعًا مخطئين تمامًا بخصوص خبرتهم الروحية، ومنهم بعض من أعظم العقول المفكرة والعلمية والناقدة. ومن أمثلة هؤلاء إبراهيم، وموسى، وإشعياء، وكپلر، ونيوتن، وپاسكال، ويسوع المسيح نفسه. **وإن كانت خبرة روحية واحدة فقط في تاريخ العالم كله صحيحة، تكون المادية خاطئة.**

أخيرًا، إن كانت المادية صحيحة، إذَن العقل نفسه مستحيل. لأنه إن لم تكن العمليات العقلية إلا تفاعلات كيميائية في المخ، إذَن ليس هناك ما يدعونا أن نصدق أن **أي** شيء صحيح (بما في ذلك نظرية المادية). فالمواد الكيميائية لا تستطيع أن تُقَيِّم ما إذا كانت النظرية صحيحة أم خاطئة. إن المواد الكيميائية لا تفكر، ولكنها تتفاعل.

وهو أمر يثير السخرية الشديدة لأن الداروينيين الذين يزعمون أنهم يناصرون الحق والعقل، جعلوا الحق والعقل مستحيلين بنظريتهم في المادية. لذا حتى عندما يكون الداروينيون على صواب بخصوص شيء ما، منظورهم الفلسفي لا يقدِّم لنا أي سبب يجعلنا نصدِّقهم، لأن العقل نفسه مستحيل في عالم لا تحكمه إلا القوى الكيميائية والفيزيائية.

ولا يكون العقل فقط مستحيلاً في هذا العالم الدارويني، ولكن تأكيد الداروينيين على الاعتماد على العقل وحده يصبح بلا مبرر. لماذا؟ **لأن العقل يتطلب فعليًا الإيمان.** كما يشير ج. بودچيشفسكي *J.Budziszewski* قائلاً: "شعار "العقل وحده" كلام فارغ على أي حال، لأن العقل نفسه يعتبر الإيمان فرضية مسبقة. لماذا؟ لأن الدفاع عن العقل **بالعقل** هو قياس دائري*، ومن ثم فهو عديم القيمة. فالشيء الوحيد الذي يضمن لنا عمل العقل البشري أن الله صانعه".[١٧]

ولنبسِّط فكرة بودچيشفسكي بالنظر إلى مصدر العقل. إن قدرتنا على التفكير لا تنبع إلا من أحد مصدرين: إما إن قدرتنا على التفكير نشأت من ذكاء سابق الوجود، أم إنها نشأت من

* إحدى المغالطات المنطقية المعروفة ويطلق عليها أيضًا المصادرة على المطلوب وهي: "خطأ منطقي ينشأ من إيراد البرهان أو البينة، بحيث تنطوي المقدّمات (الفرضيات) على النتيجة التي يراد التوصل إليها". (الدكتور كميل الحاج، الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي: عربي- إنجليزي، ط ١ (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ٢٠٠٠، ٥٦٥). (المترجمة)

المادة عديمة العقل. ويعتقد الملحدون/الداروينيون/الماديون **بالإيمان** أن عقولنا نشأت من المادة عديمة العقل بلا تدخل ذكي. ونقول إنه اعتقاد يقوم على الإيمان؛ لأنه يتناقض مع كل الملاحظة العلمية التي تُبين أن الأثر يستحيل أن يكون أكبر من مسببه. ففاقد الشيء لا يعطيه، ولكن الماديون يعتقدون أن المادة الميتة غير الذكية أنتجت الحياة الذكية. وهو ما يشبه الاعتقاد بأن مكتبة الكونجرس نتجت من انفجار في مطبعة!

ولكن الأرجح أن نعتقد بأن العقل البشري مصنوع على صورة العقل الأعظم؛ الله. أي أن عقولنا تستطيع أن تفهم الحق وتستطيع أن تفكر في الواقع لأن بانيها هو مهندس الحق والواقع والتفكير نفسه. فكما تعجز المادية عن تفسير الحياة، تعجز كذلك عن تفسير العقل. والمادية ببساطة ليست معقولة. **ومن ثم، لسنا نملك الإيمان الكافي لاعتناق المادية!**

الملحد مقابل مستشار في التفكير النقدي

إن اعتقاد الداروينيين نفسه بأن عندهم أسبابًا لإلحادهم يفترض فعليًا وجود الله افتراضًا مسبقًا. كيف ذلك؟ لأن **العقول** تتطلب أن يكون هذا الكون **معقولاً** يفترض مسبقًا وجود نظام، ومنطق، وتصميم، وحق. ولكن النظام، والمنطق، والتصميم، والحق لا يمكنها أن توجد وتُعرَف إلا إذا كان لها مصدر ومعيار موضوعيان ثابتان. فحتى يحكم الداروينيون بأن شيئًا ما **ليس** معقولاً، لا بد أن يعرّفوا ما هو **المعقول**. وحتى يحكم الداروينيون أن شيئًا ما **ليس** مصمَّمًا، عليهم أن يعرفوا ما هو **المصمَّم**. وحتى يحكم الداروينيون أن شيئًا **ليس** حقًا، عليهم أن يعرفوا ما هو **الحق**، وهَلُمَّ جَرًّا. ولكن الداروينية مثلها مثل كل المنظورات الفلسفية التي لا تؤمن بالله الخالق، تستعير من منظور الإيمان بالله الخالق حتى تجعل منظورها مفهومًا.

وهذا الميل اللاواعي للاستعارة من منظور الإيمان بالله الخالق انكشف بشكل جميل على يد الكاتب پيت بوتشينو[١٨] *Pete Bocchino* أثناء اجتماع تابع للإدارة التعليمية بولاية جورچيا للمقررات الدراسية. وپيت، الذي كان يعمل آنذاك في هيئة مسيحية معروفة عالميًا، اختير للانضمام إلى لجنة فرعية لمراجعة وتطوير مقررات المدارس الحكومية للصف السادس إلى الصف الثاني عشر في مواد مثل الحكومة الأمريكية، والقانون، والأخلاق، وتدريب الشخصية.

وأول سلسلة من الاجتماعات، التي دامت أسبوعًا كاملاً، عُقِدَت في غرفة كبيرة حيث بدأ الاجتماع بتقديم أعضاء اللجنة الفرعية لأنفسهم. ولكن پيت وصل متأخرًا بسبب ازدحام الطرق،

وفاته التقديم، فدخل متجهًا إلى مقعده. وعندما لاحظ رئيس اللجنة الفرعية پيت يدخل الغرفة، أخبره أنهم انتهوا من التعريف بأنفسهم وطلب منه أن يفعل الشيء نفسه بذكر اسمه وتخصصه الأكاديمي ومهنته. فذكر پيت اسمه وقال إنه يحمل درجة علمية في الهندسة الميكانيكية. وفَكَّر پيت في نفسه قائلاً: "مؤكد لا يجب أن أخبرهم أني أعمل في هيئة مسيحية دولية". فقدم مهنته بشكل غامض قائلاً: "أعمل حاليًا مستشارًا في التفكير النقدي في منظمة غير هادفة للربح".

فقال الرئيس: "تعمل ماذا؟!"

وكرر پيت: "مستشارًا في التفكير النقدي".

واستطرد الرئيس: "ماذا يفعل مستشار التفكير النقدي تحديدًا؟"

فأجاب پيت: "أرى أننا متأخرون ولستُ أود أن أُضَيِّع وقت اللجنة. ولكنك ستكتشف أثناء الأسبوع".

وعلى مدار الأسبوع ناقشَتْ اللجنة موضوعات مختلفة مثل التنوع وقبول الاختلاف وحقوق الإنسان وغيرها من القضايا الخلافية. وعند لحظة معينة عندما كانوا يناقشون المعايير النفسية أشار پيت إلى أن المعايير لا تتضمن تعريفًا للشخصية (كون الإنسان شخص *personhood*). وقد كان ذلك ثغرة في منهج علم النفس، ومن ثم اقترح پيت التعريف التالي بناءً على جزء في كتاب مورتيمر آدلر *Mortimer Adler* "الجميع مالكون، ولا معدمين" [١٩] *Haves Without Have-Nots*:

المادة: علم النفس / الموضوع: التفرّد

المعيار: يُقَيِّم تفرد الطبيعة البشرية ومفهوم الشخصية.

١- العقل / التفكير المفاهيمي *conceptual thought*

٢- حرية الاختيار / الإرادة الحرة

٣- المسؤولية الأخلاقية (المعايير)

٤- المساءلة الأخلاقية (الالتزامات الأخلاقية)

٥- الحقوق الراسخة *inalienable rights* للشخصية

وما إن طُرح هذا المعيار على الطاولة، حتى كانت أخصائية في التعليم جلست مقابل پيت وقد أوضحت قبلاً أنها ملحدة، على وشك أن تتحدى هذا المعيار. ولكنها قبل أن تفعل ذلك

أوقفها پيت وقال للمجموعة:

إن كان أحد يختلف على هذا المعيار، فهذا معناه أنه يفعل ما يلي:

١- ذلك الشخص يجذبني إلى عملية تفكير مفاهيمي (كما في رقم ١ أعلاه).

٢- ذلك الشخص يمارس "حريته" في أن يفعل ذلك (كما في رقم ٢ أعلاه).

٣- ذلك الشخص لا بد وأنه يعتقد أن علينا مسؤولية أخلاقية في تعليم ما هو صحيح/حق (كما في رقم ٣ أعلاه).

٤- ذلك الشخص يحاول أن يُحَمِّلني مسئولية أخلاقية بأن أُعَلِّم الحق (كما في رقم ٤ أعلاه).

٥- ذلك الشخص يتمتع بحق الاختلاف مع موقفي (كما في رقم ٥ أعلاه).

لذا إن كان أحد يختلف على هذه المعايير، ذلك الشخص في الواقع يؤكِّد صحة كل معيار منها.

وهنا خَيَّم الصمت على المجموعة برهة. ثم تحدث الرئيس قائلاً: "الآن عرفنا ما يفعله مستشار التفكير النقدي!" وبهذا أخبر أمين اللجنة أن يُدرج هذا المعيار في التوصيات.

إذَن بالقليل من التفكير النقدي، نرى أن المنظور الفلسفي الدارويني للحياة ينهار، ليس فقط لانعدام الأدلة، بل أيضًا لأن الداروينيين لا بد أن يستعيروا من منظور الإيمان بالله الخالق حتى يبنوا قضيتهم. فالعقل، والإرادة الحرة، والأخلاق الموضوعية، وحقوق الإنسان، مثلها مثل العقل، والمنطق، والتصميم، والحق؛ لا وجود لها إلا إذا كان الله موجودًا. إلا أن الداروينيين يفترضون بعض هذه الحقائق، أو كلها، عندما يدافعون عن منظورهم الإلحادي للحياة. ولكن هيهات أن يجمعوا بين النقيضين.

الداروينيون يستخدمون سطح علبة خطأ

ذكرنا في المقدمة أن المنظور الذي نرى به الحياة يشبه سطح علبة يتيح لنا أن نضع قطع لغز الحياة الكثيرة في صورة مكتملة متسقة. فإن كان معك سطح العلبة الصحيح، عندئذٍ يكون للقطع معنى في ضوء الصورة الكاملة.

ولكن ماذا لو أنك ظلَلتَ تكتشف قطعًا لا تتوافق مع سطح العلبة الذي عندك؟ الحس السليم يخبرك أن سطح العلبة الذي معك خطأ، إذَن عليك أن تبحث عن سطح العلبة الصحيح. إلا أن الداروينيين للأسف لا يفعلون ذلك. فالأدلة تبيِّن بجلاء أن سطح العلبة الذي

معهم خطأ، ولكنهم يرفضون حتى أن يفكروا أن هذا الاحتمال وارد (ناهيك عن البحث عن سطح العلبة الصحيح). إن سطح علبتهم المفهوم مسبقًا لديهم يُظهر صورة خالية من المسببات الذكية. ولكنهم، باعترافهم شخصيًا، اكتشفوا الكثير من قطع اللغز التي يبدو عليها بوضوح مظهر التصميم الذكي. أي أنهم يحاولون أن يُوَفِّقوا قطعًا من الإيمان بالله الخالق مع لغزهم الإلحادي/المادي. فكيف يفعلون ذلك؟

بدلاً من أن يقرّر الداروينيون التخلص من سطح العلبة الخاطئ والبحث عن الصحيح، يُصِرّون ببساطة أن القطع ليست في حقيقتها كما تبدو في الظاهر. وهم يحاولون أن يوفقوا كل قطعة، بدءًا من الكون المصمَّم تصميمًا دقيقًا وانتهاءً بالخلية الوحيدة الغنية بالمعلومات، على لغز لا يحوي تلك القطع. وبهذا الفعل يتجاهلون الملاحظة التي تمثل جوهر العلم التجريبي الذي يدَّعون تأييده. فالداروينيون، باعترافهم، يدينون فلسفيًا بالولاء لسطح علبتهم بصرف النظر عن شكل قطع اللغز.

فكيف تعثر على سطح علبة لغز الحياة الصحيح؟ التوصل إلى سطح العلبة الصحيح ليس مسألة استحسان (أنت تحب الإلحاد، أنا أحب الإيمان بالله الخالق الحافظ). لا، ولكنه مسألةُ حقيقةٍ موضوعية. فقد اكتشفنا في الفصلين الثالث والرابع أن هذا الكون يؤكّد الإيمان بالله الخالق وفقًا لمبادئ المنطق الأولى الواضحة في ذاتها ومبادئ البحث العلمي الصحيحة. فإن كان الكون نتيجة خلق إلهي، عندئذ تكون الفلسفة الطبيعية خاطئة. وإن كانت الفلسفة الطبيعية خاطئة، إذَن من المحتمل أن الداروينيين لا يفسرون الأدلة تفسيرًا صحيحًا.

إن إيجاد سطح العلبة الصحيح مهم لأنه يزوّدنا بالإطار الصحيح لتفسير الأدلة. والإطار هو البيئة الكبرى التي تظهر فيها الأدلة. فإن كان الإطار الذي تحتكم إليه خاطئًا، قد تصل إلى استنتاجات خاطئة بخصوص الأدلة التي تلاحظها. فمثلاً، إن قلتُ لك إني رأيت توًا رجلاً يشق بطن امرأة بسكين، من المحتمل أن تفترض أن الرجل ارتكب فعلاً خاطئًا. ولكن لاحظ ما يحدث عندما أكشف لك الإطار، أو البيئة التي حدثت فيها هذه الواقعة: كنا في حجرة ولادة في أحد المستشفيات، والرجل طبيب، وقلب الجنين توقف حالاً عن العمل. ما رأيك في الرجل الآن؟ حالما فهمتَ البيئة، غيَّرتَ نظرتك بالكامل للأدلة: فأنت الآن تعتبر الرجل بطلاً لا وحشًا لأنه كان فعليًا يحاول أن ينقذ حياة الطفل.

وعلى القياس نفسه، يجب تفسير الأدلة البيولوجية في ضوء البيئة الكبرى المعروفة لنا. وكما اكتشفنا، البيئة الكبرى المعروفة تبين أن هذا الكون نتيجة خلق إلهي. الحقيقة أن هناك كائنًا

ذكيًا قويًا غير مادي أبعد من العالم الطبيعي خلق الكون وصممه بدقة تسمح بالحياة على الأرض. أي أننا نعرف الآن بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي أن المصمِّم جزء من سطح العلبة لأن الدليل يبين أنه صمم هذا الكون العجيب بما فيه من دقة وتعقيد مذهلَين.

وفي ضوء حقيقة وجود هذا المصمم، عندما نرى أنظمة بيولوجية يعترف حتى الداروينيين أمثال ريتشارد دوكينز بأنها "تبدو ظاهريًا مصمَّمة لغرض"، لعله من الواجب علينا أن نستخلص **أنها فعليًا مصمَّمة لغرض**. وكما يوضح وليم دمبسكي *William Dembski* "إن كان مخلوق شكله كلب، ورائحته كلب، وينبح نباح الكلب، ويشعر كالكلب، ويلهث كالكلب، تكون البينة على من يدعي أن المخلوق ليس كلبًا".[٢٠] فبما أن الكون مخلوق ومصمَّم، إذَن يجب أن نتوقع أن الحياة أيضًا مخلوقة ومصمَّمة. (على أقل تقدير **من الممكن** أن تكون الحياة قد خُلِقَت بواسطة ذكاء. ومن الواضح أن استبعاد تلك الإمكانية مسبقًا فِعل غير مشروع).

إذَن استنتاج أن الحياة نتاج مصمِّم ذكي استنتاج له معنى لأنه ليس دليلاً وحيدًا. ولكنه يتوافق مع غيره من نتائج البحث العلمي. أو استكمالاً لتشبيه لغز الصور المقطَّعة الذي بدأنا به، يمثل هذا الدليل قطعة تتوافق تمامًا مع غيرها من قطع اللغز.

الملخص والخلاصة

بما أننا تناولنا قدرًا كبيرًا من الموضوعات في هذا الفصل، سنوجزها في بضع نقاط قصيرة:

١- الحياة لا تتكون من مواد كيميائية فحسب. ولو كان ذلك صحيحًا، لأمكن إنتاج الحياة من خلط كيماوياتها في أنبوبة اختبار. ولكن من الواضح أن الحياة تتكون مما هو أكثر من كيماويات، فهي تشتمل أيضًا على تعقيد محدد (لا يأتي إلا من عقل). إذَن المادية خاطئة. (وهناك العديد من الأسباب الإضافية التي تجعل المادية خاطئة، ومنها أن العقل نفسه يكون مستحيلاً في كون مادي).

٢- لسنا نعرف قوانين طبيعية تخلق تعقيدًا محدّدًا (معلومات). الذكاء فقط هو ما لوحظ يخلق تعقيدًا محددًا (مثل "أخرج القمامة – ماما"، "اشرب كوكاكولا"، جبل رَشمور... إلخ).

٣- أبسط حياة تتكون من تعقيد محدد مذهل يعادل ١٠٠٠ مجموعة كاملة من "موسوعة

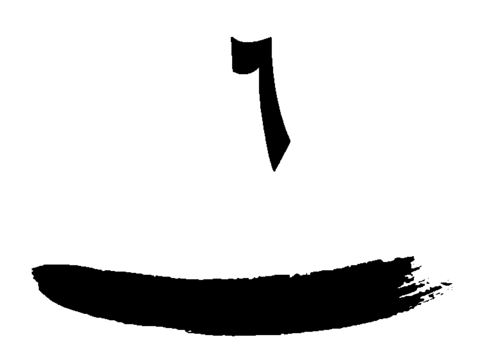
بريتانيكا". وقد قال أينشتاين: "الله لا يلعب لعبة زهر بالكون"[٢١] وقد كان محقـًا، كما قال فيليـپ جولد *Phillip Gold* "الله يلعب كلمات متقاطعة!"[٢٢]

٤- العلم بَحْثٌ عن المسبِّبات يقوم على الفلسفة. وليس هناك إلا نوعان من المسببات: الذكية والطبيعية، إلا أن الداروينيين يستبعدون المسببات الذكية لاعتبارات فلسفية حتى قبل أن يفحصوا الدليل. ولذلك عندما ينظر الداروينيون إلى تلك الموسوعات الألف يؤكدون أنها ترجع لمسبب طبيعي، رغم ما يلاحظونه ويدركونه فيها من تصميم واضح. ولكن إن كانت رسالة "أخرج القمامة–ماما" تتطلب مسبّبًا ذكيًا، إذَن الألف موسوعة تتطلب كذلك مسببًا ذكيًا.

٥- التولد التلقائي للحياة الذي تستلزمه الداروينية لتشغيل نظريتها لم يَثْبُت بالملاحظة أبدًا. ولكنهم يعتقدونه. وفي ضوء الأدلة الكونية والغائية الدامغة على أن هذا الكون مخلوق (وللكثير من الأسباب الأخرى)، يُعَدّ الاعتقاد الدارويني في الفلسفة الطبيعية (أو المادية) من بنود الإيمان أيضًا. ومن ثم الداروينية لا تزيد عن كونها دينـًا علمانيًا يتنكر في ثياب العلم.

وقد يقول المتشكك: "مهلاً. أنت تتحدث بسرعة كبيرة. ما الذي يجعلك تظن أن التصميم الذكي علمي؟ أليس التصميم الذكي مجرد شكل آخر من أشكال مغالطة "إله الفجوات" التي تسرع دائمًا إلى إقحامِ الله في الصورة لحين أن تجد مسببًا طبيعيًا؟ فما المانع أن نستمر في البحث عن مسبب طبيعي إلى أن نجده؟ إن التصميم الذكي يبدو أنه هو نفسه نظرية الخلق في ستة أيام التي تتخذ من الكتاب المقدس سلاحًا لها، وقد تم تهريبها إلى مجال المناقشة العام ولكن باسم جديد. وماذا عن الأدلة المؤيدة لتطور أشكال جديدة من الحياة التي لم تذكراها حتى الآن؟"

سيأتي الرد على هذه المزاعم الداروينية وغيرها في الفصل التالي. ولن نكتفي بتناول تلك المزاعم، ولكننا سنقدم كذلك مزيدًا من قطع اللغز التي تؤكد أن مؤيدي التصميم الذكي هم مَنْ يمتلكون سطح العلبة الصحيح، لا الداروينيين.



من الخلية إلى الإنسان مرورًا بالحيوان؟

"في المدرسة الثانوية علّموني أن الضفدع الذي يتحول إلى أمير قصة خيالية.
وفي الجامعة علّموني أن الضفدع الذي يتحول إلى أمير قصة حقيقية!"
"رون كارلسون" *Ron Carlson*

في فيلم "اتصال" *Contact*، تلعب چودي فوستر *Jodie Foster* دور عالِمة ضمن فريق برنامج "البحث عن ذكاء من خارج الأرض" ("ستي") *Search for Extra-Terrestrial Intelligence (SETI)*. وبرنامج "ستي"، الذي هو عبارة عن منظمة حقيقية، يضم علماء يمكنهم مسح الفضاء للعثور على علامات صريحة تبين وجود حياة ذكية. فممَّ تتألف العلامة الصريحة على وجود حياة ذكية؟ من رسالة. هذا صحيح. شيء من قبيل "أخْرِج القمامة – ماما".

وفي الفيلم تشتعل چودي حماسةً عندما يلتقط الهوائي موجات راديو يبدو أنها تتسم بنمط ذكي، وتقول مندهشة: "واحد، اثنان، ثلاثة، خمسة، سبعة، ١١... أولية!" (تقصد أعدادًا أولية). "مستحيل أن تكون ظواهر طبيعية!"

فعلاً، موجات الراديو العشوائية يمكن إنتاجها طبيعيًا، ولكن الموجات التي تحوي رسالة دائمًا ما تأتي من مصدر ذكي. والأعداد الأولية، من واحد إلى ١٠١ بالترتيب، تشكل رسالة لا تصدر إلا من كائن ذكي.

وچودي الآن واثقة أنها عثرت على شيء من خارج الأرض، فتعلن عن اكتشافها. ومن ثم يتجه مسؤولون من الحكومة والجيش إلى مكان عملها. ويسألها أحدهم بنبرة ساخرة: "لو كان هذا مصدرًا ذكيًا، فلماذا لا يتحدث الإنجليزية؟"

فتجيب چودي بحزم: "لأن الرياضيات هي اللغة العالمية الوحيدة!"

وهي بالطبع على صواب. ففي الحقيقة الأبجديات، وبالتالي اللغة نفسها، يمكن اختزالها نهائيًا إلى أعداد. ولذلك الأبجدية الإنجليزية متماثلة رياضيًا مع الأبجدية الوراثية للـ*DNA*، وتشبيه معلومات الخلية بالموسوعات يمثل علاقةٌ تامةُ التطابقِ وليس مشابهة جزئية.

ورغم أن چودي وزملاءها يكتشفون فيما بعد رسالة أكثر تعقيدًا متضمَّنة في موجات الراديو، فهم على يقين تام أن الأعداد الأولية وحدها تبرهن على أن الرسالة صادرة من حياة ذكية. ولكن ما سِرّ يقينهم؟ السر هو أن الملاحظات المتكررة تخبرنا أن الكائنات الذكية فقط هي مَنْ تخلُق رسائل، وأن القوانين الطبيعية لا تفعل ذلك أبدًا. فعندما نرى سلسلة من الأعداد الأولية، ندرك أنها تتطلب مسببًا ذكيًا تمامًا مثل رسائل: "أَخْرِج القمامة – ماما"، "ماري تحب سكوت".

ومن المضحك أن فيلم "اتصال" مأخوذ عن رواية للراحل كارل ساجان *Carl Sagan*، وهو تَطَوُّري متشدد آمن بالتولد التلقائي ولعب دورًا فعالاً في إطلاق برنامج "ستي" في الواقع. والمضحك في الأمر أن ساجان كان مقتنعًا تمامًا أن سلسلة بسيطة من الأعداد الأولية تبرهن على وجود كائن ذكي، ولكن ما يعادل ١٠٠٠ موسوعة في الحياة الأولى وحيدة الخلية لا يبرهن على ذلك. **إن عدم الاعتقاد في الله يتطلب قدرًا كبيرًا من الإيمان. أكبر مما نملك!**

علاوة على ذلك، ساجان هو من كتب عن المخ البشري:

> المحتوى المعلوماتي للمخ البشري مُعبرًا عنه بوحدات البِت* غالبًا ما يعادل مجموع عدد الاتصالات فيما بين العصبونات (الخلايا العصبية أو النيورونات *neurons*)، حوالي مائة تريليون بِت. ولو كُتِبَت هذه المعلومات بالإنجليزية لملأت حوالي عشرين مليون مجلدًا، وهو ما يعادل ما تحويه أكبر مكتبات العالم. إن ما يعادل عشرين مليون كتابًا يسكن داخل رأس كلٍّ منا. فالمخ هو مكان كبير جدًا في مساحة صغيرة جدًا. ... والكيمياء العصبية للمخ مشغولة على نحو يثير الاندهاش. إنها عبارة عن مجموعة دوائر كهربية لماكينة تفوق في روعتها كل ما هو من صُنْع البشر.[1]

---

* *bit* اختصار *binary digit* وتستخدم كوحدة قياس للمعلومات الرقمية. (المترجمة)

من المحتمل أن تقدير ساجان لمحتوى المخ المعلوماتي بعشرين مليون كتابًا هو تقدير أقل من الواقع. ومع ذلك حتى هذا الرقم مذهل. وحتى تُكوِّن عنه تصورًا، تخيل نفسك في الصالة الرئيسية لمُجَمَّع ماديسون سكوير جاردن *Madison Square Garden* قبل بدء مباراة كرة سلة بعدة ساعات. وليس هناك أحد غيرك في الساحة، وأنت تنظر إلى ما يقرب من ٢٠ ألف مقعد فارغ تحيط بك جميعًا. فكم عدد الكتب التي يجب أن تضعها فوق بعضها البعض على **كل مقعد** بحيث تضع عشرين مليون كتاب في تلك الساحة؟

يجب أن تضع ١٠٠٠ كتاب فوق بعضها **على كل مقعد على حدة** حتى تستطيع أن تُدخل عشرين مليون كتاب في ماديسون سكوير جاردن. فكِّر فيها. فارتفاع السقف لا يكفي هذا العدد من الكتب. لذا، ستضطر لتفجير السقف حتى تستمر في تكويم الكتب فوق بعضها! هذه هي كمية المعلومات المحددة والمعقدة الموجودة فيما بين أذنيك. وبالحقيقة أصاب ساجان في قوله إن المخ مكان كبير جدًا في مساحة صغيرة جدًا، وهو شيء أكثر تعقيدًا بما لا يقاس من كل ما هو من صُنع البشر.

فلنراجع الحقائق: أدرك ساجان أن المخ البشري يضم محتوى من المعلومات يبلغ عشرين مليون كتاب. وقد أدرك أيضًا أن هذا المحتوى أكثر تحديدًا وتعقيدًا بما لا يقاس من سلسلة أعداد أولية. إذَن لماذا اعتقد أن الرسالة الأبسط تتطلب كائنـًا ذكيًا ولكن رسالة طولها عشرين مليون كتاب لا تتطلب ذلك؟ ويمكننا أيضًا أن نسأل ساجان وإخوانه الداروينيين سؤالاً آخر بنفس الأهمية تقريبًا: إن كان البشر **الأذكياء** لا يستطيعون أن يصنعوا أي شيء يقترب من المخ البشري، فلماذا نتوقع من القوانين الطبيعية **غير الذكية** أن تفعل ذلك؟

عادةً ما تشتمل إجابة الداروينيين على فكرة "الانتخاب الطبيعي". فهل هذا يكفي لتفسير الأشكال الجديدة من الحياة؟ فمهما كان، المسافة بين خلية واحدة والمخ البشري مسافة طويلة.

ماذا عن الأشكال الجديدة من الحياة؟

قبل أن نناقش أصل الأشكال الجديدة من الحياة، يجب أن نراجع مشكلة أصل أول حياة. مؤكد أن المسافة طويلة بين خلية واحدة والمخ البشري، ولكن المسافة بين المواد الكيميائية غير الحية وأول خلية قد تكون أطول بكثير. وهذه هي أصعب مشكلة تواجه الداروينيين. فمن أين أتت أول حياة؟

هل ترى ضخامة هذه المشكلة التي تواجه الداروينيين؟ فإن لم يكن عند الداروينيين تفسير لأول حياة، فما الفائدة من الحديث عن أشكال جديدة من الحياة؟ فعملية الماكرو تطور، إن كانت ممكنة أصلاً، لا يمكنها حتى أن تبدأ إلا إذا كانت هناك حياة سابقة الوجود.

ولكن كما رأينا في الفصل السابق، هذه المشكلة لا تثني الداروينيين. فهم يسيرون عكس كل الأدلة التجريبية والجنائية، ويختلقون قصة "بلا دليل" عن التولد التلقائي أو "الپانسپرميا" تعطيهم، بشكل سحري، الحياة الأولى التي يحتاجونها. وهذا ليس علمًا، بل نكتة. وهو فعليًا يُذَكِّرنا بنكتة. فقد اعتاد ستيڤ مارتن *Steve Martin* أن يقول: "أَعْرِف كيف يمكنك أن تصبح مليونيرًا دون أن تدفع ضرائب أبدًا! أولاً، احصل على مليون دولار، والآن...".

بل إن موقف الداروينيين ينطوي على إشكالية أكبر عندما تأخذ في اعتبارك أنهم لا يملكون حتى تفسيرًا لمصدر المواد الكيميائية غير الحية، فما بالك أن يجدوا تفسيرًا للحياة. وكما رأينا في الفصل الثالث، من أعمق الأسئلة التي يمكننا أن نطرحها: "إن لم يكنِ الله موجودًا، فلماذا يوجد شيء بدلاً من العدم؟" وقد رأينا أن الملحدين لا يملكون إجابة معقولة على هذا السؤال. فاقتراحهم لبعض الاحتماليات الممكنة ليس كافيًا، ولكن عليهم أن يقدِّموا دلائل إن أرادوا أن يكونوا علميين. إلا أنه من الواضح أنهم لا يعلمون من أين أتى الكون. وسطح العلبة (المنظور الفلسفي للحياة) يجب أن يتمكن من تقديم تفسير معقول لكل البيانات. فإن لم يتمكن من الإجابة عن الأسئلة الأساسية المختصة بأصل العالم أو أصل الحياة، فهو لا يصلح أن يكون سطح علبة. وعندئذٍ يجب البحث عن بديل.

ورغم أننا نرى أن سطح العلبة الدارويني معيب في أساسه، يجب أن ننظر في بضعة مزاعم يطلقها الداروينيون بخصوص أصل الأشكال الجديدة من الحياة. ونظريتهم هي الماكرو تطور.

الميكرو تطور مقابل الماكرو تطور

لعلك تتذكر الماكرو تطور: من الخلية إلى الإنسان مرورًا بالحيوان. وهو يتلخَّص في الاعتقاد بأن كل أشكال الحياة انحدرت من سَلَف مشترك، هو الكائن الأول وحيد الخلية، وكل هذا حدث بعمليات طبيعية دون أي تدخل ذكي. فالله لا يدً له في هذا الموضوع. ولكنها عملية عمياء تمامًا.

ويقول الداروينيون إن هذا حدث بالانتخاب الطبيعي. ولكن مصطلح "الانتخاب الطبيعي"

تسمية خاطئة. فبما أن عملية التطور تخلو من الذكاء بطبيعة الحال، فهي لا تنطوي على أي "انتخاب" على الإطلاق. إنها عملية عمياء. ولكن مصطلح "الانتخاب الطبيعي" يعني ببساطة أن أصلح الكائنات هي التي تبقى على قيد الحياة. ما الجديد الذي أتت به هذه الفكرة؟ هذا صحيح بطبيعة الحال، فالأصلح هو الذي يبقى على قيد الحياة (وهذا ما نسميه تكرارًا مخلاً؛ حجة دائرية لا تُثبت أي شيء). فمنطقيًا، هذه الكائنات مجهَّزة جيدًا من الناحية الوراثية أو البنيوية للتعامل مع الظروف البيئية المتغيرة (ولذلك تبقى على قيد الحياة).

ومن أمثلة "الانتخاب الطبيعي" ما يحدث للبكتيريا التي تهاجمها المضادات الحيوية. عندما تنجو البكتيريا من إحدى هجمات المضادات الحيوية وتتكاثر، هذه المجموعة الناجية من البكتيريا قد تكون مقاوِمة لذلك المضاد الحيوي. والبكتيريا الناجية مقاوِمة لذلك المضاد الحيوي لأن البكتيريا الأم كانت تمتلك القدرة الوراثية على المقاومة، أو طفرة بيوكيميائية نادرة ساعدتها بشكل ما على البقاء (نقول "نادرة" لأن الطفراتِ ضارة في كل الأحوال تقريبًا). وبما أن البكتيريا الضعيفة تموت، فالبكتيريا الناجية تتكاثر وتسود.

ويقول الداروينيون عن البكتيريا الناجية إنها تطورت. فبما أن البكتيريا الناجية تكيَّفت على البيئة، فهي تقدِّم لنا مثالاً للتطور. موافقون، ولكن أي نوع من التطور؟ الإجابة التي سنقدِّمها حرجة جدًا. فالحقيقة أنه بصرف النظر عن الافتراضات الفلسفية المسبقة التي رفعنا عنها الستار، نجد أن تعريف "التطور" قد يمثل أكثر الأفكار إرباكًا في مجادلة الخلق والتطور. وهنا تبدأ الأخطاء والمزاعم الداروينية الزائفة في التكاثر مثل البكتيريا لو لم يوقفها مَن يؤمنون بأهمية الملاحظة للعلم. وإليك ما تخبرنا به الملاحظة: **البكتيريا الناجية تظل دائمًا بكتيريا.** فهي لا تتطور إلى كائن من نوع آخر، وإلا أصبح هذا ماكرو تطور. ولكن الملاحظة لم تُثبِت أبدًا أن الانتخاب الطبيعي خلق أشكالاً جديدة من الحياة.

ومع ذلك فالماكرو تطور هو بالضبط ما يزعمه الداروينيون من البيانات المتاحة. فهم يقولون إن هذه **التغيرات الدقيقة** *micro* القابلة للملاحظة يمكن تعميمها لإثبات حدوث الماكرو تطور غير القابل للملاحظة. فهم لا يميزون بين **الميكرو** تطور *microevolution* **والماكرو** تطور، ومن ثم يستخدمون أدلة الميكرو لإثبات الماكرو. وإذ يتجاهل الداروينيون هذا الفرق الحيوي، يمكنهم أن يخدعوا العامة للاعتقاد بأن أي تغير قابل للملاحظة في أي كائن حي يبرهن على أن كل الحياة تطورت من الكائن الأول وحيد الخلية.

ولذلك من الضروري أن نميز جيدًا بين الأمور وأن نكشف كل الافتراضات الخفية عند

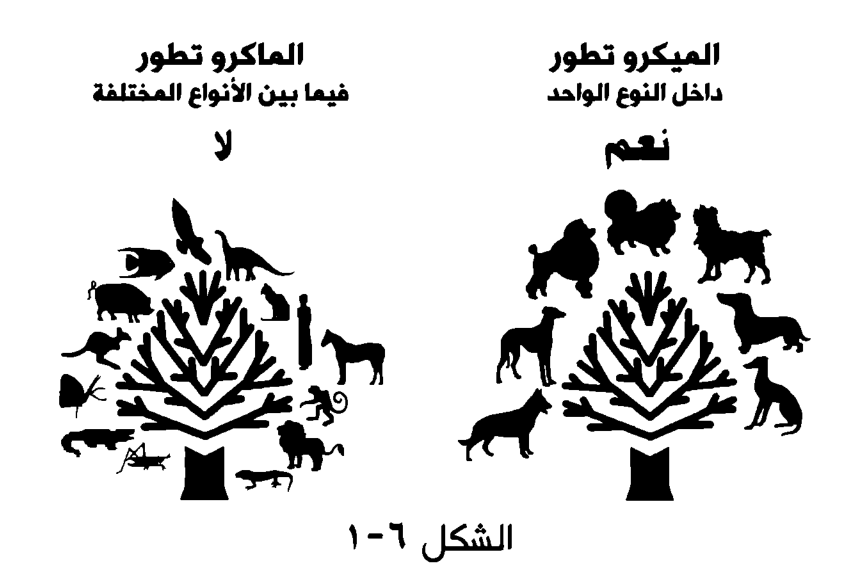
مناقشة الجدل بين الخلق والتطور. لذا إن سألك أحد: "هل تؤمن بالتطور؟" عليك أن تسأله: "ماذا تقصد بالتطور؟ هل تقصد الميكرو أم الماكرو تطور؟" الميكرو تطور ثَبَتَ بالملاحظة، ولكن لا يمكن استخدامه دليلاً على الماكرو تطور الذي لم يَثْبُت بالملاحظة أبدًا.

والداروينيون خبراء في تعريف مصطلح "التطور" تعريفًا عامًا يسمح باعتبار الأدلة في مجالٍ ما أدلة في مجال آخر. ولكن من سوء حظهم أن العامة بدؤوا يدركون هذه الخطة. ويرجع معظم الفضل في ذلك للأعمال الشهيرة لفيليب جونسون أستاذ القانون في بركلي *Berkeley*. فقد فضح جونسون أولاً هذا النوع من خفة اليد الداروينية بكتابه غير المسبوق "داروين أمام المحكمة" *Darwin on Trial*. وهو يشير في هذا الكتاب إلى أنه: "ما من "برهان" واحد [على الانتخاب الطبيعي] يقدِّم أي سبب مقنع للاعتقاد بأن الانتخاب الطبيعي قادر على إنتاج أنواع بيولوجية جديدة، أو أعضاء جديدة، أو غيرها من التغيرات الكبرى، أو حتى التغيرات الصغرى الدائمة".[٢] ويتفق معه في ذلك عالِم الأحياء جوناثان ولز *Johnathan Wells* عندما يكتب قائلاً: "الطفرات البيوكيميائية لا تستطيع أن تفسر التغيرات واسعة النطاق التي تحدث في الكائنات الحية التي نراها في تاريخ الحياة".[٣]

فلماذا لا يستطيع الانتخاب الطبيعي أن يقوم بهذه الوظيفة؟ إليك خمسة أسباب تمنعه من ذلك:

١- **الحدود الوراثية** *Genetic Limits*: يقول الداروينيون إن الميكرو تطور الذي يتم داخل شكل واحد من أشكال الحياة يُثْبِت حدوث الماكرو تطور. فإن كانت هذه التغيرات الصغيرة يمكن أن تحدث على مدار فترة قصيرة من الزمن، تَخيَّل ما يستطيع الانتخاب الطبيعي أن يفعله على مدار فترة طويلة من الزمن.

ولسوء حظ الداروينيين، يبدو أن الحدود الوراثية جزء أصيل في بنية الأشكال الأساسية للحياة. فمثلاً، المتخصصون في تربية الكلاب يصطدمون دائمًا بالحدود الوراثية عندما يستخدمون ذكاءهم لتخليق سلالات جديدة من الكلاب. فقد تتباين الكلاب في الحجم من التشيواوا إلى الكلب الدنماركي الكبير، ولكن بالرغم مما يقوم به المربون الأذكياء من محاولات مستميتة، تظل الكلاب دائمًا كلابًا. وبالمثل، رغم أفضل ما يبذله العلماء الأذكياء من جهود للتحكم في ذبابة الفاكهة، فتجاربهم لم تسفر مطلقًا عن شيء سوى المزيد من ذباب الفاكهة (وعادةً ما تكون معوَّقة أيضًا).[٤] وهو أمر ذو أهمية خاصة لأن حياة ذبابة الفاكهة القصيرة تتيح للعلماء أن يختبروا سنوات كثيرة من التنوع الوراثي في فترة زمنية قصيرة.



الشكل ٦-١

والأهم من ذلك كله أن مقارنة الانتخاب الطبيعي بالانتخاب الصناعي الذي يقوم به المتخصصون في تربية الحيوانات مقارنة لا تصلح إطلاقـًا، كما يتبين من الجدول ٦-١. والفرق الأكبر هو أن الانتخاب الصناعي يتم توجيهه بالذكاء، وهو ما لا ينطبق على الانتخاب الطبيعي.

الفروق الجوهرية:	الانتخاب الصناعي	الانتخاب الطبيعي
الهدف	الهدف (الغاية) معروف	ليس هناك هدف (غاية) معروف
العملية	عملية موجَّهة بالذكاء	عملية عمياء
الاختيارات	اختيار ذكي لسلالات معينة	لا اختيارات ذكية للسلالات
الحماية	السلالات محمية من العمليات المدمِّرة	السلالات ليست محمية من العمليات المدمرة
الصفات الغريبة	يحتفظ بالصفات الغريبة المرغوبة	يقضي على معظم الصفات الغريبة
المقاطعات	مقاطعات مستمرة لتحقيق الغاية المرجوة	ليس هناك مقاطعات مستمرة لتحقيق أي غاية
البقاء	بقاء تفضيلي	بقاء غير تفضيلي

الجدول ٦-١

إن الخلط بين العمليات الذكية وغير الذكية خطأ شائع عند الداروينيين. وهو ما حدث عندما ناظرتُ (نورم) الفيلسوف الإنساني پول كرتس *Paul Kurtz* سنة ١٩٨٦ في موضوع التطور. والمناظرة التي كان يديرها المدافع التليفزيوني چون آنكربرج *John Ankerberg* أسفرت عن هذا الحوار بخصوص الماكرو تطور:

جايسلر: قال [تشاندرا] ويكراماسينغ [الملحد]: "الاعتقاد بأن الحياة أتت بالصدفة كالاعتقاد بأن طائرة بوينج ٧٤٧ نتجت من إعصار هَبَّ على ساحة خردة". إن تصديق هذا الأمر يتطلب الكثير من الإيمان.

كرتس: حسنًا، طائرة البوينج ٧٤٧ تطورت. يمكننا أن نعود إلى الأخوين رايت *Wright brothers* ونرى أول نوع خلقاه من الطائرات ...

جايسلر: خلقاه؟

كرتس: نعم، لكن...

آنكربرج: بالذكاء أم بالصدفة؟ [ضَحِكْ]

كرتس: كان هناك فترة من الزمن تغيرت فيها هذه الأشكال...

آنكربرج: ولكن ألم يخلقا تلك الطائرات باستخدام الذكاء؟

كرتس: كنتُ أستخدم المشابَهة التي استخدمها الدكتور جايسلر.

جايسلر: حسنًا، أنت تساعدني في حجتي! [ضحك] عليك أن تجد لنفسك مشابَهة أخرى!

كرتس: لا، لا، أظن أن المعنى الذي أقصده مهم لأنه حدثت تغيرات في الطائرات من الأبسط إلى الأعقد.

جايسلر: نعم، ولكن تلك التغيرات تَمَّتْ بتدخل ذكي!

مؤكد أن التغيير الاتجاهي الذي يسير في اتجاه محدد *directional change* في الطائرات بواسطة الذكاء لا يُثبت أي شيء عن إمكانية حدوث تغيير اتجاهي في الكائنات الحية دون ذكاء. وكما سنرى في الجزء التالي، التغيير الاتجاهي في الكائنات الحية بواسطة الانتقاء الطبيعي لم يَثْبُت بالملاحظة. واستخدام الذكاء لإحداث تغيير اتجاهي في الكائنات الحية يصطدم بالحدود الوراثية. لذا، حتى إن كان التطور موجَّهًا بالذكاء، فهو يصطدم بحوائط. أي أنه حتى عندما يتحكم العلماء بذكاء في الكائنات لتحقيق غاية محددة، ألا وهي الأطروحة المضادة للعملية الداروينية العمياء، لا ينجح الماكرو تطور! فإن كان العلماء الأذكياء لا يستطيعون اختراق الحدود

الوراثية، فكيف نتوقع من الانتخاب الطبيعي غير الذكي أن يفعل ذلك؟

٢- التغير التكراري *Cyclical Change*: لا يقتصر الأمر على وجود حدود وراثية للتغيير داخل النوع الواحد، بل التغيير داخل النوع الواحد يبدو تكراريًا. أي أن التغيرات لا تتجه نحو تكوين أشكال جديدة من الحياة، كما تتطلب نظرية الماكرو تطور، ولكنها تتحركُ جيئة وذهابًا في نطاق محدود. فمثلاً، عصافير داروين كانت تتفاوت في أحجام مناقيرها طبقًا لحالة الطقس.[٥] فالمناقير الكبيرة كانت تساعد على تكسير بذور أكبر حجمًا وأشد صلابةً أثناء مواسم الجفاف، والمناقير الصغيرة كانت مناسبة عندما كانت الأمطار تأتي بكمية وفيرة من البذور الصغيرة اللينة. فعند حلول موسم الجفاف، كانت نسبة العصافير ذات المناقير الكبيرة تنمو مقارنةً بالعصافير ذات المناقير الصغيرة. ولكن النسبة كانت تنعكس بعد حلول موسم ممطر طويل. لاحظ أنه لم تظهر للوجود أي أشكال جديدة من الحياة (العصافير ظلت عصافير)، كل ما تَغَيَّرَ هو نسبة العصافير كبيرة المناقير إلى العصافير صغيرة المناقير. لاحظ أيضًا أن الانتخاب الطبيعي لا يستطيع أن يفسِّر كيف أتت العصافير إلى الوجود أصلاً. أي أن الانتخاب الطبيعي قد يتمكن من تفسير بقاء النوع، ولكنه لا يستطيع أن يفسر مجيء النوع.

٣- التعقيد غير القابل للاختزال *Irreducible Complexity*: سنة ١٨٥٩ كتب تشارلز داروين "إن ثَبَت وجود أي عضو معقَّد لم يتكون بالعديد من التغيرات الطفيفة المتوالية، فنظريتي ستنهار لا محالة".[٦] ونحن الآن نعرف أن هناك الكثير من الأعضاء، والأجهزة، والعمليات في الحياة تتناسب مع ذلك الوصف.

ومنها الخلية. وقد كانت الخلية في أيام داروين "صندوقًا أسود"، جزءًا صغيرًا غامضًا في الحياة لم يتمكن أحد من رؤية ما فيه. ولكننا الآن بعد أن تمكنًا من النظر في أعماق الخلية، نرى أن الحياة على المستوى الجزيئي أكثر تعقيدًا بما لا يقاس مما كان يحلم به داروين. فهي في الحقيقة معقَّدة تعقيدًا لا يقبل الاختزال. والجهاز المعقد تعقيدًا لا يقبل الاختزال "يتركب من عدة أجزاء متفاعلة ومتناسقة تساهم في الوظيفة الأساسية، بحيث إن نَزْعَ أي من هذه الأجزاء يوقف وظيفة الجهاز فعليًا".[٧]

وهذه هي كلمات مايكل بيهي أستاذ الكيمياء الحيوية في جامعة ليهاي *Lehigh University* صاحب الكتاب الثوري "صندوق داروين الأسود: التحدي البيوكيميائي للتطور" *Darwin's Black Box: The Biochemical Challenge to Evolution*. ويؤكد بحث بيهي أن الكائنات الحية مملوءة حَرْفيًا بماكينات جزيئية تؤدي العديد من وظائف الحياة. وهذه الماكينات الجزيئية معقَّدة

تعقيدًا لا يقبل الاختزال، وهو ما يعني أن كل أجزاء كل ماكينة لا بد أن تتكون بالكامل، في الأماكن الصحيحة، وبالأحجام الصحيحة، وبنظام قابل للعمل، وفي وقت واحد حتى تعمل الماكينة.

ويُعَدّ محرك السيارة مثالاً لجهاز معقد تعقيدًا لا يقبل الاختزال. فإن حدث تغيير في حجم المكبس، سيتطلب ذلك تغييرات موازية في عمود الكامات، والبلوك، والمبرد، وحجرة المحرك، وغيرها، وإلا لن يعمل المحرك الجديد.

ويبين بيهي أن الكائنات الحية معقَّدة تعقيدًا لا يقبل الاختزال مثل محرك السيارة. فهو يبين بالتفصيل الممل أن وظائف عديدة في الجسم مثل تجلّط الدم، وأهداب الخلايا (الأجزاء المحرِّكة للخلية)، والبصر، كلها تتطلب أجهزة معقدة تعقيدًا غير قابل للاختزال، فلا يمكن أن تتكون بالطريقة الداروينية المتدرجة. لماذا؟ لأن المراحل المتوسطة *intermediates* لن تتمكن من أداء الوظيفة. وكما هو الحال في محرك السيارة، يجب أن تكون كل الأجزاء الصحيحة في أماكنها، وبالأحجام الصحيحة، في وقت واحد، حتى تتمكن من القيام بوظيفة أصلاً. فيمكنك أن تُكَوِّن المحركَ جزءًا جزءًا (وهو أمر يتطلب ذكاء)، ولكن لا يمكنك أن تقود السيارة إلى مكان عملك بجزء من المحرك. ولا يمكنك أن تقود السيارة إلى مكان عملك إذا أجريت تعديلات على جزء أساسي من المحرك، ولم تُجْرِ هذه التعديلات على باقي الأجزاء. وهكذا الأجهزة الحية تتعطل فورًا عن أداء وظيفتها إن أُجْرِيَت عليها تعديلات قطعة قطعة.

إن درجة التعقيد غير القابل للاختزال في الكائنات الحية تُذهب العقل. تَذَكَّر أن أبجدية الـ*DNA* الوراثية تتكون من أربعة حروف: أ، ث، س، ج. في كل خلية بشرية يوجد حوالي ٣٠٠٠ مليون زوج من تلك الحروف.[٨] فجسمك يحتوي على تريليونات الخلايا، وينتج ملايين الخلايا الجديدة كل ثانية، وعلاوة على ذلك كل خلية معقَّدة تعقيدًا لا يقبل الاختزال وتحتوي على أجهزة فرعية معقّدة تعقيدًا لا يقبل الاختزال!

إن اكتشافات بيهي تسدِّدُ ضربة قاضية للداروينية. فالتعقيد غير القابل للاختزال يعني أنه لا يمكن أن تأتي حياة جديدة إلى الوجود بالطريقة الداروينية التي تتكون من تغيرات طفيفة متتالية على مدار فترة طويلة من الزمن. والداروينية تشبه القوى الطبيعية التي تُنتج دون أي ذكاء محرك سيارة يعمل (أي الأميبا) ثم تُعَدِّل ذلك المحرك المعقَّد تعقيدًا لا يقبل الاختزال وتحوّله إلى محركات متوسطة متتالية حتى تُنتجُ تلك القوى الطبيعية أخيرًا المكوك الفضائي (أي الإنسان). ولكن الداروينيون لا يستطيعون أن يفسروا مصدر المواد اللازمة لصنع

المحرك، فما بالك بتفسير كيفية وجود أي محرك معقَّد تعقيدًا لا يقبل الاختزال. ولا يمكنهم كذلك أن يبينوا العملية غير الذكية التي تطوَّر بها أي محرك حتى وصل إلى مكوك الفضاء وهو يُنتجُ قوة دافعة في كل خطوة من الخطوات المتوسطة. وهذا واضح من الغياب التام للتفسيرات الداروينية لكيفية نشوء الأجهزة المعقدة تعقيدًا لا يقبل الاختزال نشوءًا تدريجيًا. وقد كشف بيهي مزاعم الداروينيين الفارغة عندما كتب قائلاً:

> فكرة التطور الجزيئي الدارويني لا تقوم على العلم. فليس هناك أي منشورات في الكتابات العلمية، كالصحف المتخصصة أو الكتب، تقدّم وصفًا مؤكّدًا لكيفية حدوث تطور جزيئي لأي جهاز بيوكيميائي حقيقي معقَّد، أو حتى وصفًا احتماليًا غير مؤكد. إنهم يؤكدون حدوث هذا التطور، ولكن ولا واحد من كل تأكيداتهم مدعوم بتجارب أو حسابات. وبما أنه لا مرجعية لهذه المزاعم المعرفية، يمكننا أن نقول بحق إن تأكيد التطور الجزيئي الدارويني محض استعراض فارغ.[٩]

إن محاولات الداروينيين الواهنة للتعامل مع التعقيد غير القابل للاختزال تكشف ضخامة المشكلة التي تواجه نظريتهم. وقد قال الدارويني كِن ميلر *Ken Miller* بأن التعقيد غير القابل للاختزال غير صحيح لأنه يستطيع أن يُثْبِت أن مثال بيهي على التعقيد غير القابل للاختزال – ألا وهو مصيدة الفئران – ليس بالفعل معقَّدًا بما لا يقبل الاختزال. وفقـًا لما يقوله بيهي جميع الأجزاء الخمسة لمصيدة الفئران التقليدية يجب أن تكون في مكانها وفي وقت واحد وبنظام قابل للعمل حتى تعمل. فلا يمكنك أن تصطاد الفئران بالقاعدة والزنبرك مثلاً. ولكن ميلر يعتقد أنه يستطيع أن يفند فكرة بيهي بصنع مصيدة مشابهة بأربعة أجزاء فقط. (طَرَحَ ميلر هذه الفكرة فعليًا أثناء مناظرة تليفزيونية على محطة پـي. بي. إس *PBS* في أواخر التسعينيات).

ولكن نقد ميلر يخفق فعليًا في إصابة الهدف. فهو أولاً، مِثْـل أي دارويني، يتجاهل أن صُنْـع مصيدته يتطلب ذكاء. ثانيًا، بيهي لا يقول إنك تحتاج خمسة أجزاء لأي مصيدة فئران، ولكنه يتحدث عن المصيدة التقليدية. وهكذا يتضح أن مصيدة ميلر ليست مرحلة مادية سابقة تطورت منها مصيدة بيهي التقليدية. أي أن تحويل مصيدة ميلر إلى مصيدة بيهي يتطلب أكثر من خطوة عشوائية (أي داروينية)، فهو يتطلب إضافة جزء آخر محدَّد جدًا وعدة تعديلات محدّدة جدًا للأجزاء الموجودة (وهذا يتطلب ذكاء). ثالثـًا، وحتى لو أمكن بشكلٍ ما إجراء تلك التغييرات بعمليات عديمة العقل، فالمصيدة لن تعمل أثناء المرحلة الانتقالية. ولكن

حتى تكون الداروينية صحيحة، لا بد من الحفاظ على الأداء الوظيفي في كل المراحل لأن الكائنات الحية لا تستطيع أن تبقى على قيد الحياة لو، مثلاً، لم تؤدِ أعضاؤها الأساسية وظيفتها المعتادة أثناء المراحل الانتقالية الداروينية البطيئة التي تقوم على المحاولة والخطإ*. وفي النهاية مصيدة الفئران ليست سوى مثال توضيحي. ولكن الأنظمة الحية أعقد بما لا يقاس من مصيدة الفئران. لذا، واضح أن ميلر لم يفنِّد فكرة بيهي، ولم يفندها أي دارويني غيره.[١٠]

وفي مؤتمر عن التصميم الذكي عُقِدَ في تموز/يوليو ٢٠٠٢ تحدَّثت فيه أنا (فرانك) وبيهي، كان أحد الداروينيين عنيفًا نوعًا ما في فقرة الأسئلة والأجوبة بعد المحاضرات. لذلك أردت أن أقلب الطاولة وأسأله بضعة أسئلة، فحرصتُ أن أجلس بجواره على الغداء.

فسألْتُه فيما بين شرائح البيتزا: "ماذا تفعل بحجة بيهي عن التعقيد غير القابل للاختزال؟"

فدار بعينيه مستاءً وقال: "هذه ليست مشكلة كبيرة. هناك سقالات بيوكيميائية تُبنى حول الجهاز لتسمح له بالتطور التدريجي".

وعندما رأيت بيهي بعدئذٍ في اليوم نفسه، أخبرته بتفسير الدارويني. فأوضح قائلاً، وكان محقًا: ١) ليس هناك دليل على هذه "السقالات"، ٢) وهي فعليًا تُعَقِّد الأمور على الداروينيين، بمعنى أنه إن وُجِدَت هذه "السقالات" بحق، فمَن الذي يبنيها باستمرار في أماكنها الصحيحة؟ إنها عملية تتطلب ذكاء.

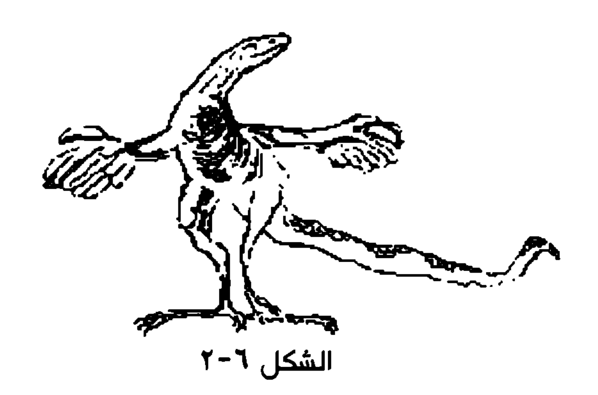
لقد حاول آخرون أن يجدوا طرقًا داروينية للتهرب من التعقيد غير القابل للاختزال، ولكنهم فشلوا جميعًا. وهو ما يؤكده بيهي عندما يقول قطعيًا: "ليس لدينا حاليًا أي دليل تجريبي يبين أن الانتخاب الطبيعي يستطيع أن يتهرب من التعقيد غير القابل للاختزال".[١١]

---

* يتفق ميلر مع بيهي في أن الانتخاب الطبيعي لا يستطيع أن يفضّل تطور جهاز لا يعمل. ولكنه يفند الحجة باقتراحه أن المصيدة في المرحلة الانتقالية، عندما لا تقدر على اصطياد الفئران، يمكن أن تعمل كمشبك ربطة عنق أو سلسلة مفاتيح (انظر *http://www.millerandlevine.com/km/evol/DI/ Mousetrap.html*). وهو ما يخطئ الهدف طبعًا. فالكائنات الحيّة المعقدة لا يمكنها أن تستبدل عشوائيًا وظيفة بوظيفة أخرى وتظل على قيد الحياة. ولكن الكائن الحي يموت لو فشلت أجزاؤه الأساسية في أداء وظيفتها الأولية، حتى إن كانت تؤدي وظيفة أخرى أثناء مرحلته الانتقالية الداروينية. أي أن المهم هو فقدان الوظيفة الأساسية، وليس أن الجهاز المتوسط قد يتمكن من فعل شيء آخر في المرحلة المتوسطة!

ويبيِّن بيهي الأهمية الجوهرية التي يتضمنها التعقيد غير القابل للاختزال وغيره من الاكتشافات بخصوص تعقيد الحياة. فهو يكتب قائلاً: "إن نتيجة هذه الجهود المتراكمة لفحص الخلية، أي لفحص الحياة على المستوى الجزيئي، هي صرخة عالية مدوية تعلن عن "التصميم"! إن النتيجة في غاية الوضوح وفي غاية الأهمية حتى إنه لا بد من احتسابها ضمن أعظم الإنجازات في تاريخ العلم. إنه اكتشاف ينافس اكتشافات نيوتن وأينشتاين".[١٢]

٤- **عجز الأشكال الانتقالية عن الحياة** ***Nonviability of Transitional Forms***: هناك مشكلة أخرى تهاجم معقولية الفكرة القائلة بأن الانتخاب الطبيعي يخلق أشكالاً جديدة من الحياة. وتتمثل هذه المشكلة في أن الأشكال الانتقالية لا تقدر أن تبقَ على قيد الحياة. فكِّر مثلاً في تأكيد الداروينيين أن الطيور تطوَّرت تدريجيًا من الزواحف على مدار فترات زمنية طويلة. وهو ما يتطلب مرحلة انتقالية من الحراشف إلى الريش. فكيف يمكن لكائن أن يعيش بلا حراشف ولا ريش؟ إن الريش معقَّد تعقيدًا لا يقبل الاختزال. فكائن بأنصاف ريش لا يقدر أن يطير، مما يجعله فريسة سهلة على الأرض، وفي المياه، وفي الهواء. وفي منتصف الرحلة بين مرحلتي الزواحف والطيور، غالبًا لن يتمتع بالمهارة اللازمة للعثور على الغذاء أيضًا. إذَن يواجه الداروينيون مشكلة مزدوجة: أولاً، ليس عندهم آلية صالحة للانتقال من الزواحف إلى الطيور. ثانيًا، حتى إن اكتُشِفَت آلية صالحة، فعلى أي حال لا يُحتَمَل للأشكال الانتقالية أن تعيش.

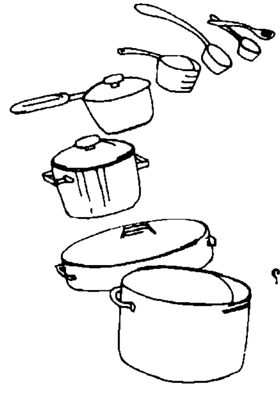


الشكل ٦-٢

٥- **الانعزال الجزيئي** ***Molecular Isolation***: غالبًا ما يقول الداروينيون إن دليل الانحدار من سلف مشترك يكمن في أن كل الكائنات الحية تحتوي على *DNA*. فمثلاً ريتشارد دوكينز يقول: "السبب الذي يجعلنا موقنين أن هناك صلة تجمع بيننا جميعًا، بما في ذلك البكتيريا، هو شمولية الشفرة الوراثية وغيرها من الأساسات البيوكيميائية".[١٣] يعتقد الداروينيون أن نسبة تشابه الـ*DNA* بين القردة العليا والبشر مثلاً، التي يُقَدِّر البعض أنها تتراوح بين ٨٥ وأكثر من ٩٥%[١٤]، تشير بقوة إلى سلف مشترك.

ولكن هل هذا دليل على سلف مشترك أم على خالق مشترك؟ يمكن تفسيره بالطريقتين. فقد يكون الداروينيون محقّين، قد يكون لنا شفرة وراثية *genetic code* مشتركة لأننا جميعًا انحدرنا من سلف مشترك. ولكن يمكن أن يكونوا أيضًا مخطئين بالقدر نفسه، فربما الشفرة الوراثية المشتركة بيننا جميعًا ترجع إلى خالق مشترك صمَّمَنا أن نعيش في نفس الغلاف الحيوي. فلو كان كل كائن حي مختلفًا عن غيره من الناحية البيوكيميائية، ربما لن توجد سلسلة غذائية. ومن المحتمل أنه لا يمكن وجود حياة بتكوين بيوكيميائي مختلف. حتى إن كان ذلك ممكنًا، فربما لا يمكنها أن تستمر في هذا الغلاف الحيوي.

فكِّر في الشكل ٦-٣. هل التشابه والتدرج يُثبِتان أن الغلاية تطورت من ملعقة الشاي؟ لا. إن التشابه والتدرج لا يعنيان أوتوماتيكيًا سلفًا مشتركًا. وفي هذه الحالة نعرف أنهما يعنيان خالقًا أو مصممًا مشتركًا. وهو ما ينطبق على الكائنات الحية الحقيقية.



التشابه والتدرج

هل تشابه التصميم يُثبِت سلفًا مشتركًا أم مصممًا مشتركًا؟

هل القِدر تطورت من ملعقة الشاي؟

الشكل ٦-٣

كما ذكرنا آنفًا، قدرة أبجدية الـ*DNA* الوراثية على احتواء رسالة تساوي قدرة الأبجدية الإنجليزية على احتواء رسالة (الفرق الوحيد هو أن أبجدية الـ*DNA* لا تضم إلا أربعة حروف مقابل ستة وعشرين حرفًا في الأبجدية الإنجليزية). فبما أن كل الكائنات الحية تحوي *DNA* بقواعده الأربعة التي تحتوي على النيتروجين (الممثَّلة بالحروف أ، ث، س، ج)، من الطبيعي أن نتوقع درجة عالية من التشابه في المعلومات بين الكائنات سواء أكانت متصلة بسلف واحد أم لا.

ولنستخدم مثالاً من اللغة الإنجليزية لتوضيح ما نقصده. إليك جملتين مكونتين من الحروف نفسها:

Charles Darwin was a scientific god. كان تشارلز داروين إلهًا علميًا.

Charles Darwin was a scientific dog.كان تشارلز داروين كلبًا علميًا.

رغم أن حروف الجملتين متماثلة وترتيب الحروف يكاد يكون متماثلاً (بدرجة تزيد عن ٩٠%)، فالفرق الضئيل في الترتيب يؤدي إلى معنيين متضادين. وهكذا أي فرق ضئيل في ترتيب الحروف (أ، ث، س، ج) في الكائنات الحية قد يؤدّي إلى كائنات بعيدة جدًا عن بعضها البعض على شجرة التطور الافتراضية. فمثلاً بينما تبين بعض الدراسات أن تشابه الـ*DNA* بين البشر والقردة العليا الأقرب شبهًا بالإنسان قد يصل إلى حوالي ٩٠%، تبين دراسات أخرى أن تشابه الـ*DNA* بين البشر والفئران يبلغ أيضًا حوالي ٩٠%[١٥]. ولكن هذه التشابهات محل خلاف وليست مفهومة على نحو كامل. فيجب القيام بمزيد من البحث في هذا المجال. ولكن إن كان التشابه الوراثي بين الفئران والبشر يعادل التشابه بين القردة العليا والبشر، فإن هذا من شأنه أن يُعَقِّد أي تفسير دارويني تعقيدًا كبيرًا.

ولكن لنفترض أن مزيدًا من الدراسات سيُظهر يومًا ما أن *DNA* القردة العليا أكثر شبهًا بالبشر من *DNA* سائر الكائنات. فهذا لن يُثبِت ما يخلص إليه الداروينيون بخصوص السلف المشترك. فقد يرجع التشابه إلى خالق مشترك لا إلى سلف مشترك. لذا علينا أن نجد دليلاً آخر على المستوى الجزيئي يساعدنا في اكتشاف ما إذا كانت الشفرة الوراثية المشتركة دليلاً على سلف مشترك أم خالق مشترك.

وقد وُجِدَ ذلك الدليل الآخر بمقارنة سلاسل البروتين. البروتينات هي الوحدات الأساسية لبنية الحياة. وهي تتكون من سلاسل طويلة من الوحدات الكيميائية التي يُطلَق عليها الأحماض الأمينية. ومعظم البروتينات تحوي في بنيتها أكثر من ١٠٠ حمض أميني يجب أن يكون لها

ترتيب محدد جدًا. والـDNA هو ما يحتوي على تعليمات ترتيب الأحماض الأمينية في البروتينات، والترتيب مسألة حرجة لأن أي تغيير عادةً ما يؤدي إلى خلل في وظيفة البروتين.

وإليك أين تنشأ المشكلة أمام الداروينيين. لو كانت كل الأنواع تشترك في سلف واحد، يجب أن نتوقع أن نجد سلاسل بروتينية في شكل انتقالي *transitional form*، أي مثلاً أثناء المرحلة الانتقالية من الأسماك إلى البرمائيات، أو من الزواحف إلى الثدييات. ولكن ليس هذا ما نجده على الإطلاق. بل نجد أن الأشكال الأساسية منعزلة جزيئيًا عن بعضها البعض، وهو ما ينفي أي نوع من الصلة بسلف واحد. ويقول مايكل دنتون:

> ليس هناك أي أثر على المستوى الجزيئي للانتقال التطوري من الأسماك ← البرمائيات ← الزواحف ← الثدييات. فالبرمائيات، التي دائمًا ما تُعتبر تقليديًا شكلاً متوسطًا بين الأسماك وغيرها من الفقاريات البرية، تبعد جزيئيًا عن الأسماك نفس بُعْد أي مجموعة من الزواحف أو الثدييات عن الأسماك! إن النتيجة مدهشة حقًا للعارفين جيدًا بالصورة التقليدية لتطور الفقاريات.[١٦]

لذا، رغم أن كل الكائنات الحية تشترك في شفرة وراثية واحدة بدرجات متفاوتة من التشابه، فتلك الشفرة رتبت الأحماض الأمينية في البروتينات على نحو يجعل الأشكال الأساسية منعزلة جزيئيًا عن بعضها البعض. فليس هناك مراحل انتقالية داروينية، كل ما هنالك فجوات جزيئية متمايزة. والداروينيون يعجزون عن تفسير وجود هذه الفجوات الجزيئية باستخدام الانتخاب الطبيعي، تمامًا كما يعجزون عن تفسير وجود فجوات ضخمة في سجل الحفريات (وهو ما سنتحدث عنه في الجزء التالي).

ماذا عن سجِلّ الحفريات؟

لنراجع سريعًا ما رأيناه حتى الآن. إليك الأدلة الخمسة التي تبين أن الانتخاب الطبيعي ما كان ليمكنه أن يُنتج أشكالاً جديدة من الحياة:

١- الحدود الوراثية

٢- التغير التكراري

٣- التعقيد غير القابل للاختزال

٤- عجز الأشكال الانتقالية عن الحياة

٥- الانعزال الجزيئي

ولكن ألا يؤيد سجلُ الحفريات النظريةَ الداروينية؟ لنلقِ نظرة.

نظرًا لعدم توافر التكنولوجيا الحديثة في عصر تشارلز داروين، لم يتمكّن من إدراك المشكلات التي تواجه نظريته على مستوى الخلية. إلا أنه أدرك أن سجل الحفريات يمثل مشكلة كبيرة لنظريته لأنه لا يُظهِر تدرجًا. وهو ما دفعه أن يكتب: "فلماذا لا يزخر كل تكوين جيولوجي وكل طبقة جيولوجية بمثل هذه الحلقات المتوسطة؟ مؤكّدٌ أن الجيولوجيا لا تكشف عن أي سلسلة عضوية متدرجة. ويبدو أن هذا هو أوضح وأخطر الاعتراضات التي يمكن أن تثار ضد نظريتي".[١٧]

إلا أن داروين اعتقد أن مزيدًا من الاكتشافات الأحفورية سيكشف عن صحة نظريته. ولكن الزمن أثبت أنه مخطئ. وعلى عكس ما تسمع في وسائل الإعلام العامة، سجل الحفريات اتضح أنه سبب إحراج هائل للداروينيين. فإن كانت الداروينية صحيحة، لوجدنا حتى الآن آلاف، إن لم يكن ملايين الحفريات الانتقالية. ولكن كما يقول الراحل ستيڤن چاي جولد *Stephen Jay Gould* عالم الحفريات في جامعة هارڤارد (وهو تطوري):

> يتميز تاريخ معظم الأنواع البيولوجية المتحجّرة بخاصيتين تتعارضان بشكل خاص مع فكرة التطور التدريجي لهذه الأنواع: ١) السكون *Stasis*: معظم الأنواع البيولوجية لا يحدث فيها تغير يسير في اتجاه معين أثناء وجودها على الأرض. ويظل شكلها كما هو تقريبًا منذ أن تظهر في سجل الحفريات وحتى تختفي، أي أن التغير التركيبي عادة ما يكون محدودًا ولا يسير في اتجاه محدد. ٢) الظهور المفاجئ *Sudden appearance*: في أي منطقة لا ينشأ النوع البيولوجي تدريجيًا بحدوث تغير مطرد في أسلافه، ولكنه يظهر بغتةً ويكون "مكتمل التكوين".[١٨]

أي أن جولد يعترف أن الأشكال الأحفورية تظهر فجأة، مكتملة التكوين، وتظل كما هي حتى تنقرض دون أي تغير اتجاهي، وهو تمامًا ما يتوقع المرء أن يجده إن كان الخلق صحيحًا.

ولكن بدلاً من أن يتبنى جولد نظرية الخلق، رفض التطور التدريجي الدارويني وصاغ نظرية أطلق عليها "التوازن المتقطع" *Punctuated Equilibria (PE)*. وترجّح نظرية التوازن المتقطع أن الأنواع البيولوجية تطورت أسرع على مدار فترة زمنية أقصر، وهو ما يفسّر الفجوات الأحفورية الكبيرة. ولكن جولد لم يبين أي آلية طبيعية لحدوث هذا الأمر، ولكن بما أنه كان ملحدًا كان عليه أن يفسر سجل الحفريات بأي شكل. وهو ما يمثل نموذجًا كلاسيكيًا على

السماح للتحيزات بالتشويش على الملاحظات.

ولكن هذا يخرجنا عن موضوعنا. فنقطتنا الأساسية هنا هي أن سجل الحفريات أقرب للخلق فوق الطبيعي منه للماكرو تطور. فالحقيقة أن المفقود من السجل ليس حلقات، بل سلسلة كاملة!

ليس هناك سلسلة؛ لأن كل المجموعات الرئيسية من الحيوانات المعروفة تقريبًا تظهر في سجل الحفريات فجأة وكاملة التكوين في طبقات من العصر الكامبري *Cambrian period* (الذي يُقَدِّر الكثير من العلماء أنه وُجِدَ منذ حوالي ٦٠٠ إلى ٥٠٠ مليون سنة). ويكتب چوناثان ولز قائلاً: "الدليل الأحفوري قوي جدًا، والحَدَث مفاجئ وضخم جدًا، حتى إنه عُرِفَ باسم "الانفجار الكامبري" *the Cambrian explosion*، أو "الانفجار البيولوجي الكبير" *biology's big bang*".[١٩]

وهذا الدليل بالطبع يتعارض تمامًا مع الداروينية. فكل المجموعات الحيوانية تظهر منفصلة عن بعضها البعض، مكتملة التكوين، وفي وقت واحد. وهو ما لا يدل على تطور تدريجي بل على خلق لحظي. إذَن الشجرة الداروينية التي اعتدنا أن نراها كثيرًا لا تمثل سجل الحفريات الحقيقي تمثيلاً صحيحًا. والحقيقة أنه كما يشير ولز: "لو كانت هناك أي مشابَهة نباتية مناسبة، لكانت **حوض نباتات**، لا شجرة".[٢٠] ولكان ذلك الحوض يحتوي على رُقَع من الحشائش أو النباتات المختلفة التي تفصلها عن بعضها البعض مساحات شاسعة لا شيء فيها سوى التراب.

والآن لعلك تفكِّر: "ولكن ماذا عن تدرج الجمجمة الذى اعتدنا دائمًا أن نراه؟ ألا يبدو أن الإنسان تطور من القردة العليا؟"

منذ عدة سنوات ناظرتُ (أنا نورم) داروينيًا رصَّ جماجم بجوار بعضها على منضدة ليبين أن التطور حدث بالفعل. وصرح قائلاً: "السيدات والسادة، إليكم الدليل على التطور".

أمرك غريب، كيف تتجاهل الحفريات؟ الجماجم تبدو متدرجة. يبدو أنها متصلة بسلف واحد. هل هذا دليل جيد على الداروينية؟ لا، إنه ليس أفضل من الدليل على أن الغلاية الكبيرة تطورت من ملعقة الشاي.

مشكلة الداروينيين أن سجل الحفريات لا يستطيع أن يُثْبِت أي ارتباط بسلف واحد. لمَ لا؟ لأنه كما يقول مايكل دنتون: "٩٩% من التكوين البيولوجي لأي كائن حي يكمن في تشريح

أنسجته *soft anatomy*، وهو ما يستحيل عمله في الحفرية".[٢١] أي أنه من الصعب جدًا اكتشاف التكوين البيولوجي للكائن بالنظر إلى بقاياه الأحفورية. ويشير جوناثان ولز إلى أن "الدليل الأحفوري يقبل الكثير من التفسيرات لأن النوع البيولوجي الواحد يمكن أن يُعاد بناؤه بطرق متنوعة، ولأن سجل الحفريات لا يمكنه إثبات سلف مشترك يربط بين كل الكائنات".[٢٢]

إلا أن هذا لا يردع الداروينيين. فبما أن الداروينية **ينبغي** أن تكون صحيحة نظرًا لولائهم الفلسفي المسبق، إذَن **ينبغي** أن يجدوا أدلة تؤيدها. فبدلاً من أن يعترفوا بأن الحفريات لا تستطيع أن تُثبت ارتباط الكائنات بسلف مشترك، يأخذون الواحد في المائة الذي تخبرهم به الحفريات ويستخدمون التسعة والتسعين في المائة من هامش الحرية المتبقي لهم لتصوير اكتشافاتهم الأحفورية على أنها تسد كل الثغرات كما يحلو لهم. ومع هذا الهامش الفسيح وغياب الحقائق التي تقيّدهم، توفرت لهم الحرية في ابتداع "حلقات مفقودة" بأكملها من بقايا أحفورية في منتهى التفاهة. ولذلك، الكثير مما يسمى "حلقات مفقودة" انكشف فيما بعد أنه مزيف أو خاطئ.[٢٣] وقد كتب هنري جي *Henry Gee* أحد الكُتّاب العلميين الرئيسيين في جريدة نيتشر *Nature*: "إن أخذ تسلسل معيَّن من الحفريات والزعم بأنه يمثِّل سلالة واحدة ليس فرضية علمية قابلة للاختبار، ولكنه تأكيد تتساوى صلاحيته مع قصص قبل النوم، مسلٍّ، وقد يقدّم معلومات مفيدة، ولكنه ليس علميًا".[٢٤]

إن سجل الحفريات لا يكفي لإثبات العلاقة بسلف مشترك، وفي ضوء ما نعرفه حاليًا عن طبيعة الأنظمة البيولوجية المعقدة تعقيدًا لا يقبل الاختزال، يتضح أن **سجل الحفريات لا يمت بصلة للقضية.** وتَشابُه البنية أو التشريح بين الأشكال (يطلق عليه أحيانًا التماثل *homology*) لا يخبرنا أيضًا بأي شيء عن وجود سلف مشترك. فمايكل بيهي يكتب قائلاً:

> التشريح ببساطة لا يمت بصلة لمسألة ما إذا كان حدوث التطور على المستوى الجزيئي ممكنًا أم لا. وهو ما ينطبق على سجل الحفريات أيضًا. فلم يعُد مهمًا ما إذا كان هناك فجوات كبيرة في سجل الحفريات أم أن السجل متصل مثل سجل رؤساء الولايات المتحدة. وإن كانت هناك فجوات، لا يهم ما إذا كان يمكن تفسيرها تفسيرًا معقولاً. فسجل الحفريات ليس عنده ما يخبرنا به عما إذا كانت التفاعلات بين الريتينال-سي تي إس-١١ *11-cts-retinal* والرودوبسين *rhodopsin* والترانسدوسين *transducin* والفوسفودايستريس *phosphodiesterase* [أنظمة معقدة تعقيدًا لا يقبل الاختزال] قد تكونت خطوة خطوة أم لا.[٢٥]

إذَن وفقـًا لما يقوله بيهي، البيولوجيا تتفوق بامتياز على التشريح في تحديد معقولية الماكرو تطور. فكما أن محتويات الكتاب تقدِّم معلومات تتجاوز كثيرًا ما يقدّمه غلاف الكتاب، هكذا التكوين البيولوجي للكائن يزودنا بكمية معلومات تزيد كثيرًا عن المعلومات التي يوفرها لنا تكوينه العظمي. ومع ذلك طالما حاجَّ الداروينيون بأن تشابه التكوين بين القردة العليا مثلاً والإنسان دليل على السلف المشترك (أو الانحدار من أصل واحد). **فهل يخطر على بالهم أبدًا أن تشابه البنية قد يدلل على مصمم مشترك لا سلف مشترك؟*** فمهما كان، في عالم محكوم بقوانين فيزيائية وكيميائية معينة، ربما أن عدد البنى التشريحية التي ستسفر عن حيوانات مصمَّمة لتمشي على ساقين سيكون محدودًا جدًا، وبما أننا جميعًا يجب أن نعيش في نفس الغلاف الحيوي، ينبغي أن نتوقع تشابه بعض الكائنات في التصميم.

علاوة على ذلك، رغم أن بنية القردة العليا قد تتشابه مع بنية البشر، الحقيقة المهملة غالبًا هي أنه ليس هناك أي وجه شبه بين القردة العليا والبشر من ناحية والثعابين، والفطريات، والأشجار من ناحية أخرى. ولكن وفقـًا للداروينية كل الكائنات الحية تطورت من سلف واحد. وإن قَبِلتَ الداروينية، يجب عليك أن تتمكن من تفسير **الاختلاف** الشاسع بين الكائنات الحية. يجب عليك أن تفسّر مثلاً كيف أن النخلة، والطاووس، والأخطبوط، والجرادة، والخفاش، وفرس النهر، والقنفد، وفرس البحر، وخَنَّاق الذباب، والإنسان، وفطر العفَن؛ انحدرت جميعًا من أول حياة معقدة تعقيدًا لا يقبل الاختزال، دون تدخل ذكي. وعليك أيضًا أن تفسر كيف أتت أول حياة وكيف أتى الكون إلى الوجود. فبلا تفسيرات مقبولة منطقيًا، وهو ما يفشل الداروينيون في تقديمه، فإن الاعتقاد في الداروينية يتطلب إيمانـًا مفرطـًا. **ولذلك لسنا نملك الإيمان الكافي للتحول إلى الداروينية.**

هل التصميم الذكي بديل ذكي؟

يمكننا أن نقول المزيد والمزيد عن الماكرو تطور، ولكن المجال لا يسمح لنا أن نتوسع أكثر من ذلك. إلا أنه يمكننا استخلاص استنتاج معقول من البيانات التي بحثناها في هذا الفصل. ففي ضوء سجل الحفريات، والانعزال الجزيئي، واستحالة حدوث مراحل انتقالية، والتعقيد غير القابل للاختزال، والتغير التكراري، والحدود الوراثية (وعجز الداروينيين عن تفسير أصل

* كما رأينا، ينطبق ذلك على تشابه الـ*DNA* الذي يمكن أن يكون أيضًا نتيجة لمصمم مشترك تمامًا كما يمكن أن يكون نتيجة لسلف مشترك.

الكون أو أول حياة)، قد تظن أن الداروينيين سيعترفون أخيرًا أن نظريتهم لا تتفق مع ما لوحظ من أدلة. ولكن الداروينيون ما زالوا يقدمون قصصًا "بلا دليل" وبلا أساس، وتتناقض فعليًا مع الملاحظة العلمية. فهم ما زالوا يصرّون أن التطور حقيقة، حقيقة، حقيقة!

إننا نتفق أن التطور حقيقة، ولكن ليس بالمعنى الذي يقصده الداروينيون. فإن كنت تُعَرِّف التطور بأنه "تغيُّر"، عندئذٍ من المؤكد أن الكائنات الحية تطوَّرت. ولكن هذا التطور حدث على المستوى الميكرو، لا الماكرو. وكما رأينا لا يوجد دليل على الماكرو تطور، بل إن **عندنا أدلة تؤكد أنه لم يحدث.**

فإن لم يكن الماكرو تطور صحيحًا، ما البديل؟ إن لم يكن هناك تفسير طبيعي لأصل الأشكال الجديدة من الحياة، إذَن لا بد من وجود تفسير ذكي. هذا هو الخيار الوحيد المتبقي. فليس هناك مرحلة انتقالية بين الذكاء واللاذكاء. إما أن ذكاءً تدخل في الأمر أو لا. ولكن الداروينيون لا يحبون هذا الخيار. فما إن تنفد قدرتهم على الدفاع عن موقفهم بكفاءة باستخدام أدلة علمية محايدة (وهو ما يحدث بسرعة شديدة)، حتى يصوبوا عادةً أسلحتهم على أنصار التصميم الذكي، نحن المؤمنين بذكاء وراء الكون والحياة. وإليك اعتراضاتهم المعتادة وردودنا:[٢٦]

الاعتراض: التصميم الذكي ليس علمًا.

الرد: كما رأينا، العلم بحث عن المسببات، وليس هناك إلا نوعان من المسببات: الذكية وغير الذكية (الطبيعية). وزَعْم الداروينيين بأن التصميم الذكي ليس علمًا مبني على تعريفهم للعلم، وهو تعريف متحيز. ولكن هذه حجة دائرية![*] فإن كان تعريفك للعلم يستبعد المسببات الذكية مسبقًا، إذَن لن تعتبر أبدًا التصميم الذكي علمًا.

إلا أن المضحك في أمر الداروينيين هو أنه: إن لم يكن التصميم الذكي علمًا، فالداروينية مثله. لماذا؟ لأن كلاً من الداروينيين وعلماء التصميم الذكي يحاولون اكتشاف ما حدث في الماضي. والأسئلة المختصة بالأصل أسئلة أدلة جنائية، ومن ثم تتطلب استخدام مبادئ علم الأدلة الجنائية التي ناقشناها. والحقيقة أن استبعاد الداروينيين للتصميم الذكي من مجال العلم يعني أنهم يستبعدون أنفسهم ويستبعدون علم الآثار، وعلم الشفرة السرية،

[*] انظر الحاشية السفلية ص ١٤٤. (المترجمة)

والأبحاث الجنائية المستخدمة في الجرائم والحوادث، والبحث عن ذكاء من خارج الأرض. كل هذه علوم أدلة جنائية مشروعة تفحص الماضي للتوصل إلى مسببات ذكية. إذَن لا بد أن التعريف الداروني للعلم ينطوي على خطإٍ ما.

جدول ٦-٢ يبين الفرق بين العلم التجريبي وعلم الأدلة الجنائية:

العلم التجريبي (الذي يدرس العملية الحالية *Operation*)	علم الأدلة الجنائية (الذي يدرس الأصل *Origin*)
يدرس الحاضر	يدرس الماضي
يدرس الأحداث المنتظمة *regularities*	يدرس الأحداث الانفرادية *singularities*
يدرس المتكرِّر	يدرس غير المتكرِّر
يمكن إعادة الحدث	يستحيل إعادة الحدث
يدرس كيف تعمل الأشياء	يدرس كيف بدأت الأشياء
يُختبَر بتكرار التجريب	يُختبَر بالنمطية
يسأل: كيف يعمل الشيء؟	يسأل: ما أصل الشيء؟
أمثلة: كيف تسقط المياه؟ كيف تتآكل الصخور؟ كيف يعمل المحرك؟ كيف يلتصق الحبر بالورق؟ كيف تعمل الحياة؟ كيف يعمل الكون؟	أمثلة: ما أصل المحطة الكهرومائية؟ ما أصل جبل رَشمور؟ ما أصل المحرك؟ ما أصل هذا الكتاب؟ ما أصل الحياة؟ ما أصل الكون؟

الجدول ٦-٢

الاعتراض: التصميم الذكي يرتكب مغالطة إله الفجوات.

الرد: تحدث مغالطة إله الفجوات عندما يعتقد المرء خطأً أن الله سبَّب الحدث رغم أنه في الواقع نتج بسبب ظاهرة طبيعية لم تُكتشَف. فمثلاً، كان الناس يعتقدون أن الله هو المسبب

المباشر للبرق. فقد كانت هناك فجوة في معرفتنا بالطبيعة، فنَسَبْنا الأثر لله. ويؤكد الداروينيون أن المؤمنين بالله الخالق يفعلون الشيء نفسه عندما يزعمون أن الله خلق الكون والحياة. فهل هم على صواب؟ لا، لعدة أسباب.

أولاً، عندما نخلص إلى أن ذكاءً خلق أول خلية أو المخ البشري، لا نقول ذلك لمجرد إننا نفتقر لأدلة تشير إلى تفسير طبيعي؛ ولكن لأننا أيضًا نمتلك أدلة إيجابية يمكن رصدها تجريبيًا على وجود مسبب ذكي. فالرسالة (التعقيد المحدد) يمكن رصدها تجريبيًا. وعندما نرصد رسالة، مثل "أخْرِج القمامة–ماما" أو ١٠٠٠ موسوعة، نعرف أنه من المؤكد أنها أتت من كائن ذكي لأن كل خبراتنا القائمة على الملاحظة تخبرنا أن الرسائل لا تأتي إلا من كائنات ذكية. فكلما نلاحظ رسالة، نجد أنها آتية من كائن ذكي. ونحن ندمج هذه البيانات مع حقيقة أننا لا نلاحظ أبدًا قوانين طبيعية تنشئ رسائل، ونعرف أنه لا بد أن يكون المسبب كائنًا ذكيًا. وهذا استنتاج علمي مقبول بناءً على الملاحظة والتكرار. فهي ليست محاجة تقوم على الجهل، ولا تقوم على أي "فجوة" في معرفتنا.

ثانيًا، علماء التصميم الذكي يقبلون كلاً من المسببات الطبيعية والذكية. فهم لا يعارضون البحث المستمر عن تفسير طبيعي لأول حياة. ولكن كل ما في الأمر أنهم يلاحظون أن كل التفسيرات الطبيعية المعروفة تبوء بالفشل، وكل الأدلة التي يمكن رصدها تجريبيًا تشير إلى مصمم ذكي.

والآن يمكننا أن نتساءل عن الحكمة وراء الاستمرار في البحث عن مسبب طبيعي للحياة. ويسأل وليم دمبسكي الذي نشر أبحاثًا موسعة في التصميم الذكي قائلاً: "متى يتحول الإصرار [على إيجاد مسبب طبيعي] إلى صلابة دماغ حمقاء؟ ... إلى متى يجب أن نستمر في البحث حتى يحق لنا أن نتوقف عن البحث ونعلن أنه لا جدوى من استمرار البحث، بل أيضًا أن موضوعَ البحثِ نفسَه لا وجود له؟"[٢٧]

فكِّر في مضامين سؤال دمبسكي. هل يجب أن نستمر في البحث عن مسبب طبيعي لظواهر مثل جبل رَشمور أو رسائل مثل "أخْرِج القمامة–ماما"؟ متى يُغلَق هذا الملف؟

والتر برادلي *Walter Bradley*، المشارك في تأليف كتاب عظيم الأثر بعنوان "سر أصل الحياة" *The Mystery of Life's Origin* يعتقد أنه "لا يبدو أن هناك أي إمكانية للعثور على [تفسير

طبيعي]“ لأصل الحياة. وهو يضيف قائلاً: ”أظن أن مَن يعتقدون أن الحياة نشأت طبيعيًا يحتاجون إلى قدر من الإيمان يفوق بكثير إيمان من يستدلون منطقيًا على مصمم ذكي“.[٢٨]

بصرف النظر عما إذا كنت تعتقد أنه علينا أن نستمر في البحث عن تفسير طبيعي أم لا، فالنقطة الرئيسية هي أن علماء التصميم الذكي يقبلون كلاً من المسببات الطبيعية والذكية. ولكن اتضح أن المسبب الذكي هو أكثر ما يتفق مع الأدلة.

ثالثًا، استنتاج التصميم الذكي يمكن تخطيئه. أي أن التصميم الذكي يمكن إثبات خطئه إذا اكتُشِف يومًا ما أن القوانين الطبيعية خلقت التعقيد المحدد. إلا أن هذا لا يمكن أن ينطبق على الموقف الدارويني. فالداروينيون لا يسمحون بتخطيء ”قصة الخلق“ الخاصة بهم لأنهم، كما أشرنا، لا يسمحون بالتفكير في أي قصة خلق أخرى. وذلك لأن ”عِلمهم“ ليس مبدئيًا يقبل المراجعة أو التصحيح، ولكنه أضيق أفقًا من تعاليم الكنيسة المتصلبة التي يحلو للداروينيين انتقادها.

وأخيرًا، الحقيقة أن الداروينيين هم من يرتكبون مغالطة إله الفجوات. فداروين نفسه اتُّهِم ذات مرة بأنه يعتبر الانتخاب الطبيعي ”قوة عاملة أو الله“ (انظر الفصل الرابع من كتاب ”أصل الأنواع“ *Origin of Species*). ولكن يبدو أن الانتخاب الطبيعي هو فعلاً الله أو ”إله الفجوات“ عند الداروينيين اليوم. فعندما يفشلون تمامًا في معرفة كيف وُجِدَت الأنظمة البيولوجية الغنية بالمعلومات والمعقدة تعقيدًا لا يقبل الاختزال، يسدون فجوتهم المعرفية بأن يزعموا أن الانتخاب الطبيعي، والزمن، والصدفة فعلت ذلك.

إن قدرة هذه الآلية على خلق أنظمة بيولوجية غنية بالمعلومات تناقض الأدلة التي ثبتت بالملاحظة. فالطفرات ضارة في كل الحالات تقريبًا، والزمن والصدفة ليسا في صالح الداروينيين كما شرحنا في الفصل الخامس. والانتخاب الطبيعي في أحسن الأحوال قد يكون مسؤولاً عن تغيرات طفيفة في الأنواع الحية، ولكنه لا يستطيع أن يفسر أصل الأشكال الأولى من الحياة. فالانتخاب الطبيعي لكي يحدث أصلاً يحتاج إلى كائن حي يبدأ به عمله. ولكن، بالرغم مما يتضح من مشكلات في الآلية الداروينية، يصر الداروينيون على أنها تسد أي فجوة في معرفتهم. وإضافة إلى ذلك، يتجاهلون عمدًا الأدلة الإيجابية المرصودة بالتجريب على وجود كائن ذكي. إن هذا ليس علمًا بل عقيدة جامدة لدين علماني. فالداروينيون مثل معارضي جاليليو يسمحون لديانتهم أن تتغلب على الملاحظات العلمية!

الاعتراض: التصميم الذكي مدفوع بالدين.

الرد: هذا الاعتراض له شقان. الأول هو أن بعض أنصار التصميم الذكي قد يكونون مدفوعين بالدين. وما العيب في ذلك؟ هل هذا يجعل التصميم الذكي خاطئـًا؟ هل الدافع الديني عند بعض الداروينيين يجعل الداروينية خاطئة؟ لا، الحق لا يكمن في دوافع العلماء، بل في جودة الأدلة. فدافع العالِم أو تحيزه لا يعني بالضرورة أنه مخطئ. فمن الممكن أن يكون متحيزًا ومع ذلك صائبًا. التحيز أو الدافع ليس هو القضية الأساسية، ولكن الحق هو القضية.

وأحيانًا ما يقال الاعتراض بهذه الطريقة: "لا يمكنك أن تصدق أي شيء يقوله عن الأصول لأنه خَلـْقيّ". على أي حال، إن كان السيف يقطع، فهو يقطع على الجانبين. أي أنه يمكننا أيضًا أن نقول: "لا يمكنك أن تصدق أي شيء يقوله عن الأصول لأنه دارويني".

لماذا تُعتبَر الاستنتاجات الخَلْقية فورًا متحيزة وتُعتبَر الاستنتاجات الداروينية تلقائيًا موضوعية؟ لأن الأغلبية لا تدرك أن الملحدين لديهم منظور فلسفي للحياة مثلهم مثل الخَلـْقيين. وكما نرى منظور الملحدين الفلسفي ليس محايدًا وهو يتطلب فعليًا قدرًا من الإيمان يزيد عن إيمان الخلقيين.

وكما ذكرنا آنفـًا، إن كانت التحيزات الفلسفية أو الدينية تمنع المرء من تفسير الأدلة تفسيرًا صحيحًا، عندئذ يحق لنا أن نشك في استنتاجاته. وفي الموضوع الذي نحن بصدده، يبدو أن الداروينيين هم أكثر من يواجهون تلك المشكلة. إلا أن النقطة الرئيسية هي أنه حتى إن كان المرء مدفوعًا بالدين أو الفلسفة، يمكنه تصحيح استنتاجاته بنظرة مخلصة للأدلة. فالعلماء على الجانبين قد يصعب عليهم أن يكونوا محايدين، ولكنهم إن كانوا أمناء، يمكنهم أن يكونوا موضوعيين.

أما الشق الثاني في هذا الاعتراض هو الاتهام القائل بأن مؤيدي التصميم الذكي ليس لديهم أدلة على موقفهم، كل ما في الأمر أنه يرددون كلام الكتاب المقدس ترديدًا ببغائيًا. وهذا الشق من الاعتراض لا ينجح أيضًا. فمعتقدات التصميم الذكي قد تتوافق مع الكتاب المقدس، ولكنها لا تقوم على الكتاب المقدس. ولكن كما رأينا، التصميم الذكي استنتاج يقوم على أدلة مرصودة تجريبيًا، لا على نصوص مقدسة. وكما أشار مايكل بيهي "الحياة على الأرض في أساسها، وفي مكوناتها الجوهرية نتاج نشاط ذكي. واستنتاج التصميم الذكي ينبع تلقائيًا من البيانات نفسها، لا من كتب مقدسة أو معتقدات دينية".[٢٩]

التصميم الذكي ليس "عِلمًا خَلْقيًا" أيضًا. علماء التصميم الذكي لا يزعمون مزاعم المدعوين "علماء الخلق". فهم لا يقولون إن البيانات تؤيد بكل وضوح منظور سفر التكوين ذا الأيام الستة التي يتكون كل منها من أربع وعشرين ساعة، ولا طوفانًا غطى العالم كله. ولكنهم يعترفون أن البيانات المؤيدة للتصميم الذكي لا تقوم على عمر أو تاريخ جيولوجي محدد للأرض. وعلماء التصميم الذكي يدرسون في الطبيعة نفس الأشياء التي يدرسها الداروينيون، وهي الحياة والكون نفسه، ولكنهم يتوصّلون لاستنتاج أكثر منطقية بخصوص مسبِّب تلك الأشياء. باختصار، بصرف النظر عما يقوله الكتاب المقدس في هذا الموضوع، الداروينية مرفوضة لأنها لا تتوافق مع البيانات العلمية، والتصميم الذكي مقبول لأنه متوافق مع البيانات.

الاعتراض: التصميم الذكي خاطئ لأن المدعو تصميمًا لا يتسم بالكمال.

الرد: طالما حاجَّ الداروينيون أنه لو وُجِد مصمِّم، لصمَّم المخلوقات على نحو أفضل. وهو ما أشار إليه ستيفن چاي جولد في كتابه "إبهام الپاندا" *The Panda's Thumb* حيث استشهد بالتصميم غير المثالي للبروز العظمي الذي يقوم مقام الإبهام عند حيوان الپاندا.

إن مشكلة الداروينيين أن هذا ينقلب إلى حجة لصالح المصمم لا حجة ضده. أولاً، وصف جولد لشيءٍ ما بأنه تصميم غير مثالي يعني ضمنيًا أنه يعرف التصميم المثالي. لأنه لا يمكنك أن تعرف أن شيئًا ما غير مثالي إلا إذا كنت تعرف المثالي. إذَن ملاحظة جولد لتصميم غير مثالي تمثل اعترافًا ضمنيًا بأنه يمكن رصد تصميم في إبهام الپاندا. (بالمناسبة، هذا سبب آخر يجعل الداروينيين مخطئين عندما يؤكدون أن التصميم الذكي ليس علمًا. فعندما يزعمون أن شيئًا ما ليس مصممًا بشكل صحيح، يقصدون ضمنًا أنهم يستطيعون أن يحددوا التصميم الصحيح. وهو ما يثبت ما يقوله علماء التصميم الذكي منذ زمن بعيد، ألا وهو أن التصميم الذكي علم لأنه يمكن رصده تجريبيًا).

ثانيًا، التصميم غير المثالي لا يلغي وجود تصميم. وهو ما يعني أنه حتى إن حَكَمْتَ أن شيئًا ما ليس مصممًا بالشكل المثالي، لا يعني هذا أنه ليس مصمَّمًا على الإطلاق. فسيارتك ليست مصممة بالشكل المثالي، ومع ذلك فهي مصممة، مؤكد أنها لم تتكون بالقوانين الطبيعية.

ثالثًا، حتى تقول إن شيئًا غير مثالي، لا بد أن تعرف أهداف المصمم أو أغراضه. فإن كان جولد لا يعرف ما كان يقصده المصمم، فلا يمكنه أن يقول إن التصميم يَقْصُر عن بلوغ تلك المقاصد. فكيف يعرف جولد أن إبهام الپاندا ليس هو بالضبط ما كان في عقل المصمم؟

جولد يفترض أن إبهام الـپـاندا يجب أن يكون مجاورًا للسبابة كما هو الحال في الإنسان. ولكن ربما أن المصمم أراد إبهام الـپـاندا بالشكل الذي هو عليه. وبالرغم من كل شيء، فإبهام الـپـاندا يؤدي غرضه بامتياز في مساعدة الـپـاندا على تقشير نبات البامبو حتى يصل إلى جزئه الداخلي الذي يمكن أكله. من المحتمل أن الـپـاندا لا يحتاج إبهامًا مجاورًا للسبابة لأنه لا يحتاج أن يكتب كتبًا مثل جولد، ولكن كل ما يحتاجه هو تقشير البامبو. لذا، لا يمكن لجولد أن يخَطِّـئ مصمم ذلك الإبهام إن كان الغرض منه لا يزيد عن تقشير البامبو.

أخيرًا، في عالم مقيَّد بالواقع الفيزيائي، يتطلب التصميم كله تحقيق نوع من التوازن. فحاسبات اللاپ توپ لا بد أن تـُوازِن بين الحجم، والوزن، والأداء. والسيارات الكبيرة قد توفر مزيدًا من الأمان والراحة، ولكن التحكم فيها أصعب وتستهلك كمية أكبر من الوقود. السقوف العالية تـُزيد الغرف فخامةً، ولكنها تستهلك أيضًا مزيدًا من الطاقة. ونظرًا لاستحالة التخلص من التوازنات في هذا العالم، على المهندسين أن يبحثوا عن حلول وسطية تحقق الأغراض المرجوة بأفضل ما يمكن. فمثلاً، لا يمكنك أن تعيب على تصميم سيارة صغيرة لأنها لا تكفي خمسة عشر راكبًا. فالهدف هو أن تحمل أربعة ركاب لا خمسة عشر راكبًا. وذلك لأن مصنع السيارات ضحى بالحجم في سبيل توفير الوقود وحَقـَّقَ الغرض المرجو. وهكذا، ربما يُعَدّ تصميم إبهام الـپـاندا حلاً وسطًا يحقق الأغراض المرجوة. فالإبهام مناسب جدًا لتقشير البامبو. ربما لو صُمِّمَ الإبهام بأي شكل آخر، لأعاق الـپـاندا في مجال آخر. فنحن لا نعرف إلا إذا عرفنا أهداف المصمم. ولكن ما نعرفه بالتأكيد أن انتقادات جولد لا تنجح دون معرفة تلك الأهداف.

إذن لماذا يوجد داروينيون حتى الآن؟

إن كانت أدلة التصميم الذكي بهذه القوة، إذَن لماذا يوجد داروينيون حتى الآن؟ فمهما كان، هؤلاء الأشخاص ليسوا سُذَّجًا، بل أسماؤهم عادةً ما تكون مسبوقة بلقب دكتور!

أول ما يجب ملاحظته أن المسألة ليست مجرد قضية فكرية حيث ينظر الداروينيون إلى الأدلة نظرة متجردة من المشاعر الشخصية ثم يتوصلون إلى استنتاج عقلاني. فقد كتب ريتشارد دوكينز هذه الكلمات المشهورة: "إن التقيتَ بشخص يزعم أنه لا يؤمن بالتطور، تستطيع أن تقول بكل ارتياح وثقة إنه جاهل، أو غبي، أو مجنون (أو شرير، وإن كنت لا أفضل أن آخذ هذا الوصف في الحسبان)".[٣٠] وطبعًا تعليق دوكينز خاطئ بكل بساطة. وذلك لأن هناك عباقرة حملة دكتوراه

يؤمنون بالتصميم الذكي. ولكن السؤال الحقيقي هو: لماذا الإهانات؟ لماذا الانفعال؟ لماذا العداوة؟ كنت أظن أن الموضوع علمي. لا بد أن هناك شيئًا آخر.

نعم. لنرجع إلى كلام ريتشارد ليونتنِ الذي اقتبسناه في الفصل السابق. تَذَكَّر تأكيده أن الداروينيين يؤمنون بما يؤمنون به من عبث لأن "المادية مطلقة لأننا لا نستطيع أن نسمح بدخول قَدَم إلهية من الباب". هذه هي القضية الحقيقية؛ إبقاءُ الله خارجًا. ولكن لماذا لا يريد الداروينيون "قدمًا إلهية في الباب"؟ نقترح أربعة أسباب رئيسية.

أولاً، اعتراف الداروينيين بالله يعني الاعتراف بأنهم ليسوا السلطة المرجعية العليا للحق. فحاليًا في هذا العالم المتقدِّم تكنولوجيًا، تنظر العامة إلى العلماء باعتبارهم السلطة المرجعية الموقَّرة، إنهم الكهنة الجدد الذين بِيَدِهم إمكانية تحسين الحياة والذين يشكلون المصدر الوحيد للحق الموضوعي. ولكن السماح بإمكانية وجودِ الله يعني التنازل عن زعمهم بأنهم أصحاب السلطة العليا.

ثانيًا، اعتراف الداروينيين بالله يعني الاعتراف أنهم ليسوا أصحاب السلطة المرجعية المطلقة في تفسير المسببات. بمعنى أنه إن كان الله موجودًا لا يمكنهم أن يفسروا كل حدث باعتباره نتيجة لقوانين طبيعية يمكن التنبؤ بها. وهو ما عَبَّرَ عنه ريتشارد ليونتن على هذا النحو: "الاحتكام إلى إله كلي القدرة يعني السماح بخرق منتظِمات الطبيعة في أي لحظة، والسماح بالمعجزات".[٣١] وكما أشار چاسترو أنه عندما يحدثُ ذلك "يفقد العالِم السيطرة" ويتركها لله بالتأكيد، وربما للاَّهوتي.[٣٢]

ثالثًا، اعتراف الداروينيين بالله يعاني المخاطرة بأمانهم المادي وإعجاب الناس بهم على المستوى المهني. كيف؟ بسبب الضغط الشديد من المجتمع الأكاديمي لنشر مواد تؤيد التطور. هات موضوعًا مهمًا، وقد تجد نفسك على غلاف مجلة ناشونال چيوجرافك *National Geographic* أو موضوع حلقة خاصة على محطة پـي. بي. إس. *PBS*. وإن لم تجد شيئًا مهمًا، قد تجد نفسك خارج وظيفتك، أو قد تفقد الأموال الممنوحة لك، أو تفقد على الأقل رضا زملائك المؤمنين بالفلسفة المادية. إذَن المال، والأمان الوظيفي، والمركز الاجتماعي كلها دوافع لتأييد المنظور الدارويني.

أخيرًا، وربما الأهم، اعتراف الداروينيين بوجودِ الله يعني الاعتراف بأنهم لا يملكون سلطةَ تعريفِ الصواب والخطإ بأنفسهم. فاستبعاد الداروينيين لما هو فائق للطبيعة يُمَكِّنهم من

تجنب إمكانية وجود ممنوعات أخلاقية. لأنه إن لم يكن هناك إله، يكون كل شيء مشروعـًا، كما قالت إحدى الشخصيات في رواية للكاتب دوستويـڤسكي.[٣٣] (سنتناول الارتباط بين الله والأخلاق في الفصل القادم).

والحقيقة أن الراحل چوليان هَكسلي *Julian Huxley*، أحد قادة الداروينيين في إحدى الفترات، اعترف أن الحرية الجنسية دافع شائع وراء العقيدة التطورية. وعندما سأله مرڤ جريفن *Merv Griffin* مضيف البرامج الحوارية: "لماذا يؤمن الناس بالتطور؟" أجاب بصدق قائلاً: "سبب قبولنا للداروينية، حتى دون برهان، هو أننا لم نُـرِدْ أن يتدخل الله في أعرافنا الجنسية".[٣٤] لاحظ أنه لم يستشهد بأدلة على التولد التلقائي ولا من سجل الحفريات. والدافع الذي لاحظ انتشاره بين التطوريين يقوم على استحسانات أخلاقية، لا أدلة علمية.

ويكشف الملحد السابق لي ستروبِل *Lee Strobel* أن إيمانه بالداروينية يرجع إلى هذا الدافع. فهو يكتب: "كنتُ سعيدًا أن أتعلق بالداروينية كذريعة للتخلص من فكرةِ الله حتى أتمكن من تحقيق أغراضي في الحياة بلا خجل دون أي محاذير أخلاقية".[٣٥]

وقد اعترف بعض الداروينيين أيضًا بذلك للكاتب والمحاضر رون كارلسون. ففي إحدى المناسبات، بعد أن ألقى محاضرة في جامعة كبرى عن مشكلات الداروينية وأدلة التصميم الذكي، تناول العشاء مع أستاذ في علم الأحياء حَضَرَ عَرْضَه.

فسأله كارلسون: "ما رأيك في محاضرتي؟"

فبدأ الأستاذ كلامه قائلاً: "رون، كلامك صحيح ومعقول جدًا. ولكني سأستمر في تدريس الداروينية على أي حال".

فتحير كارلسون وسأله: "لماذا؟"

أجاب الأستاذ: "بصراحة يا رون لأن الداروينية مريحة أخلاقيًا".

فسأل كارلسون بإلحاح: "مريحة أخلاقيًا؟ ماذا تقصد؟"

أجاب الأستاذ: "أقصد إن كانت الداروينية صحيحة، أي إن لم يكن الله موجودًا وكلنا تطورنا من طحالب خضراء لزجة، يمكنني أن أنام مع من أريد. في الداروينية لا مُساءلة أخلاقية".[٣٦]

إنها لحظة صدق تام. طبعًا هذا لا يعني أن كل الداروينيين يفكرون بهذه الطريقة أو أن كل الداروينيين غير أخلاقيين، فلا شك أن البعض يعيشون حياة أخلاقية أفضل من الكثيرين ممن

يُدْعَون مسيحيين. ولكنه يكشف ببساطة أن بعض الداروينيين مدفوعون لا بالأدلة بل برغبة في أن يظلوا أحرارًا مما يضعه الله من محاذير أخلاقية معروفة. وهذا الدافع قد يؤدي بهم إلى إخماد الأدلة على وجود خالق حتى يواصلوا حياتهم بالطريقة التي تحلو لهم. (وبهذا المعنى لا تختلف الداروينية عن الكثير من أديان العالم الأخرى من حيث إنها تقدم طريقة للتعامل مع الذنب الذي ينتج من السلوك غير الأخلاقي. الفرق هو أن بعض الداروينيين بدلاً من أن يُقِرّوا بالذنب ويقدموا طرقًا للتكفير عنه أو قواعد لتجنبه، يحاولون أن يتجنبوا أي إشارة للذنب بتأكيد أنه ليس هناك سلوك غير أخلاقي حتى نكون مذنبين بارتكابه).

هذه الدوافع الأربعة التي اقترحناها يجب ألا تدهشنا. فالجنس والسلطة هما الدافعان اللذان يشكلان أساس الكثير من مناقشاتنا الثقافية الأشَدّ حدةً، مثل تلك المختصة بالإجهاض والمثلية الجنسية. ففي أغلب الأحيان يتخذ الناس في تلك المجادلات المواقف التي تتماشى مع رغباتهم الشخصية فحسب بدلاً من أن يفكروا في الأدلة.

وكذلك الاعتقاد في الداروينية غالبًا ما يكون مسألة إرادية أكثر منه مسألة عقلية. وأحيانًا يرفض الناس ما يعرفون أنه حقيقي بسبب ما سيُحدثه من تأثير على حياتهم الشخصية. وهو ما يفسر اقتراح بعض الداروينيين لهذه التفسيرات العبثية "المناقضة لما هو واضح"، التفسيرات التي "تخالف الحس العام". فبالرغم من الأدلة الصريحة على التصميم، هؤلاء الداروينيون يخشون تدخّل الله في حياتهم الشخصية أكثر مما يخشون أن يكونوا مخطئين في استنتاجاتهم العلمية.

وهو ما لا يعني أن كل الداروينيين لديهم هذه الدوافع وراء معتقداتهم. فالبعض قد يعتقدون فعلاً أن الأدلة العلمية تؤيد نظريتهم. ونظن أنهم يكَوِّنون هذا المفهوم الخاطئ لأن معظم الداروينيين نادرًا ما يدرسون أبحاثًا في مجالات أخرى. والنتيجة أن عددًا قليلاً جدًا هو من يرى الصورة الكاملة.

وهو ما ينطبق بوجه خاص على علماء الأحياء. فعالِم الأحياء الخلوية والجزيئية چوناثان ولز يشير إلى أن "معظم علماء الأحياء أمناء ومجتهدون وحريصون على تقديم الأدلة بدقة، ولكنهم نادرًا ما يغامرون بالخروج من مجالاتهم".[٣٧] وهو ما يعني أنه بالرغم من أنهم أمناء في عملهم، فهم لا يرون إلا قطعة اللغز التي تخصهم. وبما أن معظم علماء الأحياء تعلموا أن سطحَ علبة اللغزِ الدارويني صحيح بوجه عام (فقط تلك التفاصيل

المزعجة هي التي لم يوجد لها حل حتى الآن)، إذَن هم يفسرون قطعة اللغز التي تخصهم بناءً على سطح العلبة الذي في عقولهم، مفترضين صدق المنظور الدارويني ومفترضين أن أقوى الأدلة على الداروينية موجودة في مجال آخر من مجالات علم الأحياء. لذا، حتى إن كانوا لا يرون أدلة على التولد التلقائي أو الماكرو تطور في قطعة اللغز التي تخصهم، فمن المؤكد أن الدليل موجود في مجال آخر في علم الأحياء لأن سطح العلبة الدارويني يستلزم أن تكون تلك الأمور صحيحة. وهذه الظروف تجعل معظم علماء الأحياء لا يَشُكّون في النموذج التطوري.

ما أهمية عمر الكون؟

لا نستطيع أن نترك مناقشة التطور والخلق دون أن نذكر على الأقل عمر الكون. وبما أن الآراء تتعدد حول هذا الموضوع، وخاصةً في الدوائر المسيحية، فالمجال هنا لا يسمح بتناول كل هذه الآراء (ولكنها مشروحة بالتفصيل في "موسوعة بيكر للدفاعيات المسيحية واللاهوت النظامي، الجزء الثاني" *Baker Encyclopedia of Christian Apologetics and Systematic Theology, Volume 2*).[٣٨]

إلا أننا نريد أن نؤكّد أنه رغم أن عمر الكون مسألة لاهوتية مهمة، فالأهم ليس متى خُلِقَ الكون ولكن **أنه** خُلِقَ. وكما رأينا الكون انفجر إلى الوجود من العدم، وقد ضُبِطَ ضبطًا دقيقًا ليدعم الحياة على الأرض. وبما أن هذا الكون، بما فيه مُتَّصَل الزمكان *time-space continuum* كله، له بداية، إذَن فهو يتطلب بادئًا بغضِّ النظر عن الوقت الذي حدثت فيه هذه البداية. وهكذا، بما أن هذا الكون مصمَّم، إذَن هو يتطلب مصمِّمًا بغض النظر عن الوقت الذي تم فيه هذا التصميم.

يمكننا أن نناقش مدة أيام سفر التكوين، أو ما إذا كانت الافتراضات التي تقوم عليها أساليب تحديد عمر الأرض افتراضات صحيحة. ولكننا عندما نفعل ذلك، لا بد أن نحترس من التشويش على الفكرة الأهم، ألا وهي أن هذه الخليقة تتطلب خالقًا.*

* بعض المسيحيين يخشون من أن التسليم بفترات زمنية طويلة يُزيد من معقولية الماكرو تطور. ولكن هذا ليس صحيحًا كما رأينا في الفصل الخامس.

الملخص والخلاصة

والآن نصل إلى فصل القول. ليس هناك فعليًا إلا احتمالان: إما أن الله خَلَقَنا، أو أننا خَلَقْنا الله. إما أن الله موجود فعلاً، أو أنه من نسجِ عقولنا. وكما رأينا الداروينية حيث لا إله هي نتاج العقل البشري. ولا بد أن تتمتع بقدر كبير من الإيمان حتى تصبح داروينيًا. وعليك أن تؤمن أنه **بدون تدخل ذكي:**

١- شيء نشأ من لا شيء (أصل الكون).

٢- النظام نشأ من الفوضى (تصميم الكون).

٣- الحياة نشأت من اللاحياة (أي أن الذكاء نشأ من اللاذكاء، والشخصية من اللاشخصية).

٤- الأشكال الجديدة من الحياة نشأت من أشكال حياة موجودة رغم الأدلة التي تُثْبت العكس مثل:

(١) الحدود الوراثية

(٢) التغير التكراري

(٣) التعقيد غير القابل للاختزال

(٤) الانعزال الجزيئي

(٥) عجز الأشكال الانتقالية عن الحياة

(٦) سجل الحفريات

إذَن الأدلة ليست في صالح الماكرو تطور. ولكن ماذا عن الماكرو تطور الخَلقي؟ ربما ما لا يمكن تفسيره طبيعيًا يصبح له معنى إن أدخلت الله في الصورة.

لماذا هذا الاقتراح؟ لأنه إن وُجِدَت أدلة على الله **وعلى** الماكرو تطور، إذَن قد نجد سببًا لدمج الاثنين معًا. ولكن كما رأينا، ليس هناك أدلة على الماكرو تطور. فالأمر ليس أن عندنا أدلة متضاربة: بعضها يشير إلى الماكرو تطور، وبعضها يدحضه. فإن كان عندك مثلاً سجل حفريات يحوي ملايين الأشكال الانتقالية من ناحية، ولكن عندك من ناحية أخرى مخلوقات معقَّدة تعقيدًا لا يقبل الاختزال، ربما يمكنك أن ترجح أن الله وَجَّهَ التطور أثناء تلك الفجوات التي لا يربط بينها رابط. ولكن بما أن الحال ليس هكذا، يبدو أنه لا حاجة أن يوجِّه الله الماكرو

تطور لأنه ليس هناك دليل على حدوث الماكرو تطور أصلاً!

أخيراً نلقي نظرة على الأدلة من منظور سؤال آخر: ما نوعية الأدلة المطلوبة لإثبات صحة الخلق (التصميم الذكي)؟ ماذا عن:

١- الكون الذي انفجر إلى الوجود من العدم

٢- الكون الذي يحوي أكثر من ١٠٠ ثابت مضبوطة ضبطًا دقيقـًا وتَمَكُّن الحياة من الوجود على هذا الكوكب النائي شديد الصغر الذي يُطلـَق عليه الأرض

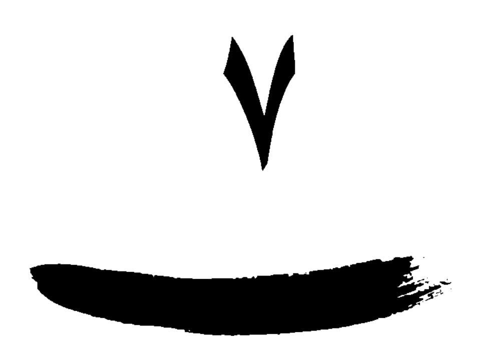
٣- الحياة التي:

- لوحظ أنها لا تنشأ إلا من حياة موجودة (لم يُلحَظ أبدًا أنها نشأت تلقائيًا)
- تتكون من آلاف بل ملايين الموسوعات من التعقيد المحدد المرصود تجريبيًا (ومِن ثم فالحياة أعظم من المواد الكيميائية غير الحية التي تحويها)
- تتغير تكراريًا وفي نطاق محدود
- لا يمكن بناؤها أو تعديلها تدريجيًا (أي أنها معقدة تعقيدًا لا يقبل الاختزال)
- منعزلة جزيئيًا فيما بين الأشكال الأساسية (ليس هناك تدرج ينحدر من سلف واحد على المستوى الجزيئي)
- تترك سجل حفريات يحوي كائنات مكتملة التكوين تظهر فجأة، ولا تتغير، ثم تختفي فجأة.

إن نظرة متجردة إلى الحقائق ترجِّح أن الخلق هو الصحيح، وليس الماكرو تطور. وكما رأينا الملحدون عليهم أن يبذلوا جهدًا كبيرًا حتى ينكروا الواضح. **ولذلك فهم يحتاجون إلى إيمان أكبر بكثير مما نحتاج إليه.**

أخيرًا، نقدم مقترحًا يساعد في حل الجدل الدائر في هذا البلد بشأن ما يجب تدريسه في المدارس الحكومية عن الخلق والتطور. ما الخطأ في تدريس ما تناولناه من الفصل الثالث إلى السادس؟ لاحظ أننا لم نقتبس آيات من الكتاب المقدس لإثبات أفكارنا. ولكننا استشهدنا بأدلة علمية. إذَن فهي ليست معركة بين العلم والدين، ولكنها معركة بين العلم **السليم** والعلم **الركيك**. وحاليًا معظم أبنائنا يدرسون علمًا ركيكـًا لأنهم لا يدرسون إلا التطور. ولكن الأمور يجب ألا تسير هكذا. فما هو الذي ضد الدستور في تدريس أدلة *SURGE*، أو تعريف الأطفال

بتعقيد أبسط أشكال الحياة، أو إظهار الفرق بين الميكرو والماكرو تطور وبين علم الأدلة الجنائية والعلم التجريبي، أو كشف المشكلات التي تشوب الماكرو تطور؟ لا شيء. فلماذا نستمر في حقن أبنائنا بنظرية معيبة مهترئة تقوم على افتراضات فلسفية مسبقة أكثر مما تقوم على الملاحظات العلمية؟ لماذا لا نطرح على أبنائنا كل الأدلة العلمية، المؤيِّدة والمضادة، ونترك لهم الاختيار؟ فمهما كان، ألا يجب أن نعلِّمهم أن يفكِّروا بأنفسهم تفكيرًا نقديًا؟ بالطبع، علينا أن نفعل ذلك. ولكن الداروينيون سيفعلون كل ما بوسعهم للحيلولة دون هذا الأمر. فالداروينيون يفضلون إخماد الدليل على تقديمه بشكل منصف. لماذا؟ لأن هذا هو المجال الوحيد الذي يفتقر فيه الداروينيون للإيمان، **فهم لا يملكون الإيمان بأن أبناءنا سيستمرون في تصديق نظريتهم إذا رأوا كل الأدلة.**



الأم تريزا مقابل هتلر

"إننا نعتبر هذه الحقائق واضحة في ذاتها، ألا وهي أنّ كافة البشر مخلوقون سواسية، وأنهم مُنِحوا من خالقهم حقوقًا راسخة معينة غير قابلة للتصرف، ومنها الحق في الحياة، والحرية، والسعي نحو السعادة".

إعلان الاستقلال الأمريكي

هل من مقياس؟

بينما كنت أنا وصديقي ديـف *Dave* ننتهي من تناول العشاء في مطعم يطل على المحيط في مدينة پورتلاند بولاية مين، تَحَوَّل الحديث إلى موضوع الدين. فقد قال ديـف: "لا أظن أنه من الممكن أن يكون دين واحد صحيحًا والباقي كله خطأ. ولكن يبدو أنك يا فرانك وجدت مركزًا لحياتك. وجدت شيئـًا صحيحًا بالنسبة لك، وأظن أن هذا عظيم".

فبدأت أساير فرضيته من أن شيئـًا قد يكون صحيحًا لشخص وليس صحيحًا لشخص آخر، وسألته: "ديـف ما الصحيح بالنسبة لك؟ ما الذي يعطي حياتك معنى؟"

فأجاب: "كسب المال ومساعدة الناس". ديـف رجل أعمال ناجح جدًا، فحاولتُ أن أستثيره لأعرف منه المزيد.

وقلت: "ديـف، أعرف رؤساء تنفيذيين بلغوا قمة النجاح المهني. خططوا لأمور عظيمة في

حياتهم المهنية وحقّقوها، ولكنهم لم يخططوا لحياتهم الشخصية ولم يحققوا فيها إلا القليل. وهم الآن على وشك التقاعد، ويسألون أنفسهم: "ثم ماذا؟"''

فوافق ديـف وأضاف: ''نعم، وأعرف أن معظم أولئك الرؤساء التنفيذيين مروا بخبرات طلاق بشعة، غالبًا لأنهم أهملوا أسرهم سعيًا وراء الدولار. ولكني لست كذلك. لن أضحي بأسرتي من أجل المال، وفي عملي أريد أن أساعد الناس أيضًا''.

مدحْتُه على التزامه بأسرته ورغبته في مساعدة الناس، ولكن الأسئلة لم تنتهِ. فلماذا يجب أن نُخلص لعائلاتنا؟ مَن قال إنه ينبغي أن ''نساعد الناس''؟ هل ''مساعدة الناس'' واجب أخلاقي عام، أم أنه صحيح لك وليس صحيحًا لي؟ وما نوعية مساعدتك لهم: مالية؟ نفسية؟ مادية؟ روحية؟

فقلت: ''ديـف، إن لم يكن هناك مقياس موضوعي، فالحياة ليست إلا لعبة "بنك الحظ" *Monopoly*. يمكنك أن تحصل على الكثير من الأموال والكثير من الممتلكات، ولكن عندما تنتهي اللعبة، يرجع كل شيء إلى العلبة. هل هذه هي الحياة؟''

وإذ شعر ديـف بعدم ارتياح لاتجاه الحوار، غيَّر الموضوع بسرعة. ولكن إحساسه بأنه يجب أن ''يساعد الناس'' كان صحيحًا، ولكنه لم يجد له مبررات. لماذا يعتقد أنه يجب أن ''يساعد الناس''؟ من أين أتى بهذه الفكرة؟ ولماذا أنا وأنت نتفق معه في أعماقنا؟

توقفْ وتَعَمَّق برهة في هذه الفكرة: ألستَ مثل ديـف؟ ألا تشعر بهذا الإحساس العميق بواجبنا جميعًا نحو ''مساعدة الناس''؟ كلنا نشعر بذلك. لماذا؟ ولماذا يبدو أن معظم البشر لديهم ذلك الحس الحدسي بأنه ينبغي أن يفعلوا الخير وينبذوا الشر؟

ووراء إجابات تلك الأسئلة يكمن المزيد من الأدلة على وجودِ الله الخالق الحافظ. ولكن هذه الأدلة ليست علمية، فقد تناولنا الأدلة العلمية في الفصول السابقة، ولكنها أدلة ذات طبيعة أخلاقية. وهي مثل قوانين المنطق والرياضيات؛ غير مادية ولكن حقيقية. إن ما يجعلنا نعتقد أنه علينا أن نفعل الخير لا الشر، ما يجعلنا نعتقد مثل ديـف أنه علينا أن ''نساعد الناس'' هو وجود قانون أخلاقي كُتِب على قلوبنا. أي أن هناك ''تشريعًا'' لعمل الخير أُعْطيَ للبشرية جمعاء.

والبعض يسمون هذا التشريع الأخلاقي ''الضمير''، والبعض الآخر يسمونه ''القانون الطبيعي''، ولكن آخرون (مثل الآباء المؤسّسين للولايات المتحدة) يطلقون عليه ''قانون

الطبيعة". ونحن نطلق عليه "القانون الأخلاقي". ولكن أيًا كان الاسم الذي تطلقه عليه، وجود مقياس أخلاقي منقوش في عقول البشر أجمعين يشير إلى مشرِّع لهذا القانون الأخلاقي. فكل قانون له مُشَرِّع. والقانون الأخلاقي كذلك. لا بد أن شخصًا كلَّفنا بهذه الواجبات الأخلاقية.

هذا القانون الأخلاقي هو حجتنا الثالثة لوجود إله خالق حافظ (بعد الحجة الكونية والحجة الغائية). وهي كالتالي:

١- لكل قانون مشرِّع.

٢- هناك قانون أخلاقي.

٣- إذَن هناك مُشَرِّع للقانون الأخلاقي.

إن كانت المقدمتان الأولى والثانية صحيحتين، فالنتيجة تترتب عليهما بالضرورة. وطبعًا كل قانون له مُشَرِّع. لا يمكن أن يوجد تشريع إلا إذا وُجِدت سلطة تشريعية. بالإضافة إلى أنه إذا كان هناك التزامات أخلاقية، لا بد من وجود شخص نكون ملتزمين تجاهه.

ولكن هل حقًا يوجد قانون أخلاقي؟ هذا ما اعتقده الآباء المؤسسون للولايات المتحدة. فكما كتب توماس چفرسون *Thomas Jefferson* في إعلان الاستقلال ""قانون الطبيعة" واضح في ذاته". فأنت لا تستخدم العقل حتى تكتشفه، ولكنك تعرفه هكذا. وربما هذا ما جعل صديقي ديف يصطدم بحائط سد في تفكيره. فهو يعرف أن "مساعدة الناس" فعل صائب، ولكنه لم يستطع تعليل هذا الصواب دون الاحتكام إلى مقياس خارج نفسه. فبلا مقياس موضوعي من المعنى والأخلاق، تخلو الحياة من المعنى وينتفي الصواب المطلق والخطأ المطلق. ويصبح كل شيء مجرد رأي.

فعندما نقول إن القانون الأخلاقي موجود، نعني أن كل الناس مطبوعون بحس جوهري للصواب والخطإ. فالكل مثلاً يعلم أن الحب أسمى من الكره وأن الشجاعة أفضل من الجُبن. ويكتب چ. بودچيشفسكي الأستاذ بجامعة تكساس في أوستن *University of Texas at Austin*: "الجميع يعرفون مبادئ معينة. فما من بلد يَعتبر القتل فضيلة والعرفان رذيلة".[1] وسي. إس. لويس الذي تناول هذا الموضوع بعمق في كتابه الكلاسيكي "المسيحية المجردة" *Mere Christianity* عبرَّ عن الفكرة قائلاً: "تخيل بلدًا حيث يحظى الناس بالإعجاب عندما يفرون

من المعركة، أو حيث يشعر الرجل بالفخر عندما يخون كل مَن أحسن إليه. إن استطعت أن تتخيل ذلك يمكنك أن تتخيل أن اثنين زائد اثنين يساوي خمسة".[٢]

وهو ما يعني أن الجميع يعرفون بوجود واجبات أخلاقية مطلقة. والواجب الأخلاقي المطلق هو شيء مُلْزِم للجميع، في كل زمان، وفي كل مكان. والقانون الأخلاقي المطلق يتضمن مُشَرِّعًا مطلقًا للقانون الأخلاقي.

إلا أن هذا لا يعني أن كل قضية أخلاقية لها إجابات يسهل التعرف عليها، أو أنه لا أحد ينكر وجود أخلاق مطلقة. ولكن الأخلاق تضم مشكلات عسيرة، والناس ينكرون القانون الأخلاقي كل يوم. ولكنه يعني أن هناك مبادئ أساسية للصواب والخطإ يعرفها الجميع، سواء اعترفوا بها أم لا. ويطلق بودچيشفسكي على هذه المعرفة الأساسية بالصواب والخطإ "ما لا نستطيع أن نجهله" *What We Can't Not Know* في كتاب له تحت ذلك العنوان.[٣]

فنحن مثلاً لا نستطيع ألا نعرف أن قتل الأبرياء بلا سبب خطأ. البعض قد ينكرون ذلك ويرتكبون جرائم قتل، ولكنهم في أعماق قلوبهم يعرفون أن القتل خطأ. وحتى السفاحون يعرفون أن القتل خطأ، ولكنهم قد لا يشعرون بالندم.[٤] والقتل خطأ عند الجميع، وفي كل مكان: في أمريكا، والهند، وزيمبابوي، وسائر البلدان جميعًا، الآن وكل أوان، مثل غيره من سائر القوانين الأخلاقية المطلقة. هذا هو ما يقوله القانون الأخلاقي لكل قلب بشري.

كيف نعرف أنه يوجد قانون أخلاقي؟

تتعدد أسباب معرفتنا بوجود قانون أخلاقي، وسنستعرض ونناقش ثمانية منها. وبعض هذه الأسباب متداخل، ولكننا سنناقشها بهذا الترتيب:

١- القانون الأخلاقي لا يمكن إنكاره.

٢- نعرفه من ردود أفعالنا.

٣- إنه أساس حقوق الإنسان.

٤- إنه مقياس العدالة الثابت.

٥- يفصل فصلاً حقيقيًا بين المواقف الأخلاقية (مثل الأم تريزا مقابل هتلر).

٦- بما أننا نعرف الخطأ المطلق، لا بد أن هناك مقياسا مطلقًا للصواب.

٧- القانون الأخلاقي هو أساس الخلافات السياسية والاجتماعية.

٨- لو لم يكن هناك قانون أخلاقي، لما كنا نبحث عن أعذار عندما نخرقه.

١- القانون الأخلاقي لا يمكن إنكاره: النسبيون عادةً ما يزعمون زعمين بخصوص الحق: ١) ليس هناك حق مطلق، ٢) ليس هناك قِيَم أخلاقية مطلقة. وخطة "رود رَنَر" تساعدك على تفنيد زعمهم الأول: إن لم يكن هناك فعلاً حق مطلق، إذَن زعمهم المطلق بأنه "ليس هناك حق مطلق" لا يمكن أن يكون صحيحًا. وهكذا ترى أن عبارة النسبيين غير منطقية لأنها تؤكد ما يحاولون إنكاره.

حتى چوزيف فلتشر *Joseph Fletcher* أبو أخلاق الموقف الحديثة وقع في هذا الفخ. فقد أصر في كتابه "أخلاق الموقف" *Situation Ethics* أن "مَن يؤمن بأخلاق الموقف يتجنب كلمات من قبيل "أبدًا"، "تام"، "دائمًا"... كمن يتجنب شيئـًا ضارًا، كما يتجنب كلمة "مطلقـًا"".[٥] وهو ما يعني طبعًا أن "المرء يجب ألا يقول أبدًا كلمة "أبدًا"" أو "يجب أن نتجنب دائمًا استخدام كلمة "دائمًا"". إلا أن تلك العبارات عينها لا تتجنب ما تطلب منا تجنبه. فالنسبيون متأكدون بصفة مطلقة أنه ليس هناك مطْـلَقات.

والقيم المطلقة كالحق المطلق، لا يمكن إنكارها. ففي حين أن الزعم الذي مفاده أنه "لا يوجد قيم مطلقة" لا يفند نفسه، لا يمكننا عمليًا أن ننكر وجود قيم مطلقة. وذلك لأن مَن ينكر كل القيم، يعطي قيمة لحقه في إنكارها. وهو علاوة على ذلك يريد من الجميع أن يعطوه قيمة بصفته شخصًا، بينما ينكر أن هناك قيمة لجميع الأشخاص. وهو ما تم التعبير عنه بوضوح منذ عدة سنوات عندما كنتُ (أنا نورم) أتحدث إلى مجموعة من سكان ضواحي شيكاغو من ذوي الثروة والتعليم الراقي. وبعد أن قلت إن هناك قيمًا أخلاقية موضوعية مُلزِمة لجميعنا، وقفَتْ سيدة واعترضت بصوت مرتفع قائلة: "ليس هناك قيم حقيقية. المسألة كلها أذواق أو آراء!" فقاومْتُ إغراء الرغبة في توصيل فكرتي بأن أصرخ فيها قائلاً: "اجلسي واخرسي، يا متعلمة يا صاحبة الشهادات. لا أحد يريد أن يسمع رأيك!" وطبعًا لو كنتُ بهذه الوقاحة والفظاظة، لكان من حقها أن تشكو من أني انتهكت حقها في أن يكون لها رأي وحقها في التعبير عنه. وهو ما كان يمكنني أن أرد عليه بالقول "ليس لكِ هذا الحق، فقد أخبرتِني توًا أن هذه الحقوق لا وجود لها!"

فشكواها كانت ستـُثـْبِت أنها تؤمن فعليًا بقيمة حقيقية مطلقة، فهي تعطي قيمة لحقها في أن تقول إنه ليس هناك قيم مطلقة. أي أن حتى مَن ينكرون كل القيم، يعطون قيمة لحقهم في ذلك الإنكار. وهنا يكمن التناقض. فمن المستحيل عمليًا إنكار القيم الأخلاقية.

٢- ردود أفعالنا تساعدنا على اكتشاف القانون الأخلاقي (الصواب من الخطأ): في السيناريو المذكور أعلاه، كان رد فعل السيدة سيُذكِّرها بوجود قيم أخلاقية موضوعية. وأحد الأساتذة في واحدة من كبرى الجامعات في ولاية إنديانا عَرَّضَ أحد طلابه ممن يؤمنون بالنسبية للخبرة نفسها من وقت ليس ببعيد. وكان الأستاذ يُدَرِّس مادة في الأخلاق، وكَلَّف طلابه بكتابة بحث للفصل الدراسي. وطلب من كل دارس أن يكتب في أي موضوع أخلاقي من اختياره، بشرط أن يدعم أطروحته جيدًا بالأسباب والمراجع الموَثَّقة.

وكتب طالب ملحد بحثًا بليغًا في موضوع النسبية الأخلاقية. وكانت حجته تقول إن "كل الأخلاق نسبية؛ ليس هناك مقياس مطلق للعدالة أو الصواب الأخلاقي؛ إنها مسألة رأي؛ "أنت تحب الشوكولاتة، أنا أحب الفانيليا"، وهكذا". وقد دعم بحثه بالأسباب والمراجع. وكان مستوفيًا للشروط من حيث الحجم، وموعد التسليم، وقدَّمه في غلاف أزرق أنيق.

وبعد أن قرأ الأستاذ البحث كله كتب على الغلاف الأمامي "راسب، لا أحب الأغلفة الزرقاء". وعندما استلم الطالب بحثه استشاط غضبًا واندفع إلى مكتب الأستاذ محتجًا: ""راسب، لا أحب الأغلفة الزرقاء" هذا ليس إنصافًا. ليس صوابًا. ليس عدلاً. لم تُقَيِّم البحث بناءً على ما يستحق".

فأجاب الأستاذ بهدوء وهو يرفع يده ليهدئ الطالب الفصيح: "تمهل لحظة. لقد قرأت أبحاثًا كثيرة. انتظر... أليس بحثك هو الذي يقول إنه ليس هناك شيء اسمه الإنصاف، والصواب الأخلاقي، والعدالة؟"

فأجاب الطالب: "نعم".

فسأله الأستاذ: "إذَن ما هذا الذي تقوله عني إني لست **منصفًا**، ولا **صائبًا**، ولا **عادلاً**؟ ألم تكن حجة بحثك أن الأمر كله مسألة ذوق؟ "أنت تحب الشوكولاتة، أنا أحب الفانيليا؟""

أجاب الطالب: "نعم هذا رأيي".

فأجاب الأستاذ: "عظيم. إذَن أنا لا أحب الأزرق. وأنت تحصل على تقدير راسب".

وفجأة أضاء المصباح في دماغ الطالب. لقد أدرك أنه يؤمن **فعليًا** بالمطلقات الأخلاقية. فهو على الأقل يؤمن بالعدالة. ومهما كان من أمر، فهو يتهم أستاذه **بالظلم**

لأنه أعطاه تقدير راسب بسبب لون الغلاف. وهذه الحقيقة البسيطة دحضت كل القضية التي قدمها دفاعًا عن النسبية.

والدرس الذي يكمن في القصة هو أن هناك أخلاقيات مطلقة. وإن أردت حقـًا أن تدفع النسبيين للاعتراف بها، كل ما يجب أن تفعله أن تعاملهم معاملة ظالمة. وردود أفعالهم ستكشف القانون الأخلاقي المكتوب على قلوبهم وعقولهم. ففي هذه القصة أدرك الطالب وجود مقياس موضوعي للصواب الأخلاقي من **رد فعله** لمعاملة الأستاذ له. وهكذا قد لا أظن أن السرقة خطأ عندما أسرق منك. ولكن لاحظ الغضب الذي سيشتعل بداخلي عندما تسرق مني.

وردود أفعالنا تبين أيضًا أن النسبية في النهاية لا تصلح للعيش. فقد يزعم الناس أنهم نسبيون، ولكنهم مثلاً لا يريدون زوجاتهم أن تـُخلصن لهم **نسبيًا**. فكل الرجال النسبيين تقريبًا يتوقعون من زوجاتهم أن تعشن على أساس أن الزنا خاطئ **على نحو مطلق**، وسيكون **رد فعلهم** سلبيًا إن مارسن النسبية عمليًا بارتكاب الزنا. وحتى إن كان هناك القليل من النسبيين لا يعترضون على الزنا، هل تظن أنهم لو كانوا مهددين بالقتل أو الاغتصاب سيعتبرون القتل أو الاغتصاب عملاً أخلاقيًا؟ طبعًا لا. إن النسبية تتناقض مع ردود أفعالنا وحِسِّنا العام.

وردود الأفعال تساعدنا كأمة في تحديد الصواب والخطأ. فعندما اخترق الإرهابيون **مبانينا بطائراتنا** التي كانت تحمل **أحباءنا** الأبرياء، كان رد **فعلنا** العاطفي مناسبًا لبشاعة الجريمة. فرد فعلنا أكَّد أن الفعل خاطئ على نحو مطلق. وقد يقول البعض: "ولكنَّ ابن لادن ورفاقه المجرمين رأوا أن الفعل صحيح أخلاقيًا". إن هذا يَرجع جزئيًا إلى أن الجريمة لم تكن موجَّهة ضدهم. في رأيك ماذا يكون **رد فعل** ابن لادن لو اخترقنا **مبانيه بطائراته** التي تحمل **أحباءه** الأبرياء؟ كان سيعرف فورًا أن هذا الفعل خاطئ على نحو لا يمكن إنكاره.

لذا فالقانون الأخلاقي لا يظهر دائمًا من أفعالنا، كما يتضح من الفظائع التي يرتكبها البشر تجاه بعضهم البعض. ولكنه ينكشف بجلاء في **ردود** أفعالنا، أي ما نفعله عندما نتعرض شخصيًا للظلم. وهو ما يعني أن **القانون الأخلاقي ليس هو دائمًا المقياس الذي نعامل به الآخرين، ولكنه في كل الحالات تقريبًا المقياس الذي نتوقع من الآخرين أن يعاملونا به.** فهو لا يصف سلوكنا **الفعلي**، بل ينص على السلوك **الواجب**.

٣- **دون القانون الأخلاقي تنتفي حقوق الإنسان:** تأسَّست الولايات المتحدة الأمريكية على الاعتقاد في القانون الأخلاقي وحقوق الإنسان الممنوحة من الله. فقد كتب توماس چفرسون في إعلان الاستقلال:

> إننا نعتبر هذه الحقائق واضحة في ذاتها، ألا وهي أن كافة البشر مخلوقون سواسية، وأنهم مُنِحوا من خالقهم حقوقـًا راسخة معينة غير قابلة للتصرف، ومنها الحق في الحياة، والحرية، والسعي نحو السعادة. ولضمان **هذه الحقوق**، تتأسس الحكومات بين الناس، وتكتسب **صلاحياتها العادلة** من موافقة المحكومين (الخط الأسود العريض من إضافة الكاتب).

لاحظ عبارة "مُنِحوا من خالقهم حقوقـًا راسخة معينة غير قابلة للتصرف". أي أن الآباء المؤسسين آمنوا أن حقوق الإنسان ممنوحة من الله، ومن ثم فهي عامة ومطلقة، أي أنها حقوق تشمل كل البشر، في كل مكان، وفي كل زمان، بصرف النظر عن جنسيتهم أو دينهم.

لقد أدرك چفرسون وسائر الآباء المؤسسين أن هناك سلطة أعلى، أي "الخالق"، يمكنهم الاحتكام إليها لإرساء أسس أخلاقية موضوعية لاستقلالهم. فلو بدأوا إعلان الاستقلال بعبارة "إننا نعتبر أن هذه **الآراء** آراؤنا..." (بدلاً من "حقائق واضحة في ذاتها")، لما قـدَّمَ ذلك مبررًا أخلاقيًا موضوعيًا لإعلان استقلالهم. ولكنه كان فقط سيُعَبِّر عن رأيهم المضاد لرأي الملك چورج. لذا احتكم المؤسسون إلى "الخالق" لأنهم آمنوا أن قانونه الأخلاقي هو المقياس المطلق للصواب والخطإ الذي يبرِّر قضيتهم. وكانت قضيتهم إنهاء حكم الملك چورج في المستعمرات الأمريكية. لقد اقتنعوا بضرورة إنهاء حكم چورج لأنه كان ينتهك حقوق الإنسان الأساسية لمستوطني المستعمرات.

ومن وجهةٍ ما، كان موقف الآباء المؤسسين مثل موقف دول الحلفاء بعد الحرب العالمية الثانية. فعندما مَثَـلَ مجرمو الحرب النازيون أمام المحكمة في نورمبرج *Nuremburg*، أُدينوا بتهمة انتهاك حقوق الإنسان الأساسية كما يُعَرِّفها القانون الأخلاقي (الذي ينعكس في القانون الدولي). إنه القانون الذي يفهمه كافة البشر بالفطرة والذي تخضع له كل الأمم. ولو لم تكن هناك هذه الأخلاق الدولية التي تتجاوز حدود قوانين الحكومة الألمانية العلمانية، لما وجد الحلفاء أساسًا لإدانة النازيين. وهو ما يعني أنه لما أمكننا أن نقول إن النازيين كانوا مخطئين على نحو مطلق ما لم نعرف الصواب المطلق. ولكننا موقنون أنهم مخطئون على نحو مطلق، إذَن مؤكَّد أن القانون الأخلاقي موجود.

٤- **دون القانون الأخلاقي لا نميّز بين العدل والظلم:** ربما تُعَدّ أشهر حجة ضد وجودِ الله هي وجود الشر واستمراره في العالم. فإن كان هناك إله صالح وعادل، لماذا إذَن يسمح بالسوء للأخيار؟ لطالما أكد الملحدون أن الإيمان بعدم وجود هذا الإله أكثر منطقية من محاولة تفسير وجود الشر والله ومعًا.

وكان سي. إس. لويس أحد هؤلاء الملحدين. فقد رأى أن كل ما في العالم من ظلم يؤكِّد إلحاده، حتى بدأ يفكر في الوسيلة التي مكَّنَته من معرفة الظلم أصلاً: فقد كتب: "[بصفتي ملحدًا] كانت حجتي ضد الله هي أن الكون يبدو في منتهى القسوة والظلم. ولكن من أين أتيت بفكرة العدل والظلم؟ فالمرء لا يسمي الخط منكسرًا إلا إذا كان يعرف الخط المستقيم. فبمَ كنتُ أقارن هذا الكون عندما سميتُه ظالمًا؟"[٦] وهذا الإدراك أخرج لويس من الإلحاد وأتى به أخيرًا إلى المسيحية.

إن لويس مثلك ومثلي لا يمكنه أن يحدِّد الظلم إلا عن طريق وجود مقياسٍ ثابت للعدل مكتوب على قلوبنا. فحقيقةً، لا يمكنك أن تعرف الشر ما لم تعرف الخير. ولا يمكنك أن تعرف الخير لولا وجود مقياسٍ ثابت للخير خارجك. ودون ذلك المقياس الموضوعي يُعَدّ أي اعتراض على الشر محض رأي شخصي لك.

أنا (نورم) أحب مناظرة الملحدين اليهود. لماذا؟ لأني لم ألتقِ أبدًا بيهودي يعتقد أن الهولوكوست كان مجرد مسألة رأي. ولكن جميعهم يؤمنون أنه كان خطأً حقيقيًا، بصرف النظر عن رأي أي شخص فيه. وفي إحدى هذه المناظرات مع ملحد يهودي، سألته: "على أي أساس تقول إن الهولوكوست كان خطأ؟" فأجاب: "بإحساسي الأخلاقي الطيب".

وماذا عساه أن يقول غير ذلك؟ فدون أن يعترف بقانون أخلاقي موضوعي، وهو ما يعني الاعتراف بالله، يستحيل أن يجد أساسًا موضوعيًا للاعتراض على الهولوكوست. وبذلك اعتراضه لا يزيد عن كونه رأيًا شخصيًا.

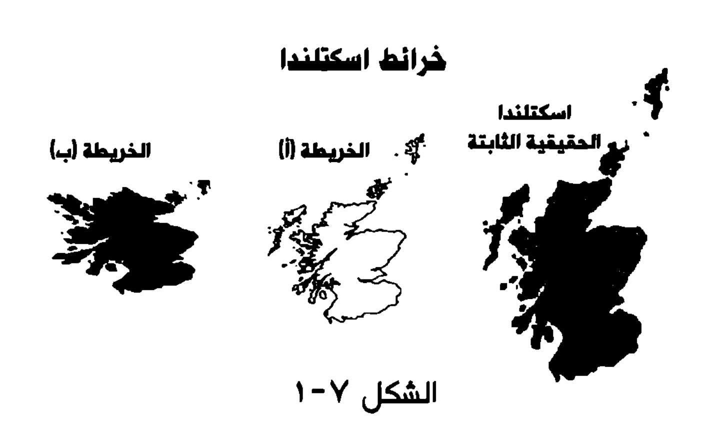
ولكن جميعنا نعرف أن الوضع الأخلاقي للهولوكوست ليس مجرد مسألة رأي. ورد فعلك على أي تعليق يختص بالهولوكوست يجب أن يزودك بمؤشر على وجود شيء خطأ حقًا في قتل الأبرياء. فمهما كان، رد فعلك على شخص يقول: "كانت الوجبة رائعة" سيختلف عن رد فعلك عندما يقول الشخص: "كان الهولوكوست رائعًا". فأنت تعرف حدسيًا أن ذوق الشخص في الطعام شيء وذوقه في الشر شيء آخر. فهناك اختلاف أخلاقي حقيقي بين الوجبة

والقتل، فأحدهما مجرد استحسان والآخر ظلم حقيقي. وردود أفعالك على تلك التعليقات تساعدك على إدراك ذلك.

وسنناقش المزيد عن وجود الشر والله معًا في الملحق الأول. ولكن الآن نقطتنا الأساسية هي: لو لم يوجد قانون أخلاقي، لما أمكننا التعرف على أي نوع من الشر أو الظلم. فبلا عدل، يصبح الظلم بلا معنى. وكذلك ما لم يكن هناك مقياسٌ ثابت للخير، لما كان هناك شر موضوعي. ولكن بما أننا جميعًا نعرف أن الشر موجود، إذَن القانون الأخلاقي موجود أيضًا.

٥- دون القانون الأخلاقي، لما كانت هناك طريقة لقياس الاختلافات الأخلاقية:

فكِّر في خريطتي اسكتلندا في الشكل ٧- ١. أيهما أفضل؟ كيف يمكنك أن تعرف الخريطة الأفضل؟ السبيل الوحيد لتحديد الأفضل أن ترى شكل اسكتلندا الحقيقية. أي أنك لا بد أن تقارن الخريطتين بمكان حقيقي ثابت اسمه اسكتلندا. فلو لم توجد اسكتلندا، تصبح الخريطتان بلا معنى. ولكن بما أن اسكتلندا موجودة، يمكننا أن نرى أن الخريطة (أ) هي الأفضل لأنها أقرب للمقياس الثابت، أي اسكتلندا الحقيقية.



الشكل ٧-١

وهذا ما نفعله بالضبط عندما نقَيِّم سلوك الأم تريزا مقابل سلوك هتلر. إننا نحتكم إلى مقياس ثابت مطلق أعلى من كليهما. وذلك المقياس هو القانون الأخلاقي. وهو ما عبَّر عنه سي. إس. لويس قائلاً:

> في اللحظة التي تقول فيها إن مجموعة معينة من الأفكار الأخلاقية أفضل من غيرها، فإنك في الواقع تقيس الاثنتين بمقياس وتقول إن إحداهما تتفق مع ذلك المقياس

> أكثر من الأخرى. إلا أن المقياس الذي يقيس شيئين يختلف عن أي منهما. فأنت في الواقع تقارنهما بأخلاق حقيقية، معترفًا بوجود صواب حقيقي بصرف النظر عن آراء الناس، وبأن أفكار بعض الناس تقترب من ذلك الصواب الحقيقي أكثر من غيرها. أو يمكنك أن تـُعَبِّرَ عن ذلك بطريقة أخرى: إن كانت أفكارك الأخلاقية أَصَحّ، وأفكار النازيين أقل صحة، فلا بد من وجود شيء، أي نوع من الأخلاق الحقيقية تحدّد صحة هاتين المجموعتين من الأفكار.[٧]

لو لم يوجد قانون أخلاقي، إذَن ليس هناك اختلافات أخلاقية بين سلوك الأم تريزا وسلوك هتلر. وكذلك عبارات من قبيل "القتل شر"، أو "العنصرية خطأ"، أو "يجب ألا تسيء إلى الأطفال" تصبح بلا معنى موضوعي. ولكنها تـُعَبِّر فقط عن آراء شخص، مثل "الشكوكولاتة ألذَ من الـڤـانيليا". فالواقع أنه لولا القانون الأخلاقي لأصبحت التعبيرات القيمية البسيطة مثل "جيد"، "سيئ"، "أفضل"، "أسوأ" بلا معنى موضوعي عندما تُستخدم في سياق أخلاقي. ولكننا نعلم بالتأكيد أن لها معنى. فمثلاً عندما نقول إن "المجتمع يتحسن" أو "المجتمع يسوء"، فنحن نقارن المجتمع بمقياس أخلاقي أعلى منا. وذلك المقياس هو القانون الأخلاقي المكتوب على قلوبنا.

وباختصار، الاعتقاد في النسبية الأخلاقية يعني القول بعدم وجود اختلافات أخلاقية حقيقية بين الأم تريزا وهتلر، أو الحرية والعبودية، أو المساواة والعنصرية، أو العناية والإساءة، أو الحب والكراهية، أو الحياة والقتل. ونحن جميعًا نعلم أن مثل هذه الاستنتاجات عبثية. إذَن لا بد أن تكون النسبية الأخلاقية خاطئة. وإن كانت النسبية الأخلاقية خاطئة، إذَن يوجد قانون أخلاقي موضوعي.

٦- دون القانون الأخلاقي لا يمكنك أن تعرف الصواب والخطأ: عندما أُجريَتْ مناظرة في موضوع الدين في المجال العام بين آلن درشويتس *Alan Dershowitz* الذي يصف نفسه بأنه ملحد وآلن كيز *Alan Keyes* الكاثوليكي في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠ سأل أحد الحضور درشويتس قائلاً: "ما الذي يجعل الشيء صوابًا؟"

أثنى درشويتس على السؤال ثم قال: "نحن نعرف الشر. فقد رأيناه" واستشهد بأمثلة واضحة على الشر مثل الهولوكوست والحروب الصليبية. ثم رمق درشويتس الحضور، ورفع صوته، وأعلن بنبرة واثقة: "**لا أعرف ما هو الصواب!** ولكني أعرف ما هو **الخطأ!**"

ثم بدأ يتحدث إلى الجمهور وكأنه يوبخهم قائلاً: "ولكن عندي شيء آخر أخبركم به يا جماعة. **أنتم** لا تعرفون ما هو الصواب! ففي اللحظة التي تظنون فيها أنكم تعرفون الصواب، لحظة ما تظنون أن عندكم إجابة لسؤال ما هو الصواب، تفقدون بُعدًا ثمينًا جدًا للنمو والتطور. فأنا لا أتوقع أبدًا أن أعرف على وجه الدقة ما هو الصواب، ولكني أتوقع أن أكرس بقية حياتي لمحاولة اكتشافه".[٨] وهنا صفق بعض الحاضرين.

ولكن لم تُتَح الفرصة لكيز ليرد على إجابة درشويتس. ولو أتيحت له الفرصة، لأطلق خطة "رود رَنَر" ليفضح حجة درشويتس التي تفند نفسها، فكان سيسأل درشويتس: "كيف تعرف الخطأ إلا إذا عرفت الصواب؟" فبالفعل لا يمكنك أن تعرف أن ٥ هي الإجابة الخاطئة لمسألة ٢+٢ إلا إذا كنت تعرف الإجابة الصحيحة! وهكذا لا يستطيع درشويتس أن يعرف الخطأ الأخلاقي إلا إذا كانت عنده فكرة عن الصواب الأخلاقي.

وأثناء المناظرة لم يجد درشويتس مشكلة في التعبير عن غضبه الشديد تجاه أشياء يرى أنها خطأ أخلاقيًا (أي القوانين المضادة للمثلية الجنسية، والقوانين المضادة للإجهاض، والعنصرية، والعبودية، والميثاق الأخلاقي للكشافة، والخلط بين الكنسية الدولة... إلخ). ولكنه عندما يزعم أن أشياء معينة خاطئة، يُثْبِت بطبيعة الحال أن أشياء معينة صحيحة. فكل نفي يتضمن إثباتًا. فعندما يقول درشويتس بأن حظر الإجهاض خطأ (نفي)، لا بد أنه يعرف أن النساء لهن حق أخلاقي في الإجهاض (إثبات). ولكن دون القانون الأخلاقي، لا يستطيع درشويتس أن يبرر ذلك الموقف الأخلاقي ولا أي موقف أخلاقي آخر. فهو لا يزيد عن كونه رأيه الشخصي.

وإنه لَخطأ فادح وغرور سافر أن يزعم بأنه ما من أحد في الحاضرين يعرف الصواب. فالمسيحيون غالبًا ما يُنتقَدون لأنهم يقولون إن "عندهم الحق" ولكن ها هو درشويتس يقول إن **عنده الحق الذي يقول إنَّ لا أحد عنده الحق**. ولكن حتى يعرف درشويتس أنه لا أحد عنده الحق، **لا بد أن يعرف هو نفسه الحق.**

وبعض النسبيين مشهورون بهذا النوع من الغرور الذي يفنِّد نفسه. فهم يزعمون أنه ليس هناك حق، ولكنهم بعدئذٍ يطلقون مزاعمهم الخاصة بشأن الحق. فهم يزعمون أنهم لا يعرفون الصواب، ولكنهم بعدئذٍ يزعمون أن قضاياهم السياسية صائبة. وهم ينكرون القانون الأخلاقي في جملة ثم يفترضونه في الجملة التالية.

٧- دون القانون الأخلاقي، تنتفي الأساسات الأخلاقية للاختلافات السياسية أو الاجتماعية:

إن الليبراليين السياسيين مثل آلن درشويتس والكثيرين في هوليوود مشهورون بمعارضتهم الأخلاقية للحرب، والقوانين المناهضة للإجهاض، والقوانين المناهضة للمثلية الجنسية، وخفض الضرائب، وتقريبًا كل القضايا التي يؤيدها "اليمين الديني المحافظ". ومشكلتهم أن الكثير منهم ملحدون، ومن ثم ليس عندهم أسس أخلاقية موضوعية للمواقف التي يؤيدونها بقوة. وذلك لأنه إن لم يوجد قانون أخلاقي، إذَن ليس هناك موقف صائب أو خاطئ موضوعيًا بخصوص أي قضية أخلاقية، بما في ذلك المواقف التي يتخذها الملحدون.

وبلا قانون أخلاقي، ليس هناك خطأ موضوعي في فرض أحدهم دينه بالقوة على الملحدين. ولا يكون هناك خطأ في اعتبار الإلحاد خروجًا على القانون، ومصادرة أملاك الملحدين وإعطائها لكل من پات روبرتسون* *Pat Robertson* وچري فولوِل† *Jerry Falwell*. ولن يكون هناك خطأ في كراهية المثليين والاعتداء عليهم، أو العنصرية، أو الحروب الاستعمارية. ولن يكون هناك خطأ في منع الإجهاض، وتنظيم النسل، والجنس بين الراشدين! أي أنه دون القانون الأخلاقي لا يكون عند الملحدين أسس أخلاقية يبنون عليها حججهم المؤيدة لقضاياهم السياسية المفضلة. فليس هناك حق في الإجهاض، ولا المثلية الجنسية، ولا أيٍّ من مقدساتهم السياسية الأخرى لأنه في عالم لا يؤمن بالله ليس هناك حقوق. فما لم يعترف الملحدون بوجودِ الله وبأن قانونه الأخلاقي يبيح هذه الأنشطة أو يأمر بها، فمواقفهم لا تزيد عن استحسانات ذاتية. وليس هناك التزام أخلاقي على أي شخص ليتفق مع محض استحسانات، أو ليسمح للملحدين أن يفرضوها علينا تشريعيًا‡.

فمما يثير السخرية أن الملحدين بتمرّدهم على القانون الأخلاقي يقوّضون الأساس اللازم

---

* مؤسس إذاعة مسيحية باسم "الشبكة الإذاعية المسيحية" *Christian Broadcasting Network* وهو رجل أعمال وسياسي وكاتب وناشط في العمل الإنساني (*http://www.patrobertson.com/index.asp*)، تم الاطلاع على الرابط بتاريخ ٢٠١٦/١٠/٢٣ (المترجمة)

† مؤسس منظمة سياسية باسم "الأغلبية الأخلاقية" *Moral Majority* لدعم القيم الأخلاقية المحافظة، ومبشر تليفزيوني، توفي سنة ٢٠٠٧ (*https://www.britannica.com/biography/Jerry-Falwell*)، تم الاطلاع على الرابط بتاريخ ٢٠١٦/١٠/٢٣ (المترجمة)

‡ خلافًا للفكرة الشائعة، فإن الملحدين كغيرهم من العاملين بالسياسة يحاولون تشريع الأخلاق. وكتابنا "تشريع الأخلاق" يتناول هذا الموضوع بالتفصيل (*Frank Turek and Norman Geisler, Legislating Morality [Eugene, Ore.: Wipf & Stock, 2003]*). صدر سابقًا عن دار نشر *Bethany, 1998*

للتمرد على أي شيء. فالحقيقة أنه دون القانون الأخلاقي، لا يجد أي شخص أساسًا موضوعيًا لتأييد شيء أو مناهضته. ولكن بما أننا جميعًا نعرف أن القضايا التي تتضمن الحياة والحرية ليست مجرد استحسانات، أي أنها تتضمن حقوقًا أخلاقية فعلية، إذَن القانون الأخلاقي موجود.

٨- لو لم يكن هناك قانون أخلاقي، لما كنا نبحث عن أعذار عندما نخرقه: هل لاحظت أبدًا أن الناس يوجِدون أعذارًا للسلوك غير الأخلاقي؟ إن تقديم الأعذار هو اعتراف غير مباشر بوجود القانون الأخلاقي. فما الداعي لتقديم الأعذار إن لم يكن هناك سلوك غير أخلاقي؟

حتى قمة الفضائل في ثقافتنا اللاأخلاقية، ألا وهي قبول الآخر، تكشف عن القانون الأخلاقي لأن قبول الآخر نفسه مبدأ أخلاقي. فإن لم يكن هناك قانون أخلاقي، لماذا يجب على أي شخص أن يقبل الآخر؟ والحقيقة أن القانون الأخلاقي يدعونا أن نتجاوز قبول الآخر وصولاً إلى المحبة. فقبول الآخر ضعيف جدًا، وذلك لأن قبول الآخر يقول سد مناخيرك واحتمله. ولكن المحبة تقول اذهب وساعده. فقبول الشر ليس من المحبة، إلا أن هذا ما يريدنا الكثير من أبناء ثقافتنا أن نفعله.

فضلاً عن ذلك، الدعوة للتقبُّل والاحتمال تمثِّل اعترافًا غير مباشر بأن السلوك الذي نحتمله هو سلوك خاطئ. لماذا؟ لأنك لا تحتاج أن تدعو الناس لتحمل السلوك الجيد، بل السيئ فقط.* فأنت لا تحتاج أن تقنع أحدًا بأن يتقبل سلوك الأم تريزا، ولكنك تحتاج أن تقنعه بتقبل سلوك بعض النسبيين. وكذلك، لا أحد يقدِّم أعذارًا عندما يتصرف مثل الأم تريزا. ولكننا لا نقدم الأعذار إلا عندما نتصرف عكس القانون الأخلاقي. ولو لم يوجد لما فعلنا ذلك.

المطلق مقابل النسبي: لماذا الخلط؟

إن كان هناك فعلاً قانون أخلاقي مطلقٌ كما بينًا بالحجة، فلماذا يؤمن العديد من الناس بنسبية الأخلاق؟ ولماذا يبدو أن العديد من الناس يتبنون قيمًا مختلفة؟ منطقيًا، يكمن السبب في العجز عن التمييز بين بعض الأمور المختلفة. فلنلقِ نظرة على تلك الاختلافات لإزالة الخلط:

* الكلمة الإنجليزية التي ترجمناها في هذا الكتاب إلى "قبول الآخر" (وهي ترجمة شائعة لها) هي *tolerance* ومن معانيها اللغوية: القدرة على احتمال شيء غير مُسِرّ دون التضرر منه. لذلك فضَّلنا ترجمتها هنا إلى "تقبل واحتمال" لتناسب المعنى المقصود في هذا السياق. (المترجمة)

الخلط # ١: الأخلاق المطلقة مقابل السلوك المتغير

من الأخطاء الشائعة عند النسبيين أنهم يخلطون بين السلوك والقيمة. أي أنهم يخلطون بين ما هو **كائن** وما **يجب أن يكون**. فما **يفعله** الناس عُرضَة للتغير، ولكن ما **يجب** أن يفعلوه لا يتغير. وهذا هو الفرق بين عِلم الاجتماع والأخلاق. فعلم الاجتماع **وصفي** *descriptive*، في حين أن الأخلاق **توجيهية** *prescriptive*.

وهو ما يعني أن النسبيين غالبًا ما يخلطون بين الموقف السلوكي المتغير والواجب الأخلاقي الثابت. فمثلاً، عند مناقشة موضوع أخلاقي مثل الجنس قبل الزواج أو عيش رجل وامرأة معًا دون زواج، غالبًا ما تسمع الناس المؤيدين له يقولون شيئًا من قبيل: "لاحظوا أننا في القرن الحادي والعشرين" وكأنّ السلوكيات الحالية تحدِّد الصواب والخطأ. وحتى تبين عبثية التفكير النسبي، ليس عليك إلا أن تحوِّل المناقشة إلى قضية أخلاقية أخطر مثل القتل، الذي ازدادت معدلاته أيضًا في أمريكا اليوم عنها منذ خمسين سنة. فكم عدد النسبيين الذي سيؤيدون القتل بأن يقولوا لنا "لاحظوا أننا في القرن الحادي والعشرين". إن هذا ما يوصلهم إليه تفكيرهم عندما يخلطون بين ما يفعله الناس وما يجب أن يفعلوه.

ويتضح جانب آخر في مغالطة **ما هو كائن وما يجب أن يكون** عندما يقول الناس إنه ليس هناك قانون أخلاقي لأن الناس لا يطيعونه. طبعًا الجميع يعصون القانون الأخلاقي بنسبةٍ ما، بدءًا من الكذب الأبيض وانتهاءً بالقتل. إلا أن هذا لا ينفي وجود قانون أخلاقي ثابت، ولكنه يعني ببساطة أننا جميعًا ننتهكه. فالجميع يرتكبون أخطاء في الرياضيات، إلا أن هذا لا ينفي وجود قواعد رياضية ثابتة.

الخلط # ٢: الأخلاق المطلقة مقابل الفهم المتغير للحقائق

هناك خلط آخر بين وجود قيمة أخلاقية مطلقة وفهم الحقائق المستخدمة في تطبيق تلك القيمة. فمثلاً أشار سي. إس. لويس إلى أنه في أواخر القرن الثامن عشر كان يُحكم على الساحرات كالقـَتَلة، ولكن هذا لا يحدث الآن.[٩] والنسبي ستكون حجته: "أرأيت؟ قِيَمُنا الأخلاقية تغيَّرت لأننا لم نعُد نقتل الساحرات. الأخلاق نسبية حسب الزمن والثقافة".

إلا أن زعم النسبي خاطئ. فما تَغَيَّرَ ليس المبدأ الأخلاقي الذي مفاده أن القتل خطأ بل إدراك أو فهم الحقائق بخصوص ما إذا كانت "الساحرات" تستطعن فعلاً أن تقتلن الناس بلعناتهن أم لا. فالناس لم يعودوا يعتقدون أن الساحرات قادرات على ذلك. ومن ثم فالناس لم يعودوا يعتبرونهن قتلة. أي أن **إدراك الموقف الأخلاقي نسبي** (ما إذا كانت الساحرات قاتلات فعلاً أم لا)، **ولكن القِيَم الأخلاقية المتضمَّنة في الموقف ليست نسبية** (القتل كان دائمًا خطأ وسيظل دائمًا خطأ).

والعجز عن التفريق بين الاثنين يؤدي بالناس أيضًا إلى الاعتقاد بأن الاختلافات الثقافية تعكس اختلافات جوهرية في القيم الأخلاقية الجوهرية. فمثلاً، يعتقد البعض أنه بما أن الهندوس يقدّسون البقر والأمريكيين يأكلونه، إذَن هناك اختلاف جوهري بين القيم الأخلاقية عند الأمريكيين والهندوس. ولكن سبب تقديس الهندوس للبقرة لا يمُتّ بصلة لقيمة أخلاقية جوهرية، ولكنه مرتبط باعتقادهم الديني المختص بتناسخ الأرواح. فالهنود يعتقدون أن البقر قد يحمل أرواح بشر موتى، لذلك لا يأكلونه. ولكننا في الولايات المتحدة لا نؤمن أن أرواح موتانا قد تسكن في البقر، لذلك نأكل البقر بحُرية. وفي التحليل النهائي، ما يظهر أنه اختلاف أخلاقي هو في الواقع اتفاق، فكلانا يؤمن أن أكل الجَدَّة خطأ! فالقيمة الأخلاقية الجوهرية التي تقول إنه من الخطأ أن تأكل جَدَّتَك يعتبرها أبناء الثقافتين قيمة مطلقة. ولكنهم يختلفون فقط فيما إذا كانت روح الجدة في البقرة أم لا![١٠] فأهل الثقافتين يختلفون في **إدراكهم للحقائق** المتصلة بالقيمة الأخلاقية، ولكنهم يتفقون جوهريًا على ضرورة احترام القيمة الأخلاقية.

الخلط # ٣: الأخلاقيات المطلقة مقابل تطبيقها على مواقف بعينها

كما رأينا ردود أفعال الناس تُعَرِّفهم الصواب من الخطإ أكثر من أفعالهم. فعندما يقع الناس ضحايا سلوك سيئ، لا يجدون صعوبة في فهم أن السلوك خاطئ على نحو مطلق. ولكن حتى إن انتهت ضحيتان إلى الاختلاف على أخلاقية فعل بعينه، هذا لا يعني أن الأخلاق نسبية. لأنه يمكن أن يوجد قانون أخلاقي مطلق حتى إنْ عَجَزَ الناس عن معرفة الفعل الصائب الذي يجب عمله في موقف بعينه.

فكِّر في المعضلة الأخلاقية التي غالبًا ما يستخدمها أساتذة الجامعات ليجعلوا طلابهم يؤمنون بالنسبية: هناك خمسة أشخاص على قارب نجاة لا يكفي إلا لأربعة. فإن لم يُلقَ

أحدهم في الماء، سيموت الجميع. ويبذل الطلاب قصارى جهدهم لحل المعضلة، ويتوصلون لقرارات مختلفة، وأخيرًا يستخلصون أن اختلافهم يُثْبِت أن الأخلاق لا بد أن تكون نسبية.

إلا أن المعضلة في الواقع تُثْبِت العكس، ألا وهو أن الأخلاق مطلقة. كيف؟ **لأنه لو كانت الأخلاق نسبية لما كانت هناك معضلة أصلاً!** لو كانت الأخلاق نسبية ولو لم يكن هناك حق مطلق في الحياة، لقُلْتَ: "ليكن ما يكون! ارموا الجميع من القارب! لا يهم". إن سبب صعوبة المعضلة هو أننا نعلم قيمة الحياة.

ورغم أن الناس يخطئون فهم الأخلاق في المواقف المعقدة، فهم لا يخطئون في الأساسيات. فمثلاً، الجميع يعرفون أن القتل خطأ. هتلر كان يعرف ذلك. لذلك كان عليه أن ينزع صفة الإنسانية عن اليهود حتى يبرِّر قتله لهم. وحتى آكلو لحوم البشر يبدو أنهم يعرفون أن قتل البشر الأبرياء خطأ. صحيح إنهم قد يعتقدون أن أفراد القبائل الأخرى ليسوا بشرًا، ولكن الاحتمال الأكبر أنهم يعتبرونهم بشرًا. وإلا، كما يشير ج. بودچيشفسكي، لماذا يؤدي آكلو لحوم البشر "طقوسًا تكفيرية معقَّدة قبل قتل الناس؟"[١١] فما كانوا لَيؤدون هذه الطقوس إلا إذا كانوا يعتقدون أن هناك خطأ ما فيما سيفعلون.

إذَن الأساسيات واضحة، حتى وإن كانت بعض المشكلات الصعبة ليست بهذا الوضوح. علاوة على ذلك، وجود مشكلات صعبة في الأخلاق لا ينفي وجود قوانين أخلاقية موضوعية، تمامًا كما أن المشكلات الصعبة في العلم لا تنفي وجود قوانين طبيعية موضوعية. فعندما يواجِه العلماء مشكلة صعبة في العالم الطبيعي (أي عندما يصعب عليهم معرفة الإجابة) لا ينكرون وجود عالَم موضوعي. ويجب ألا ننكر وجود الأخلاق لمجرد أننا نجد صعوبة في معرفة الحل في بضعة مواقف صعبة.

فكما أن العلم يحوي مشكلات سهلة وأخرى صعبة، كذلك الأخلاق. والإجابة عن سؤال علمي بسيط مثل "لماذا تسقط الأشياء إلى الأرض؟" تُثْبِت وجود قانون طبيعي واحد أو قوة طبيعية واحدة على الأقل (أي الجاذبية). وكذلك الإجابة الصادقة على سؤال أخلاقي بسيط مثل "هل القتل مبرَّر؟" تُثْبِت وجود قانون أخلاقي واحد على الأقل (أي: لا تقتل). فإن وُجِدَ واجب أخلاقي **واحد فقط** (مثل لا تقتل، أو لا تغتصب، أو لا تعذب الرضع)، إذَن القانون الأخلاقي موجود. وإن كان القانون الأخلاقي موجودًا، إذَن مشرِّع القانون الأخلاقي موجود.

الخلط # ٤: أمر مطلق (ما) مقابل ثقافة نسبية (كيف)

هناك فارق آخر مهم، غالبًا ما يتجاهله دعاة النسبية الأخلاقية بين الطبيعة المطلقة للأمر الأخلاقي والطريقة النسبية التي يتكشف بها ذلك الأمر في الثقافات المختلفة. فمثلاً، كل الثقافات عندها نوع من التحية، وهو تعبير عن المحبة والاحترام. إلا أن الثقافات تختلف اختلافًا كبيرًا فيما بينها في شكل تلك التحية. ففي بعض الثقافات تكون قُبلة، وفي ثقافات أخرى حضن، وفي ثقافات أخرى مصافحة أو انحناءة. **فما** يجب فعله مشترك بين كل الثقافات، ولكن **كيف** يجب فعله يختلف بين الثقافات. والعجز عن إدراك هذا الفرق يضلل الكثيرين فيعتقدون أن اختلاف ممارسات الناس يعني اختلاف قيمهم. إلا أن القيمة الأخلاقية مطلقة، ولكن كيفية ممارستها نسبية.

الخلط # ٥: الأخلاق المطلقة مقابل الاختلافات الأخلاقية

غالبًا ما يشير النسبيون إلى قضية الإجهاض، وهي قضية خلافية ليبينوا أن الأخلاق نسبية. فالبعض يرى أن الإجهاض مقبول، في حين أن البعض الآخر يعتبره قتلاً. إلا أن اختلاف الآراء حول الإجهاض لا يعني نسبية الأخلاق.

وفي الحقيقة أن الخلاف حول قضية الإجهاض برمته، لا يُعتبَر مثالاً على نسبية القيم الأخلاقية، بل إن الخلاف يرجع أساسًا إلى أن كل جانب يدافع عما يرى أنه قيمة أخلاقية **مطلقة**: ألا وهي حماية الحياة والسماح بالحرية (أي السماح للمرأة أن "تتحكم في جسدها"). ولكن الجدل يدور حول **أي** القيمتين تمَسّ (أو لها الأولوية في) قضية الإجهاض.[١٢] فلو لم يكن الجنين كائنًا بشريًا، إذَن يجب أن يطبِّق التشريع القيمة المناصِرة للحرية. ولكن بما أن الجنين **هو فعلاً** كائن بشري، يجب أن يطبِّق التشريع القيمة المناصِرة للحياة؛ لأن حق الشخص في الحياة يَجُبّ حق شخص آخر في الحرية الشخصية. (فالجنين ليس مجرد جزء من جسد المرأة، ولكن هو أيضًا له جسده بشفرته الوراثية الفريدة، وفصيلة دمه، ونوعه). حتى إن كنا في شك بشأن الوقت الذي فيه تبدأ الحياة، يجب أن هذا الشك يرجّح كفة حماية الحياة، فالعقلاء لا يطلقون النيران إلا إذا كانوا متأكدين **على نحو مطلق** أنهم لن يقتلوا إنسانًا بريئًا.

تَذَكَّر أن رد فعلنا لممارسة بعينها يكشف معتقداتنا الحقيقية عن أخلاقية الممارسة. وقد ذكر رونالد ريجان *Ronald Reagan* ملاحظة ذكية قائلاً: "لقد لاحظت أن كل مَنْ

يؤيدون الإجهاض هم من المولودين". فعلاً، كل مناصري الإجهاض سيتحولون فورًا إلى مناصرين للحياة لو عادوا إلى الرحم. **فرد فعلهم** لاحتمالية تعرّضهم للقتل سيُذَكِّرهم أن الإجهاض خاطئ تمامًا. وبالطبع معظم الناس يعرفون في أعماق قلوبهم أن الطفل الذي لم يولد بعد هو إنسان، ومن ثم يعرفون أن الإجهاض خطأ. وحتى بعض النشطاء المؤيدين للإجهاض يعترفون أخيرًا بذلك.* ولذا، في النهاية هذا الخلاف الأخلاقي لا يرجع إلى نسبية الأخلاق ولا إلى غموض القانون الأخلاقي. ولكن هذا الخلاف الأخلاقي موجود لأن البعض يخمدون القانون الأخلاقي ليبرِّروا ما يريدون فعله. وهو ما يعني أن تأييد الإجهاض مسألة إرادية أكثر منه مسألة عقلية. (للاطلاع على تناول أكثر تفصيلاً لهذا الموضوع وغيره من الموضوعات الأخلاقية، راجع كتابنا بعنوان "تشريع الأخلاق"[١٣٦]).

الخلط # ٦: غايات مطلقة (قيم) مقابل وسائل نسبية

غالبًا ما يخلط النسبيون الأخلاقيون بين الغاية (القيمة نفسها) ووسيلة بلوغ تلك الغاية. والكثير من النزاعات السياسية تقع في هذه الفئة. ففي بعض القضايا (لا كلّها طبعًا)، الليبراليون والمحافظون يريدون أشياء واحدة، أي **غايات** واحدة. ولكنهم يختلفون في أفضل **الوسائل** لإدراك تلك الغايات.

فمثلاً، بخصوص الفقراء، يعتقد الليبراليون أن المعونات الحكومية أفضل وسيلة لمساعدتهم. ولكن بما أن المحافظين يعتقدون أن هذه المعونات تخلق نوعًا من الاعتمادية، فهم يفضلون خلق فرص اقتصادية حتى يساعد الفقراءُ أنفسَهم. لاحظ أن الغاية واحدة (مساعدة الفقراء)، ولكن الوسيلة مختلفة. وكذلك كلٌّ من مؤيدي الحرب ومؤيدي السِّلْم يرغبون في السلام (الغاية)؛ ولكنهم ببساطة يختلفون حول ما إذا كان الجيش القوي هو أفضل وسيلة لتحقيق هذا السلام أم لا. فكلاهما يتفقان على **الغاية المطلقة**؛ ولكنهما يختلفان في **الوسيلة** النسبية لتحقيقها.

---

* تُعد نُعمي وولف *Naomi Wolf* الناشطة النسائية مثالاً بارزًا على هذه الحالة. فهي تعترف أن الجميع يعلمون أن الطفل قبل ولادته إنسان، وأن الإجهاض خطية حقيقية تستلزم كفارة. ولكن نعمي بدلاً من أن تقترح القضاء على الإجهاض، تقترح أن النساء اللاتي تجهضن تنظِّمن سهرة بالشموع في مراكز الإجهاض الطبية تعبيرًا عن حزنهن! وهو ما يشبه طقسًا تكفيريًا مثل طقوس آكلي لحوم البشر - معذرةً لهذا التشبيه.

القانون الأخلاقي: ماذا يقول عنه الداروينيون؟

إذَن الدليل على القانون الأخلاقي معقول، والاعتراضات عليه تخطئ الهدف. فكيف يتعامل الداروينيون إذَن مع مسألة الأخلاق؟ في الواقع معظم الداروينيين يتجنبون الموضوع نهائيًا. لماذا؟ لأنه ليس من السهل أن يفسروا وجود صواب وخطأ موضوعيين (وهو ما يعرفه حتى الداروينيين في قلوبهم) إلا إذا كان هناك مشرِّع للقانون الأخلاقي.

إلا أن الدارويني إدوارد أو. ويلسون *Edward O. Wilson* يُعَدّ استثناءً لافتًا للنظر. فهو يزعم أن حِسَّنا الأخلاقي تطوَّر كما تطورنا نحن، أي بالانتخاب الطبيعي. وبينما يعترف ويلسون أن "التقدم الذي تحقق لاستكشاف الحس الأخلاقي بطرق بيولوجية ضعيف جدًا"، يؤكد أن العملية البيولوجية لانتقال الجينات من الآباء إلى الأبناء "عبر آلاف الأجيال أنشأت حتمًا الأحكام الأخلاقية".[١٤] أي أن الأخلاق تتحدد ماديًا ووراثيًا. وهي تقوم على مشاعر أو نزعات فطرية موروثة، لا على مقياس موضوعي للصواب والخطأ. ولكننا رأينا عجز الانتخاب الطبيعي عن تفسير الأشكال الجديدة من الحياة (الفصل السادس). وسنرى بعد قليل أن الانتخاب الطبيعي عاجز كذلك عن تفسير "الأحكام الأخلاقية" الكامنة في تلك الأشكال الجديدة من الحياة.

أولاً، الداروينية تؤكد أنه ليس هناك إلا المادة، ولكن المادة لا تحوي أخلاقًا. فما وزن الكراهية؟ وهل الحُبّ له ذَرَّة؟ وما التركيب الكيميائي لجزيء القتل؟ إنها أسئلة بلا معنى لأن الجسيمات الفيزيائية ليست مسؤولة عن الأخلاق. فإن كانت المواد هي المسؤول الوحيد عن الأخلاق، إذَن هتلر لم تكن عليه أي مسؤولية أخلاقية عما فعل، كل المشكلة أن جزيئاته كانت رديئة. هذا كلام فارغ، والجميع يعلم ذلك. فالأفكار البشرية والقوانين الأخلاقية التي تتجاوز حدود الزمان والمكان ليست أشياء مادية، مثلها مثل قوانين المنطق والرياضيات. فهي كيانات غير مادية لا يمكن أن توزن ولا أن تقاس فيزيائيًا. ونتيجةً لذلك، لا يمكن تفسيرها بلغة مادية عن طريق الانتخاب الطبيعي أو غيره من الوسائل الإلحادية.

ثانيًا، لا يمكن أن تكون الأخلاق مجرد فطرة كما يُرَجِّح ويلسون لأن: ١) لدينا نزعات فطرية متصارعة، ٢) غالبًا ما يكون هناك شيء آخر يقول لنا أن نتجاهل الفطرة الأقوى حتى نفعل شيئًا أنبل. فمثلاً، إنْ تَعَرَّض شخص لسرقة بالإكراه وسمعته يستغيث طالبًا النجدة، قد تكون

فطرتك الأقوى أن تظل في الأمان ولا "تـوَرِّط نفسك"، وفطرتك الأضعف (إن جاز أن نسميها هكذا) تميل إلى المساعدة. وهو ما يُعَبِّر عنه سي. إس. لويس قائلاً:

> ولكنك ستجد بداخلك، إضافةً إلى هاتين النزعتين، شيئًا ثالثًا يخبرك بأنه ينبغي عليك أن تتبع النزعة إلى المساعدة، وأن تقمع النزعة إلى الهروب. هذا الشيء الذي يحكم بين النزعتين، الذي يقرِّر أي النزعتين يجب تعزيزها، لا يمكن أن يكون هو نفسه أيًا منهما. وإلا نقول أيضًا إن النوتة الموسيقية التي تخبرك في لحظة معينة أن تعزف نغمة معينة على البيانو دون غيرها، هي نفسها إحدى النغمات الموجودة على أصابع البيانو. إن القانون الأخلاقي يخبرنا بالنغمة التي يجب أن نعزفها: ونزعاتنا الفطرية هي مجرد أصابع البيانو.[١٥]

ثالثًا، يقول ويلسون إن الأخلاق الاجتماعية تطوَّرت لأن تلك الأخلاق "المتعاونة" ساعدت البشر على أن يبقوا على قيد الحياة معًا. إلا أن هذا يفترض غاية للتطور، ألا وهي البقاء، في حين أن الداروينية بطبيعتها لا غاية لها لأنها عملية غير ذكية. وحتى إن قبلنا أن البقاء هو الغاية، لا يمكن للداروينيين أن يفسروا ما يقوم به الناس من سلوكيات تدمّرهم رغم معرفتهم بذلك (مثل التدخين، وإدمان الخمور والمخدرات، والانتحار... إلخ). ولا يمكن للداروينيين أيضًا أن يفسروا قمع الناس غالبًا لنزعتهم الفطرية نحو البقاء في سبيل مساعدة الآخرين، حتى إن تطلَّب الأمر التضحية بحياتهم في بعض الأحيان*. وكلنا نعرف أن هناك غايات أنبل من مجرّد البقاء على قيد الحياة: الجنود يضحون بأنفسهم من أجل بلادهم، والآباء والأمهات من أجل أبنائهم، وإن كانت المسيحية صحيحة، فالله ضحى بابنه من أجلنا.

رابعًا، ويلسون وغيره من الداروينيين يفترضون أن البقاء شيء "خيرٌ"، ولكن ليس هناك خير حقيقي دون القانون الأخلاقي الموضوعي. وفي الواقع هذه هي مشكلة الأنظمة الأخلاقية البراجماتية والنفعية التي تقول "افعل ما ينفع" أو "افعل ما يجلب

---

* يقول چفري شلوس *Jeffrey Schloss* الحاصل على دكتوراه في علم البيئة وعلم أحياء التطور بأنه رغم من أن بعض السلوكيات التي تتسم بالغيرية والتضحية بالذات قد يمكن تفسيرها تفسيرًا داروينيًا، هناك سلوكيات أخرى لا يمكن تفسيرها بهذه الطريقة؛ ويركز شلوس بوجه خاص على السلوكيات التي ساعدت من كان يمكن أن يقعوا ضحية للهولوكوست وخبأتهم. انظر فصلاً بقلم چفري شلوس بعنوان *Evolutionary Account of Altruism and the Problem of Goodness by Design," in William Dembski, ed., Mere CreationDowners Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1998, , 236-261.*

الخير الأعظم". افعل ما ينفع في تحقيق غاية مَنْ، غاية الأم تريزا أم غاية هتلر؟ افعل ما يجلب الخير الأعظم بناءً على تعريف مَنْ للخير، الأم تريزا أم هتلر؟ إن هذه الأنظمة الأخلاقية لا بد أن تختلس لنفسها خفيةً القانون الأخلاقي لتعريف الغايات التي يجب أن نعمل على تحقيقها ولتعريف "الخير" الأعظم.

خامسًا، الداروينيون يخلطون بين كيفية **معرفة** المرء للقانون الأخلاقي و**وجود** القانون الأخلاقي. حتى إن كنا نعرف بعض "أحكامنا الأخلاقية" نتيجةً للعوامل الوراثية أو البيئية، هذا لا يعني عدم وجود قانون أخلاقي موضوعي خارجنا.

برز هذا الموضوع في المناظرة بين بيتر آتكينز ووليم لين كريج. فقد زعم آتكينز أن الأخلاق تطورت من الوراثة ومن "أمخاخنا الضخمة". ولكن كريج أصاب في إجابته قائلاً: "إن هذا الكلام يُبَيِّن، في أفضل الأحوال، كيف **تُكتَشَف** القيم الأخلاقية، ولكنه لا يبين أن تلك القيم **مختَرَعة**". مؤكِّدًا أنه من الممكن أن أرِث قدرات رياضية من أمي وأتعلم منها جدول الضرب، ولكن قوانين الرياضيات موجودة بغض النظر عن كيفية معرفتي بها. وكذلك، الأخلاق موجودة بصرف النظر عن الكيفية التي نعرفها بها.

وأخيرًا، الداروينيون لا يستطيعون أن يفسروا لماذا **يجب** على أي شخص أن يطيع أي "حكم أخلاقي" يقوم على البيولوجيا. لماذا **يجب** على الناس **ألا** يقتلوا، أو يغتصبوا، أو يسرقوا ليحصلوا على ما يريدون إن لم يكن هناك أي شيء أبعد من هذا العالم؟ لماذا **يجب** على القوي أن "يتعاون" مع الضعيف رغم أن القوي يستطيع أن يبقى على قيد الحياة مدة أطول باستغلال الضعيف؟ وعلى أي حال، التاريخ زاخر بمجرمين ودكتاتوريين أطالوا حياتهم لأنهم تحديدًا عصَوا كل "الأحكام الأخلاقية" بقمع خصومهم والقضاء عليهم.

الأفكار لها عواقب

إن كان الداروينيون على حق في أن الأخلاق تنبع من مصدر طبيعي، إذَن الأخلاق ليست موضوعية ولا مطلقة. لأنه إن لم يكن هناك إله وإن كان البشر قد تطوَّروا من مادة لزجة، إذَن وضعنا الأخلاقي لا يرقى عن المادة اللزجة؛ لأنه ليس هناك شيء أبعد منا يغرس فينا أخلاقًا موضوعية أو كرامة.

وقد أدرك الداروينيون وأتباعهم مضامين هذه الفكرة. وفي الواقع استخدم أدولف هتلر *Adolf Hitler* نظرية داروين كتبرير فلسفي للهولوكوست. وقد سَطَّر في كتابه المنشور سنة ١٩٢٤ بعنوان *Mein Kampf* ("كفاحي") هذه الكلمات:

> إن كانت الطبيعة لا ترغب في أن الضعفاء يخالطون الأقوياء، فهي ترفض أن جنسًا أرقى يختلط بجنس أدنى. وذلك لأنه في هذه الحالة كل ما بذلَتْهُ من جهود على مدى مئات الآلاف من السنين لتأسيس مرحلة تطورية أعلى في الكينونة سيذهب أدراج الرياح.
>
> إلا أن هذه الحماية تسير جنبًا إلى جنب مع القانون الجارف الذي يقضي بانتصار الأقوى والأفضل وبحقه في البقاء. فمَنْ أراد العيش عليه أن يحارب. ومَنْ لا يرغب في أن يحارب في هذا العالم، حيث الكفاح المستمر هو قانون الحياة، لا حق له في الوجود.[١٦]

وهتلر، مثل غيره من الداروينيين، يُشَخْصِن الطبيعة دون وجه حق بأنه ينسب لها الإرادة (أي "الطبيعة لا ترغب"). وفكرته الرئيسية هي أن هناك أجناسًا أرقى وأجناسًا أدنى، واليهود بما أنهم جنس أدنى، لا حق لهم في الوجود إن كانوا لا يرغبون في الحرب. أي أن العنصرية ثم الإبادة الجماعية هي التداعيات المنطقية للداروينية. ومن ناحية أخرى، المحبة ثم التضحية بالذات هي التداعيات المنطقية للمسيحية. الأفكار لها عواقب.

لقد انكشفت العنصرية المرتبطة بالتطور أثناء "محاكمة سكوپس في قضية القرد" الشهيرة سنة ١٩٢٥. فكتاب الأحياء المقرَّر على المدرسة الثانوية الذي تَسَبَّب في المحاكمة كان يتكلم عن خمسة أجناس من البشر، وخَلَـصَ إلى أن الجنس "القوقازي" هو "أرقى الأنواع جميعًا".* وهو ما يتناقض طبعًا بشكل مباشر مع تعليم الكتاب المقدس (تك١: ٢٧؛

* إليك النص كاملاً: "أجناس البشر.— يوجد في الوقت الحالي خمسة أجناس أو تنوعات من البشر على وجه الأرض، وكل منها يختلف عن الآخر اختلافًا كبيرًا في النزعات الفطرية، والعادات الاجتماعية، وإلى حدٍّ ما في البنية. فهناك النوع الإثيوبي أو الزنجي الذي نشأ في أفريقيا، وجنس الملايو أو البني وهو من جزر الهادي، والهنود الحمر، والجنس المنغولي أو الأصفر ومنهم السكان الأصليون للصين واليابان والإسكيمو، وأخيرًا **الجنس القوقازي أرقى الأنواع جميعًا** الذي يمثّله سكان أوروبا وأمريكا البيض المتحضرون" (جورج وليم هَنْتَر *George William Hunter*، "أُسُس علم الأحياء: مقدَّمة في صورة مشكلات" *Essentials of Biology: Presented in Problems [New York, Cincinnati, Chicago: American Book, 1911], 320,* الخط الأسود العريض من إضافة الكاتب).

أع١٧: ٢٦، ٢٩؛ غل٣: ٢٨). وهو يتناقض أيضًا مع ما يؤكده إعلان الاستقلال ("كافة البشر مخلوقون سواسية").

وفي زمن أقرب استخدم بيتر سينجر *Peter Singer* الداروينى والأستاذ في جامعة پرينستون *Princeton* الداروينية ليؤكد أن "حياة المولود الجديد **أقل** قيمةً من حياة الخنزير، أو الكلب، أو الشمبانزي"[١٧]. نعم، ما قرأتـه قيل بالفعل.

ما عواقب أفكار سينجر الداروينية الصادمة؟ إنه يعتقد أن الآباء والأمهات يجب أن يمكنهم قتل أطفالهم حديثي الولادة حتى سن ٢٨ يومًا! وهذه المعتقدات تتفق اتفاقـًا تامًا مع الداروينية. فإن كنا جميعًا نشأنا من مادة لزجة، فلا أساس للقول بأن البشر أفضل أخلاقيًا من أي سلالة أخرى. ولكن السؤال الوحيد هو لماذا نُحِدّ قتل الأطفال بسن ٢٨ يومًا، أو ٢٨ شهرًا، أو ٢٨ سنة؟ إن لم يكن هناك مشرِّع للقانون الأخلاقي، فليس هناك خطأ في القتل في أي عمر. وطبعًا الداروينيون أمثال سينجر قد يرفضون هذه النتيجة، ولكنهم لا يملكون أساسًا موضوعيًا للرفض إلا إذا تمكنوا من الاحتكام إلى مقياس أعلى منهم، ألا وهو مشرع للقانون الأخلاقي.

وچيمز ريتشلز *James Rachels* مؤلف كتاب "مخلوقون من الحيوانات: المضامين الأخلاقية للداروينية" *Created from Animals: The Moral Implications of Darwinism*، يدافع عن الموقف الدارويني الذي مفاده أن النوع البشري ليس له قيمة في ذاته تفوق أي نوع آخر. وقد كتب ريتشلز عن ذوي الإعاقة الذهنية قائلاً:

> ماذا نقول عنهم؟ الاستنتاج الطبيعي وفقـًا للتعليم الذي نحن بصدده [الداروينية] يقول إن مركزهم يتساوى مع الحيوانات. وربما يجب أن نستخلص أيضًا أنه يمكن استخدامهم كما نستخدم الحيوانات غير البشرية، ربما كفئران تجارب، أو كغذاء؟[١٨]

على قدر بشاعة هذا الكلام، أي استخدام ذوي الإعاقة الذهنية كفئران تجارب أو غذاء، إلا أن الداروينيين لا يستطيعون أن يقدموا سببًا أخلاقيًا لعدم جواز استخدام **أي** كائن بشري على هذا النحو. فالداروينيون لا يستطيعون أن يدينوا التجارب التي تشبه التجارب النازية لأن العالم الدارويني لا يحوي مقياسا أخلاقيًا موضوعيًا.

ومؤخرًا كتب داروينيان آخَران، هما راندي ثورنهيل *Randy Thornhill* وكريج پالمر *Craig Palmer* كتابًا يؤكِّد أن الاغتصاب عاقبة طبيعية للتطور.[١٩] فهما يعتقدان أن الاغتصاب "ظاهرة طبيعية بيولوجية ناتجة عن الإرث التطوري البشري" بالضبط مثل "رُقَط النمر وعنق الزرافة الطويل".[٢٠]

ورغم أن هذه الاستنتاجات الداروينية عن القتل والاغتصاب صادمة بحق، يجب ألا تكون مفاجئة لأي شخص يفهم التداعيات الأخلاقية للداروينية. لماذا؟ لأنه طبقًا للداروينيين **كل** السلوكيات تُحَدَّد وراثيًا. ورغم أن بعض الداروينيين قد يختلفون مع فكرة أن القتل والاغتصاب ليسا خطأ (تحديدًا لأن القانون الأخلاقي يخاطبهم في ضمائرهم)، فتلك الاستنتاجات هي النتيجة الحتمية لمنظورهم الفلسفي للحياة. لأنه إن كان كل ما هنالك هو الأشياء المادية، إذَن القتل والاغتصاب ليسا إلا نتائج التفاعلات الكيميائية في مُخّ الجاني التي تنشأ عن الانتخاب الطبيعي. علاوة على ذلك، القتل والاغتصاب لا يمكن أن يكونا خطأً موضوعيًا (أي ضد القانون الأخلاقي) لأنه إن لم يكن هناك إلا المواد الكيميائية، فليس هناك قوانين. فالقوانين الأخلاقية الموضوعية تتطلب مشرّعًا للقانون متجاوزًا لحدود الزمان والمكان، ولكن المنظور الدارويني للحياة استبعده مُقَدَّمًا. لذا، الداروينيون المُتَّسِقون مع هذا المنظور لا يمكنهم إلا أن يعتبروا أن استهجان القتل والاغتصاب مجرد رأي شخصي، وأنهما لا يمثلان أخطاء أخلاقية حقيقية.

ولفهم ما يكمن وراء التفسير الدارويني للأخلاق، علينا أن نميز بين التأكيد *assertion* والحجة *argument*. التأكيد يقرِّر استنتاجًا، أما الحجة تقرِّر الاستنتاج **ثم تؤيده بالدليل**. والداروينيون يقدمون تأكيدات، لا حججًا. فليس هناك أدلة تجريبية ولا جنائية على أن الانتخاب الطبيعي يمكنه أن يفسر الأشكال الجديدة للحياة، فكم بالحري الأخلاق. والداروينيون يؤكِّدون ببساطة أن الأخلاق تطوَّرت طبيعيًا لأنهم يعتقدون أن الإنسان تطوَّر طبيعيًا. وهم يعتقدون أن الإنسان تطوَّر طبيعيًا، لا لأن عندهم أدلة على هذا الاعتقاد، ولكن لأنهم استبعدوا المسبِّبات الذكية مقدَّمًا. لذلك، التفسير الدارويني للأخلاق يضاف إلى سلسلة القصص التي "بلا دليل" التي تقوم على القياس الدائري والافتراضات الفلسفية المسبقة الخاطئة.

الملخص والخلاصة

عندما نقدِّم حلقتنا النقاشية بعنوان "الاثنتا عشرة نقطة التي تُثْبِت صحة المسيحية"، نجد أن العبارتين التاليتين عن الأخلاق تجذب انتباه الحاضرين فورًا:

إن لم يكن هناك إله، فما فعله هتلر كان مجرد مسألة رأي!

إن كان شيء واحد على الأقل خطأً حقيقيًا من الناحية الأخلاقية، كأن نقول إن تعذيب الرُضّع خطأ، أو إن اختراق المباني عمدًا بالطائرات التي تُقِلّ أبرياء خطأ، إذَن الله موجود.

هاتان الجملتان تساعدان الناس على إدراك أنه بدون مصدر موضوعي للأخلاق، كل ما ندعوه قضايا أخلاقية ليس إلا استحسان شخصي. هتلر كان يحب أن يقتل الناس، والأم تريزا كانت تحب أن تساعدهم. فإن لم يكن هناك مقياس أعلى من هتلر والأم تريزا، إذَن ليس هناك مصيب ولا مخطئ بحق، ولكنها آراء شخصية عكس بعضها البعض.

ولحسن الحظ أنه، كما رأينا، هناك مقياس أخلاقي حقيقي أعلى من البشر. وقد كتب سي. إس. لويس "البشر في جميع أنحاء البسيطة يعرفون هذه الفكرة الغريبة التي مفادها أنه يجب عليهم أن يسلكوا بطريقة معينة، ولا يمكنهم فعليًا التخلص منها. ثانيًا، إنهم يعرفون أيضًا أنهم لا يسلكون وفقًا لهذه الطريقة. فهم يعرفون قانون الطبيعة ولكنهم يكسرونه. هاتان الحقيقتان هما أساس كل تفكيرنا الواضح عن أنفسنا وعن الكون الذي نعيش فيه".[٢١]

ونتمنى أن نكون قد قمنا بشيء من التفكير الواضح في هذا الفصل. وإليك ملخص ما تناولناه:

١- هناك مقياس مطلق للصواب والخطإ مكتوب على قلوب كافة البشر. الناس قد ينكرونه، وقد يخمدونه، وأفعالهم قد تناقضه، ولكن ردود أفعالهم تكشف أنهم يعرفونه.

٢- النسبية خاطئة. فالبشر لا يحدِّدون الصواب والخطأ، ولكننا نكتشف الصواب والخطأ. فلو كان البشر يحددون الصواب والخطأ، لكان "على صواب" أي شخص يؤكد أن الاغتصاب والقتل والهولوكوست أو أي شر آخر ليس خطأ. ولكننا نعرف حدسيًا أن تلك الأفعال خاطئة من خلال ضمائرنا التي تعكس القانون الأخلاقي.

٣- هذا القانون الأخلاقي لا بد أن يكون له مصدر أعلى منا لأنه أمر توجيهي منقوش على

قلوب جميع البشر. وبما أن الأوامر دائمًا ما يكون لها آمر يصدرها، أي أنها لا تنشأ من الفراغ، فالآمر الذي أصدر القانون الأخلاقي (الله) لا بد أن يكون موجودًا.

٤- هذا القانون الأخلاقي هو مقياسُ الله للصواب، وهو يساعدنا أن نحكم في الآراء الأخلاقية المختلفة التي يتبناها الناس. ودون مقياسِ الله، لا يبقى لنا إلا هذه الآراء البشرية. ولكن القانون الأخلاقي هو المقياس النهائي الذي يقاس به كل شيء. (في اللاهوت المسيحي القانون الأخلاقي هو طبيعةُ الله نفسها. وهو ما يعني أن الأخلاق ليست اعتباطية، إنها ليست "افعل هذا ولا تفعل ذاك لأني أنا الله وأنا أقول ذلك". لا، الله لا يخترع قواعد بقرارات فجائية. ولكن مقياس الصواب هو ذات طبيعة الله نفسه؛ عدالة بلا حدود ومحبة بلا حدود).

٥- رغم أن الاعتقاد الشائع هو أن كل الأخلاق نسبية، فالقيم الأخلاقية الجوهرية مطلقة، وهي تتجاوز الثقافات. والتشوش حول هذا الأمر غالبًا ما يقوم على سوء فهم أو سوء تطبيق المطْلَقَات الأخلاقية، لا على رفض حقيقي لها. وهو ما يعني أن القيم الأخلاقية مطلقة حتى إن كان فهمنا لها أو للظروف التي يجب تطبيقها فيها ليس مطلقًا.

٦- الملحدون لا يملكون أساسًا حقيقيًا للصواب والخطإ الموضوعيين. وهو ما لا يعني أن الملحدين ليسوا أخلاقيين أو أنهم لا يعرفون الصواب من الخطإ. بل على العكس، الملحدون يستطيعون أن يعرفوا الصواب من الخطإ، وهم يعرفونه بالفعل لأن القانون الأخلاقي منقوش على قلوبهم كما على قلوب سائر البشر أجمعين. ولكنهم بينما **يعتقدون** في الصواب والخطإ الموضوعيين، لا يجدون وسيلة **لتبرير** هذا المعتقد (إلا إذا اعترفوا بمُشَرِّع للقانون الأخلاقي، وعندئذٍ لا يكونون ملحدين).

وفي النهاية، لا يمكن للإلحاد أن يبرِّر صواب أو خطأ أي شيء من الناحية الأخلاقية. فهو لا يستطيع أن يضمن حقوق الإنسان ولا العدالة النهائية في الكون. فلكي تكون ملحدًا، ملحدًا متسقًا مع مبادئه، عليك أن تؤمن أنه لا خطأ حقيقي في القتل، ولا الاغتصاب، ولا الإبادة الجماعية، ولا التعذيب، ولا غير ذلك من سائر الأفعال الوحشية. ولكنك بالإيمان عليك أن تُصَدِّق أنه لا فرق أخلاقي بين القاتل والمرسَل، ولا بين المدرس والإرهابي، ولا بين الأم تريزا وهتلر. أو بالإيمان عليك أن تصدق أن المبادئ الأخلاقية الحقيقية نشأت من لا شيء. وبما أنه واضح أن هذه المعتقدات غير منطقية، **فلسنا نملك الإيمان الكافي للإلحاد.**

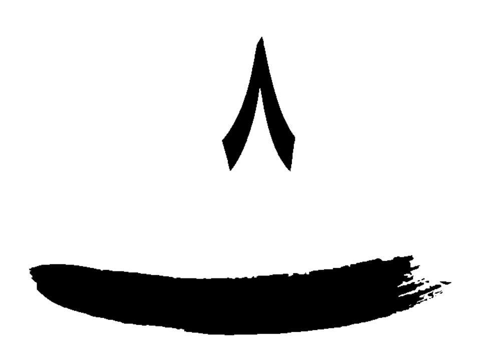
الفصل ٨ يتناول :

١- الحَقّ المتعلق بالواقع أو حقيقة الواقع أمر قابل للمعرفة.
٢- عكس الحق هو الخطأ.
٣- وجودُ إله خالقٍ حافظ حقٌ. وهو ما يُستدَل عليه من:
أ) بداية الكون (الحجّة الكونية *Cosmological Argument*)
ب) تصميم الكون (الحجة الغائية *Teleological Argument* / المبدأ الإنساني *Anthropic Principle*)
ج) تصميم الحياة (الحجة الغائية)
د) القانون الأخلاقي (الحجة الأخلاقية *Moral Argument*)

٤- إن كان الله موجودًا، إذَن المعجزات ممكنة.

٥- يمكن استخدام المعجزات لتأكيد رسالة من الله (أي باعتبارها أعمالاً إلهية تؤكد كلام الله).

٦- العهد الجديد يتمتع بالمصداقية التاريخية. وهو ما يُستدَل عليه من:
أ) الشهادة المبكرة
ب) شهادة شهود العيان
ج) الشهادة غير المُفَبْرَكة (الصادقة)
د) شهود العيان الذين لم يكونوا مخدوعين
٧- العهد الجديد يقول إن يسوع زَعَمَ أنه الله.
٨- زَعْمُ يسوع أنه الله تَأكّد معجزيًا بما يلي:
أ) تحقيقه للكثير من النبوات المختصة به
ب) حياته الخالية من الخطية وأعماله المعجزية
ج) تنبؤه بقيامته وإتمامه لها
٩- إذَن يسوع هو الله.
١٠- كل ما يُعَلِّمه يسوع (الذي هو الله) حقٌ.
١١- يسوع عَلَّمَ أن الكتابَ المقدسَ كلمةُ الله.
١٢- إذَن القول بأن الكتابَ المقدسَ كلمةُ الله هو حق (وكل ما يتعارض مع الكتاب خطأ).



المعجزات: علامات تشير لله أم سذاجة؟

"إن اعترفنا بالله، هل لا بد أن نعترف بالمعجزات؟ بالتأكيد، بالتأكيد، لا مناص من ذلك. هذه هي الصفقة الكاملة".

سي. إس. لويس

مَنْ المؤهل للفوز بالنهائي؟

يجب أن نتوقف برهة ونجمع قطع اللغز التي اكتشفناها حتى الآن. وتَذَكَّر أننا نبحث عن الوحدة في التنوع. إننا نحاول أن نرتب قطع الحياة المتنوعة في صورة متسقة. وصورتنا المتسقة حتى الآن تبين لنا أن الحق موجود ويمكن معرفته. وأي إنكار للحق يفترض الحق مسبقًا. إذَن لا مهرب من وجود الحق. وإن كنا لا نستطيع أن نعرف معظم الحق معرفة مطلقة نظرًا لمحدوديتنا البشرية، إلا أننا نستطيع أن نعرف الكثير من الحقائق بدرجة كبيرة من اليقين (أي "بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي"). ومن هذه الحقائق وجودُ الله وطبيعته. وطبقًا لما تناولنا من فروع الأدلة، أي الحجج الكونية، والغائية، والأخلاقية يمكننا أن نعرف بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي أنه يوجد إله خلق الكون ويحفظه وله صفات معينة.

من الحجة الكونية نعرف أن الله:

١- ذاتي الوجود، وخارج حدود الزمان والمكان، وغير مادي (فبما أنه* خلق الزمان والمكان

* هذا الكائن شخص عاقل، لا جمادًا غير عاقل. ونحن نعلم أن هذا الكائن له شخصية لأنه فعل شيئًا لا يفعله إلا الأشخاص، أي أنه اختار. لقد اختار أن يخلق.

والمادة، لا بد أن يكون خارج الزمان والمكان والمادة). وهو ما يعني أنه غير محدود، أي أنه لانهائي.

٢- قوته تفوق الخيال، بما أنه خلق الكون كله من العدم.

٣- شخص، بما أنه اختار أن يحوِّل حالة من العدم إلى كون مادي زمكاني (القوة اللاشخصية لا تقدر أن تختار).

من الحجة الغائية نعرف أن الله:

١- يتصف بذكاء فائق بما أنه صمَّم الحياة والكون بهذا التعقيد والدقة المذهلينَ.

٢- له غرض، بما أنه صمَّم أشكال الحياة الكثيرة بحيث تعيش في هذه البيئة المحددة والمنظمة.

من الحجة الأخلاقية نعرف أن الله:

يتصف بالنقاء الأخلاقي المطلق (هو المقياس الثابت للأخلاق الذي تقاس عليه كافة الأفعال. وهذا المقياس يشتمل على عدالة ومحبة بلا حدود).

إن منظور الله الخالق الحافظ *Theism* هو المصطلح الدقيق الذي يصف مثل هذا الإله. والآن إليك الحقيقة المذهلة بخصوص هذه النتائج: الله الخالق الحافظ الذي اكتشفناه يتطابق مع إله الكتاب المقدس، إلا أننا اكتشفناه دون اللجوء للكتاب المقدس. وقد بيَّنا أنه بالمنطق السليم، والعِلْم، والفلسفة يمكن معرفة الكثير عن إله الكتاب المقدس. والحقيقة أن هذا هو ما يقوله الكتاب المقدس نفسه (مثلاً مزمور١٩؛ رومية١: ١٨- ٢٠؛ ٢: ١٤، ١٥). ويطلق اللاهوتيون على إعلانِ الله عن نفسه بهذه الصورة مصطلح الإعلان الطبيعي أو العام (الذي يُرى بوضوح بالاستقلال عن أي نص). أما إعلان الكتاب المقدس يُطلق عليه الإعلان الخاص.

ومن ثم، نعرف من الإعلان الطبيعي أن الإيمان بالله الخالق الحافظِ صحيح. ويساعدنا هذا الاكتشاف أن نعرف شكل سطح العلبة الصحيح، بل يساعدنا أيضًا أن نعرف الأشكال التي لا يمكن أن تمثِّل الشكل الصحيح. وبما أن عكس الصحيح هو الخاطئ (الفصل الثاني)، فإننا نعرف أن أي منظور للحياة يناقض الإيمان بالله الخالق الحافظ منظور خاطئ. أو يمكننا التعبير عن ذلك بطريقة أخرى: لا يمكن أن يكون هناك دين صحيح إلا واحد فقط من بين أديان العالم الرئيسية التي تؤمن بالله الخالق الحافظ، أي اليهودية أو المسيحية أو الإسلام. وسائر ديانات العالم الرئيسية جميعًا لا يمكن أن تكون صحيحة لأنها لا تؤمن بالله الخالق الحافظ.

يمكن أن تكون صحيحة (تؤمن بالله الخالق الحافظ)	لا يمكن أن تكون صحيحة (لا تؤمن بالله الخالق الحافظ)
١- اليهودية	١- الهندوسية (تؤمن بوحدة الوجود وتعدّد الآلهة)
٢- المسيحية	٢- البوذية (تؤمن بوحدة الوجود أو الإلحاد)
٣- الإسلام	٣- العصر الجديد (يؤمن بوحدة الوجود)
	٤- الإنسانية العلمانية (إلحادية)
	٥- المورمونية (تؤمن بتعدد الآلهة)
	٦- الويكا *Wicca* (تؤمن بوحدة الوجود أو تعدد الآلهة)
	٧- الطاوية (تؤمن بوحدة الوجود أو الإلحاد)
	٨- الكونفوشيوسية (إلحادية)
	٩- الشنتو *Shinto* (تؤمن بتعدد الآلهة)

الجدول ٨-١

وقد يبدو هذا الكلام زعمًا متكبِّرًا ينكر وجود الحق في العديد من ديانات العالم في هذه المرحلة. ولكن بالمنطق البسيط، وفقًا لقانون عدم التناقض، لا يمكن لديانات مضادة لبعضها البعض أن تكون جميعًا صحيحة. فكما يُستبعَد بعض لاعبي كرة القدم من سجل المرشحين للَّعب لأنهم يفتقدون للقدرات اللازمة، وهو إجراء عادل، هكذا تُستبعَد ديانات معينة في العالم من سجل الديانات التي يمكن أن تكون صحيحة، لأنها تفتقد للمؤهلات اللازمة.

لذا، منطقيًا، إن كان الإيمان بالله الخالق صحيحًا، إذَن كل الأديان التي لا تؤمن بالله الخالق خاطئة. إلا أن هذا لا يعني أن كل تعاليم الديانات التي لا تؤمن بالله خاطئة أو أن تلك الديانات تخلو تمامًا من أي صلاح، بل من المؤكد أن هناك شيئًا من الحق والصلاح في معظم ديانات العالم. ولكنه يعني ببساطة أن الديانات التي لا تؤمن بالله خاطئة من حيث كونها طريقة لرؤية العالم (أي منظورًا فلسفيًا للحياة). فرغم أن بعض تفاصيلها قد تكون صحيحة، فهي خاطئة في جوهرها. وذلك لأنها منظومات بُنِيَت على أساس خاطئ حتى إن كانت تشتمل على قدر من الحق.

فمثلاً يُعَلِّم الهندوس بأنك تحصد ما تزرع، وهو تعليم صحيح، إلا أن المنظور الهندوسي للحياة، ألا وهو "أنك" لا توجد وجودًا حقيقيًا لأن كل شيء يمثل جزءًا من واقع واحد لا يمكن التمييز بين أجزائه واسمه البراهمان *Brahman*، هو منظور خاطئ. والفلسفة الإنسانية

العلمانية تؤكِّد حقيقة الشر، وهو تأكيد صحيح، إلا أن المنظور الإنساني للحياة الذي ينكر وجود مقياس موضوعي لتحديد الشر هو منظور خاطئ. والمورمون يُعَلِّمون أن هناك مقاييس أخلاقية يجب أن نتبعها، وهو تعليم صحيح، إلا أن المنظور المورموني للحياة الذي يقول بتعدد الآلهة منظور خاطئ.[١]

وهذه النقطة الأخيرة بخصوص المورمونية تطرح سؤالاً، ألا وهو: لماذا يدحض وجودُ إله خالق فكرةَ تعدد الآلهة؟ إنه يدحضُ تعدد الآلهة لأن الله لا متناه، ولا يمكن أن يوجد أكثر من كائن واحد لامتناه. وذلك لأن التمييز بين كائن وآخر يستلزم وجودَ اختلافات بين الكائنات. ولكنهم لو اختلفوا في أي ناحية، فهذا يعني أن أحدهم ينقصه شيء موجود عند آخر. وإن كان أحد الكائنات ينقصه شيء موجود عند آخر، إذَن الكائن الناقص ليس لا متناهيًا لأن الكائن اللامتناهي لا ينقصه شيء بطبيعة الحال. لذا، يستحيل أن يوجد إلا كائنـًا واحدًا لا متناهيًا.

وهنا يمكن لأحدهم أن يقول إنه توجد كائنات متناهية (أو "آلهة") أقوى من البشر. ففي الواقع اليهودية والمسيحية والإسلام تـُعَلـِّم جميعًا بوجود ملائكة وشياطين. إلا أن هذا يختلف عن تعدد الآلهة الذي ينكر وجود كائن أعلى لا متناه سرمدي تدين له كل المخلوقات بوجودها ويكون كل البشر مسؤولين أمامه في النهاية. وبما أن الإيمان بالله الخالق الحافظِ صحيح، إذَن الإيمان بتعدد الآلهة خاطئ مثله مثل الإلحاد، ووحدة الوجود، وغيرها من المنظورات التي لا تؤمن بالله الخالق.

ولكننا ابتعدنا عن موضوعنا. فالنقطة الرئيسية هي أن سطح العلبة الصحيح للكون يُظهر إلهًا خالقـًا. وهو ما يعني أن واحدة فقط من ديانات العالم الرئيسية الثلاث هي المؤهَّلة للفوز بالنهائي: إما اليهودية، أو المسيحية، أو الإسلام. والآن، لا يمكن منطقيًا أن تكون كل ديانات العالم هذه التي تؤمن بالله الخالق صحيحة، لأنها تزعم مزاعم تنفي بعضها البعض. فضلاً عن ذلك، من المحتمل أيضًا أنه ليس هناك ديانة واحدة صحيحة تمامًا من بين ديانات العالم هذه. فربما أن إيمانها بالله الخالق هو الصحيح، وفيما عدا ذلك لا تحوي من الحق إلا القليل. فهذا ممكن. إلا أنه بما أننا نعلم بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي أن الله موجود وأنه يتصف بالصفات التي عددناها أعلاه، وهي صفات تشتمل على التصميم، والغرض، والعدالة، والمحبة، إذَن يجب أن نتوقع منه أن يكشف المزيد من نفسه وغرضه لحياتنا. وهو ما يتطلب منه أن يتواصل معنا. والاحتمال المتوقع أن واحدة من هذه الديانات الرئيسية الثلاث التي تؤمن بالله الخالق تحتوي على ذلك التواصل.

كيف يتواصلُ الله؟

كما رأينا، الله تواصل معنا من خلال الخليقة والضمير (الإعلان الطبيعي أو العام) الذي يزوِّدنا بأفكار أولية عن وجوده وقوته ومتطلباته الأخلاقية. ولكن كيف يمكن أن يعلن الله نفسه بحيث نصل إلى فهم أكثر تفصيلاً لغرضه النهائي لنا؟

لماذا لا يستطيع أن يَظهر لكلٍّ منا؟ يستطيع، ولكن هذا الأسلوب قد يقهر إرادتنا الحرة. سي. إس. لويس له أفكار ثاقبة في هذا الموضوع. ففي كتابه "رسائل خربر"، يكتب الشيطان الكبير "خربر" الرسالة التالية لتلميذه "علقم":

> لا شك أنك تساءلت لماذا لا يُزيد العدو [الله] من استخدام قوته حتى يكون حضوره محسوسًا لنفوس البشر بالدرجة التي يبغيها وفي أي لحظة. ولكنك الآن فهمت أن طبيعة خطّته في صميمها تمنعه من استخدام هذين السلاحين: ما يستعصي على المقاومة، وما يستعصي على الشك. فقهر الإرادة البشرية (الذي يَنتج حتمًا عن حضوره المحسوس في أبهت وأخف درجاته) عديم الفائدة له. فهو لا يستطيع أن يغتصب. ولكنه يستطيع فقط أن يُبهر.[٢]

إن لم يستخدم الله هذا الخيار القاهر بأن يتعامل وجهًا لوجه مع كل شخص على الكوكب، إذَن ربما أنه اختار طريقة للتواصل أكثر استتارًا. (والحقيقة أن الكتاب المقدس يقول إن الله ليس ظاهرًا باستمرار على النحو الذي نتمناه [إشعياء٤٥: ١٥]). فمن المحتمل أن الله أظهر نفسه بطريقةٍ ما لفئة منتقاة من البشر على مر قرون كثيرة وأوحى لهم أن يكتبوا ما شهدوه وسمعوه منه. واللغة المكتوبة واسطة دقيقة للتواصل يسهل نسخها بدقة ونقلها للأجيال المتعاقبة، وفي الوقت نفسه مَن يقرِّر بإرادته الحرة أنه لا يريد أن يزعج نفسه بالله يستطيع أيضًا أن يتجاهلها.

لذا فالكتاب وسيلة مناسبة للتواصل الإلهي ولكنها ليست قاهرة. ولكن كتاب مَنْ يا تُرى؟ هل تواصَلَ الله من خلال كتاب اليهود، أم كتاب المسيحيين، أم كتاب المسلمين؟ فإن كان أيٌّ من هذه الكتب يمثِّل بحق رسالة من الله، فكيف يمكننا أن نحدِّد هذا الكتاب؟

ختم الملك

قبل عصر الاتصالات الجماهيرية عندما كانت كل الرسائل التي ترسَل إلى مسافات بعيدة تُسَلَّم باليد، كان الملك يضع ختمه على الرسالة. وهذا الختم هو علامة تبيِّن لمتلقي الرسالة

أنها أصلية، أي أنها مرسَلة فعلاً من الملك لا مِن شخص ينتحل شخصية الملك. وطبعًا لإنجاح العمل بهذا النظام، كان لا بد للختم أن يتخذ شكلاً فريدًا أو غير مألوف، ويسهل التعرف عليه، وكان يجب ألا يكون بحوزة أحد إلا الملك.

وقد تَمَكَّن الله من استخدام نظام مشابه ليؤكِّد أصالة رسائله، وهذا النظام هو المعجزات. فالمعجزات فريدة وغير مألوفة، ويسهل التعرف عليها، ولا أحد يستطيع أن يفعلها إلا الله. حتى المتشككون عندما يطالبون الله بآية يعترفون ضمنـًا أن المعجزات تـُثبْت وجوده.

ما هي المعجزة؟ المعجزة هي فعل خاص يقوم به الله يقطع مجرى الأحداث الطبيعي. وهو ما عبرَّ عنه الملحد أنتوني فلو *Antony Flew* تعبيرًا جيدًا حين قال: "المعجزة شيء ما كان لَيحدث أبدًا لو تـُركَت الطبيعة هكذا لأدواتها الخاصة".[٢] ومن ثم يمكننا أن نقول إن القوانين الطبيعية تصف ما يحدث بانتظام بواسطة المسببات الطبيعية، أما المعجزات، إن كانت تحدث أصلاً، تصف ما يحدث نادرًا بالمسببات فوق الطبيعية.

فبالمعجزات استطاع الله أن يخبر العالم أي كتاب أو أي شخص يُعَبِّر عنه. لذا، إن أراد الله أن يبعث رسالة من خلال موسى، أو إيليا، أو يسوع، أو بولس، أو أي شخص آخر، كان باستطاعته أن يصبّ المعجزات من خلال ذلك الشخص.

فإن كان الله يعمل فعليًا بهذه الطريقة، إذَن المعجزة تؤكِّد الرسالة، والآية تؤكد العظة. أو يمكننا التعبير عن هذا المعنى بشكل آخر: المعجزة فعل يقوم به الله ليؤكّد كلمة الله بواسطة رسول من الله.

والسؤال هو: هل الله يعمل بهذه الطريقة؟ هل ملك الكون يستخدم هذه الآيات؟ هل المعجزات ممكنة أصلاً؟ عالَمنا العلماني يقول لا. ولكنه مخطئ خطًا فادحًا كما سنرى.

هل الصندوق مفتوح أم مغلق؟

منذ قريب واجه أستاذ كلية اللاهوت رونالد ناش تحديًا كبيرًا وهو في زيارة إلى روسيا ليتحدث إلى المعلمين الروس. فقد أراد أن يتحدث إليهم عنِ الله، ولكنه كان يعرف أنه لن يصل إلى أي شيء معهم إلا إذا نجح في التغلب على تحيزاتهم القديمة المتأصلة ضد الإيمان بالله. فالروس تعلّموا على مدى أكثر من سبعين عامًا منظورًا فلسفيًا للحياة يستبعدُ الله مسبقًا. وكان الإلحاد الدين الرسمي للدولة، والمنظور الإلحادي للحياة يؤكد أنه لا يوجد سوى العالم الطبيعي المادي. وطبقـًا لمعتقدات الملحدين، المعجزات مستحيلة لأنه ليس هناك عالم

فوق طبيعي. ومَن يؤمن بغير ذلك كمَنْ يؤمن بقصص الجنيات.

فبدأ ناش بأن عرض أمامهم صندوقين صغيرين من الورق المقوى. كان أحدهما مفتوحًا، وكان الآخر مغلقًا.

وبدأ كلامه قائلاً: "إليكم الفرق بين منظوركم الفلسفي للحياة ومنظوري". وقال مشيرًا إلى الصندوق المغلق: "أنتم تعتقدون أن الكون المادي مغلق؛ أي أنه لا يوجد سوى الكون ولا شيء خارج الكون".

ثم انتقل إلى الصندوق المفتوح وواصل كلامه قائلاً: "أنا أيضًا أعتقد أن الكون المادي موجود، ولكني أعتقد كذلك أن الكون مفتوح، أي أن هناك شيء خارج الكون نسميه الله". ثم توقف ناش لحظة وأضاف: "والله خَلَقَ الصندوق!"

ثم أدخل يده في الصندوق المفتوح وقال: "كما أستطيع أن أُدْخِل يدي في هذا الصندوق لأتَحَكَّم في محتوياته، كذلك الله يستطيع أن يَدخُل في كوننا ويجري ما نسميه معجزات".[٤]

ولسببٍ ما كان هذا التشبيه عميقًا في نظر الروس. وبدأت المصابيح تضيء في عقول المعلمين في القاعة كلها. فقد افترض هؤلاء المعلمون أن منظورهم الفلسفي الطبيعي للحياة صحيح ولم يفكروا في أي بدائل. ولكن ناش ساعدهم أن يفكروا في أنه من المحتمل أن بديلاً آخر كالإيمان بالله الخالق أدلته أقوى.

وكما رأينا من الفصل الثالث إلى السابع، الإيمان بالله الخالق أدلته أقوى فعلاً. فنحن نعرف بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي أنه يوجد إله خالق. وبما أن الله موجود، فالكون الذي يمثله الصندوق المغلق خطأ. إن الصندوق مفتوح وقد خلقه الله. إذَن من الممكن أن يتدخل الله في العالم الطبيعي بصنع المعجزات. **والحقيقة أن المعجزات ليست ممكنة فحسب، بل المعجزات فعلية، لأن أعظم المعجزات جميعًا، ألا وهي خلق الكون من عدم، حدثت بالفعل. لذا، بخصوص الكتاب المقدس، إن كان تكوين ١: ١ صحيحًا - «في البدء خلق الله السموات والأرض»- إذَن من السهل تصديق سائر المعجزات الأخرى الواردة في الكتاب المقدس.**

فهل الإله الذي خلق الكون كله من عدم يستطيع أن يشق البحر الأحمر؟ ويُنزِل نارًا من

السماء؟ ويحفظ رَجُلاً داخل حوت لمدة ثلاثة أيام؟* ويتنبأ بأحداث مستقبلية بدقة؟ ويحوِّل الماء إلى خمر؟ ويشفي الأمراض في لحظة؟ ويقيم الموتى؟ طبعًا. كل تلك الأحداث المعجزية مهام بسيطة بالنسبة لكائن قوي بلا حدود خَلَقَ الكون أصلاً.

إلا أن هذا لا يعني أن الله صنع تلك المعجزات الكتابية. فهذا ما سنراه لاحقًا. ولكنه يعني فقط أنه باستطاعته أن يفعل ذلك، أي أن تلك المعجزات ممكنة. ففي ضوء حقيقة أننا نعيش في عالم خَلَقَه الله، يتضح بجلاء أن استبعاد المعجزات مسبقًا (كما يفعل الكثير من الملحدين) موقف غير مشروع. كما قال سي. إس. لويس "إن اعترفنا بالله، هل لا بد أن نعترف بالمعجزات؟ بالتأكيد، بالتأكيد، لا مناص من ذلك. هذه هي الصفقة الكاملة".[٥]

لذلك، لماذا يقول العديد من الناس اليوم إن المعجزات مستحيلة أو إنه لا يجب تصديقها؟ كيف يمكن للمتشككين ألا يؤمنوا بالمعجزات والكون كله يبدو معجزة مذهلة؟ يجب أن نتناول تلك الأسئلة قبل أن نبحث ما إذا كان الله قد أكد حق اليهودية أو المسيحية أو الإسلام بالمعجزات.

الاعتراضات على المعجزات

منذ أواخر القرن السابع عشر ظَهَرَ اعتراضان رئيسيان على المعجزات يجب أن نتناولهما بالفحص. أتى أولهما من بنيديكت سبينوزا *Benedict Spinoza*، وثانيهما من ديفيد هيوم. وسنبدأ باعتراض سبينوزا.

القوانين الطبيعية ثابتة لا تتغير ***Immutable***: كان بنيديكت سبينوزا، وهو يهودي يؤمن بوحدة الوجود، أول مَن نشر الحجة القائلة بأن القوانين الطبيعية ثابتة لا تتغير في سبعينيات القرن السابع عشر. وتقول حجة سبينوزا المضادة للمعجزات ما معناه:

١- المعجزات خرق للقوانين الطبيعية.

٢- القوانين الطبيعية ثابتة لا تتغير.

* كثيرًا ما نسمع مسيحيين يحاولون شرح قصة يونان المعجزية بالاستناد إلى قصص يُفترض أنها حقيقية عن صيادين عاشوا فترة معينة داخل حيتان. وحتى إن كانت تلك الأحداث صحيحة، فهي لا تمت بصلة لقصة يونان على الإطلاق. فالقصد من قصة يونان أن تكون قصة معجزية، أي أنها شيء لا يستطيع أن يفعله سوى الله. فمؤكد أنه ليس هناك رجل يستطيع أن يعيش في بطن سمكة عملاقة لمدة ثلاثة أيام ثم تتقيؤه السمكة على بقعة معينة من اليابس، إلا إذا كان ذلك عملاً إلهيًا. وإن كان يبدو شيئًا يستحيل تصديقه لأن العالم لا يسير بتلك الطريقة عادةً، **فالهدف** من الحدث هو أن يبدو بهذا الشكل الذي يصعب تصديقه! فالمعجزة التي يمكن تفسيرها بالوسائل الطبيعية ليست معجزة. والمحصلة النهائية هي أن الله الذي صنع أعظم المعجزات جميعًا، أي خَلْق الكون بما فيه من حيتان وبشر، لا يجد أدنى صعوبة في تصميم معجزة يونان.

٣- يستحيل خرق قوانين ثابتة لا تتغير.

٤- إذَن المعجزات مستحيلة.

إن كان سـپينوزا على حق، أي أنه إن كان مستحيلاً التغلب على القوانين الطبيعية، أو توقيفها مؤقتًا، أو التدخل فيها، إذَن المعجزات مستحيلة.

إلا أن مشكلة هذا الاعتراض أنه يصادر على المطلوب.* فإن عرَّفْتَ القوانين الطبيعية بأنها ثابتة، إذَن المعجزات مستحيلة طبعًا. ولكن هذا هو السؤال الذي نبحث عن إجابته! فمَن قال إن القوانين الطبيعية ثابتة؟

إن سـپينوزا، تمشّيًا مع منظور وحدة الوجود، استبعد مسبقًا الإله الخالق دون وجه حق، ومن ثم استبعد المعجزات. ولكن إن كان الله موجودًا، المعجزات ممكنة. وكما رأينا أعظم المعجزات جميعًا، وهي خلق الكون من عدم، حدثت بالفعل.

والخليقة نفسها تبيِّن أن القوانين الطبيعية ليست ثابتة. فليس من الطبيعي أن ينشأ شيء من لا شيء. ولكن هذا ما حدث.

ونحن نعرف أيضًا أن القوانين الطبيعية ليست ثابتة لأنها **توصيفات** لما يحدث، وليست **تعليمات** تحدِّد ما يجب أن يحدث. إن **القوانين** الطبيعية لا تسبِّب فعليًا أي شيء، ولكنها تصف فحسب ما يحدث بانتظام في الطبيعة. فهي تصف آثار **القوى** الطبيعية الأربع المعروفة: الجاذبية، والمغناطيسية، والقوى النووية القوية والضعيفة. وما إن تُدخل كائنات ذكية في الصورة، حتى يمكن التغلّب على القوى الطبيعية. فنحن نعلم أن تلك القوى يمكن التغلب عليها لأننا نحن أنفسنا نفعل ذلك يوميًا.

فمثلاً عندما يمسك لاعب البيسبول الكرة وهي تسقط، فهو يتغلب على قانون الجاذبية. وهو ما نفعله كلما نقود طائرة أو نطلق صاروخًا في الفضاء. ففي هذه الحالات نحن لا نغير الجاذبية ولكننا نتغلب عليها. فإن كانت كائنات متناهية مثلنا تستطيع أن تتغلب على القوى الطبيعية، إذَن من المؤكد أن الكائن اللامتناهي الذي خلق تلك القوى يستطيع أن يفعل ذلك.†

---

* انظر الحاشية السفلية ص ١٤٤. (المترجمة)

† القوانين الطبيعية تختلف عن القوانين الأخلاقية من حيث إنها لا تقوم على طبيعة الله، ومن ثم فهي قابلة للتغير. فرغم أن الله لا يستطيع أن يخرق القوانين الأخلاقية، لأنه هو المقياس الثابت للأخلاق، يستطيع أن يغير القوانين الطبيعية أو يوقفها مؤقتًا كما يشاء. فالواقع أن الله كان يمكنه أن يخلق واقعًا ماديًا، بما فيه القوانين الطبيعية والبيئة الطبيعية والكائنات الحية، بسمات تختلف كليةً عن سماته الحالية.

المعجزات عديمة المصداقية: منذ عدة سنوات، دعيتُ (أنا نورم) لأتحدث في كلية لاهوت جامعة هارڤارد، وهي من أكثر كليات اللاهوت ليبراليةً في البلاد. وكان موضوعي بعنوان "وداع هارڤارد للإنجيلية المحافظة قبل الأوان" "*Harvard's Premature Farewell to Evangelicalism*". صَدِّقْ أو لا تصدق، هارڤارد مثل معظم الجامعات في عصرها تأسست على يد مسيحيين إنجيليين محافظين لتعليم الطلاب معرفة يسوع المسيح. وميثاق هارڤارد سنة ١٦٤٦ ينص صراحةً على الغرض منها (مع الاحتفاظ بالشواهد الكتابية المذكورة فيه):

> ليتعلمْ كل طالب صراحةً ويُستَحَثُّ جَدّيًا أن يعتبر فعليًا أن الغاية الأساسية من حياته ودراساته هي معرفةُ الله ويسوع المسيح التي هي الحياة الأبدية (يوحنا١٧: ٣)، ومن ثم يجعل المسيحَ قاعدةَ حياتِه، باعتباره الأساس الوحيد لكل المعرفة والتعلم السليم. وإذ يدرك كل طالب أن الرب وحده واهب الحكمة، يوجِّه نفسه جديًا لطلب الحكمة منه بالصلاة السرية (أمثال٢: ٣).[٦]

فكيف ابتعدت هارڤارد كل هذا البعد عن ميثاقها؟ لأنها صدَّقت واحدة من أقوى الحجج التي صيغت ضد المعجزات. ولكنها ليست حجة سپينوزا. فنتيجةً للتطورات التي شهدها العلم الحديث وفهْمِنا للعالم الطبيعي بشكل أفضل، ليس كثيرون اليوم يؤمنون فعليًا بثبات القوانين الطبيعية. ولكن الحجة المضادة للمعجزات المقبولة اليوم، والتي حظيت بالقبول في هارڤارد، طرحها الشكوكي الكبير ديڤيد هيوم (١٧١١- ١٧٧٦) بعد سپينوزا بحوالي قرن من الزمان.

ولعلك تتذكر هيوم من الفصل الثاني. فهو الذي قال إن أي كلام عنِ الله عديم المعنى لأن هذا الكلام لا يشتمل على ملاحظة تجريبية ولا حقائق واضحة في ذاتها. وقد رأينا أن زعمه يفند نفسه.

إلا أن حجة هيوم ضد المعجزات أعقد قليلاً، ولا يسهل دحضها كما هو الحال في الحجة ضد الكلام عنِ الله. ولعل هذا هو أحد الأسباب التي تجعل الناس يصدقونها حتى اليوم. والحقيقة أن حجة هيوم ضد المعجزات تمثل واحدًا من أعمدة المذهب المدعو التنوير *Enlightenment* (فعند هذه المرحلة يُفترَض أننا استنرنا بما يكفي للتخلي عن إيماننا الخرافي بالمعجزات، والإيمان بالعقل والحقائق التجريبية التي يكتشفها المنهج العلمي). وقد ساعدت حجة هيوم في تقدم المنظور الطبيعي الذي تفشى فيما بعد مع نظرية داروين في التطور.

وفيما يلي مجمل المادة التي قدمْتُها للحضور في هارفارد في ذلك اليوم. بدأت بتوضيح حجة هيوم المضادة للمعجزات ثم انتقلت إلى نقدها. إليك حجة هيوم في شكل قياس منطقي:

١- القانون الطبيعي بطبيعته توصيف لحدث متكرر.

٢- المعجزة بطبيعتها حدث نادر.

٣- الأدلة على الأحداث المتكررة دائمًا ما تكون أكثر من الأدلة على الأحداث النادرة.

٤- الحكيم دائمًا ما يؤسس معتقداته على الأدلة الأكثر.

٥- إذَن الحكيم يجب ألا يؤمن أبدًا بالمعجزات.

إن كانت تلك المقدِّمات المنطقية الأربع صحيحة، فالنتيجة تتبع المقدمات بالضرورة، الحكيم يجب ألا يؤمن أبدًا بالمعجزات. ولكن لسوء حظ هيوم ومَن صدَّقوه على مر السنين أن حجته تشتمل على مقدمة خاطئة، لأن المقدمة الثالثة ليست بالضرورة صحيحة. فالأدلة على الأحداث المتكررة **ليست** دائمًا أكثر من الأدلة على الأحداث النادرة.

للوهلة الأولى قد يهيأ لنا أن الأمر ليس هكذا. ففي العصر الذي يمكننا فيه مشاهدة اللقطة معادة في المباريات الرياضية في التو واللحظة، تبدو المقدمة الثالثة منطقية. فمثلاً، حَكَم مباراة كرة القدم يرى لعبةً ما من زاوية واحدة بكامل سرعتها، بينما نتمكن نحن من رؤيتها من عدة زوايا بالتصوير البطيء. وبذلك تتوفر لنا أدلة أكثر لأننا نرى اللعبة مرارًا (الحدث المتكرر) أكثر من الحَكَم الذي لا يراها إلا مرة (الحدث النادر).

ولكن ما ينطبق على مباراة كرة قدم مصوَّرة بالفيديو لا ينطبق بالضرورة على كل أحداث الحياة. وحتى ندحض المقدمة الثالثة ليس علينا إلا أن نأتي بمثال واحد مضاد. والحقيقة أن لدينا عدة أمثلة، وكلها من المنظور الطبيعي الذي ينتهجه هيوم:

١- **نشأة الكون لم تحدث إلا مرة واحدة.** لقد كانت حدثًا نادرًا غير متكرّر، إلا أن كل أنصار المذهب الطبيعي تقريبًا يعتقدون أن أدلة الانفجار الكبير تُثْبِت أن الكون انفجر إلى الوجود.

٢- **نشأة الحياة لم تحدث إلا مرة واحدة.** وهي أيضًا حدث نادر غير متكرر، إلا أن كل مَن يتبع المذهب الطبيعي يؤمن أن الحياة نشأت تلقائيًا من اللاحياة في مكانٍ ما على الأرض أو في مكان آخر في الكون.

٣- **نشأة أشكال جديدة من الحياة لم تحدث أيضًا إلا مرة واحدة.** ولكن معظم أتباع المذهب الطبيعي يؤمنون إيمانًا قاطعًا بتلك الأحداث النادرة غير المتكررة، ويقولون إن كل هذا حدث بعمليات من الماكرو تطور غير قابلة للملاحظة (أي نادرة).

٤- **في الواقع تاريخ العالم بأكمله يتكون من أحداث نادرة غير متكررة.** فمثلاً مولد ديـڤيد هيوم نفسه لم يحدث إلا مرة واحدة، ولكنه لم يواجه صعوبة في تصديق الحدث!

في كلٍّ من هذه الأمثلة المضادة من منظور هيوم الطبيعي نفسه، نرى أنه لا بد من رفض مقدمته الثالثة أو اعتبارها خاطئة. فلو آمن هيوم فعلاً بتلك المقدمة، لما آمن بمولده ولا بمنظوره الطبيعي!

وهكذا نفهم من هذه الأمثلة المضادة أن مقدمة هيوم الثالثة، ومن ثم حجته بأكملها، لا يمكن أن تكون صحيحة. ولكن ما المشكلات المحدَّدة التي ينطوي عليها هذا النوع من التفكير الطبيعي؟

أولاً، هذا التفكير يخلط بين **إمكانية التصديق** *believability* و**إمكانية الحدوث** *possibility*. فحتى لو كانت المقدمة الثالثة صحيحة، الحجة لا تدحض إمكانية حدوث المعجزات، ولكنها فقط تشكك في إمكانية تصديقها. فحتى لو شهِدْتَ بنفسك مثلاً يسوع المسيح يقوم من الأموات كما تنبأ، أي أنك لو كنت في القبر، وتحققت أن الجسد كان ميتًا، ثم رأيته يقوم ويخرج من القبر، ففي هذه الحالة تقول حجة هيوم إنك (بصفتك شخصًا "حكيمًا") يجب ألا تصدق هذا الحدث. إن الحجة التي تخبرك بأن تُكَذِّب ما تحققت من صحته حجة خاطئة.

ثانيًا، هيوم يخلط بين **الاحتمالية** *probability* و**الدليل** *evidence*. فهو لا **يزن** الدليل على كل حدث نادر، بل **يضيف** الأدلة على كل الأحداث المنتظمة إلى بعضها البعض ويستخلص أن كثرة هذه الأدلة تجعل كل الأحداث النادرة غير جديرة بالتصديق. ولكن هذا التفكير أيضًا معيب. فهناك الكثير من الأحداث غير المحتملة (النادرة) في الحياة نصدقها عندما تتوفر أدلة قوية عليها. فمثلاً سقوط كرة الجولف في الحفرة من أول مرة حدث نادر، ولكننا عندما نراه لا نجد صعوبة في تصديقه. ومؤكد أننا لا نقول للاّعب: "بما أن الأدلة على الأحداث المتكررة دائمًا أكثر من الأدلة على الأحداث النادرة، فلن أصدق ضَرْبَتك إلا إذا وضعت الكرة على الحامل وكررت الضربة خمس مرات متتالية!" وكذلك من المؤكد أننا لا نقول للفائز بورقة اليانصيب الذي يفوز بنسبة ٧٦ مليون إلى واحد إنه لن يحصل على المبلغ إلا إذا فاز به

خمس مرات متتالية! لا، في هذه الحالات الدليل على الحدث النادر أقوى من الدليل على الحدث المتكرر. فشهود العيان اليقظون العقلاء يقدمون دليلاً أقوى على سقوط الكرة من أول مرة بصرف النظر عن مدى تكرار خطإ اللاعب في إصابة الهدف في الماضي. وكذلك الورقة الفائزة تقدّم دليلاً أقوى على أن شخصًا بعينه فاز باليانصيب عكس الاحتمالات المتوقعة بصرف النظر عن مدى تكرار خسارة ذلك الشخص في الماضي.*

إذَن القضية ليست تكرار الحدث أو ندرته، بل القضية هي قوة الأدلة على الحدث. لذا، علينا أن نزن الدليل على الحدث المعني، لا أن نضيف الأدلة على كل الأحداث السابقة.

ثالثـًا، الحقيقة أن هيوم يقدِّم حجة دائرية. فبدلاً من أن يقـَيِّم صدق الأدلة على كل زعم يقول بالمعجزات، يستبعد الاعتقاد في المعجزات مسبقـًا لأنه يعتقد أن هناك خبرة عامة *uniform experience* ضد المعجزات. وكالعادة سي. إس. لويس عنده فكرة عبقرية:

> والآن ينبغي طبعًا أن نتفق مع هيوم أنه إن كانت هناك "خبرة عامة" موحدة ضد المعجزات، أي إن كانت المعجزات لم تحدث مطلقـًا، فلماذا؟ لسوء الحظ أننا نعرف أن الخبرة المضادة لها لا يمكن أن تكون عامة إلا إذا عرفنا أن كل روايات المعجزات خاطئة. ولا يمكننا أن نعرف أن كل الروايات خاطئة إلا إذا كنا نعرف أصلاً أن المعجزات لم تحدث أبدًا. وفي الواقع نحن نحاجّ حجة دائرية.[٧]

إذَن هيوم يرتكب أخطاء الداروينيين نفسها، فهو يخفي النتيجة في مقدِّمة حجته بطرح افتراضات فلسفية مسبقة خاطئة. وافتراضه المسبق الخاطئ هو أن كل الخبرات البشرية مضادة للمعجزات. كيف يستطيع أن يعرف ذلك؟ لا يستطيع. لذلك، يفترضه مسبقـًا. وكما رأينا، المعجزات ممكنة لأن الله موجود. ومن ثم، محتمل أن يكون البشر قد اختبروا معجزات حقيقية. والسبيل الوحيد للتحقق هو أن نفحص الأدلة على كل زعم يقول بحدوث معجزة. ومن ثم، يتضح أن الافتراض بأن كل زعم يقول بمعجزة خاطئ، كما يفترض هيوم، افتراض غير مشروع.

---

* معظم الناس يعتقدون خطأً أنهم كلما لعبوا اليانصيب في الماضي، زادت فرص الفوز هذه المرة. ولكن ليس المهم عدد مرات لعب الشخص لليانصيب في الماضي لأن كل ورقة يانصيب حدث فريد من نوعه لا يتأثر بأحداث اللعب الماضية. فالنسبة كل مرة هي ٧٦ مليون إلى واحد (أو أيًا كانت النسبة). وهيوم كان سيقترح أن تكرار خبرة الخسارة في الماضي يجب أن يجعلك تـُكـَذِّب الفوز إذا فـُزْت. ولكنك إذا فزت يومًا ما، فأنت فزت بالفعل، رغم أنك خسرت ألف مرة فيما سبق. وهكذا، يمكن أن تحدث المعجزة بصرف النظر عن عدد المرات التي لم تحدث فيها هذه المعجزة في الماضي.

أخيرًا، رغم أن هيوم يُعَرِّف المعجزة تعريفًا صحيحًا بأنها حدث نادر، فهو بعد ذلك يعاقبها على ندرتها! وكأن هيوم يقول: "لو تكرر حدوث المعجزات، لصَدَّقناها". ولكن لو تكرر حدوث المعجزات، على نحو منتظم مثلاً (حسب مصطلحات هيوم)، لما كانت معجزات (أحداث نادرة)، وقد نعتبرها قوانين طبيعية أو جزءًا من ظواهر طبيعية لا تفسير لها. ولكن ما إن نعتبرها طبيعية من حيث أصلها، حتى تتوقف عن لفت انتباهنا باعتبارها أفعالاً خاصة يقوم بها الله. فندرة المعجزة تمثّل واحدة من سماتها التي تميّزها عما عداها. وللتعبير عن الفكرة بطريقة أخرى نقول إن ما يجعل المعجزات تلفت انتباهنا هو أننا نعرف أن هذا الحدث لا يمكن أن يَنتُج من القوانين الطبيعية.

لذا بناءً على منطق هيوم، حتى إن وُجِدَ إله يصنع معجزات، يجب ألا نصدق أي معجزات يصنعها لأنها ليست أحداثًا منتظمة. وهنا أيضًا نكرر أن الحجة التي تخبرك أن تُكَذِّب ما حدث بالفعل حجة معيبة. والحجة التي تطالب بألا تكون المعجزة معجزة حتى نستطيع أن نصدقها هي أيضًا حجة معيبة.

والخلاصة أن هيوم يصرح ببساطة، دون مبرر، أن الأحداث القابلة للتصديق هي فقط الأحداث المنتظمة، وبما أن المعجزة ليست حدثًا منتظمًا، فهي تَقْصُر عن بلوغ هذا المعيار المصطنع. وكما ذكرنا سلفًا، إن كنا لا نستطيع أن نؤمن بالأحداث النادرة، فلا نستطيع أن نصدق أي شيء من التاريخ، لأن التاريخ يتألف من أحداث نادرة متتالية غير متكررة. فمن الواضح أن هذا الموقف غير منطقي.

وبعد أن قدَّمت هذه المعلومات في جامعة هارڤارد، لم أتلقَ أي أسئلة ولا تحديات لنقدي لهيوم، بل ساد المكان صمت رهيب. وأثناء هذه الفترة نفسها (ثمانينيات القرن العشرين) دعاني أحد الأساتذة في جامعة أخرى من جامعات رابطة أيـڤـي ليج، وهي جامعة پرينستون لمناظرته في هذا الموضوع. وطلب الأستاذ نسخة من المادة التي سأقدمها قبل المناظرة، وهو طلب غير معتاد بالمرة. فعنصر المفاجأة في المناظرة ميزة لا يتنازل عنها معظم المناظرين. إلا أني كنت واثقًا تمامًا من صحة نقدي لهيوم حتى أني أرسلته للبروفسور مسبقًا. وبعد أن استلم البروفسور نقدي لهيوم، اتصل بي ليقول إنه يفضل أني أقدم محاضرة لطلابه على أن أناظره، على أن يكون حاضرًا حتى "يقود الأسئلة المضادة" أثناء فترة الأسئلة والإجابة. فوافقت.

وعندما وصلت إلى الحرم الجامعي في التاريخ والموعد المحدَّدين، لم أعثر للبروفسور على أثر. وقال مساعده إن "ظرفًا شخصيًا طارئًا" حدث وإن الاجتماع قد أُلْغي. وانتهى بي الأمر أني قدمت نقدي لمجموعة من الطلاب كان راقي زكراياس قد أحضرهم من كلية نِياك *Nyack College*. ومحاولاتي للاتصال بالبروفسور فيما بعد باءت بالفشل.

وقد تلقيت استجابة مشابهة من أنتوني فلو الذي يُعَدّ حاليًا واحدًا من أبرز الفلاسفة الملحدين.* ففي أواخر الثمانينيات طلبت منه أن يعلق على كتابي "المعجزات والفكر الحديث"[٨] *Miracles and Modern Thought* الذي تناول بالنقد العديد من الحجج المضادة للمعجزات بما فيها حجته (وهي شديدة الشبه بحجة هيوم). فقَبِلَ أنتوني فلو أن يقدم نقدًا مكتوبًا في العدد التالي لإحدى الصحف الإنسانية الكبرى. إلا أنه، في ذلك المقال، بدلاً من أن يحاول تفنيد الحجج التي قدمتها، مَدَحَها بشكل غير مباشر بأنه أوصى أنه على الملحدين أن يأتوا بحجج أفضل ضد المعجزات حتى يَرُدّوا على المؤمنين بالله الخالق المعاصرين.

إن التقاعس عن التعامل مباشرةً مع العيوب التي تشوب حجة هيوم يبين لنا أن عدم الإيمان بالمعجزات غالبًا مسألة إرادية أكثر منه مسألة فكرية. فيبدو كما لو أن البعض يتمسكون بسذاجة بحجة ديفيد هيوم لأنهم ببساطة لا يريدون أن يعترفوا بوجودِ الله. **ولكن بما أننا نعرف أن الله موجود، إذَن المعجزات ممكنة. وأي حجة ضد المعجزات يمكن تلفيقها، ومنها حجة ديفيد هيوم، تسقط بهذه الحقيقة الواحدة.** لأنه إن كان هناك إله قادر على الفعل، إذَن يمكن أن يكون هناك أفعال إلهية (معجزات).

إذَن، في النهاية، ليست المعجزات هي التي يصعب تصديقها، بل حجة ديفيد هيوم هي التي يصعب تصديقها! حتى إنه يمكننا أن نقول إن تصديق الكثير من الناس لها حتى الآن يُعَدّ "معجزة".

---

* صدرت النسخة الإنجليزية من كتابنا هذا سنة ٢٠٠٤، إلا أنه في العام نفسه اعترف أنتوني فلو بأنه تحوَّل إلى الإيمان بالله الخالق، وفي سنة ٢٠٠٧ أصدر كتابه الأشهر "يوجد إله: كيف غيَّر أعتى ملحدي العالم رأيه" *There Is a God: How the World's Most Notorious Atheist Changed His Mind* قبل أن يرحل عن عالمنا سنة ٢٠١٠ (*http://www.bethinking.org/atheism/professor-antony-flew-reviews-the-god-delusion*)، تم الاطلاع على الرابط بتاريخ ٢٠١٦/١١/٥ (المترجمة-المحرر)

ليس كل من يصنع معجزة هو الله: ما المعجزة، وما هو ليس بمعجزة؟

إذَن الصندوق مفتوح، أي أن المعجزات ممكنة. ولكن إذا رأينا معجزة كيف نعرف أنها معجزة؟ للإجابة عن هذا السؤال، مهم أن نُـعَرِّف المعجزة وما ليس معجزة حتى نَعْرف عما نبحث.

كما هو مبينَّ في الجدول ٨- ٢، هناك على الأقل ستة أنواع مختلفة من الأحداث غير العادية، وواحد منها فقط هو الذي ينطبق عليه وصف معجزة.

هناك على الأقل ست فئات مختلفة من الأحداث غير العادية:						
	الأحداث الشاذة	السحْر	التأثير النفْسْجِسْمي	الآيات الشيطانية	العناية الإلهية	المعجزات
الوصف	أحداث غريبة في الطبيعة	خفة يد	القدرة على التحكم في المواقف أو المشكلات المادية بالعقل والإرادة	قوة شريرة	أحداث مرتَّبة مسبقًا	فعل إلهي
القوة	مادية	بشرية	عقلية	نفسية	إلهية	فوق طبيعية
السمات	حدث طبيعي ذو نمط موحد	غير طبيعية وتحت سيطرة الإنسان	تتطلب إيمانًا؛ تفشل مع أمراض معينة	شر، زيف، قوى سحرية خارقة للطبيعة، قوى محدودة	تُفَسَّر طبيعيًا؛ إطار روحي	لا تفشل أبدًا، فورية، تستمر، تمجدُ الله
مثال	النحل الطنان	أرنب في القبعة	العلاجات النفْسْجِسميَّة	التأثير الشيطاني	ضباب في نورماندي	إقامة الموتى

الجدول ٨-٢

فلنلقِ نظرة سريعة على كلٍّ من هذه الأحداث غير العادية. وسنبدأ بالمعجزات لأننا إذا عرفنا ماهيتها، سنفهم بشكل أفضل لماذا لا تُعتبر سائر الأحداث غير العادية معجزات.

المعجزة: حتى يكون الفعل الإلهي آية من الله لا تخطئها عين، لا بد أن تتوافر فيه معايير معينة، وهي معايير تميز أفعال الله عن أي حدث آخر غير عادي. فآيةُ الله مثل ختم الملك، يجب أن تكون فريدة، ويسهل التعرُّف عليها، ولا يستطيع أحد أن يفعلها إلا الله. وهو ما يعني أنها تتسم بسمات لا يمكن تفسيرها بالقوانين الطبيعية، ولا القوى الطبيعية، ولا أي شيء آخر في الكون المادي. فما هي هذه المعايير؟

كما رأينا من الحجج الكونية، والغائية، والأخلاقية، الله وحده عنده قوة لامتناهية (قوة تفوق القوة الموجودة في العالم الطبيعي)، وغرض وتصميم أعلى، ونقاء أخلاقي كامل. لذا، من المنطقي أن نفترض أن أفعاله تعكس أو تشتمل على عناصر من هذه الصفات. إذَن معايير المعجزاتِ الحقيقيةِ تتضمن:

أ) بداية فورية لفعل قوي، وتدلّل عليها الحجة الكونية (بداية الكون).

ب) تصميمًا ذكيًا وغرضًا، وتدلّل عليهما الحجة الغائية (التصميم الدقيق للكون بغرض دعم الحياة، والتصميم المحدَّد والمعقد للحياة نفسها).

ج) تعزيز السلوك الصالح أو الصحيح، وتدلل عليه الحجة الأخلاقية (القانون الأخلاقي المطبوع فينا).

إن عنصر القوة في المعجزات (أ) يعني أن الآية لا يمكن تفسيرها طبيعيًا. لأنه إن كان من المحتمل وجود مسبب طبيعي، إذَن الآية لا يمكن طبعًا أن تُعتبر معجزة. فالمعجزة لها مسبب فوق طبيعي لا لبس فيه، إنه مسبب يتجاوز حدود الطبيعة.

وعنصر التصميم (ب) يعني أن أي آية تُفعَل دون غرض واضح، أي لتأكيد حق أو رسول يأتي بالحق أو لتمجيد الله، غالبًا ليست آية من الله. أي أن الله لن يصنع معجزات بغرض التسلية. فكما أن معظم ملوك الأرض لن يستخدموا أختامهم لأغراضٍ تافهة، كذلك ملك الكون لن يستخدم ختمه لأغراضٍ تافهة. وإن استخدم المعجزات لمجرد التسلية، سيصعب علينا التعرف على قصده عندما يريد أن يؤكد حقًا جديدًا أو رسولاً جديدًا. فحتى لا تكون المعجزات كالولد الذي أخذ ينادي كذبًا "ذئب في حقلنا"، يجب أن تركز على تثبيت زعم يختص بالحق، ولا بد أن تكون نادرة نسبيًا حتى تكون مؤثرة.

والعنصر الأخلاقي في المعجزات (ج) يعني أن أي آية تنطوي على خطإ أو انحراف أخلاقي لا يمكن أن تكون آية من الله. فالخطأ والانحراف الأخلاقي ضد طبيعةِ الله لأنه المقياس الثابت للحق والأخلاق. فهو لا يستطيع أن يُثَبِّت الخطأ أو الانحراف الأخلاقي.

وبناءً على هذه المعايير: القوة الفورية، والتصميم الذكي، والأخلاق، يمكننا أن نحدِّد الأحداث غير العادية التي تمثِّل آيات حقيقية من الله. لاحظ أننا استنتجنا هذه المعايير مما تعلمناه عنِ الله من العالم الطبيعي وما تعلمناه عن حدود الطبيعة نفسها. والكتاب المقدس يتفق مع تقديرنا بتوصيفه للأحداث التي تطابق هذه المعايير بأنها معجزات.[٩] وكلٌّ من الكتاب المقدس والقرآن يُعَلـِّمان بأن المعجزات استُخدِمَت لتثبيت كلمة من الله.*

لذا الحدث المرتبط بزعم يختص بحق إلهي ويتسم بهذه السمات يسمى "معجزة"، أي فعل يقوم به الله ليُثـَبِّت كلمة من الله. فمثلاً، إن كان يسوع قد قام فعلاً من الأموات، وهو رجل تنبأ بقيامته من الأموات، نقول إن معجزة قد حدثت. وهذا الحدث يعكس قوة فورية تتجاوز القدرات الطبيعية، وتخطيطـًا مسبقـًا وتصميمًا ذكيًا، وغرضًا أخلاقيًا بتأكيد أن يسوع من الله (لذلك يجب أن نصغي لما يقول). وليس هناك قوة طبيعية أو أي مصدر آخر للقوة يمكن أن يفسر هذا الحدث.

علاوة على ذلك، إن كانت القيامة قد حدثت بالفعل، فهي لم تحدث "في فراغ" بل في محيط معين. وهو ما يعني أن القيامة كانت حدثـًا تم في محيط كون يؤمن بالله الخالق، حيث تنبأ بها رجل يزعم أنه من الله ويصنع معجزات. وهذا المحيط يرجح أنها معجزة وليست مجرد حدث طبيعي لم يظهر له تفسير بعد. وباختصار، إن كانت القيامة قد حدثت بالفعل (وسوف نتناول هذه القضية بالفحص فيما بعد)، فإن "بصماتِ" الله تغطيها بالكامل.

العناية الإلهية: إن المتدينيين، وخاصةً المسيحيين، يستخدمون مصطلح "معجزة" استخدامًا فضفاضًا نوعًا ما. فهم غالبًا ما يُسَمّون أحداث العناية الإلهية معجزات.

إن أحداث العناية الإلهية هي الأحداث التي يسببها الله بشكل غير مباشر، لا بشكل مباشر. أي أن الله يستخدم القوانين الطبيعية لتنفيذها. ومن أمثلتها استجابة الصلوات

---

* الكتاب المقدس: خروج٤: ١- ٥؛ عدد١٦: ٥ وما بعده؛ ١ملوك ١٨: ٢١، ٢٢؛ متى١٢: ٣٨، ٣٩؛ لوقا٧: ٢٠- ٢٢؛ يوحنا٣: ١، ٢؛ أعمال٢: ٢٢؛ عبرانيين٢: ٣، ٤؛ ٢كورنثوس١٢: ١٢. القرآن: سورة آل عمران (٣): ١٨٤؛ الإسراء (١٧): ١٠٢؛ قارن سورة المؤمنون (٢٣): ٤٥.

والأحداث المفيدة غير المحتملة الحدوث. وعادةً ما تكون هذه الأحداث لافتة جدًا للنظر وتقوّي الإيمان، ولكنها ليست فائقة للطبيعة. فمثلاً، الضباب في نورماندي كان من أعمال العناية الإلهية لأنه حجب جيوش الحلفاء أثناء استعدادها للهجوم على النظام النازي الشرير. فهو لم يكن معجزة، لأنه يمكن أن يفسَّر بالقوانين الطبيعية، ولكن من المحتمل أن الله كان وراء حدوثه. ولكن على النقيض من ذلك، المعجزة تتطلب حدوثَ شيء مثل خروج الرصاص من صدور شبابنا في هجومهم على الشاطئ.

الآيات الشيطانية: تُعتبر الكائنات الروحية الأخرى من المسببات المحتملة للأحداث غير العادية. فإن كان الله موجودًا، من الوارد أن توجد أيضًا كائنات روحية أخرى. ولكن إن كان الشيطان والأرواح الشريرة موجودين، فقدراتهم محدودة. لماذا؟ لأنه كما ذكرنا آنفًا في هذا الفصل، مستحيل وجود كائنين لامتناهيين. وبما أن الله لامتناهٍ، يستحيل أن يوجد كائن آخر لامتناهٍ.

فضلاً عن ذلك، فإن الثنائية *dualism* المَحضَة - أي وجود قوة صالحة لامتناهية مقابل قوة شريرة لامتناهية - أمر مستحيل. وذلك لأنه لا يوجد شر محض. ولكن الشر هو غياب الخير، أو هو طُفيل على الخير، أي أنه لا يقدر أن يوجد بمفرده. فالشر كالصدأ للسيارة. إن نزعت كل الصدأ، تصبح السيارة أفضل. وإن نزعت كل السيارة، لا يتبقى شيء. لذا، لا يمكن أن يكون الشيطانُ هو الشرَّ المعادلَ لله. والشيطان في الواقع يتمتع بصفات جيدة مثل القوة، وحرية الإرادة، والتفكير العقلاني، ولكنه يستخدمها لأغراض شريرة.

والخلاصة أن الله ليس له مُعادِل. إنه الكائن الواحد اللامتناهي الذي يعلو فوق الخليقة كلها. وعليه، فالكائنات الروحية المخلوقة، إن وُجِدَت، الله يضع لها حدودًا ولا تستطيع أن تؤدي نوعية الأفعال الفائقة للطبيعة التي لا يفعلها إلا الله.

لذا، نعرف من الإعلان الطبيعي فقط، دون إعلان من أي كتاب ديني، أنه إن وُجِدَت كائنات روحية أخرى فهي محدودة القوة. وبالمصادفة، هذا هو بالضبط ما يُعَلِّم به الكتاب المقدس.

ولكن ما مدى محدودية هذه الكائنات الروحية الأخرى؟ هنا نحتاج إعلانًا خاصًا. فرغم أننا لم نثبت حتى الآن صحة الكتاب المقدس بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي، فلنفترض أن هذه الكائنات حقيقية وتستطيع أن تتفاعل مع العالم الطبيعي كما يبين الكتاب المقدس.

وفقًا لتعليم الكتاب المقدس، لا يمكن إلا لله فقط أن يخلق الحياة ويقيم الموتى (تكوين١: ٢١؛ تثنية٣٢: ٣٩). فسحرة فرعون الذين قلَّدوا أول ضربتين، لم يقدروا أن يقلدوا الثالثة التي خَلَقَت حياة (في شكل بعوض). وقد اعترف هؤلاء السحرة أن الضربة الثالثة هي "أصبعُ الله" (خروج٨: ١٩).

إن الشيطان يقدر أن يأتي بخدع أفضل من أحسن السحرة، والكتاب المقدس يحوي أمثلة كثيرة على ذلك،[١٠] إلا أن تلك الخدع لا تتوفر فيها سمات المعجزة الحقيقية. وكما رأينا، المعجزات الحقيقية تقود المرء إلى تعظيمِ الله، وتخبر بالحق، وتعلي شأن السلوك الأخلاقي. أما الآيات الكاذبة التي يأتي بها الشيطان لا تفعل ذلك. ولكنها تمجّد الشخص الذي يؤديها في الظاهر، وهي غالبًا ما ترتبط بالخطإ والسلوك غير الأخلاقي. وقد لا تكون فورية، ولا لحظية، ولا مستديمة.

وبإيجاز، الله وحده يصنع المعجزات الحقيقية، ولكن الشيطان يصنع معجزات كاذبة. وهذا هو بالضبط الاسم الذي يطلقه عليها الكتاب المقدس في ٢تسالونيكي٢: ٩ عندما يكتب بولس «الذي مجيئه بعمل الشيطان بكل قوة وبآيات وعجائب **كاذبة**». وطبعًا إن لم يكن المرء ممَيِّزًا، يمكن أن ينخدع بهذه الآيات ويظنها معجزات (متى٢٤: ٢٤).

ويلخِّص الجدول ٨- ٣ الاختلافات بين المعجزة الإلهية والآية الشيطانية:[١١]

المعجزة الإلهية	الآية الشيطانية
• فعل فائق للطبيعة بحق	• مجرد فعل فائق **للعادة** *supernormal*
• تحت سيطرة الخالق	• تحت سيطرة المخلوق
• لا ترتبط إطلاقًا بالقوى السحرية الخارقة	• مرتبطة بالقوى السحرية الخارقة
• مرتبطة بالإله الحقيقي	• غالبًا ما ترتبط بالإيمان بوحدة الوجود أو تعدد الآلهة
• مرتبطة بالحق	• مرتبطة بالخطإ
• مرتبطة بالخير	• مرتبطة بالشر
• تتضمن نبوات حقيقية	• تتضمن نبوات كاذبة
• تمجد الخالق	• تمجد المخلوق

الجدول ٨-٣

التأثير النفسجسمي: منذ سنوات كثيرة، أصبتُ (أنا نورم) بما ظننته حساسية الربيع أثناء تَفَتُّح الزهور. فبدأت أتناول عقارًا قويًا في ربيع ذلك العام لتخفيف الأعراض. وفي صباح يوم أحدٍ هذا الربيع دعيتُ لأعظ في كنيسة محلية، فذهبتُ قبل الموعد لألتقي بالشيوخ. وعندما اقتربتُ من المنبر رأيتُ بعض الزهور على منضدة بالقرب من المنبر. فبدأت على الفور أعطس وبدأت عيناي تدمع.

فقلتُ لأحد الشيوخ: "لن أقدر أن أعظ في وجود هذه الزهور لأنها تهيّج حساسيتي. فهل يمكن أن تنقلها من هنا؟"

فنظر إليَّ وقال: "إنها زهور بلاستيكية!"

فقلتُ لنفسي: "جايسلر، أنت تعطس من زهور بلاستيكية. لقد أصبَحَتْ تلك الحساسية في عقلك فقط!" فأقلعتُ عن تناول الأدوية ولم أعد أعاني من تلك المشكلة إلى اليوم.

إلا أن هذا لا يعني أن أي حساسية نفسجسمية صرف. ولكن من المؤكد أن بعض الأمراض والعلاجات نفسجسمية، وهي حالات موثّقة جيدًا. فمثلاً نورمان كَزينز *Norman Cousins* يصف بالتفصيل في كتابه "تشريح مرض" *Anatomy of an Illness* كيف ساهم ضَحِكُه حرفيًا في شفائه من السرطان. لا شك أن التوتر العقلي يمكن أن يؤثِّر على الصحة البدنية تأثيرًا سلبيًا، في حين أن التوجُّه العقلي الإيجابي، أو الإيمان، أو السعادة يمكن أن يأتي بتأثير إيجابي يؤدي للشفاء (انظر أمثال١٧: ٢٢).

إلا أن بعض الحالات المَرَضية، مثل إصابة النخاع الشوكي أو بتر الأطراف، لا يمكن شفاؤها بسيطرة العقل على المادة لأنها ليست أمراض نفسجسمية. ولكن شفاء تلك الحالات يتطلب معجزة حقيقية.

والخلاصة أن العلاجات النفسجسمية طبيعتها نفسية، وليست فائقة للطبيعة. وهي تدل على أن تأثير العقل على الجسم محدود ولكنه كبير. ويجب ألا نخلط بينها والمعجزات.

السحر: ربما يُعتبَر السحر أكثر الأحداث غير العادية المألوفة لنا. ويقوم السحر على خفة اليد البشرية أو تضليل العقل. فالساحر الماهر يستطيع أن يجعلك تظن أنه شَطَرَ امرأة إلى نصفين، أو أخرج أرنبًا من قبعة، أو أخفى فيلاً. ولكن كلها خدع ذكية. وعندما تعرف السر تقول: "كيف لم يخطر ذلك ببالي؟" والسحر، من حيث إنه خدعة تحت سيطرة البشر، ليس معجزة. الله وحده هو من يستطيع أن يصنع المعجزات.

الأحداث الشاذة: الحدث الشاذ هو حدث غريب في الطبيعة لا تفسير له. فمثلاً، في فترة معينة لم يستطع العلماء أن يفهموا كيف يمكن للنحل الطنان أن يطير. فأجنحته صغيرة جدًا بالنسبة لجسمه. واعتبر العلماء أن طيران النحل الطنان حدثٌ شاذ، حتى اكتشفوا فيه نوعًا من "المصدر الكهربائي" الذي يعوِّض صغر الأجنحة. وقد عرفوا أنها ليست معجزة لأنها تتضمن نمطًا موحَّدًا قابلاً للملاحظة، ألا وهو أن كل النحل الطنان يطير. وهو ما دفعهم للاستمرار في البحث عن تفسير طبيعي حتى وجدوه.

وقد يتساءل المتشكك: "إذَن لماذا لا نعتبر قيامة يسوع المسيح حدثًا شاذًا؟" لأن القيامة تم التنبوء بها. وكان وراءها تصميم ذكي، أي أن بصماتِ الله تغطيها بالكامل. ولكن الأحداث الشاذة لا ترتبط بمزاعم عن الذكاء تدعي أنها حق، وهي لا تتضمن أبعادًا أخلاقية ولاهوتية. لذا، إن كانت قيامة المسيح قد حدثت بالفعل، فهي ليست حدثًا طبيعيًا شاذًا.

لماذا لا نرى المعجزات الكتابية اليوم؟

الكثير من الناس اليوم ينظرون نظرة ضيقة جدًا للتاريخ وللخبرة البشرية. فهم يقولون: "إن لم أرَ شخصيًا أحداثًا معينة تحدث اليوم، فمن المحتمل أنها لم تحدث أبدًا". والمعنى الذي تنطوي عليه هذه الجملة بخصوص المعجزات واضح. فالمقصود إنه "طالما أنه ليست هناك معجزات علنية مثل معجزات الكتاب المقدس تحدث اليوم (ولو كانت تحدث، لرأيناها على قناة فوكس نيوز *Fox News*)، فلماذا يجب أن أصدق أنها حدثت في الماضي؟" سؤال في محله.

إلا أن هذا السؤال يكمن وراءه مفهوم خاطئ شائع، وهو الاعتقاد بأن الكتاب المقدس مملوء بمعجزات تحدث باستمرار عبر تاريخ الكتاب المقدس. إن هذا الاعتقاد صحيح جزئيًا. فصحيح أن الكتاب المقدس مليء بالمعجزات التي حدثت في حوالي ٢٥٠ مناسبة.[*] إلا أن معظم تلك المعجزات تحدث في أوقات قصيرة جدًا في التاريخ، وذلك أثناء ثلاث فترات زمنية محددة: أثناء مدة حياة موسى وإيليا وأليشع، ويسوع، والرسل. لماذا؟ لأن هذه هي الأوقات

---

[*] بعض هذه المناسبات تضمَّنت معجزات عديدة. فمثلاً يُذْكَر عدة مرات أن يسوع شفى "كثيرين" عادةً عندما كان أهل المدينة يجتمعون حوله (مثلاً مرقس١: ٣-٤؛ ٣: ١٠؛ ٦: ٥٦؛ لوقا٥: ١٥؛ ٦: ١٨؛ ٩: ١١). وكان الرسل أيضًا يصنعون عدة معجزات في مناسبة واحدة (أعمال٥: ١٦؛ ٨: ٧؛ ١٩: ١١، ١٢).

التي كان الله يؤكد فيها حقًا جديدًا (إعلانًا إلهيًا) ورُسلاً جددًا يحملون ذلك الحق.*

فإن كانت معظم المعجزات تتركز في هذه الفترات الثلاث، فما الأحداث المعجزية التي تقع أثناء الفترات الأخرى التي يغطيها الكتاب المقدس؟ لا شيء. ففي الحقيقة هناك فجوات زمنية شاسعة في الكتاب المقدس (تصل إلى مئات السنين) لا تُسَجَّل فيها أي معجزات من الله. لماذا؟ لأن هذه الفترات لم يكن فيها كلمة جديدة من الله، ومعظم المعجزات كانت تؤكد كلمة جديدة من الله.

إذَن لماذا لا نرى معجزات كتابية اليوم؟ لأنه إن كان الكتاب المقدس صحيحًا ومكتملاً، فالله لا يؤكد أي إعلان جديد، ومن ثم فلا محل عنده لهذا الغرض الرئيسي من صُنْع المعجزات اليوم. ليس هناك كلمة جديدة من الله يريد أن يؤكدها.

ولكن لا تسيء فهمنا في هذه النقطة. فنحن لا نقول إن الله لا يستطيع أن يصنع معجزات اليوم، أو إنه لا يصنعها أبدًا. بل بصفته خالق الكون وحافظه وله السلطان، يمكنه أن يصنع معجزة وقتما يريد. ولكن كل ما في الأمر أنه قد لا يكون عنده سبب ليُظهر قوته علانية كما فعل في أزمنة الكتاب المقدس؛ لأن كل الحقائق التي أراد أن يكشفها كُشِفَت فعليًا وتأكَّدَتْ. فكما هو الحال في بناء بيت، الأساس لا يوضع إلا مرة واحدة. والمعجزات الكتابية كانت أفعالاً إلهية خاصة وضعت أساس إعلانه الدائم للبشر.

الملخص والخلاصة

١- يمكن اكتشاف السمات الجوهرية لإله الكتاب المقدس دون الكتاب المقدس عن طريق الإعلان الطبيعي، كما يتضح من الحجج الكونية والغائية والأخلاقية. وتلك الحجج المؤيَّدة بأدلة قوية جدًا تُظهر لنا أن هذا الكون خلقه إله ويحفظه. وبما أن الحال هكذا، إذَن الديانات التي تؤمن بالله الخالق الحافظ فقط، هي "المؤهَّلة للفوز بنهائي" الحق حتى الآن. ولكن كل الديانات التي لا تؤمن بالله الخالق الحافظ مبنية على أساس مزيف لأنها

* من الناحية اللاهوتية تشترك الفترات الثلاث الكبرى للمعجزات في سمات معينة: كان موسى يحتاج للمعجزات ليخلص إسرائيل ويعول هذا الشعب الكثير في البرية (خروج٤: ٨). وإيليا وأليشع صنعا المعجزات لتخليص إسرائيل من عبادة الأصنام (انظر ١ملوك١٨). ويسوع والرسل صنعوا المعجزات ليؤكدوا تأسيس العهد الجديد وما يقدمه من خلاص من الخطية (عبرانيين٢: ٣، ٤).

خاطئة في مفهومها عن وجودِ الله وطبيعته.

٢- بما أن الله موجود، إذَن المعجزات ممكنة. والحقيقة أن أعظم المعجزات جميعًا، أي خَلْق الكون من عدم، قد حدثت بالفعل، وهو ما يعني أن تكوين١: ١ وسائر المعجزات الكتابية كلها قابلة للتصديق. والحجج المضادة للمعجزات فاشلة لأنها تقوم على افتراضات فلسفية خاطئة لا على أدلة قابلة للملاحظة. والنتيجة أنها تعجز عن نفي المعجزات. فالله يستطيع أن يتدخل في الكون الذي خلقه رغم ما يقوله ديـڤيد هيوم.

٣- المعجزة الحقيقية عمل لا يستطيع فعله إلا الله، وهو ما يعني أنها تتضمن سمات تتناسب مع الله، مثل القوة الفائقة للطبيعة، والتصميم الذكي، وتوكيد السلوك الأخلاقي. وبهذه السمات يمكن تمييز المعجزات عن غيرها من الأشكال الأخرى للأحداث غير العادية مثل أحداث العناية الإلهية، والآيات الشيطانية، والشفاء النفسجسمي، والسحر، وشواذ الطبيعة.

٤- نحن نتوقع من الله، بناءً على طبيعته الأخلاقية، أن يوَصِّل لنا غايته المحدَّدة بمزيد من التفصيل (أي بما يتجاوز الإعلان الطبيعي وصولاً إلى الإعلان الخاص). وقد استطاع الله أن يستخدم المعجزات كعلامة تؤكِّد لنا إعلانه الخاص. والمعجزة عندما تُستخدَم على هذا النحو تُعَدّ فعلاً إلهيًا لتأكيد رسالة من الله.

ملحق ١

إن كان الله موجودًا، فلماذا الشر؟

الملحد: إن كان هناك حقًا إله كلي الصلاح وكلي القدرة خلق العالم ويحفظه، فلماذا يسمح بالشر؟

المسيحي: كيف تعرف ما هو الشر إلا إذا عرفت ما هو الخير؟ وكيف تعرف ما هو الخير إلا إذا وُجِدَ مقياس موضوعي للخير أعلى منك؟

الملحد: لا تحاول التهرب من السؤال.

المسيحي: أنا لا أحاول أن أتهرب من السؤال. ولكني أبيِّن لك ببساطة أن شكواك تفترض مسبقًا أن الله موجود. فالواقع أن وجود الشر لا يدحض وجود الله. ربما يُثبت وجود شيطان، إلا أنه لا يثبت عدم وجودِ الله.

الملحد: لعبة ماهرة، ولكني لست مقتنعًا.

المسيحي: قد لا تكون مقتنعًا. ولكن شكواك ما زالت تفترض مسبقًا وجود الله.

الملحد: لغرض هذه المناقشة، افترض أني أوافقك أن الله موجود. هل تجيب عن السؤال الآن؟

المسيحي: بالتأكيد. رائع هذا التقدم الذي تحرزه.

الملحد: تَذَكَّر أنه لأجل المناقشة فقط. إذَن لماذا إلهك المدعو "كلي القدرة" لا يوقف الشر؟

المسيحي: هل حقًا تريده أن يوقف الشر؟

الملحد: طبعًا!

المسيحي: ماذا لو بدأ بك؟

الملحد: كن جادًا.

المسيحي: أنا جاد فعلاً. إننا دائمًا نتكلم عن إيقافِ الله للشر، ولكننا ننسى أنه لو فعل، سيوقفنا نحن أيضًا. فكلنا نفعل الشر.

الملحد: يا رجل! نحن لا نتكلم عن الخطايا البسيطة التي نفعلها أنا وأنت، ولكننا نتكلم عن الشر الحقيقي، مثلما فعل هتلر.

المسيحي: لست أتكلم عن درجة الشر، بل مصدر الشر. مصدر الشر هو قدرتنا على الاختيار الحر. فإن كان يجب أن يقضي الله على الشر، يجب كذلك أن يقضي على حرية الاختيار، وعندئذٍ لن تكون عندنا القدرة على حب الخير أو فعله. ولن يكون هذا العالم عالمًا أخلاقيًا.

الملحد: ولكن حرية الاختيار ليست مصدر كل الشر. فلماذا يموت الرُضع؟ لماذا تحدث الكوارث الطبيعية؟

المسيحي: الكتاب المقدس يُرجع كل ذلك إلى سقوط الإنسان. فما من أحد بريء بحق لأننا جميعًا أخطأنا في آدم (رومية٥: ١٢)، والنتيجة أننا نستحق الموت (رومية٦: ٢٣). فالكوارث الطبيعية والموت في أعمار مبكرة كلها نتيجة مباشرة للّعنة التي أتت على الخليقة بسبب سقوط الجنس البشري (تكوين٣؛ رومية٨). وهذا العالم الساقط لن يُعاد لوضعه الصحيح إلا عندما يعود المسيح (رؤيا٢١، ٢٢). ولذلك، ما من أحد يُمنَح ضمانـًا بأن يعيش حياة خالية من التعب، ولا عمرًا مديدًا يبلغ سبعين عامًا.

الملحد: يا سلام! ما أسهل هذا الكلام! عندما لا تجد مخرجًا تسرع للكتاب المقدس وتخبرنا أن الله سيصحِّح كل شيء في النهاية! لا يعنيني المستقبل. إني أريد نهاية للألم والمعاناة الآن. لماذا لا ينهي الله كل ذلك؟

المسيحي: سينهيه ولكن ليس طبقـًا لجدولك. فكونُ الله لم يُنهِ الشر حتى الآن لا يعني أنه لن ينهيه أبدًا.

الملحد: ولكن لماذا لا يعود المسيح الآن لينهي كل هذا الألم؟ إن مجموع الألم البشري هائل.

المسيحي: أولاً، لا أحد يختبر "مجموع الألم البشري". فإن كانت درجة الحرارة في مانهاتن ٢٧ درجة مئوية، وفي بروكلين ٢٩ درجة مئوية، وفي كوينز ٢٧ درجة مئوية، فهل أي شخص في نيويورك يمكن أن يشعر بحرارة تبلغ ٨٣ درجة مئوية؟

الملحد: لا.

المسيحي: هذا صحيح. كل شخص يختبر ألمه فقط.

الملحد: ولكن كل هذا لا يخبرني لماذا لا ينهي الله كل هذا الألم الآن. لماذا ينتظر؟

المسيحي: إن الله بإمكانه أن ينهي الشر الآن إن أراد. ولكن ألم يخطر على بالك أنه من المحتمل أن الله يريد أن يحقِّق أهدافًا أخرى في وجود الشر؟

الملحد: مثل ماذا؟

المسيحي: أول شيء، يريد مزيدًا من الناس يختارون السماء قبل أن يَسْدِل الستارَ على هذا العالم. ويبدو أن بولس يوضح أن يسوع سيأتي ثانيةً بعد أن "يكتمل عدد" مَنْ سيؤمنون به (رومية١١: ٢٥).

الملحد: حسنًا، بينما ينتظرُ الله "اكتمال عدد" المُخَلَّصين، هناك آخرون يتألمون!

المسيحي: نعم، هم يتألمون. وهو ما يعني أن المسيحيين عليهم مهمة يجب أن يقوموا بها. لقد نلنا امتياز مساعدة المتألمين. نحن سفراء للمسيح هنا على الأرض.

الملحد: جميل، ولكني لو كنت أعاني أُفضِّل أن يساعدني الله لا أنت.

المسيحي: لو منع الله الألم كلّما واجهنا مشكلة، لأصبحنا أشقى مخلوقات الكون وأكثرها تمركزًا في الذات. ولن نتعلم أبدًا من الألم.

الملحد: نتعلم من الألم! ماذا تقول؟

المسيحي: لقد لمستَ سببًا آخر يفسِّر عدم إنهاءِ الله للشر الآن. هل يمكن أن تذكر لي درسًا واحدًا استمر في حياتك تعلمته من اللذة؟

الملحد: أمهِلني دقيقة.

المسيحي: أمهلك ساعة، ولكني أشك أنك ستأتي بالكثير. إن فكَّرت في الأمر، ستكتشف أن كل ما تعلمت تقريبًا من دروس قيمة نتج من صعوبة اجتزتها في حياتك. وفي معظم الحالات، قسوة الظروف تُعَلِّم في حين أن سهولة الظروف تخدع. وفي الحقيقة أنت لا تتعلم دروسًا من الألم فحسب، بل الألم يكاد يكون السبيل الوحيد لتنمية الفضائل.

الملحد: ماذا تقصد؟

المسيحي: لا يمكنك أن تنمي فضيلة الشجاعة إلا في وجود الخطر. ولا يمكنك أن تنمي فضيلة المثابرة إلا إذا واجهت عواقب في الطريق. ولن تتعلم أن تكون خادمًا إلا في وجود شخص تخدمه. ولن تكون حنونـًا إن لم يكن هناك شخص متألم أو محتاج. إنها الحكمة القديمة: "مافيش حلاوة من غير نار".

الملحد: ولكني لن أحتاجَ كل تلك الفضائل لو حَجَرَ الله على الشر الآن.

المسيحي: ولكن بما أن الله عنده أسبابه لعدم الحجر على الشر الآن، فأنت تحتاج أن تنمي بعض الفضائل لهذه الحياة وللحياة الآتية. فهذه الأرض وطن غير مريح، ولكنها صالة تدريب ممتازة للحياة الآتية.

الملحد: أنتم المسيحيين دائمًا ما تقفزون إلى الحياة الآتية. كل تفكيركم مُنْصَبّ على السماء لدرجة تجعلكم عديمي النفع للأرض.

المسيحي: ربما يكون تفكيرنا مُنْصَبًا على السماء، ولكننا نعلم أن ما نفعله على الأرض مهم في الأبدية. فالفضائل التي ينميها المؤمن بالألم تـُزيد قدرته على الاستمتاع بالأبدية. وبولس يقول إن «خفة ضيقتنا الوقتية تنشئ لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبديًا» (٢كورنثوس٤: ١٧، قارن رومية٨: ١٨).

الملحد: كيف تساعدني الصعوبات التي أجتازها هنا أن أسعد في مكان لن يكون فيه أي ألم أساسًا؟

المسيحي: أنت تحب كرة القدم، أليس كذلك؟

الملحد: شاهدت بضع مباريات.

المسيحي: ما شعور كل لاعب في الفريق الفائز بكأس السوبر بول بعد المباراة؟

الملحد: يشعر بالسعادة طبعًا!

المسيحي: هل كابتن الفريق الفائز الذي فاز هو أيضًا بجائزة أفضل لاعب، يستمتع بالفوز أكثر من الظهير الثالث الذي لم يحرز هدفـًا واحدًا طيلة العام؟

الملحد: أظن ذلك.

المسيحي: بالطبع. فرغم أن لاعب الظهير الثالثِ سعيد لأنه في الفريق الفائز، فالفوز أطيب مذاقـًا عند الكابتن الذي فاز بجائزة أفضل لاعب لأنه ساهم في الفوز وثابر طوال العام حتى يصل إلى هذا المستوى. وبإصراره وسط صعوبات اللعب وآلامه، زاد من قدرته على

الاستمتاع بالفوز الذي ازداد حلاوةً بجائزة أفضل لاعب.

الملحد: وما علاقة كرة القدم بالسماء؟

المسيحي: السماء ستكون مثل غرفة تغيير ملابس الفريق الفائز (ولكن بدون الرائحة الكريهة!). كلنا سنسعد بوجودنا هناك، ولكن البعض سيكونون أقدر على الاستمتاع بها وسينالون مكافآت أكثر من غيرهم. ومهما كان من أمر، عدالةُ الله تقتضي درجات من المكافآت في السماء كما سيكون هناك درجات من العقاب في النار.

الملحد: إذَن تقصد أن الحياة مثل بطولة السوبر بول؟

المسيحي: إلى حد ما. وهي تشبه السوبر بول في أن لها قواعد، وحَكَمًا، ومكافآت. ولكن الحياة ليس فيها متفرجون، الكل على أرض الملعب، ونحن نعرف الفائز مسبقًا. المسيح سيفوز، وأي شخص يمكنه أن يكون من الفائزين بالانضمام إلى الفريق، بصرف النظر عن قدراته. ورغم أن كل مَنْ في الفريق سيستمتع بموكب الفوز، فالبعض سيكونون أكثر تقديرًا له نظرًا لما اختبروه من صعوبات أثناء المباراة وما ينالون من مكافآت لأنهم لعبوا حسنًا. وهو ما يعني أن الشعور بالفوز يكون أعظم كلما كانت المعركة أشد.

الملحد: إذَن أنت تعني أن الشر له غرض يحمل تداعيات في الأبدية.

المسيحي: نعم.

الملحد: لماذا تصر أن تضع كل شيء في ضوء الأبدية؟

المسيحي: لأن الفترة التي سنقضيها جميعًا بعد الموت أطول كثيرًا من فترة حياتنا! والكتاب المقدس يُعَلِّمنا أن ننظر للأبدي، والحياة لا تكتسب معنى إلا في ضوء الأبدية. فإن لم تكن هناك أبدية، فليس هناك غرض نهائي لأي شيء، سواء أكان مسرة أو ألمًا.

الملحد: افترض أنه ليس هناك أبدية. افترض أننا نعيش ونموت، وهذا كل ما في الأمر.

المسيحي: ممكن. ولكن ليس عندي من الإيمان ما يكفي لتصديق هذه الفكرة.

الملحد: ولمَ لا؟

المسيحي: ألم تقرأ هذا الكتاب؟

الملحد: لا، لقد قفزت إلى الملحق مباشرة.

المسيحي: أنت هكذا، أليس كذلك؟ لا تريد أن تلعب المباراة. تريد أن ترى النتيجة النهائية فقط.

الملحد: أظن أني أعاني من مرض الإشباع الفوري الأمريكي.

المسيحي: وأغلب الظن أن هذا هو ما يجعلك تجد صعوبة في إدراكِ قيمة الألم، لكن "مافيش حلاوة من غير نار".

الملحد: عندك حق. قراءة هذا الكتاب مؤلمة للغاية. فهو طويل جدًا.

المسيحي: كان من الممكن أن يقصر عن ذلك لولا أننا مضطرون لتناول كل تلك المحاجات المجنونة التي تثيرونها أنتم الملحدين. ثم إن عندك وقتًا للقراءة. فأنت لست مشغولاً صباح أيام الأحد.

الملحد: يمكنني القيام بالكثير من الأشياء الأقل إيلامًا صباح الأحد.

المسيحي: اسمع، أنا أعرف أن قراءة هذا الكتاب قد تكون مؤلمة، ولكن الأكثر إيلامًا أن ترفض الخلاصة التي يتوصل إليها. إن أردت أن تتعرف على كل الحجة المؤيدة للمسيحية يجب أن تقرأ هذا الكتاب من أوله إلى آخره. والقضية مطروحة بترتيب منطقي. فكل فصل مبني على سابقه.

الملحد: موافق. سأقرأ الكتاب. ولكن في الوقت الحالي، دعنا نعود إلى مسألة الشر. إن كانت هناك أبدية، إذَن بعض الشرور في هذا العالم قد يكون لها غرض أبدي. ولكن مؤكد أن بعض الأفعال الشريرة في هذا العالم ليس لها أي غرض على الإطلاق.

المسيحي: كيف تعرف؟

الملحد: شيء واضح! فما الغرض الخيِّر الذي يمكن أن ينتج من الهجمات الإرهابية في ١١ أيلول/سبتمبر مثلاً؟

المسيحي: رغم أني أتمنى لو لم تقع هذه المأساة، فنحن نعرف ببعض الأمور الخيِّرة التي نشأت من تلك الأحداث البشعة. مثلاً، اتحدنا معًا كأمة وأخذنا نساعد مَنْ يحتاجون للمساعدة، وعزمنا على محاربة شر الإرهاب. وقد دفعتنا الصدمة أن نمعن التفكير في أسئلة الحياة الجوهرية، والبعض رجعوا للمسيح نتيجة لهذه الأحداث. فكما قال سي. إس. لويس: الألم هو "مكبر الصوت" الذي يستخدمه الله "ليوقظ عالَمًا أصم".[١] ومؤكد أن أحداث ١١ سبتمبر أيقظتنا.

الملحد: نعم، يمكنك أن تجد جانبًا مضيئًا في كل شيء تقريبًا، ولكن هذا "الجانب المضيء" يستحيل أن يفوق الألم والمعاناة.

المسيحي: كيف لك أن تعرف؟ ما لم تكن كليَّ المعرفة وتتمتع بمنظور أبدي، كيف تعرف أن أحداث ١١ سبتمبر لن تعمل معًا للخير في النهاية؟ محتمل أن الكثير من الأشياء الخيِّرة ستحدث في حياة الأفراد نتيجةً لهذه الكارثة، ولن نسمع بها أبدًا. والحقيقة أن النتائج الإيجابية قد تأتي بعد أجيال من الآن دون علم أولئك الذين سيجنونها.

الملحد: هذا هروب من واقع مرير.

المسيحي: لا. إنه ببساطة اعتراف بحدودنا وإقرار بمعرفةِ الله غير المحدودة ومقاصده غير المنظورة (رومية١١: ٣٣-٣٦). فنحن لا نستطيع أن نرى المستقبل الأرضي، ناهيك عن الأبدية في السماء. فكيف يمكننا أن نقول إن الناتج الأبدي النهائي من أحداث ١١ سبتمبر لن يعمل للخير؟ ونحن نعرف فعليًا بعض الأشياء الخيِّرة التي نتجت منها. وعدم قدرتنا على معرفة سبب أو غرض صالح نهائي لها لا يعني أن الله غير المحدود ليس عنده غرض.

الملحد: لو أطلعني الله على أسبابه، قد أستطيع أن أصدقك.

المسيحي: لقد جرَّب أيوب ذلك الأسلوب قَبْلَك. فبعد أن سأل الله عن سبب معاناته، حيَّره الله بأسئلة عن عجائب الخليقة (أيوب٣٨-٤١). وكأن الله يقول له: "أيوب، لا تستطيع حتى أن تفهم كيف أدير العالم الطبيعي الذي **تستطيع** أن تراه، فكيف يمكنك أن تفهم العالم الأخلاقي الأكثر تعقيدًا بما لا يقاس الذي **لا تستطيع** أن تراه، عالم فيه تتفاعل نتائج مليارات القرارات الحرة التي يتخذها البشر يوميًا؟" حقًا يستحيل علينا أن نستوعب هذا التعقيد. بالمناسبة، هل شاهدت فيلم "حياة مدهشة" *It's a Wonderful Life*؟

الملحد: تقصد فيلم چيمي ستيوارت *Jimmy Stewart* الذي يُعرض في الكريسـ... أقصد بداية الشتاء؟

المسيحي: نعم. چيمي ستيوارت يمثل دور چورچ بيلي الذي ييأس من الحياة لأن صفقاته التجارية تعثَّرت ويبدو أن حياته تنهار. وينقذه من الانتحار على آخر لحظة ملاك يعرض له كيف كان يمكن أن تكون حياة الآخرين لو لم يولد. ويرى أن الكثيرين في مدينته كانوا سيعيشون حياة مأساوية. إلا أن چورچ لم يعرف ذلك طيلة حياته. فهو

لم يدرك مطلقًا ما كان لحياته من أثر مذهل على الآخرين. ومن هنا يأتي العنوان "حياة مدهشة".

الملحد: ها! خدعة!

المسيحي: يا رجل. لقد فهمت الفكرة، أليس كذلك؟

الملحد: نعم، فهمت الفكرة: نحن لا نعرف الأثر الذي يمكن أن ينتج عن أي شخص أو حدث على المدى البعيد، وخاصةً في وجود العديد من القرارات المتفاعلة التي يتخذها البشر.

المسيحي: نعم، وحتى القرارات التي تهدف للشر يمكن أن تتحوَّل للخير (تكوين٥٠: ٢٠). محتمل أن الكثير من الناس الآن أو أجيال من الآن سيأتون إلى المسيح بسبب آثار الشر المباشرة أو غير المباشرة.

الملحد: ولكنها تبدو حجة مبنية على الجهل *argument from ignorance*.

المسيحي: لا. فالأمر ليس أننا لا نملك معلومات عن سبب حدوث أشياء سيئة. ولكننا نعلم أننا نعيش في عالم ساقط، ونعلم أن الخير يمكن أن يَنتج من الشر. لذا، نحن نعلم أنه من الممكن أن يكون عند الله سبب وجيه لوقوع الأحداث السيئة، حتى إن كنا لا نعلم تلك الأسباب. ونحن نعلم أنه يستطيع أن يُخرج من الشر خيرًا. إذَن فهي ليست حجة مبنية على الجهل، ولكنه استنتاج منطقي مبني على ما نعرفه من معلومات. ورغم أننا لا نعلم سبب كل حدثٍ سيء **على وجه التحديد**، فنحن نعلم سبب عدم علمنا: نحن لا نعلم بسبب محدوديتنا البشرية.

الملحد: وما رأيك في إجابة المعلم اليهودي كوشنر *Kushner* على السؤال؟ أنت تعرف أنه صاحب كتاب "عندما تحل السيئات بالصالحين" *When Bad Things Happen to Good People*.

المسيحي: أعتقد أن إجابته خاطئة.

الملحد: خاطئة؟ لماذا؟

المسيحي: لأنه يقول إن الله لا يملك من القدرة ما يُمَكِّنه من التغلب على الشر الموجود على الأرض. لذا، يجب أن نغفر لله سماحه بالشر.

الملحد: ما الخطأ في ذلك؟

المسيحي: هناك أدلة قوية على أن قدرة الله غير محدودة. فالله يوصَف ٥٦ مرة في الكتاب المقدس بأنه "القدير"، ويوصف بأنه كلي القدرة بعدة تعبيرات أخرى. ونحن نعرف أيضًا من الأدلة العلمية أنه خلق هذا الكون من العدم (ألقِ نظرة على الفصل الثالث من هذا الكتاب). فالإله المحدود الذي يؤمن به المعلم اليهودي كوشنر لا يتفق مع الحقائق.

الملحد: إن كانت قدرةُ الله غير محدودة كما تقول، فلماذا إذَن يسمح بحدوث أشياء سيئة للأشخاص الصالحين؟

المسيحي: لقد أوضحنا أن الألم والمعاناة يأتيان بنتائج صالحة. ولكن يجب أن نوضح أيضًا أن السؤال يفترض افتراضًا خاطئًا؟

الملحد: ما هو؟

المسيحي: ليس هناك أناس **صالحون!**

الملحد: نعم؟

المسيحي: أنا أعني ما أقول. بعض الناس أفضل من غيرهم، ولكن ليس أحد صالحًا بحق. كلنا نميل بالطبيعة إلى الأنانية. وكلنا نرتكب الخطايا بشكل اعتيادي.

الملحد: ولكن أعمالي الصالحة أكثر من السيئة.

المسيحي: بمقياس مَنْ؟

الملحد: بمقياس المجتمع. فأنا مواطن أحترم القانون، ولستُ قاتلاً ولا لصًا.

المسيحي: تلك هي المشكلة. نحن نعتبر أنفسنا صالحين مقارنةً بالأردياء فقط. إننا نقيِّم أنفسنا بالمقارنة مع الآخرين لا بالمقارنة مع مقياس مطلق للصلاح. بالمناسبة، هل سبق وسرقت أي شيء؟

الملحد: الحقيقة، نعم.

المسيحي: هل سبق وكذبت في أي شيء؟

الملحد: لا.

المسيحي: أنت تكذب.

الملحد: آه. واضح أني لن أستطيع أن أخدعك.

المسيحي: إذَن أنت لص كاذب.

الملحد: ولكن ذلك لا يعني أنا سيء تمامًا.

المسيحي: لا، ولكنه يعني كذلك أنك لست صالحًا تمامًا. فكِّر فيها: أن تكون سيئـًا أسهل كثيرًا من أن تكون صالحًا، فمَيْلـُك الطبيعي يتجه نحو الأنانية أكثر مما يتجه نحو الكرم. وكلنا نحمل هذه الطبيعة البشرية الفاسدة. وكما قال أغسطينوس: "كلنا مولودون بميل نحو الخطية وبحتمية الموت".[٢] فهذا الميل متأصل فينا من الولادة. وهو ما يفسِّر السلوك الطبيعي للطفل عندما ينتزع الشيء ويصرخ: "بتاعي". ويفسِّر كذلك قول چيمز ماديسون *James Madison*: "لو كان البشر ملائكة، لما كانت هناك حاجة للحكومات".[٣]

الملحد: إذَن كوشنر يفترض افتراضات خاطئة بشأن طبيعة الإنسان وطبيعةِ الله.

المسيحي: بالضبط. فالسؤال ليس "لماذا تحل السيئات بالصالحين؟" بل "لماذا تحدث الصالحات للأردياء؟"

الملحد: إن كان الله فعلاً كلي القدرة كما تقول، فما زلت لا أفهم لماذا لم يمنع هجمات ١١ سبتمبر. فلو كنت تعلم أنها ستحدث وكنت تملك من القدرة ما يمنعها، أما كنت ستمنعها؟

المسيحي: بلى.

الملحد: إذَن أنت أفضل من الله!

المسيحي: لا، إن منعتُ هجمات ١١ سبتمبر، أكون بذلك قد منعتُ الشر. ولكن الله صاحب المنظور الأبدي غير المحدود يسمح باختيارات شريرة وهو عالم أنه يستطيع في النهاية أن يصلحها. ولكننا نحن لا نستطيع أن نصلح هذه الاختيارات. لذا، نحاول أن نمنعها جميعًا.

الملحد: نعم ولكن بناءً على عقيدتك المسيحية نفسها، الله لا يُصلح كل الاختيارات الشريرة في النهاية. فمهما كان، البعض يذهبون إلى الجحيم.

المسيحي: نعم، ولكن ذلك لأن الله لا يستطيع أن يأتي بالخير الأبدي إلا لمن يَقبلون هذا الخير. البعض يتجاهلون الحقائق أو يختارون أن يلعبوا المباراة على نحو يأتي لهم بالهزيمة. وبما أن الله لا يستطيع أن يجبرهم على أن **يختاروا بحرية** أن يلعبوا المباراة على النحو الصحيح، فالخير النهائي لا يأتي إلا لمن يختارونه. وهو ما يفسر قول بولس:

«ونحن نعلم أن كل الأشياء تعمل معًا للخير للذين يحبون الله، الذين هم مدعوون حسب قصده» (رومية٨: ٢٨). لاحظ أنه لا يقول إن "كل الأشياء خير". ولكنه يقول إن كل الأشياء تعمل معًا **لأجل خير الذين يحبونه.**

الملحد: إذَن كيف عملت كل الأشياء معًا لخير الذين ماتوا في ١١ سبتمبر؟

المسيحي: مَنْ أحبوا الله وقبلوا عطية الخلاص المجانية هم الآن مع الله في الأبدية. ومَنْ هم غير ذلك، فإن اختيارهم الحر للانفصال الأبدي عن الله يُحترم أيضًا.

الملحد: وماذا عن الباقين منا؟

المسيحي: مَنْ بقي منا في هذه الحياة ما زال أمامه وقت لاتخاذ قراره. ومَنْ كانوا مسيحيين حقيقيين بالفعل عند حدوث هجمات ١١ سبتمبر من المحتمل أن شخصياتهم الأدبية ازدادت قوة نتيجة الأحداث.

الملحد: لكن إن كان الله كلي الصلاح وكلي المعرفة، لماذا يخلق أناسًا يعرف أنهم سيذهبون إلى جهنم؟

المسيحي: سؤال وجيه. لم يكن عند الله سوى خمسة خيارات. كان بإمكانه: ١) ألا يخلق على الإطلاق. ٢) أن يخلق عالمًا بلا حرية حيث البشر كالإنسان الآلي. ٣) أن يخلق عالمًا حرًا حيث البشر لا يخطئون. ٤) أن يخلق عالمًا حرًا حيث البشر يخطئون، ولكنهم جميعًا سيَقبلون خلاص الله. ٥) أن يخلق العالم بالحالة التي هو عليها الآن، حيث البشر يخطئون، والبعض منا سيخلصون ولكن الباقون سيهلكون.

الملحد: نعم، ويبدو أن الله اختار أسوأ البدائل الخمسة! إذَن الله ليس كلي الصلاح.

المسيحي: لا تستعجل الحكم. الخيار الأول لا يمكن حتى أن يقارَن بالأربعة الأُخَر لأنه ليس هناك وجه شبه بين الشيء واللاشيء. مقارنة عالم حقيقي باللاعالم لا يشبه حتى مقارنة التفاح بالبرتقال، لأن الاثنين من الفواكه. ولكنه يشبه مقارنة التفاح باللاتفاح، مع الإصرار على أن اللاتفاح ألَذّ. وهو ما يطلق عليه في المنطق خطأ تصنيفي *category mistake*. إنه كمَنْ يسأل: "ما لون الرياضيات؟" الرياضيات ليست لونـًا، فالسؤال بلا معنى.

الملحد: إن كانت مقارنة الوجود باللاوجود خطأً تصنيفيًا، إذَن يسوع ارتكب خطأً تصنيفيًا عندما قال إنه كان خيرًا ليهوذا لو لم يولد (متى٢٦: ٢٤).

المسيحي: لا، يسوع لم يكن يتكلم عن أفضلية اللاكينونة على الكينونة. ولكنه كان يُعَبِّر تعبيراً قويًا عن بشاعة خطية يهوذا.

الملحد: فلماذا لم يختَرَ الله البديل الثاني – بشرًا كالإنسان الآلي؟

المسيحي: كان بإمكانه أن يفعل ذلك، ولكن العالم بهذا الشكل لا يمكن أن يكون عالماً أخلاقيًا. سيكون عالماً يخلو من الشر، ولكنه يخلو من الخير الأخلاقي أيضًا.

الملحد: فلماذا لم يخلق العالم بالشكل الثالث أو الرابع؟ عالم يسمح بالحب، ومؤكَّد أنه أفضل من الذي نعيش فيه الآن.

المسيحي: نعم، ولكن ليس كل ما **يمكن تخيله يمكن تحقيقه** مع المخلوقات الحرة. فمثلاً، يمكننا أن نتخيل أنه بإمكاني أن أسرق بنكـًا بدلاً من أن أتحدث إليك. ولكنه أمر لا يمكن تحقيقه لأني اخترت بحريتي أن أتحدث إليك. وهكذا الله لا يمكنه أن يقهر المخلوقات الحرة على **ألا** تخطئ. فالحرية القهرية تناقض.

الملحد: ولكن عالمنا هذا كان يمكن أن يكون أفضل لو تناقصت جرائم القتل أو الاغتصاب. إذَن الله فشل في خلق أفضل عالم ممكن.

المسيحي: تمهل. رغم أني أعترف أن هذا العالم ليس أفضل عالم ممكن، قد **يكون أفضل طريقة للوصول إلى** أفضل عالم ممكن.

الملحد: ما هذه اللغة النفسية الخَلقية الغريبة؟

المسيحي: محتمل أن الله سمح بالشر لكي يهزمه. فكما قلتُ، لو لم يسمح الله بالشر، لما أمكن بلوغ الفضائل العليا. فالأشخاص الذين افتـُدوا من الألم يتمتعون بشخصيات أخلاقية أقوى من الذين لم يُمتحَنوا بالألم. إن بناء النفس يتطلب شيئـًا من الألم. فأيوب في أصحاح ٤٢ رجل أكثر عمقـًا وفرحًا من أيوب في أصحاح ١. إذَن الشر في هذا العالم يخدم فعليًا غرضًا خيرًا في النهاية. إنه يخلق أفضل عالم أبدي ممكن.

الملحد: ولكن لماذا يخلقُ الله أناسًا رغم معرفته بأنهم سيختارون جهنم؟

المسيحي: هل عندك أطفال؟

الملحد: نعم. وأنا نفسي كنتُ طفلاً!

المسيحي: لماذا أنجبتهم رغم معرفتك أنهم سيعصونك يومًا ما؟

الملحد: زوجتي كثيرًا ما تسألني ذلك السؤال!

المسيحي: أنا أعرف لماذا أنجبت أبنائي. لأن الحب لا يخشى المخاطرة. كنت مستعدًا أن أخاطر بالفقد في سبيل أن أختبر فرح الحب. وهو ما ينطبق على كل بطولة سوبر بول. كلا الفريقين يعرفان أن أحدهما سيخسر، ومع ذلك كلاهما مستعدان أن يلعبا رغم المخاطرة.

الملحد: ينبغي أن أعترف أن إجاباتك منطقية على المستوى الفكري، ولكن الشر ما زال يزعجني.[٤]

المسيحي: ويزعجني أنا أيضًا، ويجب أن يزعجنا. فكلنا نعرف أن هذا العالم ليس في الوضع الصحيح، وكلنا نشتاق للسماء. وربما اشتياقنا للسماء مؤشر آخر على أنها حقيقة (ناقَشنا بعض المؤشرات الأخرى التي تدلل على ذلك في هذا الكتاب).

الملحد: محتمل، ولكني لا أظن أن إجاباتك الفكرية يمكنها أن تساند شخصًا يعاني من الشر.

المسيحي: قد تكون على صواب. ولكنك لست مضطرًا أن تصمد أمام الشر بالإجابات فقط. يمكنك أن تستند على المعزي الإلهي، أي الروح القدس، ليساعدك وسط حياة الألم والمعاناة التي تبني النفس.

الملحد: أُفَضِّل ألا أعاني على الإطلاق عن أن أستند على مُعَزٍّ.

المسيحي: ربما لذلك لا يضعُ الله الألم والمعاناة تحت سيطرتك. ولو فعل، مَنْ سيختار أن يجتاز فيهما؟

الملحد: لا أحد؟

المسيحي: هذا ليس صحيحًا بالتمام. مؤكد أن رجلاً اختار الألم. يسوع المسيح اختار الألم طوعًا حتى يصالحك ويصالحني مع الله. وكان ذلك هو النموذج الحقيقي الوحيد للشر الذي يحلّ بشخص صالح بحق. لذا، يمكننا أن نشكو لله من الألم والمعاناة، ولكن يجب أن نعترف أنه لم يَعفِ نفسه منهما. أما أنت وأنا، فالله أحيانًا ما ينقذنا من الشر، ولكنه أحيانًا يعزِّينا **وسط** الشر. وفي أي من الحالتين، سواء عرفنا أسبابه أو لم نعرفها، يمكن للمؤمنين أن يثقوا في الله من حيث إنه يجعل كل الأشياء تعمل معًا للخير حسب خطته الأزلية.

ملحق ٢

أليس ذلك تفسيرك أنت؟

الملحد: حسنـًا، لقد عدت وقرأت هذا الكتاب كله كما طلبت، ولكني لا أظن أنك نجحت في بناء قضية قوية لصالح المسيحية.

المسيحي: لماذا؟

الملحد: لأنه تفسيرك أنت.

المسيحي: طبعًا هو تفسيري أنا، ولكن ذلك لا يعني أن تفسيري خطأ.

الملحد: أنا أقول إنه خطأ.

المسيحي: هل هذا تفسيرك أنت؟

الملحد: إذَن أنت تقلب عليَّ الطاولة؟

المسيحي: نعم. كل الاستنتاجات تشتمل على تفسير، بما فيه تفسيرك. ولكي تعرف ما إذا كان تفسيري (المسيحية) خطأ موضوعيًا، يجب أن تعرف ما هو صحيح موضوعيًا. فما هو إذَن ذلك التفسير الصحيح؟

الملحد: ليس هناك تفسيرات موضوعية.

المسيحي: سامحني لأني سأفعل ذلك ثانيةً. ولكن هل ذلك تفسير موضوعي؟

الملحد: كُفَّ عن ذلك!

المسيحي: أكف عن ماذا؟ عن أن أكون منطقيًا؟ أنا فقط أستخدم خطة "رود رَنَر" من الفصل الأول. عندما تقول شيئـًا متناقضًا يفند نفسه، أشعر أني مجبر على إبرازه. فكيف يمكنك أن تقدم تفسيرًا موضوعيًا يقول بعدم وجود تفسيرات موضوعية؟

الملحد: موافق، إذَن محتمل أن هناك تفسيرات موضوعية.

المسيحي: نعم هناك تفسيرات موضوعية. رغم أنك قد تفسِّر الأدلة ثم تستنتج أن المسيحية خاطئة، يمكنني أن أفعل نفس الشيء وأستنتج أنها صحيحة. ولكن بما أن الشيء وضده لا يمكن أن يكونا صحيحين، مؤكد أن واحدًا منا فقط على صواب، والآخر مخطئ. فمَنْ على صواب؟

الملحد: أنا.

المسيحي: لماذا؟

الملحد: أنا أعتقد أني على صواب.

المسيحي: ولكن هذا مجرد تأكيد. ينبغي أن تقدم أدلة ولا تكتفي بإطلاق التأكيدات. ونحن في هذا الكتاب لم نطلق تأكيدات تقول بأن المسيحية صحيحة، ولكننا قدمنا أدلة في كل خطوة على الطريق، بدءًا بمسألة الحق وانتهاءً بوحي الكتاب المقدس. فما أدلتك على صحة الإلحاد؟

الملحد: الشر والعِلْم.

المسيحي: تلك ليست أدلة إيجابية على الإلحاد ولكنها مجرد أشياء يعتبرها البعض عقبات تَحول دون الاعتقاد في المسيحية. وكما رأينا، وجود الشر لا يدحض وجود الله (الملحق الأول)، والاكتشافات العلمية تؤيد فعليًا المنظور المسيحي (الفصول ٣-٦).

الملحد: ولكن إن كانت المسيحية صحيحة، فهي تستبعد العديد من الناس. فمهما كان، ملايين الناس ليسوا مسيحيين.

المسيحي: ولكن ذلك لا يحدد ما إذا كانت المسيحية صحيحة أم لا. فمهما كان الحق لا يُحَدَّد بعدد مَنْ يُصَدِّقونه. ولكن الحق يُكتَشَف بالنظر إلى الأدلة. هل تفسيرك (أن المسيحية خاطئة) خطأ بالضرورة لأنه يستبعد ملايين المسيحيين؟

الملحد: لا.

المسيحي: ولا تفسيري أيضًا. بالإضافة إلى أنه كما رأينا عندما تَكَلَّمنا عن الشر، المسيحية لا تستبعد الناس، ولكن الناس يستبعدون أنفسهم من المسيحية. الجميع يعرفون أن الله موجود. ولكن لأننا جميعًا نملك إرادة حرة، البعض يختارون أن يخمدوا تلك المعرفة لكي يتمكنوا من اتباع رغباتهم. وبولس يتحدث عن ذلك في رومية أصحاح ١.

الملحد: ممكن، ولكني أرى استنتاجك عبارة عن حكمِ إدانةٍ شديد التطرف. ويجب ألا تحكم.

المسيحي: سامحني مرة أخرى، ولكن إن كان يجب ألا نحكم، فلماذا تحكم عليَّ لأني أحكم؟

الملحد: ما هذا يا عم القديس؟ هل تفضِّل أن تلعب ألعابًا منطقية على أن تصدق ما قاله يسوع؟

المسيحي: ليست لعبة ولكنها ملاحظة عن واقع الأمور. فأنت تناقض نفسك عندما تقول لي: "يجب ألا تحكم" لأن هذه الجملة نفسها حكم. وأنت أيضًا تحكم عندما تقول إن المسيحية ليست صحيحة!

الملحد: موافق. ولكن ماذا عن نقطتي الثانية؟ ألا تصدق ما قاله يسوع؟

المسيحي: لماذا تستشهد بالكتاب المقدس؟ هل تؤمن الآن أنه صحيح؟

الملحد: لا، ولكنك أنت تؤمن به. فلماذا لا تصدق ما قاله يسوع؟

المسيحي: أنا أصدقه. ولكن المشكلة أنك لا تعرف ما قاله. فيسوع لم يوصِنا ألا نحكم. ولكنه ببساطة أوصانا ألا نحكم حكمًا مُرائيًا. فقد قال: «لا تدينوا لكي لا تدانوا، لأنكم بالدينونة التي بها تدينون تدانون، وبالكيل الذي به تكيلون يكال لكم» (متى٧: ١، ٢). ثم استطرد وقال: «أخرج أولاً الخشبة من عينك، وحينئذٍ تبصر جيدًا أن تُخرج القذى من عين أخيك». أي أنك عندما تحكم، لا تحكم برياء. والكتاب المقدس يوصينا أيضًا أن نحكم عندما يقول لنا أن «نمتحن كل شيء» (١تسالونيكي٥: ٢١)، وألا «نصدقَ كل روح» (١يوحنا٤: ١) لكن نؤمن بيسوع المسيح لنوال الحياة الأبدية (يوحنا٣: ١٦).

الملحد: انتهيت؟

المسيحي: لا. عندي نقطة أخرى: مستحيل أن تعيش طويلاً إن لم تحكم بين الخير والشر. فأنت تتخذ مئات القرارات البالغة الأهمية كل يوم التي يمكن أن تضرك أو تنفعك. وعندما تتخذ تلك القرارات تصدر أحكامًا.

الملحد: حسنًا. فهمتُ أن الجميع يحكمون. وأنت تحكم عندما تفسر الكتاب المقدس بهذه الطريقة. فمن الذي يحدد ما إذا كان تفسيرك صحيحًا؟

المسيحي: يجب أن تنظر إلى سياق النص لكي تكتشف معناه الموضوعي.

الملحد: إن كانت التفسيرات الموضوعية ممكنة، فما السر في تعدد التفسيرات المختلفة للكتاب المقدس؟

المسيحي: لماذا يخطئ الكثيرون في مسائل الرياضيات؟ أليس هناك حلول صحيحة للمسائل الحسابية؟

الملحد: اللغة مختلفة. أظن أن هناك الكثير من التفسيرات الصحيحة لنفس الجملة أو الآية الكتابية. وهذا ما يفسر تعدد الطوائف.

المسيحي: إذَن أنت تقول إن الجمل يمكن تفسيرها بطريقة واحدة فقط.

الملحد: لا!... ألم تسمع ما قلتُه توًّا؟ قلت إن العكس تمامًا هو الصحيح. هناك الكثير من التفسيرات المقبولة.

المسيحي: إن كان هناك الكثير من التفسيرات المقبولة، فلماذا صحَّحت كلامي لأني أسأت تفسير ما قلتَه؟

الملحد: هل فعلتُ ذلك؟

المسيحي: نعم، لقد أخبرتني توًّا أني أسأت فهمك. وهذا يعني أنك قلت إن تفسيري خطأ! لماذا فعلت ذلك إن كان هناك الكثير من التفسيرات المقبولة؟

الملحد: لأني أعرف ما أعنيه، وكان يجب أن يكون واضحًا لك.

المسيحي: لك حق. إذَن دعني أسألك: لماذا تتوقع من الآخرين أن يعرفوا ما تعنيه أنت عندما تقول جملة تقريرية، ولكن عندما يقولُ الله جملة تقريرية في الكتاب المقدس، تعطي نفسك الحق أن تَصُبَّ فيها أي معنى تريد؟

الملحد: حسنـًا، من المحتمل أن هناك تفسيرات موضوعية. ولكن إن كان الأمر كذلك، فما السر في وجود العديد من الطوائف؟

المسيحي: لنفس سبب وجود الكثير من غير المسيحيين. لا لأنهم لا يدركون الحق، ولكن لأنهم لا يقبلون الحق. أي أننا نؤمن بتقاليدنا ورغباتنا أكثر مما نؤمن بكلمةِ الله. وهو ما تكلم يسوع ضده بكل قوة (متى١٥: ٢٣).

الملحد: حسنـًا. سأصارحك بكل شيء.

المسيحي: آن الأوان لذلك.

الملحد: مشكلتي الحقيقية مع المسيحية أنها تؤدي إلى رفض الاختلاف. فأنتم المسيحيين تعتقدون كلكم أن عندكم الحق!

المسيحي: ألم تلاحظ أن كل واحد يعتقد أن عنده الحق؟ مَنْ يقولون إن المسيحية خاطئة يعتقدون أن عندهم ذلك الحق. حتى مَنْ يقولون إن كل الأديان صحيحة يعتقدون أن ذلك هو الحق.

الملحد: موافق، موافق، أنت على صواب. أنا أعتقد أن الإلحاد صحيح. ولكني لا أرفض الاختلاف مثل معظم المسيحيين.

المسيحي: حتى إن كان المسيحيون يرفضون الاختلاف، فهذا لا يعني أن المسيحية خاطئة.

الملحد: أنا أدرك ذلك، ولكنها لا تزال مشكلة عملية.

المسيحي: كيف؟

الملحد: لأن مَنْ يعتقدون أن عندهم الحق يريدون أن يفرضوا ذلك الحق على الآخرين؟

المسيحي: هل تقصد سياسيًا؟

الملحد: نعم.

المسيحي: عندي خبر لك: كل من يعمل في السياسة، بما فيهم كل غير المسيحيين، يحاول أن يفرض ما يعتقد أنه الحق. فما هي نقطتك؟

الملحد: نقطتي أن المسيحيين يريدون أن ينزعوا حقوق البشر.

المسيحي: الحقيقة أن المسيحية إحدى المنظورات الفلسفية الحياتية القليلة التي تقدر أن تقدم تبريرًا لحقوق الإنسان المطلقة لأنها تؤكد أن تلك الحقوق ممنوحة لنا من الله. وكما أَقَرَّ مؤسسو الولايات المتحدة، ليس الهدف من الحكومات أن تمنح الحقوق أو تنزعها، ولكن الهدف من الحكومات أن تكفل الحقوق التي يمتلكها الناس أصلاً. وهذا ما أكدّناه في إعلان استقلالنا.

الملحد: ولكن ماذا عن قبول الاختلاف؟

المسيحي: المسيحية إحدى المنظورات الحياتية القليلة التي لا تتيح قبول الاختلاف على المستوى الديني فحسب، بل تناصره. فبما أن الله لا يجبر أحدًا على الإيمان (الحقيقة أن غرض هذه الحياة هو الاختيار الحر)، معظم المسيحيين يُقِرّون أن الحكومة أيضًا يجب ألا تحاول أن تفرض الإيمان.

الملحد: ولكن أثناء الحملات الصليبية، واضح أن بعض المسيحيين كان لهم رأي مختلف.

المسيحي: ربما سمَّوا أنفسهم مسيحيين، ولكن مؤكد أنهم لم يتبعوا تعاليم المسيح. فيسوع لم يقبل مطلقـًا هذا السلوك.

الملحد: أظن أن الحكومة العلمانية الصِّرف هي الأكثر قبولاً للاختلاف. فمهما كان، البلدان العلمانية في أوروبا تتمتع بالحرية الدينية.

المسيحي: تلك البلدان موجودة بالفعل، ولكن معظمها تعيش على بقايا المنظور المسيحي للأجيال السابقة. فما مقدار الحرية الدينية المتاحة في البلدان التي تعلن إلحادها صراحةً مثل الصين، أو ما مقدار الحرية التي كانت متاحة في الاتحاد السوفيتي السابق؟ ليس كثيرًا. وإن ذهبت إلى بلاد بعينها اليوم، ستجد أيضًا أن مقدار الحرية الدينية ضئيل جدًا. وعلى حد علمي حتى الآن أن الكنائس ممنوعة في هذه البلاد. وبعض البلدان الأخرى تعامل المسيحيين كمواطنين من الدرجة الثانية.

الملحد: قد يكون هذا صحيحًا بخصوص قبول الاختلاف الديني، ولكن معظم المسيحيين لا يقبلون الاختلاف كثيرًا بخصوص قضايا أخلاقية معينة.

المسيحي: هل تعتقد أن قبول الاختلاف واجب أخلاقي مطلق؟

الملحد: أنت تحاول ثانيةً أن تربط الواجبات الأخلاقية بالله، أليس كذلك؟

المسيحي: لأنه ليس هناك ارتباط آخر. كما رأينا في الفصل السابع، ليس هناك واجبات أخلاقية ولا صواب أخلاقي إلا إذا كان الله موجودًا. فلماذا يجب على أي شخص أن يقبل الاختلاف إن لم يكن هناك واجب أخلاقي يحتم قبول الاختلاف؟

الملحد: لأنه الصواب.

المسيحي: هذا تأكيد آخر. بصفتك ملحدًا لا يمكنك أن تبرِّر لماذا يجب على أي شخص أن يقبل الاختلاف.

الملحد: ربما. ولكنك بصفتك مسيحيًا تستطيع أن تبرر ذلك. فلماذا لا تؤمن أنه يجب علينا أن نقبل الاختلاف؟

المسيحي: الحقيقة أن أعلى واجب أخلاقي هو الحب، لا قبول الاختلاف. قبول الاختلاف يقول: "سد مناخيرك واحتمل الآخرين". والحب يقول: "اذهب وساعد الآخرين".

الملحد: ما المانع أن تقبل الاختلاف وتحب في نفس الوقت؟

المسيحي: لا مانع، ولكن أحيانـًا الحب يتطلب ألا تقبل الاختلاف. فمثلاً أليس قبول القتل أو الاغتصاب أو السرقة أو العنصرية ضد الحب؟

الملحد: أظن ذلك.

المسيحي: عظيم، ولكننا خرجنا عن الموضوع قليلاً. فالمسيحية تركز على الخلاص الروحي لا الخلاص الاجتماعي. ورغم أنه من المؤكد أن المسيحيين عليهم واجبات اجتماعية، المسيح جاء ليحررنا من خطايانا، لا ليحررنا من "الرومان".

الملحد: إن هذا لا يظهر في سلوك بعض المسيحيين اليوم.

المسيحي: تقصد أنه لا تعجبك آراؤهم الكتابية بخصوص القضايا الأخلاقية مثل الإجهاض والجنس المثلي؟

الملحد: نعم.

المسيحي: وأين المشكلة؟

الملحد: ماذا تقصد بأين المشكلة؟ تلك القضايا مهمة بالنسبة لي!

المسيحي: هل تلك القضايا مهمة جدًا بالنسبة لك لدرجة أنك مستعد أن تضحي بالحق نفسه في سبيل الاحتفاظ بها؟

الملحد: ما هذا الذي تتحدث عنه؟

المسيحي: القضية هي الحق، لا ما تراه جذابًا على المستوى السياسي أو الشخصي. هل تظن أنه يجب أن تصدق ما هو صحيح؟

الملحد: طبعًا. أي شخص عاقل سيقول نعم!

المسيحي: إذَن إن كانت المسيحية صحيحة، يجب أن تؤمن بها بغض النظر عما تظن من تأثيرها على السياسة أو القضايا الأخلاقية أو أي جانب آخر من جوانب حياتك.

الملحد: هذا صعب.

المسيحي: ممكن. ولكن الأصعب كثيرًا على المدى البعيد أن تؤمن بالخطإ. والمسيح قال: «إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني. فإن من أراد أن يخلص نفسه يهلكها ومن يهلك نفسه من أجلي يجدها. لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله

وخسر نفسه؟ أو ماذا يعطي الإنسان فداءً عن نفسه؟» هل فعلاً تريد أن تستبدل نفسك الأبدية بمواقف سياسية أو استحسانات شخصية زمنية؟

الملحد: إن كانت المسيحية صحيحة، فهذه هي الخيارات المتاحة أمامي.

المسيحي: نعم. والله يريدك أن تختاره. ولكنه من محبته لك يحترم اختيارك أيًا كان. ولكن تَذَكَّر أن أي اختيار سيكون له عواقب هنا وفي الأبدية. وهذا ليس مجرد تفسيري أنا.

المراجع

المقدمة

1- *Carl Sagan, Cosmos (New York: Random House, 1980), 4.*

2- *From the audiotape "Exposing Naturalistic Presuppositions of Evolution," at Southern Evangelical Seminary's 1998 Apologetics Conference. Tape AC9814. Posted online at www.impactapologetics.com.*

3- *Quoted in Plato, Apology, section 38.*

4- *From Friedrich Nietzsche, The AntiChrist, section 47, quoted in Walter Kaufmann, The Portable Nietzsche (New York: Viking, 1968), 627.*

5- *Quoted in Os Guinness, Time for Truth (Grand Rapids, Mich.: Baker, 2000), 114.*

6- *C. S. Lewis, The Screwtape Letters (Westwood, N.J.: Barbour, 1961), 46.*

١. هل نستطيع التعامل مع الحق؟

1- *C. S. Lewis, The Abolition of Man (New York: Macmillan, 1947), 35.*

2- *Frank Morison, Who Moved the Stone? (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 1977).*

3- *Frank Turek and Norman Geisler, Legislating Morality (Eugene, Ore.: Wipf & Stock, 2003). Previously published by Bethany, 1998.*

٢. ما الذي يجعلنا نُصَدِّق أي شيء على الإطلاق؟

4- *See James Sire, "Why Should Anyone Believe Anything At All?" in D. A. Carson, ed., Telling the Truth (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 2000), 93-101. See also James Sire, Why Should Anyone Believe Anything At All (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1994).*

5- *David Hume, An Inquiry Concerning Human Understanding, xii, 3.*

6- *C. S. Lewis, "Learning in War-Time," in C. S. Lewis, The Weight of Glory and Other Addresses (Grand Rapids, Mich.: Eerdmans, 1965), 50.*

7- *Frank Turek and Norman Geisler, Legislating Morality (Eugene, Ore.: Wipf & Stock, 2003). Previously published by Bethany, 1998.*

٣. في البدء كان انفجار كبير

8- *Quoted in Hugh Ross, The Creator and the Cosmos (Colorado Springs: NavPress, 1995), 57.*

9- *Quoted in Fred Heeren, Show Me God (Wheeling, Ill.: Daystar, 2000), 135.*

10- *Francis Bacon, The New Organon (1620; reprint, Indianapolis: Bobbs Merrill, 1960), 121.*

11- *David Hume, in J. Y. T. Greig, ed., The Letters of David Hume, 2 vols. (New York: Garland, 1983), 1:187.*

12- *Robert Jastrow, God and the Astronomers (New York: Norton, 1978), 48.*

13- *Quoted in Paul Davies, The Cosmic Blueprint (New York: Simon & Shuster, 1988), 20, emphasis added.*

١٤-المناظرة بالكامل متاحة على *www.rzim.com*

15- *Isaac Asimov, Beginning and End (New York: Doubleday, 1977), 148.*

16- *Anthony Kenny, The Five Ways: St. Thomas Aquinas' Proofs of God's Existence (New York: Schocken, 1969), 66.*

17- *Jastrow, God and the Astronomers, 15-16.*

18- *See Fred Heeren, Show Me God, 163-168; and Ross, Creator and the Cosmos, 19.*

19- *Heeren, Show Me God, 168.*

20- *See Michael D. Lemonick, "Echoes of the Big Bang," Time, May 4, 1992, 62.*

21- *Jastrow, God and the Astronomers, 11.*

22- *Ibid., 14.*

23- *"A Scientist Caught Between Two Faiths: Interview with Robert Jastrow," Christianity Today, August 6, 1982, emphasis added.*

24- *Arthur Eddington, The Expanding Universe (New York: Macmillan, 1933178.),*

25- *Quoted in Heeren, Show Me God, 156.*

26- *Quoted in ibid., 157.*

27- *Quoted in ibid.*

28- *Quoted in ibid., 139.*

٢٩- لسرد مفصَّل، وتفنيد، لكل ما قدَّمه الملحدون لتفسير بداية الكون؛ انظر مقالة وليم لين كريج "السؤال النهائي للأصول: الله وبداية الكون *The Ultimate Question of Origins: God and the Beginning of the Universe,"* على الرابط *http://www.leaderu.com/offices/billcraig/docs/ultimatequestion.html;* انظر أيضًا *Norman Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1999), 102-106.*

30- *See Jastrow, God and the Astronomers, 125.*

31- See "'Baby Pic' Shows Cosmos 13 Billion Years Ago," CNN.com, February 11, 2003, at http://www.cnn.com/2003/TECH/space/02/11/cosmic.portrait/.

32- See Kathy Sawyer, "Cosmic Driving Force? Scientists' Work on 'Dark Energy' Mystery Could Yield a New View of the Universe," Washington Post, February 19, 2000, A1.

33- Stephen W. Hawking, A Brief History of Time (New York: Bantam, 1988), 136-139; see also Norman Geisler and Peter Bocchino, Unshakable Foundations (Minneapolis: Bethany, 2001), 107-110.

34- Quoted in Norman Geisler and Paul Hoffman, eds., Why I Am a Christian: Leading Thinkers Explain Why They Believe (Grand Rapids, Mich.: Baker, 2001), 66.

35- Jastrow, God and the Astronomers, 16 (emphasis ours).

36- Ibid., 28.

37- Ibid., 113-114.

38- V. J. Stenger, "The Face of Chaos," Free Inquiry 13 (Winter 1992–1993): 13.

39- See Cliff Walker, "An Interview with Particle Physicist Victor J. Stenger," at http://www.positiveatheism.com/crt/stenger1.htm. Interview date, November 6, 1999.

40- See "'Baby Pic' Shows Cosmos 13 Billion Years Ago."

41- George Will, "The Gospel from Science," Newsweek, November 8, 1998.

42- Albert Einstein, in Science, Philosophy, and Religion: A Symposium (New York: The Conference on Science, Philosophy and Religion in Their Relation to the Democratic Way of Life, 1941). Posted online at http://www.sacred-texts.com/aor/einstein/einsci.htm. Accessed October 15, 2003.

43- Jastrow, God and the Astronomers, 116.

٤. التصميم الإلهي

44- Isaac Newton, "General Scholium," in Mathematical Principles of Natural Philosophy (1687) in Great Books of the Western World, Robert M. Hutchins, ed. (Chicago: Encyclopedia Britannica, n.d.), 369.

45- Personal correspondence with Jeffrey A. Zweerink, research physicist, UCLA, October 23, 2003.

٤٦- للنص الكامل ولمزيد من المعلومات عن الحادث انظر تقرير مراجعي أبوللو١٣ على موقع ناسا
http://spacelink. msfc.nasa.gov/NASA.Projects/Human.Exploration.and.Development. of.Space/Human.Space.Flight/Apollo.Missions/Apollo.Lunar/Apollo.13.Review.Board.Report /Apollo.13.Review.Board.Report.txt; see also http://solarviews.com/eng/apo13.htm#bang.
لنص المهمة مع ملاحظات توضيحية أنظر *http://209.145.176.7/~090/awh/as13.html*

٤٧- لمزيد من الثوابت أنظر *Hugh Ross, "Why I Believe in Divine Creation," in Norman Geisler and Paul Hoffman, eds., Why I Am a Christian: Leading Thinkers Explain Why They*

Believe (Grand Rapids, Mich.: Baker, 2001), chapter 8. المزيد من هذه الثوابت يُكتشف باستمرار بوفرة حتى أن "روس" يعتزم أن يحدث هذه القائمة كل ثلاثة شهور. تفحص موقعه www.reasons.org.

وعن لماذا تندر الحياة الحيوانية في الكون، انظر: Peter Ward and Donald Brownlee, Rare Earth: Why Complex Life Is Uncommon in the Universe (New York: Copernicus, 2000).

48- Hugh Ross, "Why I Believe in Divine Creation," 138-141.

49- Quoted in Walter Bradley, "The 'Just-so' Universe: The Fine-Tuning of Constants and Conditions in the Cosmos," in William Dembski and James Kushiner, eds., Signs of Intelligence (Grand Rapids, Mich.: Baker, 2001), 168.

50- Quoted in Geisler and Hoffman, eds., Why I Am a Christian, 142.

51- Fred Hoyle, "The Universe: Past and Present Reflections," Engineering and Science (November 1981): 12.

٥٢- للملاحظات الكاملة للرئيس، انظر http://www.whitehouse.gov/news /releases/2003/02/20030201-2.html.

53- See http://www.whitehouse.gov/news/releases/2003/02/20030201-2.html.

54- C. S. Lewis, The Screwtape Letters (Westwood, N.J.: Barbour, 1961), 14.

55- Quoted in Fred Heeren, Show Me God, vol. 1 (Wheeling, Ill.: Daystar, 2000), 239.

56- Dennis Overbye, "Zillions of Universes? Or Did Ours Get Lucky?" The New York Times, October 28, 2003, F1.

٥. الحياة الأولى: قوانين طبيعية أم عجائب إلهية؟

57- Richard Dawkins, The Blind Watchmaker (New York: Norton, 1987), 17- 18, 116.

٥٨- لمناقشة التطوريين حول العديد من المعضلات المتعلقة باقتراح أن الحياة هي ناتج للقوانين الطبيعية، انظر Peter Ward and Donald Brownlee, Rare Earth (New York: Copernicus, 2000), chapter 4.

٥٩- للمزيد عن المشكلات في تجربة يوري-ميلر وتسعة أدلة أخرى فاقدة المصداقية على التطور، انظر Jonathan Wells, Icons of Evolution: Science or Myth? Why Much of What We Teach About Evolution Is Wrong (Washington, D.C.: Regnery, 2000).

60- Dawkins, Blind Watchmaker, 1.

61- Quoted in Phillip E. Johnson, The Wedge of Truth (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 2000), 153.

62- Ibid.

63- Klaus Dose, "The Origin of Life: More Questions than Answers," Interdisciplinary Science Review 13 (1998): 348; quoted in Lee Strobel, The Case for Faith (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 2000), 107.

64- Quoted in Strobel, Case for Faith, 107.

65- Chandra Wickramasinghe, interview by Robert Roy Britt, October 27, 2000. Posted online

at http://www.space.com/searchforlife/chandra_side-bar_001027.html (emphasis added).

66- Michael Denton, Evolution: A Theory in Crisis (Bethesda, Md.: Adler & Adler, 1985), 264.

67- Hubert Yockey, Information Theory and Molecular Biology (Cambridge, New York: Cambridge University Press, 1992), 284, emphasis added.

68- Phillip E. Johnson, "The Unraveling of Scientific Materialism," First Things (November 1997): 22-25.

69- E-mail sent on July 10, 2001. The entire exchange that week can be read at http://www.arn.org/docs/pjweekly/pj_weekly_010813.htm.

70- Richard Lewontin, "Billions and Billions of Demons," The New York Review of Books, January 9, 1997, 31.

71- See Strobel, Case for Faith, 99-101.

٧٢-المناظرة بالكامل مسجلة على شريط فيديو، ويمكن مشاهدتها مباشرة من الرابط:
http://www.leaderu.com/offices/billcraig/docs/craig-atkins.html.

73- J. Budziszewski, Written on the Heart: The Case for Natural Law (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1997), 54.

74- See Norman L. Geisler and Peter Bocchino, Unshakable Foundations (Minneapolis: Bethany, 2001). Anecdote from a personal conversation with Peter Bocchino, April 3, 2003.

75- Mortimer Adler, Haves Without Have-Nots (New York: Macmillan, 1991).

76- William Dembski, The Design Revolution: Answering the Toughest Questions About Intelligent Design (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, forthcoming).

77- Albert Einstein, in a letter to Max Born, December 4, 1926, quoted in Elizabeth Knowles, ed., The Oxford Dictionary of Quotations (Oxford: Oxford University Press, 1999), 290.

78- Quoted in William Dembski and James Kushiner, eds., Signs of Intelligence (Grand Rapids, Mich.: Baker, 2001), 102.

٦. من الخلية إلى الإنسان مرورًا بالحيوان؟

79- Carl Sagan, Cosmos (New York, Random House, 1980), 278.

80- Phillip E. Johnson, Darwin on Trial (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1993), 27.

81- Jonathan Wells, Icons of Evolution: Science or Myth? Why Much of What We Teach About Evolution Is Wrong (Washington, D.C.: Regnery, 2000), 178.

82- See Norman L. Geisler and Peter Bocchino, Unshakable Foundations (Minneapolis: Bethany, 2001), 149-150; see also Jonathan Wells, Icons of Evolution, chapter 9, 211; and Lane P. Lester and Raymond G. Bohlin, The Natural Limits of Biological Change (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 1984), 88-89.

٨٣-للمزيد عن عصافير داروين، انظر *Wells, Icons of Evolution, 159-175.*

84- Charles Darwin, On the Origin of Species (New York: Penguin, 1958), 171.

85- Michael Behe, Darwin's Black Box: The Biochemical Challenge to Evolution (New

York: Touchstone, 1996), 39.

86- Ariel Roth, Origins (Hagerstown, Md.: Herald, 1998), 66.

87- Michael Behe, "Intelligent Design Theory as a Tool for Analyzing Biochemical Systems," in William Dembski, ed., Mere Creation: Science, Faith, and Intelligent Design (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1998), 183, emphasis added.

88- Michael Behe, "A Mousetrap Defended," 2000, http://www.trueorigin.org/behe05.asp.

89- Behe, Darwin's Black Box, 232-233.

90- E-mail sent to Phillip Johnson on July 10, 2001. The entire exchange that week can be read at http://www.arn.org/docs/pjweekly/pj_weekly_010813.htm.

91- See "Riken Finds Bigger Gap in Chimp, Human Genes," Japan Times, July 12, 2003. Posted online at http://www.japantimes.co.jp/cgi-bin/getarticle.pl5?nn20030712b6.htm. Accessed October 17, 2003.

92- See "Riken Finds Bigger Gap in Chimp, Human Genes," Japan Times, July 12, 2003. Posted online at http://www.japantimes.co.jp/cgi-bin/getarticle.pl5?nn20030712b6.htm. Accessed October 17, 2003.

93- Mouse Genome Sequencing Consortium, "Initial Sequencing and Comparative Analysis of the Mouse Genome," Nature 420 (December 5, 2002): 520-562.

94- Michael Denton, Evolution: A Theory in Crisis (Bethesda, Md.: Adler & Adler, 1985), 285.

95- Darwin, On the Origin of Species, 280.

٩٦- *Stephen J. Gould, "Evolution's Erratic Pace," Natural History 86 (1977): 13-14.*
مؤخَّرًا أكد روبرت كارول *Robert B. Carroll* أمين حفريات الفقاريات في متحف ريدباث *Redpath*
تقييم جولد عندما كتب "المفقود هو الصور المتوسطة التي افترضها داروين" *("Towards a New Evolutionary Synthesis," Trends in Ecology and Evolution 15 [2000]: 27-32).*

97- Wells, Icons of Evolution, 37.

98- Ibid., 42.

99- Denton, Evolution: A Theory in Crisis, 286.

100- Wells, Icons of Evolution, 219.

101- See Norman Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1999), 489; see also Wells, Icons of Evolution, 209-228.

102- Quoted in Wells, Icons of Evolution, 221.

103- Michael Behe, Darwin's Black Box, 22.

١٠٤- لدفاع شامل عن التصميم الذكي، انظر *William Dembski, The Design Revolution: Answering the Toughest Questions About Intelligent Design (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 2004).*

105- William Dembski, Intelligent Design: The Bridge Between Science and Theology (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1999), 244

106- Walter Bradley, interview by Lee Strobel, The Case for Faith (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 2000), 108.

107- Behe, Darwin's Black Box, 193.

108- Originally from a 1989 New York Times book review. Posted online at http://members.tripod.com/doggo/doggdawkins.html. Accessed May 15, 2003.

109- Richard Lewontin, "Billions and Billions of Demons," The New York Review of Books, January 9, 1997, 150.

110- Robert Jastrow, God and the Astronomers (New York: Norton, 1978), 114.

111- Fyodor Dostoevsky, The Brothers Karamazov (New York: Norton, 1976), 72.

112- Quoted in D. James Kennedy, Skeptics Answered (Sisters, Ore.: Multnomah, 1997), 154.

113- Strobel, Case for Faith, 91.

114- From the audiotape "Reaching Evolutionists," at Southern Evangelical Seminary's 2001 Apologetics Conference. Tape AC0108. Posted online at www.impactapologetics.com.

115- Wells, Icons of Evolution, 230.

116- Norman Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1999); Norman Geisler, Systematic Theology, vol. 2 (Minneapolis: Bethany, 2003).

٧. الأم تريزا مقابل هتلر

117- J. Budziszewski, Written on the Heart: The Case for Natural Law (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1997), 208-209.

118- C. S. Lewis, Mere Christianity (New York: Macmillan, 1952), 19.

119- See J. Budziszewski, What We Can't Not Know (Dallas: Spence, 2003), 39.

120- See ibid.

121- Joseph Fletcher, Situation Ethics: The New Morality (Philadelphia: Westminster, 1966), 43-44.

122- Lewis, Mere Christianity, 45.

123- Ibid., 25.

١٢٤- لنسخة من المناظرة، أنظر

http://www.renewamerica.us/archives/speeches/00_09_27debate.htm. Accessed May 20, 2003.

125- See Lewis, Mere Christianity, 26.

١٢٦- شكرًا لصديقنا فرانسيس بيكويز *Francis Beckwith* لهذا المثال. انظر كتابه *Relativism: Feet Firmly Planted in Mid-Air, coauthored with Greg Koukl (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1998), for an outstanding critique of relativism.*

127- Budziszewski, What We Can't Not Know, 114

١٢٨- لمناقشة كاملة عن الرد على الاختلافات حول المطلقات الأخلاقية، انظر Norman Geisler's, Christian Ethics: Options and Issues (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1989), particularly chapter 7.

129- Frank Turek and Norman Geisler, Legislating Morality (Eugene, Ore.: Wipf & Stock, 2003). Previously published by Bethany, 1998.

130- Edward O. Wilson, "The Biological Basis of Morality," The Atlantic Monthly, April 1998. Posted online at http://www.theatlantic.com/issues/ 98apr/biomoral.htm. Accessed May 13, 2003.

131- Lewis, Mere Christianity, 22.

132- Adolf Hitler, Mein Kampf, 4th printing (London: Hurst & Blackett, 1939), 239-240, 242.

133- Peter Singer, Practical Ethics, 1st ed. (Cambridge: Cambridge University Press, 1979), 122-123; quoted in Scott Klusendorf, "Death with a Happy Face: Peter Singer's Bold Defense of Infanticide," Christian Research Journal 23, no. 1 (2001): 25. See also Helga Kuhse and Peter Singer, Should the Baby Live? (Brookfield, Vt.: Ashgate, 1994), 194-197.

134- James Rachels, Created from Animals: The Moral Implications of Darwinism (New York: Oxford University Press, 1990), 186.

135- Randy Thornhill and Craig Palmer, A Natural History of Rape: Biological Bases of Sexual Coercion (Cambridge, Mass.: MIT Press, 2001).

136- Quoted in Nancy Pearcey, "Darwin's Dirty Secret," World magazine, March 25, 2000.

137- Lewis, Mere Christianity, 21.

٨. المعجزات: علامات تشير لله أم سذاجة؟

138- See Francis Beckwith, Norman Geisler, Ron Rhodes, Phil Roberts, Jerald Tanner, and Sandra Tanner, The Counterfeit Gospel of Mormonism (Eugene, Ore.: Harvest, 1998), chapter 2.

139- C. S. Lewis, The Screwtape Letters (Westwood, N.J.: Barbour, 1961), 46.

140- Antony Flew, "Miracles," in The Encyclopedia of Philosophy, Paul Edwards, ed., vol. 5 (New York: Macmillan and the Free Press, 1967), 346.

141- From the audiotape "Worldviews In Conflict," at Southern Evangelical Seminary's 2002 Apologetics Conference. Tape AC0213. Posted online at at www.impactapologetics.com.

142- C. S. Lewis, Miracles (New York: Macmillan, 1947), 106.

143- Posted online at http://hcs.harvard.edu/~gsascf/shield.html. Accessed June 1, 2003. Recently found at http://www.hcs.harvard.edu/~gsascf/shield-and-veritas-history/ (accessed Jan 2017 – Arabic Editor)

144- Lewis, Miracles, 105.

145- Revised under the new title Miracles and the Modern Mind (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1992).

١٤٦- لمناقشة تفصيلية، انظر Norman Geisler, Signs and Wonders (Wheaton, Ill.: Tyndale, 1988), chapter 8. See also Norman Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1999).

١٤٧- لمناقشة تفصيلية، انظر Geisler, Signs and Wonders, chapters 7 and 8. See the list on pages 107-108 (out of print).

١٤٨- للاستفاضة حول هذا الموضوع انظر المقالة التي منها أُخذ هذا الجدول "Miracles, False," in Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics, 471-475.

٩. هل عندنا شهادات مبكرة عن يسوع؟

149- Josephus, Antiquities, 20:9.1.

150- Gary Habermas and Michael Licona, The Case for the Resurrection of Jesus (Grand Rapids, Mich.: Kregel, forthcoming).

151- Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics, 531-537.

152- Ibid., 531-537, 547.

153- Quoted in David Estrada and William White, Jr., The First New Testament (Nashville: Nelson, 1978), 137.

154- See Williston Walker, Richard Norris, David Lotz, and Robert Handy, A History of the Christian Church, 4th ed. (New York: Scribner, 1985), 123-124.

١٥٥- لتفصيل هذه الاقتباسات انظر Norman Geisler and William Nix, General Introduction to the Bible (Chicago: Moody, 1986), 431.

١٥٦- لمزيد من المعلومات والمصادر انظر Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics, 532.

157- Philip Schaff, A Companion to the Greek Testament and the English Version, 3rd ed. (New York: Harper, 1883), 177.

١٥٨- لمزيد من المعلومات والمصادر انظر Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics, 532.

159- Fredric Kenyon, Our Bible and the Ancient Manuscripts, 4th ed., rev. A. W. Adams (New York: Harper, 1958), 23.

160- Paul Barnett, Is the New Testament Reliable? (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1986), 38-40.

161- See Barnett, Is the New Testament Reliable? 65.

فهرس الموضوعات

ب

ش

ص

ط

ع

عن الكاتبين

نورمان ل. جايسلر: يعرِّفونه على أنه كاتب، محاضر، متحدِّث، فيلسوف، مختصّ في الدفاعيات، كارز، ولاهوتي. كتب وشارك في كتابة أكثر من مئة كتاب، تُرجم منها إلى بضعة لغات، عدا مئات من المقالات. حاصل على مجموعة من الدرجات العلمية من عدة جامعات مرموقة من ضمنها الماچستير في اللاهوت من *Wheaton Graduate School* والدكتوراه في الفلسفة من *Loyola University* بشيكاجو. درَّس اللاهوت والفلسفة والدفاعيات على المستوى الجامعي والدراسات العليا، في عدة جامعات مشهورة، وكان عميدًا لعدد منها مثل الجامعة اللاهوتية الإنجيلية الجنوبية *Southern Evangelical Seminary* والتي ترأس إدارتها بعد ذلك حتى ٢٠٠٦. له مناظراته المشهورة مع الكثيرين في موضوعات الدفاعيات المختلفة في شتى أنحاء أمريكا بالإضافة لأكثر من عشرين دولة أخرى. مزيد من المعلومات تجدها في *normangeisler.com/about/.*

فرانك تورك: يحمل درجة الماچستير من جامعة چورچ واشنطن *George Washington University*، والدكتوراه من الجامعة اللاهوتية الإنجيلية الجنوبية *Southern Evangelical Seminary* في الدفاعيات المسيحية. كتب وشارك في كتابة ٤ كتب، وحصل مع نورمان جيسلر على جائزة *Evangelical Christian Publishers Association's Gold Medallion award* على كتابنا هذا. رئيس موقع *CrossExamined.org* وله برنامج تلفزيوني بعنوان "لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد"، وبرنامج إذاعي بعنوان *Cross Examined with Frank Turek*، كما يحل ضيفًا على العديد من البرامج التلفزيونية والإذاعية. كاتب عمود بعدة مواقع إخبارية. خدم كطيار في سلاح البحرية الأمريكي. متكلم معروف على مستوى المدارس الثانوية والجامعات في الدفاعيات. ناظر عدة ملحدين مشهورين. مزيد من المعلومات تجدها في *crossexamined.org/dr-frank-turek/.*

لزمن طويل، في ثقافتنا الشرق أوسطية، لم تكن الأغلبية تشعر بالحاجة للسؤال عن وجود الله؛ فقد كان من المسلَّمات التي يبدأ التفكير بعدها في باقي الأسئلة. بل إن البعض كانت مسلَّماتهم تكفيهم عن البحث في موضوع "الله؟" بجملته. لكننا اليوم نرى الحاجة المُلِحة للبحث في هذا الموضوع بأكثر تدقيق وإخلاص.

"لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد" هو أحد الكتب الجادة، المتميزة بشمولها، والسلسة في لغتها لتصل للجميع، يخوض ببراعة هذا الموضوع. فكاتباه من المختصين ولهما العديد من الكتب في هذا المجال، ينتهجون أسلوبًا علميًا منطقيًا في معالجة الأمر. بداية من إثبات أن هناك "حق" ينبغي البحث عنه، وعكسه هو الضلال. مرورًا بالحجة تلو الأخرى لإثبات أن وجود الله خالق الكون وحافظه ثابت بأدلة لا تترك مكانًا للشك فيه. وإذ يفنِّد، بالعلم الموثَّق وبالمنطق السليم، النظريات البديلة لوجود خالق، يترك الإلحاديين والتطوريين أمام ثغرات عليهم مواجهتها في نظرتهم، وقد علموا أنهم يحتاجون إيمانًا أكثر ليصدِّقوا ما يعتقدون فيه.

ثم يغوص الكاتبان صوب نظرة المسيحية عن الله، وقلب إيمانها. ليصل إلى من هو المسيح، كلمة الله المتجسد، وحجية الكتاب المقدس، كلمة الله المكتوبة.

كتاب سيضيف إليك الكثير، وسيغيِّر من نظرتك لأمور هامة.

قالوا عن الكتاب

"واضح، متكامل، شديد الإقناع والجاذبية. هذا المرجع الرائع يساعد كلاً من المسيحيين ومَن لا يزالون في رحلة البحث في فهم الأساس العقلاني للمسيحية. لو كان متاحًا عندما كنت ملحدًا، لوَفَّر الكثير من الوقت في مسيرتي الروحية نحو الله".

لي ستروبل (مؤلف كتاب "القضية المسيح" وكتاب "القضية الإيمان")

"هذا الكتاب الشيق السلس يَسوق الحجج والأدلة المؤيِّدة للمسيحية ببراعة فائقة بدءًا بمسألة الحق وانتهاءً بوحي الكتاب المقدس. والخلاصة: المسيحي يقف على تلال من الأدلة الراسخة، بينما المتشكك لا يتشبث إلا بإيمانه الأعمى المتصلب. فإن ظللتَ متشككًا بعد قراءة كتاب "لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد"، فإني أشك أنك تعيش حالة من الإنكار".

جوش ماكدول (متحدث ومؤلف كتاب "برهان جديد يتطلب قرارًا")

"جَمَعَ "جايسلر" و"توريك" مجموعة ضخمة من الأسئلة الشائكة، وكدأبهما دائمًا، أجابا عنها بمهارة وبصيرة ثاقبة. إن هذا العمل يمثِّل إضافة قيِّمة للكتابات المعاصرة في الدفاعيات المسيحية".

رافـي زكراياس (رئيس هيئة "خدمات رافي زكراياس الدولية")




ISBN 978-977-321-300-8